

كتاب الهدى



سلسلة
ثقافية
شهرية

في بلاد السندباد

فاروق خورشيد

عدد خاص



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ - سبعة خطوط -

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٨ - ذو القعدة ١٤٠٦ - أغسطس ١٩٨٦

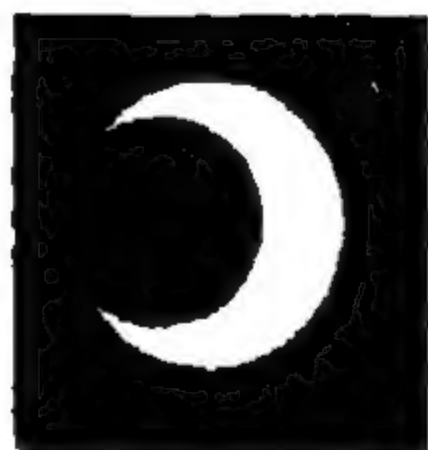
NO: 428- August 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ت.ج. م ع نقدا او بحواله بريديه غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب المسائل



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

**الغلاف بريشة الفنان :
بهجت عثمان**

**الرسوم الداخلية
بريشة الفنان : صلاح بيصار**

فقه بلاد السنندباد

بقلم
فخر ایوب خورشید

• دارالہلال •

قبل البدء

قال لي : لماذا !ف ليلة وليلة
قلت له : لاننا لم ندرسها بعد ، ولم نعرفها بعد .. ؟
قال لي : وكل هذه الدراسات التي قدمها المستشرقون
ومقالات جورجى زيدان والزيات وغيرهما ، ودراسة
الدكتورة سهير القلماوى وغيرها من أساتذة الجامعة
وظلابها ؟

قلت له : أنا لا أنكر كل هذا الجهد العظيم ، الذى
بذل بأكثر من لغة ، وفى أكثر من جامعة ، ومن أكثر من
دأرس ومتخصص .. ولكنها فى الحقيقة رؤية غربية
لعمل شرقى .. أو رؤية متعالية لعمل أدنى فى المستوى
من العطاء المعترف به فى مجال الادب والفن .. أما
أصحاب الدرس والنقد من علماء الغرب ومستشرقه ،
فهم حريصون على البحث عن الاصول الهندية والفارسية
بل واليونانية التى أثرت هنا أو هناك فى قصص ألف ليلة
وليلة ، فيسلبون الليالى انتماءها العربى ، وحققها فى
أن تمثل وجدان الشعب فى ظل الحضارة الاسلامية تمثيلا
يعكس أصالته ، ويبرز همومه وطموحاته ، ويؤكد دوره
فى خوض المعارك من أجل الوجود الحضارى للانسان
الانسان ..

وحين يفرقون فى هذا اغراقا يخرجهم عن الصديق
والعدل والحكمة ، لا يجد واحد منهم - كفون جرونيباوم
- أمامه الا أن يقول أنها تمثل الحضارة الاسلامية ، من

حيث هي استعارت العطاءات الفكرية والثقافية للشعوب القديمة وحملتها إلى الشعوب المتحضرة المعاصرة دون إضافة ودون جديد ، إلا إخراجها من قلبها النبيل القديم إلى هذا الرداء المشوش المهلهل المتدنى الذي هو سمة الحضارة الإسلامية ككل . . فهم بعد أن يمزقوا جسد هذا العمل الفني الكبير تمزيقا خبيثا يريدون أن ينسبوا كل قطعة منه إلى حضارة لا علاقة لها بالعرب أو بالإسلام ، يعودون ليمحوا كل هذه المزق ليسلبوا بها فكر العرب ومنهج الحضارة الإسلامية ، ليسلبوا العرب دورهم الحضارى ، ويسلبوا الحضارة الإسلامية عطاءها المبرر للإنسانية فى كل مجالات الفكر والثقافة والعلم والفن على السواء ، فإذا هى عندهم حضارة ناقلة تحمل عطاء الفكر من زمن إلى زمن دون إضافة بناء وعطاء فعال . .

أما أصحاب الفن فيهم - ممن ملأ قلبهم الأغراض وسوء القصد - لقد استغلوا ألف ليلة وليلة فى تشويه صورة الإنسان المسلم ، وتشويه ما أعطاه الإسلام من قيم وتعاليم وما حباه الله به من قدرات قفزت بالإنسانية كلها خطوات إلى الامام . . فلم يبرزوا - إبرازا متضخما - إلا صورة الجنس فى الليالى ، ولم يؤكسدوا إلا على صورة الحريم الذى يملأ القصور ، والأعلى العبيد والجوارى وليالى الغناء والشراب والجنس المبدول . . وليست هذه صورة الليالى وإن كان هذا موجودا فيها ، فهذا مظهر لجوهر عميق المعنى ، غزير الدلالة . . وقد لجئوا إلى هذه الصورة الشعبية كأداة اعلامية تستخدم الفن الشعبى فى بث بذرة التعالى عند انسان الغرب على انسان الشرق ، ولتشويه صورة العطاء الحضارى الذى قدمه الشرق المسلم ، بل ولا يراز الإسلام

نفسه في صورة مبتذلة تساعد أصحاب النظرة الصليبية في تثبيت معالم كراهية الدين والحضارة الاسلامية على السواء .. وهذه الصورة التي استغلت النسيج الشعبي لآلاف ليلة وليلة لتثبيت نفسها في اذهان العامة من اهل الغرب ، هي الصورة التي وقرت في اذهانهم عنا وعن ألف ليلة وليلة ، وهي صورة يراد بها خلق الهسوة النفسية بين شعوب الغرب وبيننا .. وهو نفس السلاح الذي شهرته طائفة أعداء الاسلام والمسلمين ، وأعداء الحضارة الاسلامية كلها ضد الرسالة والرسول نفسه ، فقد نقل الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » من الكاتب الفرنسي « اميل درمنجم » في كتابه « حياة محمد : ص ١٣٥ وما بعدها » قوله : « من البيزنطيين من أوقروا الاسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة دراسته ، ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمي الاندلس الا بأسخف المثالب - فقد زعموا أن محمدا لص نياق ، وزعموه متهاككا على اللهو ، وزعموه ساحرا ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق ، بل زعموه قسا رومانيا مغيظا محنقا أن لم ينتخب لكرسي البابوية .. وحسبه بعضهم الها زائفا يقرب له عبادة الضحايا البشرية ، ويقول عن واحد آخر من الكتاب المتعصبين : انه « يذكر أن محمدا مات في نوبة مسكر بين ، وأن جسده وجد ملقيا على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك يفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان ، وذهبت الأغنيات الى حد أن جعلت محمدا صنما من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية برابي ملأى بالتمائيل والصور » .

هذه الصورة هي التي ملأت الاغاني الشعبية التي سادت أوروبا في هذه الحقبة وفي العصور الوسطى

كاغنية انطاكية واغنية رولان ، وغيرها من الاعمال
الشعبية شديدة التعصب ، والتي استخدمت كأداة لايفار
صدور العامة والبسطاء ضد الاسلام والنبي والحضارة
الاسلامية بعامة . وبنفس الطريقة تستخدم أفلام السينما
والتلفزيون قوتها التأثيرية في رسم صورة العربى هذه
الايام بطريقة مشوهة ومنفرة ، فهو يلبس دائما نظارة
سوداء ويبذر الملايين ويكذب ويسرق ويفتصب الفتيات
ويقتنى العبيد . انه الوجه القبيح دائما من كل شىء
عربى واسلامى ذلك الذى يحرصون على ابرازه وتصويره .
دون النظر الى الوجوه الأخرى ، أو الجوانب المضيئة
والمشرقة ، وبهذا ظلّموا ألف ليلة وليلة في ابداعهم كما
ظلّموا في دراساتهم . وانتقلت اليّنا هذه الصُّورة
المشوهة فوقرت في أعماقنا دون أن نحاول البحث في
أمرها ، واكتشاف حقيقتها .

قال لى : وماذا عما أطلقت عليه « الرؤية المتعالية
لعمل أدنى في المستوى من العطاء المعترف به في مجال
الادب والفن » ؟ ..

قلت : هذه رؤية أصحاب الادب والفن من رواد
الحركة الادبية عندنا ، فعلى الرغم من أنهم جميعا قرءوا
ألف ليلة وليلة إلا أنهم صنّفوها الى جوار الحبراديت
وحكايات المعجّات ، وهم يرون هذه الاعمال بعيدا عن
منظور الادب والفن ، فلم تكن الدعوة الى دراسة ادبنا
الشعبى قد نضجت بعد ، ولم تكن القلوب والعقول قد
تفتحت على أهمية دراسته واستيحائه في فننا . فظلّموا
ألف ليلة وأحجموا عن تقديمها الى القراء والدارسين
تقدّما صحيحا وصحيا . .

قال : ليكن الدرس هذا العام اذن عن ألف ليلة
وليلة ..



وبهذا الحوار مع الصديق الدكتور أحمد مرسى عميد
المعهد العالى للفنون الشعبية باكاديمية الفنون بالقاهرة
بدأت رحلتى الشاقة والطريفة مع ألف ليلة وليلة ،
وهي رحلة استمرت طوال عام دراسى مع مجموعة من
طلبة الدراسات العليا الجادين والمتطلعين .. وكانت
الدراسة قاسما مشتركا بيننا بحيث غدونا وحدة عمل
نشطة تستكشف الجوانب الفولكلورية والادبية واللغوية
والتاريخية للنص الذى رصدنا أنفسنا لقراءته ..
اقول : بدأت الرحلة واستمرت عاما دراسيا كاملا ،
ولكنها بالنسبة لى لم تنته عند هذا الحد الزمنى ، وما اظن
انها ستنتهى فى القريب من الزمن . فقد بدأت مأساة
تقديم ألف ليلة وليلة الى المحاكمة الجنائية باعتبارها
عملا منافيا للاداب العامة ، وباعتبار ناشرها مروجاً
لمواد يحظرها القانون . وصدر حكم المحكمة بالفعل
بمصادرة الطبعة المصرية من الليالى ، وماجت الحياة
الادبية بتيارات مختلفة حول موضوع محاكمة ألف ليلة
وليلة . فمعظم الشعراء والفنانين وكبار الكتاب اظهروا
معارضتهم لهذا الامر الذى يعرض نصا شعبيا للضباع ،
ويترك وجوده لرياح التغيير تطمس معالمه الرئيسية ،
وتقضى على ما يحل من عطر التراث ، واصالة الفن
القصصى الشعبى العربى الاسلامى المتوارث ، وآخرون
ممن استفزتهم كلمات الجنس الصريح فى الليالى وممن
وقرت فى نفوسهم مقولات الغرب عن الحريم وليسالى
هارون الرشيد ، تحمسوا تمام التحمس لاقوال النيابة
ومنطوق الحكم .. ثم اسقطوا على ألف ليلة وليلة كل
ما فى العصر من مظاهر الانحلال الخلقى ، والخروج على
القيم والدين . وظنوا ان حملتهم على ألف ليلة وليلة
يمكن ان تكون حملة على كل معانى الخروج على القيم

المتوارثة . والمعاني الاخلاقية الصارمة في التزامها بالحرفية المتعصبة في مقابل التحلل الواضح في بنية المجتمع الذي يعيشون فيه ، وفي قيمه واخلاقه .. وتابعت هذه الأساة وتتبعها .. وأحسست أن ألف ليلة وليلة كانت « شماعة » تعلق عليها أخطاء فئة منحرفة من المجتمع ، وأنها مجرد رمز يهاجم في عنف حين يصبح أصحاب الفعل أنفسهم في منجاة من العقاب والهجوم الواضح .. وأحسست أيضا أنها كانت كبش فداء صالح لكل من يريد أن يبريء نفسه من جريمة الاشتراك بشكل أو بآخر ، فيما حدث للمجتمع من تفكك وانحلال ، ولما يسوده من مظاهر الخسروج على القيم والدين .. وأحسست أيضا أن ما حدث لآل ألف ليلة كان ناجما عن جهلنا الكلي بها ، وعن سيادة مجموعة المقولات المغلوطة ، هي تلك التي سردناها في صدر الحديث في وعي الناس بعامة والمثقفين بخاصة . وكان لابد من محاولة لرفع هذا القبن عن واحدة من درر تراثنا العربي بعامة ، والشعبي بخاصة ..

لقد ألهمت ألف ليلة وليلة خيال الشعراء والموسيقيين والقصاصين والدارسين منذ القرن الثامن عشر في أوروبا حتى الآن .. أما أن لها أن تلهب خيال أبنائها من أصحاب الفن في قرنهم العشرين ؟

سؤال حائر ودائم ومستفحل . ولم يكن أمامي إلا أن أقدم محاولات المتواضعة في « المصور » لأضع أيدي الدارسين والقراء على المفاتيح التي يمكن أن يدخلوا بها إلى عالم الليالي الرحب . ومن هنا كانت سلسلة من المقالات عن الليالي والناس . وفي خلال هذه القراءة واثناءها وضح أمامي تماما أن ما تجهله عن الليالي أكثر كثيرا مما نعرفه ، وأن الليالي لم تبح بسرها الفني الكامل

رغم كل الدراسات والأبحاث التي تعقبت قصص الليالي للوصول الى مصادر الحكايات وأصولها الأسطورية والشعبية ، والبقايا الحضارية التي ترسبت من الحضارات القديمة كلها ..

وفي خلال هذه القراءة واثناءها أيضا وضح أن الليالي لن تتضح صورتها تماما الا من خلال قراءات مقارنة للسير الشعبية العربية الأخرى ، وكذلك من خلال الحصيلة المتداولة من الحكايات الشعبية التي تملأ كتب الأخبار والتاريخ ، وكتب المجمعات الأدبية مع الارتباط الكامل بالحس العربي الشعبي المشترك الذي لا تزال بقايا عطرة منه موجودة في أحيائنا الشعبية وبيئاتنا المحافظة على تقاليدها وعاداتها القديمة .

ولاشك أن حصيلة العمر في قراءة ودراسة السـير الشعبية العربية والأدب الشعبي العربي والمسـوروث الفولكلوري العربي بعامة قد عبثت الطريق أمامي في هذه القراءة ، ولاشك أيضا أن ارتباطي منذ الصبا الباكر بالأحياء الشعبية وحياتها العريقة في القاهرة قد ساعدتني على فهم الكثير من الأحداث والشخصيات . وكذلك أضافت زياراتي العديدة لبغداد ودمشق والقدس ومكة والمدينة وصنعاء والكويت ، أدوات هامة من أدوات الفهم لمعنى وحدة الانسبان العربي وخاصة في الأحياء الشعبية في العواطف والسلوك وفي الأمانى والآلام معا ، مما قرب صورته التي تعكسها الليالي وتحاول أن تصورها تصويرا فنيا راقيا ..

وإذا كان الإنسان داخل المدينة لم يعد لغزا أمامي بفضل كل هذه الأدوات ، وبفضل الممارسة الإبداعية القصصية ، والممارسة النقدية الأدبية الطويلة ، إلا أنني كنت أحس دائما أن هناك منطقة في الليالي لا أستطيع

أن أضع يدي على نبضها الصحيح ، وتلك هي المنطقة التي تشغل حيزا ضخما من الليالي ، وأعنى بها عالم البحار . . فالبحر يلعب دورا هاما في كل أنحاء الليالي . اذ نحن أمام مجتمع التجار ، وما يرتبط بهذا المجتمع من عادات وتقاليد ، ولعل أهم معالم هذا المجتمع رحلات التجارة ، ودنيا السفن ومغامرات خوض البحار بحثا عن السلع الرائجة ، وترويجا للسلع المحلية . ومن هنا سيطر البحر ومغامراته على العديد من قصص الليالي ، كما انفرد وحده بأكثر من حكاية وأكثر من شخصية ، وقفزت أساطير البحر تملأ الليالي بحكايات البحارة ومغامراتهم ، وحكايات البحار المجهولة ، والجزر البعيدة والمراكب التي تنتقل من مجهول الى مجهول متعرضة للمهالك والاعطال .

ولاشك أن وجود المنطقة العربية في مصب الطرق من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الشمال أي بين أوروبا والشرق الأقصى . وكذلك وجودها في مصب الطرق حيث تلتقي عندها تجارات آسيا وأفريقيا وأوروبا جميعا ، لاشك أن هذا الموقع الفريد بين بحار العالم ، حمل الى الحصيلة الشعبية العربية زادا متشابكا من حكايات البحر وأساطيره من كل الشعوب المشتغلة بالتجارة ومن كل الأمم التي حاولت خوض البحر ، ومن كل البحارة من مختلف الجنسيات . . ومن ثم حفلت الحصيلة الشعبية بمجموعة ضخمة من قصص البحار التي يعمل فيها الموروث المشترك لعالم البحر في العالم كله ، كما يعمل فيها أيضا ما استقر في الأذهان من معلومات صحيحة هي نتيجة التجريب والتعليم المتوارثين . نزوجة كلها بما خلقه الخيال من خرافات وحكايات مؤلفة عن البحر ودنياه ، وعن جزر البحر وعجائبها ،

ومن الدنيا البعيدة التي يصل البحر بينها وبين العالم العربي بأواصر الثقافة والتجارة ، تربطهما معا الذاكرة الشعبية والمخيلة الشعبية النشطة دائما ..

وقد كان أمام إقصاء الشعبي في ألف ليلة وليسلة مجموعة ضخمة من مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب كالادريسي والمسعودي وابن خرداذبة وابن ماجد وابن بطوطة ، بالإضافة الى كتاب عجائب الهند مؤلفه بزرج ابن شهريار الذي احتوى من الحكايات ما يكاد يطابق حكايات البحر في الليالي ، وكأنه أحد مصادر المؤلف الشعبي الرئيسية ، كما كان أمام إقصاء حصيلة من المترجمات التي نقلت الى العربية من كتب الاسسمار والرحلات ، وقد خصها ابن النديم في فهرسه بالذكر والمناقشة ، مما يجعل حصيلة إقصاء تتسع لتشمل تجارب وذكريات ومدونات المؤلفين من الصين والهند وفارس والروم ، الى جوار حصيلته من التجارب والمدونات العربية .

والواقع ان هناك مقولة خادعة ابعدتنا كثيرا عن الاهتمام بالتراث البحري العربي في شكله الرسمي ، وشكله الشعبي على السواء ، تلك التي تقول ان العرب اهل صحراء ، وأنهم قهروا الصحراء بالجمال ، وقاموا بالرحلات الدائمة من شمال الجزيرة العربية الى جنوبها في رحلتى الشتاء والصيف ، فاهتمنا بعالم الصحراء وركزنا في جهودنا لفهم الشخصية العربية على حياة الصحراء وما تتركه من آثار اجتماعية وسلوكية وثقافية في نفسية ومكونات الانسان العربي . ونسينا تماما ان رحلتى الشتاء والصيف تنقلان السلع والتجارات بين الشام واليمن . أو بين الساحل الشمالى المطل على البحر الابيض ، والساحل الجنوبي المطل على المحيط ، ثم

ثم ماذا . . ؟ لم تكن الشام ولا الجنوب العربى هما هدفا
الرحلتين ، وانما كانتا مجرد نقطة انتقال عبر المحيط
الى أوروبا فى الشمال ، والى الصين والهند فى الجنوب
حتى تكتمل الدائرة ، وتحقق اهداف رحلات الصحراء
هذه . . .

ومن قديم جدا قهر العرب البحر كما قهروا الصحراء
وخرجوا على سفنهم يربطون أجزاء الانسانية بعضها ببعض
ويصلون الشرق بالغرب ، ويحققون للعالم ماكان يريد
فى مطالع وجوده الحضارى من تعاقد وتعارف ، وتبادل
لخيرات الارض وتبادل للخبرات والتجارب والمعرفة
والثقافة . وتكشف ألف ليلة وليلة فى عالمها الطريف
الملىء بدنيا متمازجة ومتفاعلة من الخبرات والثقافات
من دور فنائها ومبدعها فى خلق الرؤية العالمية لمعنى
الانسان الانسان ، ابن العالم اجمع ، ووارث العالم
اجمع . الانسان من اقصى الصين الى اقصى بلاد بحر
البلطيق ، يدافع عن قضايا الحضارة وعن معنى الحرية ،
ويحقق معنى الاخوة الانسانية فى صدقها الفنى
بالتقائى . واستطاعت ألف ليلة وليلة بما قدمته من
مغامرات البحر ان تعبر عن الشوق الانسانى فى التواصل
والتعاون والالتقاء . .

ومنذ الصفحات الاولى فى ألف ليلة وليلة ظل البحر
يسيطر على حكاياتها ، فعندما يقف شهريار وشاه زمان
امام شاطئ البحر يظهر عمود طويل ضخم من الدخان
يتقدم نحو الشاطئ بسرعة ، ويهرب الملكان الى اغصان
شجرة ، ليتحول العمود عندما يصل الى الشاطئ الى
مارد جبار يحمل فتاة داخل صندوق . فعالم الغموض
الذى هو عالم الجن والشياطين يرتبط منذ اللحظة الاولى
بالبحر ومافيه من مجهول ، وماهو رمز له من الاتساع

والغموض والخطر . وعلى طول الليالى ستظهر قماقم
الجن من البحر . تلك القماقم التى حبس فيها سيدنا
سليمان الجن العاصين ، وختم عليها بخاتمه ، ورماها
فى البحر لتظل هناك حبيسة الى آخر الدهر . . وسماك
البحر فى ألف ليلة وليلة يتحول - وهو يطهى فى الزيت
المغلى - الى كائنات حية آدمية الشكل تشق الجدار وتخرج
منه . والساحر يستعين بالماء يرشه من طاسة على ضحيته
لبحوله من صورة الى صورة ، والعاشقة الخائنة تسحر
زوجها حجرا ، وتسحر مدينته كلها بحيرة ، وتسحر
الناس فيها الى أسماك . وعروس البحر تغرى حبيبها
ان يعيش معها فى عالم كامل تحت سطح البحر ، وهى
حين تكمله بكحل سحرى يستطيع ان يعيش كالأسماك ،
فى عالم البحر السحرى ومدنه الكاملة والمليئة بالناس
والملوك والجنود والحب والزواج والتآمر والسعادة والاله
والامل . والحيتان تمكث ساكنة على السطح حتى
لبشمو على جلدها الزرع وتنبث الأشجار ، فاذا ما أوقد
البخارة النار تحركت من مكانها وغاصت فى البحر
ليغرق من عليها من البخارة . والحيتان تضرب السفن
بذيولها فتغرق ، أو هى تبتلع السفن ومن فيها . . وفى
البحار جزر موحشة يسكنها آكلو لحم البشر والقبilan ،
كما تنمو عليها أشجار ثمر النساء ، وأشجار تبتلع
الناس ، وأشجار تسمن ثمراتها الرجال وتخدوهم حتى
ليتحولوا الى سوائم تسير على أربع ، وفى هذه الجزر
سكان متوحدون يركبون الناجين من السفن ويسخرونهم
فى أعمالهم كأنهم البغال أو الحمير . .
وفى البلاد البعيدة التى تقود اليها البحار قسرود
تتكلم وتفهم ، وصحرة وكهنة يدفنون الزوج الارمل حية
الى جوار زوجته الميتة . وبلاد لا يعيش فيها الا النساء .

وجزير يظير الرجال فيها في مواسم معينة كأنهم الطيور .
وهناك التنين والرخ والعنقاء ، وعروس البحر ، وكل
ما يمكن أن يتخيله الوجدان الشعبي من مخلوقات
واعاجيب . . .

البحر بهذا مصدر من مصادر الخيال الشعبي، ومجال
فسيح لبناء الحكايات والقصص والروايات ، ودنيا
خصبة من الإيحاء للروائي والقصاص يغامران مع أبطالهما
فيها بحثا عن الكنوز والثروات ، وبحثا عن الربح
والتجارة ، وبحثا عن المعرفة والتجربة والمتعة والاثارة .
ولكننا في كل دراساتنا عن الشخصية العربية ومكوناتها
أغفلنا البحر وروح المغامرة والاصرار والاثارة ، والقدرة
على الخيال والابتكار ، والطاقة على الصبر وتطوير
الممكن لبلوغ المراد ، وتحويل الحلم الى حقيقة وواقع . .
من قديم جدا ، والسفن العربية تمخر البحار
والخلجان ، للصيد والتجارة والاسفار . ومن قديم جدا
واللبان والبخور والند والصندل من منتجات الجنوب
العربي ، ومن مستوردات السفن العربية عبر البحار
السبعة ، تغزو معابد أوروبا والشرق ، وتعطر الحضارة
الاشورية والبابلية ، والفرعونية والاعريقية والرومانية .
ومن قديم جدا وحرير الصين وأخشاب الهند ولبان
عمان ولآلئ الخليج وجواهر سيلان تسهم في صنع
مظاهر الحضارة والتقدم في العالم القديم . ونحن تغفل
هذه المشاركة حين تغفل دور العرب في قهر البحار ،
وحين تغفل القراءة النقدية الصحيحة لعالم البحار في
الف ليلة وليلة .

وهكذا ثار السؤال أمامي ، من أين يمكن البدء في مثل
هذه القراءة ؟

وتذكرت محاولات الدكتور حسين فوزي في استناده

القديم ، واسترجعت عبارات المسعودي عن عجائب بلاد
الصين والهند ، وعادت الى ذهني فقرات من حكايات
أعاجيب الهند وأعاجيب البحار ، وتوج الجميع عندي
دائما اسم سندباد البحري الذي حظيت رحلاته السبع
باهتمام الادباء والشعراء ورجال السينما منذ مطالعها ،
كما حظيت باهتمام الروائيين من عرب وإجانب ،
وباهتمام الدارسين من عرب ومستشرقين . وسندباد
في ألف ليلة وليلة تاجر بغدادى مغامر أحب البحر .
وأحب المغامرة ، يبيع تجارته ويؤجر السفن لي شحنها
بالبضائع بثمن مباح من تجارة ، ثم يقلع بالسفن عبر
الخليج الى بلاد الهند والصين ، وإلى جزر المحيط في
سلسلة من المغامرات المثيرة والشيقة . وابن السكيت
يتحدث في الفهرست عن كتاب مستقل هو كتاب سندباد
كنت أحسب أنه تجميع مستقل لحكايات السندباد
البحرية جمعت بعيدا عن الليالي . ولكن الصديق الكبير
الدكتور أمين عبد المجيد بدوي صحح لي هذه المعلومة
حين أهداني ترجمته العربية لكتاب السندباد أو
« سندباد نامه » وقد قدمه الى العربية باسم « سندباد
الحكيم » ، فإذا هو يتحدث عن سندباد آخر هو حكيم
هندي عاش في عصر الملك كوش ، وذكره المسعودي
في كتابه مروج الذهب بقوله : « وكان في مملكته
وعصره سندباد ، وله كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم
والغلام وامرأة الملك ، وهذا هو الكتاب المترجم بكتاب
السندباد » ويذكر الدكتور أمين بدوي أنه ألف قبل
الاسلام بعدة قرون ، وأنه هو الذي ذكره ابن يعقوب
النديم في الفهرست ضمن أخبار السامريين والمخرفين
وأسماء الكتب المصنفة في الأسفار والخرافات ..
وسندباد في هذا الكتاب يقوم بدور شهرزاد في ألف

ليلة وليلة فهو راوى الحكايات والاسمار التي من خلالها
يقدم معرفة العصر وعلومه ومعتقداته ، فكأنه يحار
ولكن في دنيا المعرفة والحكمة لافى دنيا البحار . وفي
الف ليلة وليلة ذكر لسندباد آخر هو سندباد الجمال ،
القاعد في مدينة بغداد في عصر هارون الرشيد عن
المغامرة والترحال ، راضيا بفقره ورزقه المحسود
وسندباد الجمال هو الذي يقودنا الى قصر سندباد
البحري ، وهو الذي يقص عليه السندباد حكاياته
واسفاره ويسميه في حديثه معه باسم السندباد البري
ثم يقاسمه ثروته ، ويدعوه الى الاقامة معه يسامره
ويعايشه .. واسم سندباد ليس اسما عربيا والاقرب
أن يكون اسما هنديا ، ولا بأس مع هذا أن يكون هذا
التاجر الهندي الاسم مواطنا في بغداد في عصر هارون
الرشيد ، ولا بأس أن يكون الاسم رغم هندية يطلق على
انسان عربي ، فتزواج الثقافات يسمح بهذا ويجعله أمرا
طبيعيا في أمة اسلامية تدين بدين واحد ، وينتقل
أبناءؤها في أطرافها المتراصة عن طريق البر والبحر
فيتزاوجون ويمتزجون ، وقد قضى اسلامهم على اختلافهم
العنصري واللوني والعرقى ..

وشغلني هذا الأمر حتى أصبح محور قراءاتي وتفكيري
.. بل ومحور حديثي مع الأصدقاء في أسمارنا .
فوجدت ذات ليلة بالصديق مكرم محمد أحمد ، يقطع
حديثي المتصل عن هذه الهوم التي تشغلني بقوله :
- سأرسل لك قدا مجموعة من الكتب أحسب أنها
ستجيبك على الكثير من الأسئلة التي تشغلك ..
ولم يكذب الصديق حديثه ففي القد كانت أمامي
مجموعة من الكتب من مطبوعات وزارة التراث القومي
والثقافة في سلطنة عمان .. وقادتني هذه الكتب الى

العالم السحري الذى كنت أبحث عنه ، عن عالم البحر العربى ، الذى مثلت مغامرات سندباد وحكايات البحر فى الليالى عطاءه الفنى والأدبى والشعبى على السواء . . تفتحت أمامى دنيا كاملة من تاريخ العرب مع البحر منذ أعماق التاريخ وإلى اليوم ، وامتلات هذه الدنيا بالمدن البحرية ذات التاريخ العريق ، وبالصناعات البحرية وأولها صناعة السفن الضاربة فى عمق تحقيق من تاريخ البشرية . وقصة الإصرار العربى على قهر البحر وفتح الطريق أمام الوجود المترابط للإنسان منذ البداية الأولى للمعنى الحضارى للإنسان . ووقفت أمام كتاب « عمان وتاريخها البحرى » استرجع صور الثغور والقلاع والسفن وطرق التجارة وطرق الأبحار . فإذا أنا أمام سفن الليالى وسفن سندباد ، وإذا أنا أمام الطرق التى سلكها سندباد فى رحلاته وإذا أنا أمام الجزر والبحار التى قدمت لآلاف ليلة وليلة عطاء البحر السحري فى أبداعه الفنى . . كما قدم لى كتاب « تاريخ عمان » ، تأليف وندل فيليبس وترجمة محمد أمين عبد الله قصة البداية والاستمرار ، قصة مراحل التكون ومراحل التطور ، ومراحل التفوق للإنسان العربى فى مواجهة البحر القابع أمامه ، ومواجهة الصحراء القابعة من خلفه ، وفى مواجهة التحدى على مر الزمن للفرس من ناحية ، والبرتغاليين البرابرة من ناحية ، والإطماع الانجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والبلجيكية من ناحية أخرى .

قصة تمتلئ بالسحر والبطولة والفموض . وعالم يختلط فيه عطر الحقيقة بعبق الخيال الشعبى ، وأحسست - كما أحسست من قبل أمام كتاب « التيجان » لوهب بن منبه الذى حكى عن تاريخ

الحميريين وأبطالهم وملوكهم - اتنى أمام اليوسعديين
قد عثرت على كنز لا ينضب للعطاء الفنى ، وللتحقيق
الشعبى ، وللعمل الدرامى المعاصر المرتبط بحقيقته جزء
هام من مكونات الشعب العربى العريق فى مفاصله
الدائمة من أجل المعرفة ، وفى شوقه الدائم للتحدى
والانتصار ، وتحقيق ارادة الله فى أن يسود الانسان
بمثله وقيمه هذا العالم الملىء بالخير والثراء .. رسالت
نفسى عن سر ثراء الموروث الشعبى العربى بحكايات
وبطولات اليمن ، وسر توارى حكايات البطولات للساحل
الجنوبى الشرقى من الجزيرة على خصبه وثرائه مسر
المنظور الثقافى العربى بعامة والشعبى بخاصة .. ان
رحلة مالك بن فهم من غرب الجزيرة الى شرقها مهاجرا
بقومه لاجلاء الفرس المستعمرين ، وبدء المرحلة المعروفة
من تاريخ عمان ، لاتقل فى أهميتها عن رحلات الهلالية ،
ان لم تتفوق عليها فى دلالتها التاريخية والقومية ، ومع
هذا فقد أفرزت الهلالية أكثر من عمل شعبى يعيش عبر
البلاد العربية كلها ، وعبر العصور والقرون الى يومنا
الحاضر .. وأن تاريخ الفتح العمانى لأفريقيا هو تاريخ
الاسلام فى أفريقيا ، وتاريخ التطور الحضارى بصورته
الاسلامية المشرقة والثرية لزننجر وعمان معا ، وصورة
لمعنى الدعوة الى التأخى فى الاسلام ، ولمعنى أنه لا فرق
بين عربى ولا عجمى الا بالتقوى . وصورة مشرقة
كما يقول « د . ج . هوجارت » فى كتابه « شمس
الجزيرة العربية » فيما ينقله عن « وندل فيليبس »
للتاريخ العربى ، الذى هو « سجل من الفخر ، والطموح
والثأر ، والشهوة ، والتمرد ، والحماسة » .. أى هو
صورة لتاريخ الانسان الانسان .. انما فعله اليوسعديون
لأفريقيا وعمان والعالم المتحضر بشكل صفحات مشيرة

لخيال الروائي، كما يشكل تحدياً لقدرة الباحث التاريخي.
كما يسجل انبهاراً للقلوب المتطلعة الى صفحات فخار
حقيقية في تاريخ الانسان العربي . وتأتي المعارك ضد
قرصنة البرتغاليين لتستفز خيال الكتاب ان كانوا يريدون
حقاً ان يسجلوا معنى التحدي والصمود ، العربيين ،
ومعنى التوحش والبربرية الغربيين، تسجيلاً قنيا وروائياً
يثبت في أعماق انساننا المعاصر قيمه وخلقه وتراثه
ودينه .

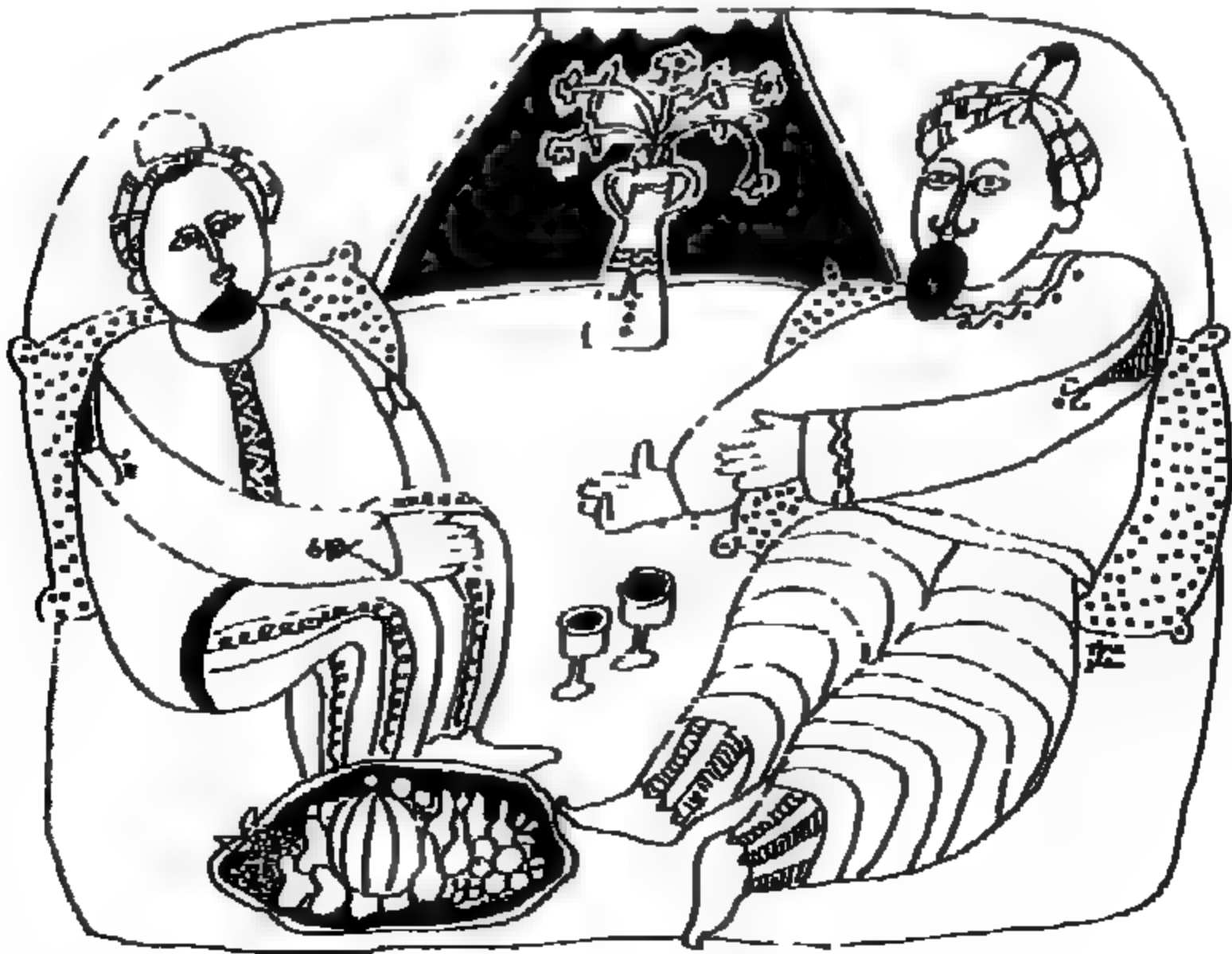
ان العالم العربي اليوم في حالة استرجاع لنفسه ،
وجمع لشتات وجوده بعد أن مزقته أطماع المستعمرين
وشراهم . ولسنا اليوم بقادرين على المشاركة في صنع
التطور التقني الذي مازلنا نكتفي بأن ننعيم بمعطياته ..
ولكننا نستطيع أن نعمل على تكوين الطلائع الصحيحة
التي تراث حضارة منهارة من داخلها ، مزقتها المصادرة
المفرقة وتستعد الآن للغرق ، كما فعلت كل الحضارات
التي سبقتها .. وستكسب البشرية الكثير اذا ما استطعنا
أن نكون هذه الطبيعة التكوينية الصحيحة ، وأي طريق
أصبح من ربط الانسان بقيمه ، وبالكشف على الجوهر
الحقيقي الذي أعطى البشرية الحضارة يوماً ، والذي
يتأهب من الآن لأن يحمل المشعل حين يسقط من الأيدي
المهتزة التي تمسك به اليوم ، بعد أن تحولت من اشعاعات
الفكر والفلسفة والعلم ، الى معطيات القهسر والمذابح
وحمامات الدم وأبادة الشعوب ، وسرقة الثروات وقهر
الكرامات .. ان الكشف عن مكتون لم يعرفه عامة المثقفين
العرب وتملكه عمان ، واجب في آراء الوجود العربي ،
واضافة الى الوجود الانساني نفسه بجزء من ماضيه
وكفاح أجداده البطولي في هذه البقعة من أرض الله
لأرساء كلمة الله للانسان . لأرساء معاني العدل والحرية

والأخوة والانسانية .

واستغرقتنى القراءة فقد جعلت الاحداث والشخصيات
والمعانى تتدافع من بين السطور مشكلة لى دنيا سحرية
رائعة ، انعكست أيضا على أحاديثى مع الاصدقاء ...
ومرة أخرى فوجئت بالصاديق مكرم محمد أحمد يقول لى
ذات مساء :

... هناك مفاجأة لك ، لقد كنت أتحدث مسرع الآخر
الصاديق عبد العزيز محمد الرواس وزير الاعلام فى سلطنة
عمان ، ووجدت نفسى أحدثه عن حماسك ، وعن اهتمامك
الجديد المفاجىء بكل شىء عن عمان ، وقد أخبرتنى اليوم
تليفونيا أنه يدعوكم الى زيارة عمان ويرحب بك هناك ،
وسيتيح لك الفرصة لتشاهد كل ماتريد وتطلع على كل
ماتحب ..

وأحسست أن ألف ليلة وليلة قد وجدت سندا جديدا
فى شخص وزير الاعلام العمانى ، وأن الطريق الى دنيا
من السحر والاثارة قد بدأ .. أو على الأقل بدأت خطوة
ما قبل البدء .



المعادلة الصّعبة

شغلت مقولة أن « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » أذهان المفكرين والادباء زمنا طويلا . كما شغلت أصحاب العمل في الحقل الحضارى بحثا ودراسة وتقينا وتقعيدا ، فمنذ قديم جدا والاختلاف الحضارى بين أصحاب الحضارات الشرقية ، وأصحاب الحضارات الغربية واضح وبيّن . فالقيم التى يقيم الشرق عليها حضاراته غير تلك القيم التى ترسم لحضارات الغرب سلوكا مغايرا ، ومثلا مخالفة ، وهى بالقطع نابعة من اختلاف جذرى بين هذه وتلك . والذى يمكن لنا أن نستقرئه من التاريخ يؤكد لنا أن الحضارات الشرقية ارتبطت بالقيم الدينية بالدرجة الاولى ، وتفجرت طاقاتها وابداعاتها ، وتحددت سلوكياتها وأهدافها من النبع المرتبط بالدين كمحور أساسى للفعل الحضارى . والدين يرسخ فى وجدان الانسان وقلبه وعقله جميعا أنه ليس صاحب الفعل المطلق فى الحياة والكون ، وإنما هو مخلوق من مخلوقات تشغل الكون ، وأنه إنما خلق ووجد ليعبد خالق هذا الكون كله . ويقسّس قدرته ويتحرك فى إطار من هذه القدرة التى تمنحه الحياة والنعم وتحاسبه على مايفعله بهذه الحياة والنعم ، أن خيرا فخير ، وأن شرا فشر ، ثم هى تسلبه هذه الحياة والنعم حتما مقضيا لافكاك منه . بينما تتركز معظم الحضارات الغربية حول الانسان نفسه ، وحول قدرته المطلقة على الفعل ، وعلى دوره الدائم فى الصراع مع قوى

الغيب المجهولة التي تحارب وجوده وتتحكم فيه ، وتنتهي هذا الوجود وتسيطر عليه ، دون محاولة أصيلة لوضع الانسان في مكانه الذي تضعه فيه الفلسفات الدينية الواضحة في تحديد مكان الانسان من عالم الاله ... ومن هنا نصف الحضارات الشرقية بأنها حضارات الروح ، بينما نسم الحضارات الغربية بأنها حضارات العقل . وليس معنى هذا أننا نخلى الحضارات الروحية من فعل العقل ، فالعقل جوهر الفعل الانساني ، ولكننا نحس أن حركة العقل فيها يحكمها ايحاءات الروح وعطاءات الوجدان ، وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نخلى الحضارات العقلانية من فعل الروح ، فالروح هي نبض الحياة عند الانسان ، ولكننا نحس أن حركة الروح فيها يحكمها العقل وتتحكم فيها قوانينه ومعطياته . . ومن هنا يظل الشرق شرقا والغرب غربا ، وفي عصر صبا الانسانية سادت حضارات الشرق ، وحكمت العالم كله بمعطياتها التي تثرى وجدانه ، وتعطيه معنى لوجوده وهدفا خالدا وباقيا للحياة ، وشيدت الانسانية المعابد للالهة ، وسخرت فنونها وابداغاتها لتعميق هذه الصلة المتوطدة بين الانسان والاله ، كما سخرت علومهما واكتشافاتها لتحقيق المعاني التي ترسمها الاديان ، معاني الاخاء في الله ، ومعاني المساواة أمام الله ، ومعاني العدالة في الحساب القدرى الذى يخضع فيه سلوك الانسان لتقويم الهه ، والاله وحده . . وحين بدأ تمرد الانسان في الغرب على هذه القدرية التي تحكم انسان الشرق ، أرسى فكره ثم حضارته على أساس من هذا التمرد ، وسخر العقل في البحث عن هوية للانسان غير انتمائه الى عالم مخلوقات الله وحسب . وكسان الجهد العقلى الفيلسفى هو بداية هذا البحث ، وكسان

الاستعلاء والاحساس بالتفوق والقدرة على الفعل
المستقل بداية الاستقلال والاستعمار والبحث المطلق عن
الثراء والقوة ، والاغفال الكامل لحقوق الآخرين ، والدهشة
المطلقة من سذاجة من يتصورون وجود قوة أخرى أو
قيم أخرى غير قوة العقل وقيمة وقوة الفعل وقيمته ،
ثم قوة التراكم المعرفي وما أدى اليه من متغيرات حاده
في قدرات انسان الغرب المتنامية . وحين سخرت
الحضارات الغربية الدين لارادة الانسان ، فسرقت
شعارات الدين تخفى وراءه اهدافها الحقيقية في الثروات
والمزيد من الثروات ، والقوة والمزيد من القوة ، والسيطرة
والمزيد من السيطرة . . ولم يكن عجبا ابدا أن تبسدا
حروب اصحاب الحضارات الغربية رافعة الشعار الديني
في المعارك الوحشية ضد ارض هذه الديانات واصحابها
الاصليين . ويظل الشرق شرقا والغرب غربا عبر هذه
المرحلة الدامية من تاريخ الانسانية حين بدأت سلسلة
الحروب الاستعمارية لنهب الثروات وتدمير الحضارات
الشرقية وتدمير اصحابها ، والبدء في غرس قيم
الحضارة الغربية الفارسية والمنتصرة في كل مكان هزمته
السيوف المشرعة ، وهزموه البارود و « القنبر » . . .
وارغمت هذه الشعوب المهزومة على هجر تراثها والتنكر
لثقافتها ، بل والى نسيان لغتها ، وكانت المحاولات
في معظمها تحاول الغاء الشخصية الموروثة للحضارات
القديمة لاحتلال مفاهيم شخصية الحضارة الغربية الفارسية
.. وعلى الرغم من أن الضغوط المستمرة والمؤيدة بقوة
السلاح قد ادخلت الكثير من المفاهيم التي يريدونها الفزاة ،
كما أنها استطاعت أيضا ان تستقطب طبقات بذاتها من
أبناء الشعوب العريقة المهزومة ، الا أن حركة المقاومة
ولدت منذ لحظة الهزيمة ، وقوبل العنف المسلح ،

بالسلبية فى التعامل معه مرة ، وبالعودة الى التقوقع فى حزن ماتبقى من رموز تراثية تؤكد الذات وتحفظ الهوية وتصونها من الضياع والدوبان . ومع كل هذه المحاولات الفكرية والوجدانية كانت المقاومة الجماعية تتزايد ، وتأخذ أشكالها المختلفة ومراحلها المتعددة اتجاهها الى الاستقلال وطرد جنود الغزاة وتحقيق الحرية للوطن والانسان .. وتحقيق الاستقلال بعد حين ، وبعد ضياع اجيال واجيال من ابناء هذه الاوطان . تحقق الاستقلال ومعنى الحرية .. ولكنها حين تحققا كان الانسان فى هذه الاوطان قد فقد اتزانه ، وفقد هويته الحضارية ، ووقف حائرا مضيقا يتلفت حوله فى قلق . فقد أصبح أسير الحضارات الغربية ومعطياتها المادية والفكرية معا . هو لا يستطيع أن يقيم حياته اليومية دون الاستعانة بكل التسهيلات التى أنتجتها الوثبات العلمية والفنية للحضارات الغربية فى كل مجال من مجالات الحياة اليومية الممارسة . وهو لا يستطيع أن يقيم حياته الفكرية بمعزل عن التأثير اليومى لوسائل الاعلام الحديثة ، ولمعطيات المكتبة والمطبعة فى كل مكان من العالم ، حاملة مايزيد ارتباطه بالفكر الغربى ، ويهموم الحياة فى بلدان الحضارة الغربية ، معطاة من منظور أصحابها المالكين لكل هذه الوسائل ان مباشرة ، وان عن طريق تثبيت النفوذ وتربية الكوادر على مناهجهم هم ، وفلسفاتهم هم .. ورفع المثقفون من ابناء شعوب الحضارات الشرقية أكثر من شعار لاتقاذ شعوبهم من مرحلة التردى والضعف التى تلت خروج المستعمر الذى اكمل عمليات التدمير وبذر بذور الفرقة قبل أن يغادر بجيوشه الارض المحررة . ارتفع شعار الانتماء الضيق الى الوطن ، والشعار الاكثر اتساعا بالانتماء الى القومية ، والشعار الاكثر اتساعا

بالإنتماء الى الدين . . . ولكن كل هذه الشعارات كانت
مكبلة باستمرار بالنظرة الغربية الى الامور ، تلك النظرة
التي جعلت الانتماء الى الوطن ، يعنى العمل على زيادة
ارتباطه بالمفهوم الغربى للحضارة ، وزيادة تبني كل معطيات
القرب المتقدم بالفعل فى كل مجال ، بل والانضمام
تحت لواء الدولة الاكثر قوة ونفوذا ، وتبنى ايديولوجياتها
السياسية والاجتماعية والثقافية جميعا . وهى نفسها
التي جعلت الانتماء الى القومية نوعا من التنافس على
زعامة هذه القومية ، ونوعا من المزايدة على مقعد القمة
وموقع الصدارة فيها ، فتحوّلت الدعوة القومية بعد حين
قليل من ظهورها الى اغراق فى تثبيت الذات الضيقة
وتفخيمها لتصبح مؤهلة لتتزعّم مجموعة الذوات الاخرى
التي تكون مجموع القومية ، وهى نفس النظرة التي جعلت
الانتماء الى الدين يتجه الى الاغراق فى التمسك بحرفيات
الدين وطقوسه مفرغة اياه من كل معنى حضارى ،
وجاعلة منه وسيلة الى اثبات الذات بوضع المقابل امام
المقابل . وهذا التثبيت بالخصوصية الدينية يعنى
انسحابا من الصراع الحضارى القائم . والاكتفاء
بالوضع المتدنى الذى وصلت اليه شعوب الحضارات
الشرقية تحت وطأة الضغط المستمر الذى تمارسه
الحضارات الفاعلة والصاعدة ، والتي يهمها أن تظل
مناطق الشرق الغنية فاقدة التوجه والرؤية ، غارقة فى
السلفيات ، والبحث عن ذواتها فى أعماق التاريخ ، وفى
ممارسات الطقوس ، والاختلاف حولها ، تاركة اليوم
وهمومه ، وتاركة القدر ومشكلاته ، فى يد اصحاب
الحضارات الغربية فيما يبدو استسلاما يحميه تضخم
الذات ، والاحساس الكامل بالاهمية والخصوصية التي

يكسبها الارتباط بما هو الصحيح والباقي ، وبما هو
آلآب الى الحياة الاخرى الفائزة ، حين يخسر هؤلاء
الذين يتشبثون بالحياة الان ، وهى الخاسرة .. وقد
عرفت شعوب المنطقة التى خرجت من الاحتلال العثمانى
لتقع تحت وطأة الاحتلالين الانجليزى والفرنسى هسده
التيارات كلها ، ومارست هذه الصراعات دون استثناء ،
وهى تحاول أن تخرج من يد المستعمر الغربى وأن تطرد
جيوشه .. وحين نالت استقلالها وجدت نفسها واقعة
تحت اسار النفوذ الحضارى الغربى بشكل أو بآخر .
وما زالت تعيش هذا الاضطراب القلق تحت الضغوط
التى يمارسها اصحاب الحضارات الغربية ووارثوها ،
لتقى هذه الشعوب فى حالة الحيرة ، والقلق والاضطراب ،
وثرواتها تنهب ، وقواها تنهك ، وارتباطها الدائم
القديم بقيمها يتحلل شيئا فشيئا .

الا ان هناك شعوبا فى منطقتنا تجنبت هذا الطحن
المخيف ، واستبدلت به نعاسا طويلا سادها تحت وطأة
الانكفاء على الذات ، والخوف من كل ماهو سائد فى المنطقة
من قلاقل واحداث . وقامت نظم ملكية قبلية رجعية
شديدة التشبث بالماضى ، وشديدة الارتباط بالمعنى
الدينى الضيق ، وشديدة الخوف من كل ماهو جديد
وغير مألوف ، قامت هذه النظم بفرض ستر من حديد
واضطهاد وسجون وتعذيب على شعوبها لتظل بمعزل عن
المنطقة واحداثها وتجاربها . وكما جنبت هذه النظم
شعوب هذه المناطق الوقوع فى البلبلة الفسكرية
والاجتماعية التى عاشتها شعوب المنطقة الاخرى ، فقد
عادت بهذه الشعوب الى عصور موغلة فى القدم حضاريا
وفكريا ، وساد حكم التخلف والشعوذة والمقولات
الخرافية ، وانعزلت هذه الشعوب تماما عن حركة المد

الحضاري والمدني التي تسود العالم كله . وفي نهايات القرن العشرين كانت هذه الشعوب لا تزال تعيش نفس الحياة والمقولات التي عرفتھا في القرن التاسع أو العاشر الميلاديين أو ربما قبل هذا أيضا . وما كان لمثل هذا الوضع أن يسود ، فالإنسان هو الإنسان في شوقه الدائم الى الحرية والمغامرة والمعرفة ، وفي حرصه الدائم على المشاركة في الجهد المشترك على أن يسود الإنسان العالم ويحقق أمر الله فيه . وبمعنى أخسر الإنسان كائن حضاري بطبعه وتكوينه ، ولا يمكن أن يقهر على العزلة والتوحد ، أو على قتل كل حركة فكر تمس بعقله ، وكل خاطرة تهز وجدانه ، وكل تطلع نحسب السمو والرقى الدائمين .. ومن هنا انطلقت هذه الشعوب تزيح عوامل التخلف ، وتخرج واحدة اثر أخرى الى النور والضوء والوجود المشترك في الكيان العسري المتحرك الباحث عن ذاته ، بل وفي الكيان العالي نفسه الباحث في رؤى حضارية أكثر عدالة للإنسان ، وأكثر أمنا لمستقبله . وكانت آخر الشعوب العربية لحاقا بالركب هي شعوب جنوب الجزيرة ، وكان آخرها على الإطلاق هو الشعب العماني الذي بدأ حركته منذ عام ١٩٧٠ حين تولى مقاليد الأمر في عمان سلطاتها الحالي السلطان قابوس بن سعيد البوسعيدى ، معيدا مسيرة الكثيرين من أجداده العظام الذين خرجوا بعمان الى صدارة تاريخ المنطقة في كثير من حقب الحياة العربية الزاخرة بالأحداث ، والزاخرة بالانتكاسات والانتفاضات ، ومن ذلك التاريخ وما يحدث في عمان تجربة تشد اليهسا الانظار ، وتستهوئ كل من يريد أن يعرف أين يذهب الإنسان العربي بطاقاته الجديدة المتفجرة من جنسوب شرقي الجزيرة .

في أول لقاء لي مع الشيخ عبد العزيز بن محمد
الرواس وزير الاعلام العماني قال :

- نحن نحاول أن نستفيد من تجربة الآخرين .
وفهمت أن كل مامرت به شعوب المنطقة التي سبقتهم
في خروجها الى الصراع الحضاري الدائر بين الشرق
والغرب كانت في مخيلة وواعية هؤلاء الذين يخرجون
بشبابهم وثقافتهم واخلاصهم من البرعم العربي الذي بدأ
تفتحه في عام ١٩٧٠ . وأن البحث عن حل للمصادلة
المطروحة كان في الالذهان والعقول وهي تفكر لتجنب
أخطاء التجربة عند الآخرين ممن سبقوهم على نفس
الدرب ، وربما لتجنب اخطار أخرى لم تعرفها الشعوب
المبكرة في الخروج الحضاري ، ولكن عرفتها الشعوب
التي فتحت عيونها على ثروات هائلة تنبثق من أرضها
نافورات من البترول : ذهب العصر الاسود ..

هل تتمزق عمان بين تجربة التمسك بالخصوصية
الوطنية والانتماء القومي ، والهوية الاسلامية ، كما
تمزقت غيرها من شعوب المنطقة ..؟ وهل تفقد عمان
اتزانها بين الثروة الضخمة الهائلة التي يمثلها البترول
وبين التطلع الحقيقي نحو بناء لبنة صلبة في صرح الامة
العربية ، بحيث تصبح الثروة طريقا الى القوة ووسيلة
الى الدفع الحضاري ، وأداة تيسر الاجابة عن المعادلة
الصعبة المطروحة على العربي في هذا العصر بعيدا عن
التخبطات التي تعرض لها ويعيش في دواماتها الكثيرون
في جنبات الامة العربية بأسرها .

وفي البدء طالعني هذ الكم الهائل من مطبوعات
وزارة التراث القومي والثقافة ، والذي يتجه في معظمه
بل وكثرته الغالبة الى أزاحة الستار عن ماضي عمان ،
وعن علاقاتها بجيرانها عبر التاريخ ، وعن دورها الحضاري

قبل الاسلام وبعده . وبمعنى آخر يتجه الى الكشف عن
 هوية عمان ، وعن شخصيتها وعن دورها في المنطقة سواء
 في عمق الصحراء التي تربطها بالخليج واليمن والحبشة ،
 والصين ، وهي بهذا تكمل الدائرة التي تجعل من بلادنا
 العربية مركزا لكل الحضارات في العالم القديم كله ،
 فتشغور الشام ومصر تربطنا بحضارة الغرب في أوروبا ،
 وعمق النيل يربطنا بأفريقيا حتى وسطها ، وصحاري
 العراق تربطنا بفارس والحضارات الوافدة من قلب
 آسيا وادي الفولجا ، واليمن بسواحلها المتاخمة للساحل
 الافريقي تربطنا بأفريقيا وأراضي ما وراء المحيط الهندي ،
 بينما تقوم عمان بربطنا بالفرس من ناحية ، وبالصين
 والهند وجزر المحيط كبيرها وصغيرها من ناحية ثانية ،
 وبأفريقيا الوسطى وما عند ساحل أفريقيا من ناحية ثالثة
 مكتملة دور اليمن في استكمال الدائرة الحضارية الافريقية
 والاسيوية النائية . . كانت الجزيرة العربية اذن دائرة
 تخرج من أطرافها التجارة الى كل انحاء العالم ، وتصب
 على سواحلها كل خيرات العالم شرقه وغربه ، وشماله
 وجنوبه ، ليتم بينها كلها التبادل التجاري المنظم ، والذي
 سمح بتطور الحضارات القديمة ونموها ، والذي سمح
 أيضا باثراء العمل الانساني بمدته بما ينقص من أدوات
 ومواد دفعت باستعمالها المتبادل قدرة الانسان على
 البحث العلمي والتطور الصناعي ، وقضت على ما كان
 يمكن أن تعيش فيه البيئات المختلفة من عزلة تحدث
 السكون وتمنع التطور .

عمان اذن بدورها البحري الرائع عبر التاريخ ومنذ
 اعماق اعماقه اكملت الدور الذي قامت به منطقة الشرق
 الادنى حضاريا وتاريخيا . وهي شريك بلاشك في كل
 ما قام فيها من حضارات سواء عند الطرف الشرقي في

منطقة ما بين النهرين من حضارات بابلية واشورية وأكادية،
أو ماقام فيها من حضارات على الطرف الشمالي من
حضارات كنعانية وفينيقية ، أو ماقام فيها من حضارات
عند الطرف الغربي من حضارات فرعونية وهلينستية ،
أو ماقام فيها من حضارات عند الطرف الجنوبي الغربي
من حضارات حميرية وسبائية .. هي شريك - لاشك -
في كل هذا ، كما هي شريك أيضا في الثورة الاسلامية
الكبرى التي قامت في وسط الجزيرة وقدمت للعالم كله
الحضارة الاسلامية ذات العطاء الديني والثقافي
والحضاري معا .

في كتاب « برترام توماس » عن رحلته من ظفار عبر
الربع الخالي الى الامارات عام ١٩١٠ والذي عنوانه
« البلاد السعيدة » فقرة تلفت النظر وتشد الانتباه اذ
يقول عن ظفار : « اذا كانت هناك منطقة في شبه الجزيرة
العربية تصدق عليها هذه التسمية » يقصد البلاد
السعيدة .. اذا استثنينا اليمن بامجاده التاريخية -
فهى بحق المنطقة التى تسمى « ظفار » والتى تشكل فى
مجموعها خميلة من الغابات الخضراء التى تفتش
المرتفعات الجبلية المظلة على البحر . والجداول الرقراقة
والحقول السندسية والسهول التى ترصع اديمها
الاشجار والنباتات والاعشاب . ثم يقول : « فى هذه
البلاد - كما جاء فى سفر التكوين - حدد الرب العالم
ذاكرا انها تبدأ شرقا من جبل سفار « أى ظفار » وإلى
هذه البلاد جاء المصريون القدماء بحثا عن اللبان
ليستعملوه فى تحنيط فراعنتهم ، وربما كانت أعمدة
النبي سليمان ، مدفونة فى مكان ما بهذه المنطقة . هذا
اذا لم تكن ظفار هى نفس الجنة التى ورد ذكرها فى
التوراة والسوق التقليدية لتجارة العاج وريش الطاووس

قديمًا « . . ارتبطت اذن هذه المنطقة منذ القديم
بالمعنى الدينى الموحد الذى هو جوهر الديانات السماوية
التي نزلت بأرض هذه المنطقة هادية ومبشرة ومقدمة
المعانى الحضارية فى دفعات متتالية تبدأ باليهودية
وتنتهى بالاسلام . كما أنها ارتبطت بما سبق هذه
الديانات من محاولات انسانية لمعرفة الله وعبادته
عبادات قاصرة ولكنها جادة فى محاولات الاهتداء الى
معنى الوجود وروح الحق . ومن هنا كان الارتباط بين
مصر الفرعونية وأرض اللبان ، ومعنى هذا علاقات
مستمرة فى التجارة والثقافة معا ، وعلاقات متبادلة فى
المصالح والافكار معا . . ويذكر الاستاذ عبد القادر بن
سالم أن أحمد الفسائى فى كتابه « ظفار أرض اللبان »
ان كتاب تاريخ الاسكندر ذكر خبرا يفيد بأن الاسكندر
أخذ من أرض العرب المنتجة للبخور كمية من البخور
لاحراقها للالهة تقربا اليها ، ثم يذكر عددا من الحوادث
تؤكد وجود علاقات منظمة بين البطالة وبين بلاد اللبان
والبخور . كما يذكر محاولات الرومان فى احتلال
الجزيرة العربية وصولا الى بلاد اللبان ، وخيبة هذه
الحمالات وتعرها ويقول : « لقد كان البخور أو اللبان
رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة فى ذلك العهد كان
سعره يساوى سعر كل من الذهب والبتروى فى هذه
الايام ، ولم يكن يشتريه لغلائه هذا الا رجال الدين
لاستعماله فى الشعائر الدينية التى تستنزف القسم الاكبر
منه ، والملوك الاثرياء وذلك لحرقه فى المناسبات الدينية
وفى اجتماعاتهم » . هذا عن الغرب أما الشرق فقد
ارتبطت الاشارات الاولى فى العلاقات بين عمان وبلاد
ما بين النهرين بتجارة النحاس . ويقول الاستاذ عامر
على عمير المرهوبى « عمان قبل وبعد الاسلام » ان

دونالد هولى يشير فى كتاب « الامارات المتصالحة » الى ان ملوك اور الذين عاشوا قبل الميلاد بألفى عام كانوا يتبادلون التجارة مع عمان ويصدرون اليها الشمع والملابس مقابل النحاس . ويقول : « وقد وردت اشارة الى ازدهار مثل هذه التجارة فى اللوحات التى اكتشفت فى مدينة بابل بالعراق . وكلها تؤكد ان السفن التجارية السمانية كانت ترتاد « موانئ اور » محملة بمختلف السلع والمنتجات ، وكان النحاس من اهم الصادرات العمانية وكان يصدر فى مقابل الفضة وزيت الطعام والمنسوجات والمصنوعات الجلدية » .

ويذكر الاستاذ عامر المرهوبى ان بعثة من علماء الآثار التابعين لجامعة « هارفارد » قامت بعملية مسح أثرى فى أرجاء عمان فى عام ١٩٧٣ ووجدت « ان هناك من الدلائل ما يشير الى وجود عمليات لصهر النحاس فى عمان فى أربع مناطق للتنقيب ، هى سمد والباطنة والظاهرة وأبرا » . اما الشمال فقد بدأت الصلات المباشرة معه بمحاولات الاسكندر الاستيلاء على الطريق البحرى الى الهند وقيامه بغزو المنطقة كلها لولا وفاته التى اوقفت هذا المشروع تماما ويقول الاستاذ عبد المنعم عامر فى كتابه « عمان فى أمجادها البحرية » عن رجال البحر العمانيين وعلاقاتهم البحرية بالهند وما وراء المحيط : « قد فتح هؤلاء الرواد فى الخليج فصلا جديدا فى قصة العلاقة بين الانسان والبحر ، فقد استطاعوا لأول مرة ان يتوغلوا الى مسافات شاسعة عبر مناطق كانت تعتبر فى ذلك الوقت مناطق مجهولة ومحفوفة بالآخطار » . ويقول « ولهذا سمي خليج عمان مهد الملاحة البحرية » . وغاية ما يصل اليه العلم هو ان خليج عمان قد شُهِد محاولات الانسان الاولى لارتياح البحار وكان العمانيون فى

ذلك الزمن الغابر ، أى قبل ٤٠٠٠ سنة يسكنون المنطقة التى كانت تعرف باسم مجان ، وكان لهم نصيب فى تلك الخطوات الرائدة التى أقامت صلات منتظمة بين عدد من الحضارات المتباعدة ..

إذا كانت هذه هى علاقة المنطقة بالحضارات القديمة التى ازدهرت فى شمالها الشرقى والغربى ، فإن علاقاتها بالحضارات فى الجزيرة نفسها ترتبط بكيانها العربى ، وتكوينها من هجرات عربية ، جعلت من أهل الجنوب جزءاً من أهل الشمال والعكس صحيح . ويقول : « ويندل فيليبس » فى كتابه « تاريخ عمان » : « إذا تحولنا عن الروايات الى التاريخ ، وجدنا أنه حدثت على الأرجح هجرتان رئيسيتان من شمال ووسط شبه الجزيرة العربية الى جنوب شبه الجزيرة ، فقد حدثت الاولى قبل عام ١٥٠٠ قبل الميلاد والثانية حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد ، أى قبل عهد موسى بفترة قصيرة .. وقد جلب المهاجرون معهم الافكار والعادات والاسماء التى نجدها فى السجلات الاولى للكنعانيين والبابليين ، وعلى سبيل المثال فان وجود التشابه بين عبادة القمر لدى أهل بابل ، وعبادة القمر فى حضرموت تعتبر أمراً له دلالة . وكان أهل البلد نفسه يتحدثون لغة تماثل تلك التى كان يتحدث بها أهل عمورية القدماء فى شمال الجزيرة العربية » ويؤكد « ويندل فيليبس » على وجود التشابه فى العقائد والآثار الادبية بين الاديان القديمة فى فلسطين وسوريا . وبين ماكان فى شبه الجزيرة من ديانات قبل الاسلام فيقول « كان الكنعانيون القدماء مثلاً يعبدون نجمة الصباح التى يسمونها عشتار ونحن نجد نفس المعبود فى جنوب شبه الجزيرة العربية » ويقول : « وبالمثل فان عبادة الشمس كانت شائعة لدى

الكنعانيين وفي جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما يتضح ان كلا من الحروف الابجدية الاولى المستخدمة في ارض كنعان وتلك التي استخدمت في شبه الجزيرة العربية كان اصلها مشتركا .. ويوجه فكرة الهجرات هذه بقوله : « ويبدو على وجه الاجمال انه يحتمل أن يكون هذا الانتشار لثقافة مشتركة قد حدث نتيجة هجرات في جنوب شبه الجزيرة العربية ، والتي تشمل عمان الحالية بدلا من أن يكون نتيجة مزيد من التنقلات العامة في كلا الاتجاهين » .. واذا كانت الهجرات قد لعبت هذا الدور الهام في توحيد الثقافة والثروة معا ، فان اكتشاف طرق التجارة بين الجنوب والشمال قد ساعد على هذا المزج الحضاري ، ويقول الاستاذ عبدالقادر ابن سالم بن أحمد الغساني في كتابه « ظفار ارض اللبان » حول طرق التجارة : « وكان اللبان من اهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون ، تاجروا بتصديره الى بلاد الشام ومصر والعراق . وقد اشر في التوراة الى قوافل سبا ، وهي قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مختربة العربية الغربية الى فلسطين فتبيع ماتحملة من سلع هناك ، وقد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية حتى بلغت حدود مملكتهم ارض فلسطين » .. ويقول : « سارت حكومة سبا على سياسة التوسع التجاري ، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق فبدلت جهدها لبسط سلطاتها على الطسرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها ، وبعد استيلائها على بقية الحكومات العربية الاخرى وضعت الطسرق الجنوبية المؤدية الى ارض اللبان والمواد الاخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية والى الموانئ والمرافئ التي تتاجر مع افريقيا والهند وتستورد منها السلع

النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها ، فحسنتها وشقت طرقا جديدة لاغراض حرية واقتصادية . وبلطت بعض المواقع فيها لتقاوم السيول والامطار ، واحكمت جدرانها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعات على هذه الطرق فلا تلحق الاذى بها . . والكاتب يذكر بالتفصيل طريق اللبان هذا الذي يصل الى غزة ، ويذكر ان اول من استخدمه كانت الملكة بلقيس في رحلتها الى الملك سليمان . ورغم تداخل الاسطورة بالحقيقة ، فان الطريق البري حقيقة واقعة زادت من هذه الروابط التي مزجت حضارات الجزيرة بعضها ببعض . كما مزجت العطاءات الحضارية الاخرى التي عرفها ابناء الشمال من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلاده ، بالعطاءات الحضارية الاخرى التي عرفها ابناء الجنوب من احتكاكهم بحضارات الجنوب وبلاده . وهناك أيضا عنصر آخر هام وهو عنصر الغزوات التي تعرضت لها اراضي الخيرات والثروات ، والاطماع التي احاطت بها . . وتنقل لنا كتب التاريخ اطماع الاسكندر والبطالسة والروم التي وصلت الى حد احتلال ميناء عدن ، وتذكر أيضا صراع دولة بيزنطة ودولة الفرس حول الجنوب حيث أصبحت الحبشة بعد قيام دولة بكسوم رأس حرية بيزنطية موجهة الى جنوب الجزيرة فتحتل اليمن وتوجه حملاتها الى قلب الجزيرة في مكة ، وحيث احتلت فارس الجنوب الغربي للجزيرة أو عمان منذ فترة ضاربة في عمق الزمان ، وينقل « وينسدل فيليس » في كتابه الذي ترجمه الاستاذ محمد أمين عبد الله عن كتاب كتبه ملاح من الاسكندرية مجهول الاسم سماه الرحالة ازيدور « بيرلوس البحر الاثري » أو البحر الاحمر ويقول : « ويصف هذا الكتاب الارض

الواقعة شرق جزر « كسوريا سوريا » وهي
عمان بأنها منطقة لم تعد مملكة كما كانت بل أصبحت
الآن مملوكة لفارس ، ونحن نعرف أن الفرس في عهد
قورش الكبير قاموا بغزو مزون - أي عمان - حوالي
عام ٥٣٦ قبل الميلاد . ولكننا لا نعرف ما إذا كانت عمان
قد بقيت تحت سيطرة الفرس حتى وقت كتابة
هيرودوت أم لا . . . وهي لم تبقى كذلك على الأرجح إذ
يحتمل أن تكون قد وقعت غزوات أخرى كانت آخرها
بواسطة البارثيين . وهذه الرواية تؤكد اطماع
الفرس المستمرة في الاستيلاء على عمان لإحكام السيطرة
على الخليج من ناحية ، ولضمان السيطرة على التجارة
عبر المحيط من ناحية ثانية ، وللإستيلاء على ثروات من
اللبان والنحاس وغيرهما من المنتجات من ناحية
ثالثة . وتذكر كل كتب التاريخ العربي هجرة الأزديين
اليمانية بقيادة مالك بن فهم إلى عمان في حوالي عام
« ١٤٧ - ١٩١ » ميلادية واصطدامهم بالفرس الذين
كانوا يحتلون البلاد ، وهزيمتهم لهم ، وإجلاءهم عن عمان
واستقرار المهاجرين الجدد في الأرض الجديدة . . .
وتعتبر رحلة مالك بن فهم هذه من أثرى الحكايات
البطولية التي ترسم جزءا من ملحمة العروبة في عمان ،
كما أنها تؤكد أن اطماع فارس لم تتوقف في أية حقبة
تاريخية في السيطرة على البلاد . وتذكر كتب التاريخ
أن أردشير أحد ملوك الأسرة الساسانية قد قام في القرن
الثالث الميلادي بتأييد مزيد من الهجرة التابعة له إلى
أرض عمان . كما تذكر أن خسروا الثاني قد قام بغزو
عمان مرة ثالثة ما بين عامي ٥٩٠ و ٦٢٨ ميلادية وقد
شمل حكمه البحرين وحضرموت كذلك . إلا أن هذا
الوجود الفارسي لم يقدر له الاستمرار . وأن أحدث

باحتكاكه الثقافى والحضارى آثاره التى امتزجت
بالحضارات الاخرى والحضارات المقيمة الاصلية ..

هذا الشراء فى العمق التاريخى حملته هذه المجموعة
الضخمة من الكتب التى حرصت حكومة عمان على طبعتها
وطرحها للتداول فى فترة زمنية قصيرة جدا ، ولسكنها
كشفت عن العمق الحضارى للمنطقة ، وعن تشابك
العلاقات الحضارية بها . وعن دورها الهام فى ترابط
الحضارات من جهة . وفى المزج بين هذه الحضارات
من جهة أخرى . وهذا الاندفاع نحو الفوص فى التراث
وانقاذ مخطوطاته بالاسراع بطبعها وتداولها ، تزامن مع
السماح ببعثات الجامعات العالمية بالتنقيب فى كل انحاء
البلاد ، والقيام بالكشوف الاثرية فتوافدت البعثات
الانجليزية والدنماركية والابطالية والامريكية والفرنسية .
تغطى كل منها جزءا من أجزاء الكشف عن البقايا
التاريخية والاثرية التى تزيح النقاب عن النشاط
الحضارى ، وعن العادات الاجتماعية ، وعن بقايا المباني
والقصور والمقابر ، وتحديد زمنها وتاريخها ، واجمعها
بعمان كمستوطنة انسانية الى عمق التاريخ القديم
جدا . وكاشفة عن البدايات الاولى للحركة الانسانية
نحو المعرفة ، ونحو الاستقرار ونحو الحضارة .

فالبداية اذن صحيحة اذ هى اتجاه الى العمق وليس
مجرد طفو سريع الى السطح ، واذ هى تكريس للثروات
والاموال بحثا عن معرفة الذات ، وعن الكشف عن دور
هذه الذات منذ مطالع التاريخ لا الاسلامى فحسب وانما
تاريخ ما قبل الاسلام . بل وتاريخ اول التحركات
الانسانية نحو الحضارة . وقد أخطأت شعوب كثيرة فى
المنطقة حين أهملت أهمية سرعة الكشف عن التراث
تدوينه وتسجيله وتداوله ، حتى طغت وسائل العصر ،

وطفي الزحف الحضاري ليظمس كل معالم الارتباط
بالموروث القديم . وهدمت قيم أثرية هامة لتشق فوقها
ومكانها الطرق المعبدة الحديثة ، وطويت صفحات رائعة
من سجلات التاريخ بزعم أنها مليئة بالخرافات والخزعبلات
التي لا تتفق في زعمهم مع الحضارة والمدنية والعلم
مرة ، والتي لا تتفق في زعمهم - مع الدين الصحيح
ونقاء الاسلام مرة أخرى .. والامر في أوله وآخره
سفه ورثة لا يعرفون قدر الكنوز التي ورثوها فأضاعوها .
ومن هنا صدقت كلمة الاستاذ الشيخ عبد العزيز
ابن محمد الرواس حين قال .

- نحن نحاول أن نستفيد من تجارب الآخرين .
فأول الاستفادة من تجارب الآخرين هي تجنب
أخطائهم .. وإذا كان هذا قد حدث بالنسبة للبحث عن
الجدور ، فهو يعني فهم عمان لموقعها من صراعات
الحضارات . فهي ابنة الحضارات الشرقية جميعا . وعلى
رأسها الحضارة الاسلامية بعطائها الحضاري والثقافي
والديني في آن واحد . وهي اذ تواجه الزحف الحضاري
الفري الجارف حولها ، تواجهه وهي تدرك مكانها منه ،
ومكان أبنائها في المواجهة الحضارية الحتمية ، ولسكنها
تزودهم أول ماتزودهم بسلاح المعرفة بماضيهم وجدورهم
وانتمائهم . فلا تخط هناك ولا تذبذب ولا معارك في
مواجهة طواحين الهواء التي ذهبت بجهود من سقوهم
على الطريق ، ومزقت أمنهم النفسي ، وبلبلت مواقعهم
من الانتماء الحضاري لامتهم ، ولاوطسانهم ولهم هم
أنفسهم .

الرحلة إلى الداخل

في هذا الزمن القبيح الذي يقتل فيه العربي أخاه العربي ، ويتآمر فيه المسلم على أخيه المسلم ، وتسفك دماء العرب انهارا بأسلحة منطلقة من أيد عربية ، وترتفع فيه شعارات التصفية الجسدية والقتل الجماعي المنظم ...

في هذا الزمن الوغد الذي تدك فيه عاصمة عربية بالآلاف الآلاف من القنابل القاتلة الحاصدة الحارقة ، فلا يجد العرب في كل مكان فعلا إلا أن يتلفتوا حولهم في دهشة وحيرة وخجل ، ولا يجد المسلمون في كل مكان إلا الكلمات الطنانة والصراخ الأجوف .

في مثل هذا الزمن الذي يطعن فيه العربي عربيا في ظهره ، ويتعاون فيه عربي مع أجنبي ليعري أخاه في الوطن والدين والانتماء ، ويقتله .

في مثل هذا الزمن لا يجد الإنسان أمامه إلا أن يشد متاعه ويرحل .. . عليه يجد الإجابة عن الأسئلة الحائرة في عقله . أو عليه يجد السلوى في شيء يعيد إليه إيمانه بالمعنى والمغزى ، بالانتماء والارتباط ، بالفضيلة العربية التي تهال فوقها أكداس من الرمال والدخان والعسار .. . حقا لا يجد الإنسان أمامه إلا أن يفعل كما فعل

السندباد كلما عاد من رحلة ، استعد لرحلة أخرى .
والسندباد رمز الرحلة الدائمة والترحال المتتالي ، بحثا عن المعرفة ، وتطلعا إلى التجربة ، وارتياحا للمجهول ، علّ فيما لا نعرف ما يزيل الأدران عما نعرف

من حقائق الممارسات .. ورحلات السندباد دائما الى الخارج ، عبر البحار والامطار .. وصراعا مع البحر وأهواله ومخاوفه . ولم يعد هناك أهوال ولا صراعات لافى. عبور البحر او فى شيق أجواز السماء فوق السحاب، فهذا « مكن » يسير بقوة العلم متغلبا على الامسواح والاعاصير والرياح والامطار . فان سار فيه كل شيء كما قدر له ، وظللته أجنحة الرحمة من صاحب الرحمة ، فلا مقامرة هناك ولا مجهول .. أما رحلتنا نحن فهى رحلة الى الداخل .. سندباد اليوم يرحل الى الداخل ، فهو يغوص فى أعماقه ليعرف من هو ، ومتى كان ، وكيف كان ؟ .. وهو يحاول أن يعرف موقع قدمه فى وجود اليوم وتطلع الغد .. والرحلة الى عمسان رحلة الى الداخل ، داخل العمق العربى ، وداخل عمق النفس فى وقت واحد . فعمان قد جنبت نفسها منذ فجر التاريخ الاسلامى كل تلك المعارك والاتقسامات والفواجع التى شغلت المشرق العربى كله على مدى قرون وقرون ، والتى تجنى ثمارها اليوم صبرا وعلقما ونزقا دسويا دائما بين ايران والعراق ، وفى ارض لبنان بين الفرق المتشابهة والمتصارعة بلا هدف الا المزيد من سسيفك الدماء ، واضعاف البنية الاساسية للمجتمعين الاسلامى والعربى على السواء . فمند البدء رفض الاباضية أصحاب المذهب الاسلامى المنتشر فى عمان خـسلاف المسلمين حول الخلافة . ونادوا بانتخاب خليفة للمسلمين عن طريق الشورى دون اعتبار للنسب القبلى او الاصل العرقى . ويقول الدكتور عوض محمد خليفات فى كتابه والاصول التاريخية للفرقة الاباضية « : شهد أبو بلال ، زعيم هذه الجماعة المعلن ، معركة صفين مع على بن أبى طالب وانكر التحكيم ، واشترك فى معركة النهـر روان

مع المحكمة ضد علي بن أبي طالب . ويدنو أنه لم يكن مرتاحا لما حدث من خلاف وفتنة بين المسلمين ، وصعق لما حل بأقاربه وأقرانه من قتل وتشريد على يد اخوانهم في الدين ، ورأى ان القتال بين أتباع العقيدة الإسلامية بهذه الطريقة الشرسة أمر لا يصح ، فانسحب مع نفر من أصحابه ، وأقام مع أبناء عمومته من قبيلة تميم الذين كانوا يشكلون جزءا هاما من سكان البصرة آنذاك . ولكن وإلى العراق اضطهد هذه الجماعة مما دعاهم إلى الهجرة من العراق . ومع هذا فقد تعقبهم الولاى وأباد من لقيه منهم ، وقتل أبا بلال . وبعده وفي بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجرى ظهرت جماعة الإباضية ، ويقول عنهم الدكتور عوض محمد خليفات الأستاذ بالجامعة الأردنية : « سميت الإباضية بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن أباض الذي تعتبره المصادر غير الإباضية مؤسس المذهب الإباضى . أما العلماء الإباضيون فينسبون إلى عبد الله بن زيد الأزدي العمسلى الذي يعتبرونه أمام أهل الدعوة ومؤسس فقههم ومذهبهم ، ويجمع المؤرخون والمفكرون الإباضيون على أن عبد الله ابن أباض كان يصدر فى كل أقواله وأفعاله عن جابر بن زيد » . . وأيا كان الأمر فى تأسيس هذا المذهب ، وأيا كان الأمر فى معارك الأئمة معلنين ومستترين ، وأيا كان الأمر فى دولة الإباضية فى الجزيرة العربية أو فى بلاد المغرب . فان دورهم فى نشر الإسلام فى أفريقيا الشرقية وأفريقيا السوداء واقتحامهم الصحراء وبعض مناطق الشرق الأقصى دور ثابت لا جدال فيه . ويلخص الدكتور عوض دراساته عن الإباضية فى نقط محددة منها أنه حرّموا قتل الموحدين واستحلال دماءهم ، وحرّموا استعراض الناس وامتحانهم ، كما أن « الإباضيين ينظرون إلى الدين

نظرة واحدة متكاملة لا فصل فيها بين المظاهر الروحية والمادية ولا طفيان لاحداهما على الاخرى ، وتبعاً لذلك فقد أنكروا التصوف ورفضوه « ... وهم من أكثر المسلمين اتباعاً للسنة الشريفة والافتداء بها » أما ما تلحقه بهم بعض المصادر من تهم فانما هو ناتج عن أحد أمرين : الجهل أو التعصب . وأنهم وحدهم الذين طبقوا مبدأ الشورى في الحكم بعد الخليفين أبي بكر وعمر .

وبحث الدكتور عوض محمد خليفات على قلة عدد صفحاته بحث مفيد ومركز . وهو يتجه فيه الى الدعوة الى زوال الفرقة وتحكيم العقل في الخلافات بين المسلمين ، ويقول في ختامه : « ان الوحدة العسرية والتضامن الاسلامي يستدعيان منا ان نحكم العقل والعدل في علاقاتنا جماعات وافرادا . وأن زوال الفرقة بين اتباع المذاهب الاسلامية أمر هام وضروري لتحقيق حريتنا ، ووحدتنا ، ومستقبل اجيالنا . ان الدين واحد والمصدر واحد ولا مبرر للفرقة والاختلاف بين المسلمين ان هم حكموا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم » . . وليس بعد مثل هذا الكلام تعقيب ، وليس بعده اغراء لمن يبحث في الاعماق ويرحل الى الداخل الا أن يلبي الدعوة ويستجيب للنداء . فحسب أن تقوده الرحلة الى كشف جديد في عمق النفس العربية انسيناه في غمسة الخلاف والصراخ والدماء المراقبة . وكان أول الكشف عندي أن روح الرقة والصفاء لم تدمرها بعد كل هذه الزلازل من الاحداث المخيفة في الشمال العربي . وما كانت أرق وأصفى مفاجأة من أن أجد الاخ سالم العبري الملحق

الأعلامى لسفارة عمان فى وداعى بالمطار . وكانت اللفتة
كريمة حقاً . فليس معنى الاستضافة ان يصحبك المضيف
حتى باب الطائرة التى تقلك الى بلده . ولكنها كانت
المبادرة الكريمة التى تفصل بين المجاملة ، والرفقة المتأصلة .
ثم تأكد هذا الكشف حين حلت الطائرة بمطار مسقط
فإذا فى انتظارى عند بابها الاخ محمد بن سالم المرهون
مدير دائرة الاعلام بابتسامته المشرقة ، وذكائه الخارق
الذى استطاع ان « يفرزنى » من بين الهابطين من الطائرة
فيتقدم سائلاً عن اسمى ، ثم مرحباً بى ، ثم مقدماً اياى
الى رفاقه الاخ غازى بن عبد الله مندوب العلاقات
العامة والاخ نجيب بن رجب عوض مراقبى طـــــــوال
اقامتى فى مسقط . وفى القاعة كان اول ما قدم لى التمر
والقهوة . . فانا اذن فى صلب الكرم العربى . . فهنا
نتاج الارض العربية يرحب بضيفها . . فى بلادى يقدمون
البلح والشاي ، وفى بلادى يقدمون القهوة منذ اعماق
اعماق التاريخ ، وفى بلادى التمر رمز الثروة ورمز
الكرم معا . وتقديمهما يعنى انك حلت اهلاً ونزلت سهلاً
.. وان السلام عليك لحظة جئت ولحظة تنزل مكرماً
لا عدوان عليك ولا بغى . . واين هذه الكلمة الان ،
تلفظها الشفاة ولا تنزل منها الى القلوب ، ولا تصعد
منها الى العقول . أصبحت كلمة باهتة لا تعنى شيئاً ،
كمعظم الكلمات والشعارات التى نرددها فى خطبنا
الجوفاء ، ومقالاتنا العصماء ، وتصريحاتنا المبجلة ،
والامر ، مجرد كلمات فقدت معناها الحقيقى ، وعطاءها
الصادق الاصيل ، وافقت على صوت الاخ محمد سالم
المرهون الرقيق الهادىء وهو يقول :
- نصحبك الى الفندق لترتاح الليلة ، وفى الغد ،
وقت ان تستيقظ وتحس انك مرتاح ، خاطبني فى

التليفون لترتيب الامر لزيارتك ..

وأحسست بالامتنان له ، وماذا وانت قد اجتزت ساعتين من الزمن عبر خطوط العرض ليصبح الفرق في التوقيت بين القاهرة ومسقط ساعتين . مجرد التفكير في أنك سبقت الزمن ساعتين يصيبك بالدوار ، فما بالك وان هذا كله حدث دون أن تشعر والطائرة تتحرك بك سرعتها الفائقة المجنونة فتسبق الزمن فعلا .
وسألته :

— اليس هناك برنامج للرحلة ؟
ضحك وهو يقول :

— البرنامج تحدده أنت بعد أن تترتاح ، وتحدد ماذا تريد وماذا لا تريد .. نحن فقط سنيسر لك أمر أن ترى ماتحب أن تراه ، وأن تلتقى بمن تحب أن تلتقى بهم . وأقلتنا السيارة تمرق فوق طرقات ناعمة ، والأضواء في كل مكان تلوح ثم تختفي وراءنا بسرعة ، وأنا لا أرى إلا أشباح جبال وعمائر ، وأضواء منازل تسهر مع ليل هادئة . وفي الفندق تركني المرحبون الأصدقاء .. لقد أحسست لحظة غادروني كأنى أعرفهم من زمن طويل جدا . وجعلت وأنا أركب المصعد يتحرك بى الى الطابق الثالث أستعرض الوجوه ، والابتسامات ، والأصوات ، والكلمات .. ولماذا لا ؟ ألم أجبىء فى رحبلة الى الاعماق ؟ رأى الاعماق سأعرف الا من خلال من القى واحادث . الالتفات الى الانسان أهم فى رحلتى هذه من كل الأشياء الأخرى .. هذه البساطة فى الحديث . وهذه السماحة فى الوجوه ، وهذه الرقة فى المعاملة ليست صدى لاعماق لا تعرف هذا الهم الثقيل الذى يجعلك تنام فى كابوس ، وتستيقظ فى ضيق ، وتحس بالاكئاب وانت تسير وانت تأكل ، وانت تشرب ، وانت

تحدث الصباح . وحين دخلت قُرُفَتِي أحسست ان
حالة الاكتئاب التي لازمتني طوال هذا العام قد تركت
مكانها لنفس تتفتح على رؤية جديدة وفكر جديد .
وفي الصباح كنت أزور المتحف الوطني . وهو مبنى
متواضع يشي بالبساطة . كما يشي بأن الكشف عن آثار
عمان لم يتم بعد ، وان الطريق الى اكتمال المتحف هو
الطريق الى عرض الوجود العماني عبر التاريخ . اللوحات
تحدث عن مراحل تاريخ عمان المعروف . والصخور وبقايا
الآنية الخزفية تتحدث عن الوجود العماني قبل التاريخ .
والملابس والأسلحة والادوات تتحدث عن الوجود العماني
المعيش . والصور تتحدث عن ملوك عمان وقوادها .
والقوارب بأنواعها تتحدث عن بحر عمان ، وعن رحلة
الغامرة والكشف عبر المحيط .. ولم يكن هذا كافيا ،
كنت في المتحف استعيد ما قرأته في الكتب المنشورة
عن الحفريات والتنقيب في أرجاء عمان ، كما كنت
استعيد ما قرأته في المخطوطات المنشورة عن تاريخ عمان
وتاريخ حروبها ومعاركها ومغامرات رجالها في البر
والبحر . ولم يكن هذا عندي كافيا . فقد كنت أحب ان
يكون في المتحف اضافة الى ماقرات ، وأن يصيبني
بالدهشة والمفاجأة .. ولعل المسألة أنني قرأت قبل
ان ارى . وان غري ربا ممن لم يقرأ قد يصيبه المتحف
بالدهشة والمفاجأة .. فالحقيقة أن المتحف يضم كل
ما قد عرف عن عمان طبقا للتوثيق التاريخي ، ولكن
النفس الطموح تتوق الى ما هو أبعد من المعروف والمتداول
من معرفة . وكان الأبعد عندي ، والاضافة الجديدة الى
هو اكتشاف روح البساطة والصدق والتواضع . فلا
ادعاء هناك ولا تزييف . وانما الحقيقة البسيطة بكل

صدقها وبكل مألديها من مادة ومعرفة . ومع هذا فقد
تمنيت وأنا اغادر المتحف الوطني لو أنه حظى بعمارة
أوسع ومساحة أكبر وضم نماذج مجسدة لقلاع عمان
كلها وحصونها الباقية ، ولو أنه ضم جزءا خاصا عن
العادات والتقاليد ، ولو أنه ضم نماذج مجسدة للمحارب
العماني البري والبحري بملابسه واسلحته التقليدية من
الزمن المعروف وحتى اليوم . ولو أنه حوى نماذج
للعالم الماضي الحاضر في عمان كأشجار التمر وجوز الهند
واللسان . لو أني رأيت فيه أدوات صيد الأسماك القديمة
ومراحل صنعها وتطورها لو أن .. لو أن .. وكلمة
« لو » لا تترك النفس المتطلعة تستريح . وعرفت فعلا
أنني قد تركت اكتسابي ورأئي ، وبدأت أتوئب وأفكر
وأتعنى ، وأعود إلى شباب طموح تركته من زمن ..
وما أن غادرت المتحف حتى فوجئت بدعوة للقاء
السيد وزير الاعلام في مكتبه ، والآن . وخطرت ببالي
على الفور عبارة ذكرها « تيم سيفرين » صاحب رحلة
السندباد إذ يقول في أكثر من موضع عندما يتم إنجاز
أمر من الأمور التي يطلبها استعدادا لرحلته : هذه هي
الطريقة العمانية في إنجاز الأمور .. الآن . ولم أكن
أعرف السيد عبد العزيز محمد الرواس إلا من خلال
حديث صديقنا المشترك الأستاذ مكرم محمد أحمد
منه . وعن ذكائه وفعاليته وحماسه الزائد لمهامه ، وغيرته
على رسالة وزارته وأهميتها لوطنه . ولم أجد في كل
ماقاله مكرم أية مبالغة حين رحب بي الرجل في مكتبه
التواضع الانيق . ومكتب أي مسئول في عالمنا العربي
مرآة لشخصيته ، ومرآة لفهمه لمنصبه . والمكتب الذي
دخلته مكتب عمل ، أن تميز بالاناقة والنظافة الراقية
فهو يتميز بالبساطة والعملية الواضحة . والرجل الذي

التقيت به في شرح الشباب يرتدى الدشداشة العمانية
والعمة العماتية ويتحدث في صوت خافت والابتسامة
لا تغادر شفثيه . سألته وأنا آخذ مجلسي الى جواره
فوق مقاعد جلدية بعيدة عن المكتب بعض الشيء :

— سيادة الوزير لماذا الشباب ؟

ونظر الى في دهشة ، ثم ابتسم وهو يقول :

— فهمت . . أنت لم تلتق حتى الان الا بالشباب .
وبالفعل هم يمثلون القوة الضاربة في بناء بلدنا اليوم .
لا تنس ، عمان بلد شاب ، وهي لهذا تحتاج الى الشباب
والشباب المتجدد دائما ومع هذا فانت لم تزر كل مواقع
العمل في عمان بعد . ولو فعلت لوجدت الكهول اصحاب
الخبرات في كل مكان ، فنحن نحتاج اليهم ، ونحتاج
الى خبرتهم وعلمهم وحكمتهم في كل مكان ، فنحن شعب
يعرف قدر آباءه جيدا وكذلك قدر اجداده . .

وسكت لحظة ثم ضحك ، وقال :

— أخبرني ماذا تريد أن ترى ، ومتى ، فانا افضل

أن تضع برنامج زيارتك بنفسك .

ومضينا نتحدث عن زيارتي لعمان وعن الف ليلة
وليلة ، وعن رحلة تيم سيفرين من مسقط الى الصين
في سفينة مصنوعة على نمط السفن القديمة ، تلك
الرحلة التي سماها سيفرين رحلة السندباد . ثم انتقل
الحديث الى هموم اعلامية وثقافية ولعلها لا تمس عمان
وحده قدر ما تمس العالم العربي كله ، وختم الوزير
الشباب المتحمس حديثه قائلا :

— في توجهنا الاعلامي نحن ندرك تماما أن عمان جزء

من العالم العربي .

وأثارت هذه العبارة همومي كرجل عمل في الاعلام
العربي أحلى سني عمره وأخصبها . وسألت نفسي هل

يدرك العالم العربي في توجهه الاعلامى أنه عالم عربى واحد ؟ .. فى خضم الاذاعات التى تفرق ولا توحد ، وتخلق الفرقة والبغضاء بدل الحب والتعاطف ، والتى لا تتورع من أن تذيع الأكاذيب والاختلاقات ، وتضخم المزاعم وتحتشد الافتراءات ، حتى أصبح المتلقى يبحث عن الخبر الصادق والذى يمس وجوده ومنطقته وأهله فى الاذاعات الاجنبية الناطقة باللغة العربية . والتى عرفت نقطة الضعف هذه ، فضاغت من جرعة الصدق فى اخبارها، كما ضاغت من الاهتمام بالمتابعة الخبرية لكل حدث يقع فى كل جزء من اجزاء الوطن العربى، وأصبح المتلقى العربى - بين الاحداث الخطيرة فى منطقته - مرتبطاً بالمؤشر الذى يثبت جهاز استقباله عند هذه المحطات ليعرف الخبر اليقين . وليأخذ حقه الطبيعى فى متابعة الحدث ، ومعرفة تطوره الحقيقى ، وردود أفعاله المحلية والعمالية على السواء .. وفى خضم الاذاعات التى تهتم بقضاياها الاقليمية الضيقة بحيث تفرق متلقيها فى صيغ متكررة مملة ، تكاد من كثرة تشابهها تصبح كلها خبراً واحداً ، او عدة اخبار ثابتة تتناول الرسميات المحلية ، وتزيد من اغراق المتلقى فى توقعه ، وتنمى فيه حس الانفصال الزائد عن الكل المكون لوجوده ، فاذا ما بحث عن محطة عربية اخرى وجدها هى الاخرى غارقة فى محليات لا تهتمه او تعنيه ، فاذا ماكرر التنقل بين محطاته العربية المتعددة - وما اكثرها كما هذه الايام وما اكثرها تشابهها فى الكيف - هرب منها جميعا الى العالم الرحب يأتية عبر الاذاعات الغربية التوجه ، العربية اللغىة ، فمرف منها مايكفيه من زاد يربطه العالم من حوله . والمدهش أيضاً انه يربطه بعالمه العربى نفسه أكثر مما

وفقا لما حددت . وهكذا تقرر أن أزور باقي المتاحف في مسقط ومطرح ، وأن أزور قلعة نزوى ومدينة نزوى ، وأن أسافر إلى صلالة ، وأن أزور فلج دارس ، كنموذج للافلاج في عمان . كما وعد بتسهيل لقسائي ببعض أدباء عمان وبرجال الاذاعة في مبنى الاذاعة والتليفزيون ، وبرجال الصحافة في جريدة عمان ، وبرجال الثقافة ، وحدد لي بالفعل موعدا مع مدير القلاع وموعدا مع مدير المخطوطات . . ثم نحينا الحديث الرسمي جانبا وبدأنا نتحدث عن هموم المثقفين في عمان . فإذا بنا نتحدث عن هموم المثقفين في العالم العربي كله . كيف يمكن أن تصل الجريدة التي تصدر في عمان إلى المتلقي والقارئ في كل مكان في العالم العربي ليلقاها بنفس الاهتمام الذي يلقي به جرائده التي تصدر في بلاده . وكيف يمكن أن يتواصل المثقفون العرب ثقافيا وهم لا يعرفون ما يصدر من كتب جديدة وأبحاث علمية وإبداعات أدبية في الاقطار الأخرى من البلاد العربية ؟ بل كيف يمكن أن تكون رأيا عاما ثقافيا ونحن مختلفون في مناهج التعليم وخاصة الجامعي ؟ ويكرر كل منا نفس مقالته وقلمه من سبقوه في الميدان العلمي وهو يتصور أنه يأتي بفتح جديد . وبمعنى أوضح كيف يمكن أن نسير في تواصل لا في تواز ، وكيف يمكن أن نسير إلى الامام لا أن نعود إلى الوراء . . ؟ وانصرفت من مكتبه البسيط وأنا احس أنني ازداد أمعانا في الرحلة إلى الداخل . وأنتي كلما سرت في هذه الرحلة خطوات أعادتني هذه الخطى إلى همومنا في الخمسينيات أيام الشباب البساکر ، زمان كنا نتكلم من إعادة النظر في التراث ، وإعادة النظر في المسلمات التي جمدت حياتنا الثقافية بقيود التكرار والتشابه في الأبحاث حتى العلمية الأكاديمية منها ، وفي

النتائج التي تسفر عنها هذه الأبحاث، فإذا هي لا تقدم
جديداً ، ولا تدفع الفكر خطوة إلى الامام . وإذا نحن
نعيش نفس المقولات التي ظلت مئات السنين تتردد من
جيل إلى جيل ، وكانت أزمنا الكبرى حين عينا في
التدريس فور التخرج في الجامعة أننا وجدنا أن مهمتنا
أن ندرس نفس المناهج بل ونفس الكتب التي تعلمنا منها
ونحن في المرحلة الابتدائية ، وكان السنين لم تمض ،
وكان العالم لم يتغير . والمشكلة أننا كنا نحس أن العالم
قد تغير بالفعل ، بل وتغير تغيراً خطيراً وواضحاً ولم يعد
تجاهله ممكناً . . . ولذلك لم يكن انضمام جيلنا بكل
الحماس لثورة ١٩٥٢ مستغرباً ولا شاذاً . وفي عمان
من الواضح أنهم يعيشون بروح الثورة وباندفاع الثوار،
وتمرور في أعماقهم كل هذه الهموم وكل هذه القضايا .
وتقفز أمامهم كل هذه الأسئلة . الفرق أنهم قادرون على
الفعل ، وقادرون على إزالة المعوقات ، وقادرون على
البناء . فهذه القيادات في هذه المراكز تعرف وتريد أن
تعرف ، وتقدر وتحاول أن تكون قادرة . .

ورحلتني إلى الداخل هذا اليوم ما يؤن لها بعد أن تتوقف
فما أن وصلت إلى الفندق حتى وجدت في انتظاري
دعوة كريمة للعشاء في بيت مصري في عمان . وبعد
قليل كنت في بيت الأذاعي الصديق محمد مرعي ، أحد
البناء المكرمين من الذين عملوا معي في صوت العرب .
وعلى الدعوة كان هناك من الأذاعيين الأصدقاء رئيس
صلاح الدين وذكرياً سليم وهم جميعاً يعملون في عمان ،
وكان معهم الصديق وجدى الحكيم والصديق يوسف
مرزوق وكانا في عمان لأعداد برنامج غنائى تليفزيونى من
إخراج يوسف مرزوق بمناسبة الاحتفالات بالعيد القومى .
وكان مع يوسف طاقمه الكامل من مصورين ومهندسين

ومساعدين .. ومن رجال الاعلام الشاعر مصطفى
الضميراني ملتقنا الاعلامي بعمان والاستاذ محمد العفيفي
من الاخبار وهو يعمل في جريدة عمانية ، ومعهم الصديق
العماني الشيخ هلال العامري من كبار رجال التلفزيون
العماني في السابق .. وكان العشاء مفاجأة لي ، فكأنني
عدت الى القاهرة فالسيدة زوجة الاستاذ محمد مرعي ،
وهي اذاعية ايضا اعادتنا الى المائدة القاهرية بكل سخائها
وعطرها . وقال الشيخ هلال :

— ما أسعدني بهذه الجلسة وسط كل هذه الوجوه
الحبيبة ..

وأحسست برقة الجمالة ، ورقة الاستضافة ، فرغم
اننا في بيت مصري الا أنه آخر الامر بيت في عمان .
ونفس هذا المعنى هو ما أحسه الصديق محمد مرعي
اذ رد قائلا :

— نحن جميعا في ضيافتك ياشيخ هلال .
وطرق الشيخ هلال العامري الحديد وهو ساخن ،
فقال :

— هذه فرصة لنسمع فيها عن الاعلام كلاما صريحا ،
فالكل هنا من رجال الاعلام ، وضيقتنا اعلامي نعرفه .
ضحك مرعي وقال :

— ينقصنا الميكرفون لتكون جلسة مسجلة .
وفتح يوسف مرزوق باب الحديث بذكر مشكلاته التي
يلقاها عند تصوير الواقع وعند اختيار خلفيات مناظره .
وكان يتحدث بحماس زائد ، رغم أنه كان عائدا لتوه من
يوم عمل شاق . وظهر وسط هذا الحماس أن العمل
بالنسبة له يوافق هوى في داخله ، ويصادف احساسا
بأنه يحقق انجازا حقيقيا يسعد هو له . وعندما سألته
عن حماسه هذا قال :

— فى كل مكان أحس بالجدية والصدق ، الناس هنا
تذكرنى بما كنا فيه من حماس فى مصر فى أواخر
الخمسينيات .:

وضحكت فقد خطر لى نفس الخاطر قبله بقليل ، وعاد
يقول :

— وحماسهم لما يفعلون وينجزون ، واحساسهم
بالفخر بما تصنتعه أيديهم من حاضر ، ينتقل لا الى وحدى
وانما الى كل العاملين من مصورين ومهندسي اضاءة
ومساعدين ، فنجد أنفسنا نعمل باندفاع وكأننا فى مباراة
معهم اينما يفوق الآخر فى حماسه للعمل .

وسأله الشيخ هلال :

— والصعوبات يا استاذ يوسف ، الصعوبات ... ؟

رد عليه وحدى الحكيم قائلا :

— كل شيء هنا مدلل ، فانا كمنتج منفذ للعمل اعرف
كل ما يطلبه المخرج ، وايا كان ما يطلبه هذا شاقا وشاذا ،
فهو يدلل ، ليس هناك شيء اسمه عقبات لا يمكن التغلب
عليها . ولهذا فالعمل يسير بسرعة شديدة جدا . وتعاون
كل الاجهزة شيء لفت ومسعد فى نفس الوقت .

قال الاستاذ محمد مرعى :

— ما قاله الاستاذ يوسف مرزوق عن جو الخمسينيات
صحيح . فنحن هنا نعمل من مدة طويلة ، ونحن نسير
داخل الاذاعة على روح الود والتآلف ، وروح التعاون
المثمر التى كانت تسود اذاعة القاهرة فى الخمسينيات
والستينيات ، كأنها رسالة وطنية واجبة ، لا مجرد عمل
يومي ممارس . الابتكار دائما هو الرائد ، ومحاولة التفوق
على الذات دائما هى السائدة .

وكان لابد لى أن أسأله :

— ماهى المشكلات التى تواجهونها فى العمل الاذاعي

هنا ؟

ضحكاً وهو يقول :

— هي نفس المشكلات التي كنتم تواجهونها في بدايات العمل الاذاعي في مصر مع فارق الامكانيات البشرية .
فتنقصنا كوادِر صالحة للتمثيل الاذاعي التي تقف على مستوى المنافسة مع مثيلاتها في الاذاعات الاخرى . ولهذا فنحن نضع في البرنامج نسبة من المواد الدرامية المشتركة او المتبادلة . ونستطيع ان نقول نفس الكلام عن الكوادِر القادرة على الكتابة الاذاعية سواء البرامج الخاصة والتمثيلية او البرامج الثقافية . ونحن نكتب معظم المواد بانفسنا ولدينا هنا زميل مهمته الكتابة ، اعنى وظيفته ان يكون كاتباً ، وهو شيء جديد في دنيا الاذاعات ، ولكنها تجربة ناجحة . واعتقد ان دخول الجامعة من العام القادم الى دنيا الحياة سيجعل من الممكن سد مانحسه من نقص بعد تخرج الدفقات الاولى من طلبة الدراسات الادبية . ونحن نبذل كل الجهد هنا في تدريب الاذاعيين العمانيين ، وهم يحظون بكل رعاية من الوزارة ، ويرسلون الى دورات تدريبية في كل مظان التدريب الاذاعي في العالم العربي وغير العالم العربي ، فالمعرفة رائد هام في تكوين الاذاعي ، وتدريبه المستمر مسألة رئيسية في نموه وتفوقه .

واشترك الجميع في الحديث ، وتشعبت المناقشة وبرزت اكثر من قضية هامة . فامتداد السلطنة شرقاً يحتم وجود محطة في ظفار ، وهذا ماحدث . فمحطة ظفار تعمل في البث الدائم للاذاعة الرئيسية ، وتذيع بعض المواد التي تبث على نفس الموجات الرئيسية . ثم هناك هذا القرب الشديد من الساحل الايراني الذي يجعل مسقط وما جاورها عرضة للغزو الاثري ، اذ كثيراً ما تسمع محطة الاهواز بوضوح شديد ينافس وضوح

المحطات العاملة العماتية . وهذه مسألة حلتها الموائيق
الاعلامية الدولية ، ولكن ايران تعتبر نفسها في حالة
حرب ، ولهذا فالاهتمام بالالتزام بهذه الموائيق يبدو غير
جاد الى حد كبير ، وهذه القضية قضية هندسية أصدر
وزير الاعلام توجيهاته بسرعة حلها ، وستحل في القريب
العاجل .

ثم هناك اخيرا ودائما مشكلة اللغة . . وكنت قد
لاحظت اثناء استماعي لجهاز الراديو في العربية التي
تقلنى من مكان الى مكان ، ان اللغة الفصحى شديدة
الفصاحة تستعمل بكثرة . وتنطق بنطقها التمثيلي الفخم
الذى ثبتته مدرسة زكى طليمات في طلبة معاهد المسرح
في العالم العربى ، والذى اعتاده كبار الممثلين الاذاعيين
وخاصة في مصر - بما في ذلك استعمال الجيم المعطشة
القرشية ، رقم ان اهل عمان ، واهل اليمن ومعهم اهل
مصر ينطقونها دون تعطيش . وسألت عن سر هذه
الظاهرة ، واجابنى الاستاذ محمد مرعى بأن معظم هذه
البرامج مسجلة خارج عمان ، وانهم يراعون الفصحى
لتكون اللغة العامة التى يفهمها الجميع ، فعمان مليئة
باللغات العامية المختلفة والمتباينة . ولست أرى هذا
حلا . اذ ان للاذاعة لغتها الخاصة ، والبحث عن لغة
الاذاعة أو اللغة الثالثة أمر حيوى ، والفصحى ضرورية
الاستعمال حتى تبقى مفهومة فهى لغة القرآن الكريم ،
ولكنها بالنسبة للمستمع ليست لغته اليومية المستعملة،
وليست أيضا اللغة السهلة الفهم ، السريعة الوصول
الى ذهنه وواعيته . فالفصحى المستعملة عادة في مثل
هذه الاعمال لغة قاموسية تحمل المعنى ولا تحمل الدلالة
الانسانية التى لا يمكن للغة ان تحملها الا اذا كانت لغة
حية ، استطاعت الفاظها ان تعيش عبر الحياة ،
واستطاعت ان تحمل من التراكبات الانسانية والتجارب

المعاشة ، ما يجعلها تنبض بالظلال والإحالات والزموز
التي تثرى عقل ووجدان متلقيها ، وتسهل على
مستعملها القدرة على ترجمة فكره ممزوجا بعاطفته في
آن واحد . وفي الاعلام نحن لا نستعمل هذه اللغة إلا
في التمثيليات التاريخية . وحتى هي في هذا الاستعمال
محل نظر ودراسة . وانما نحن في الاعلام نستعمل
اللغة الصحيحة نحويا وصرفيا ، ولكنها اللغة العامة التي
يستعملها المثقفون في حياتهم اليومية . تلك اللغة التي
انتخبناها الحياة والاستعمال المستمر وحدهما . لغة تم
نضجها على أيدي الكتاب والصحفيين والإذاعيين لفترة
طويلة ، ونسميها اللغة الثالثة . وهي لغة مفهومة وجيدة
التوصيل . . لا يتوقف سامعها عند لفظ لم يفهمه ، أو
تعبر قديم لا يآلفه . فالإذاعة وجود في زمان ، بمعنى
أن الكلمة حين تقال لا يستطيع أحد أن يستعدها ليقف
عندها معملا فكره ، وانما هي تمر وتعبر بلا عودة . ولو
شغلت كلمة ذهن المستمع للحظة يحاول فهمها ، لفاتته
باقي الكلمات ، وضاع منه المعنى الكلي من المادة المقدمة
له . وعملية البحث عن لغة للإذاعة عملية هامة جدا ،
فالصحة اللغوية أساس مطلوب ، والسلاسة اللغوية أساس
مطلوب ، وبينهما أو معهما لابد أن يتحقق التآلف الكامل
باللغة كالألفاظ وكأداء وكتوظيف ، بحيث تؤدي وظيفتها
دون أن تشغل المتلقي بوجودها نفسه .

وقضايا وقضايا ، وهموم وهموم ، وداخل النفس
يتكشف عما يشغل النفس . نفس . ونفس المثقف
العماني ، ونفس كل مثقف في الأرض العربية ، وممرت
الليلة في هذا النقاش الثرى والكاشف في آن ، وعباد
سندباد الفكر من رحلة اليوم متعبا مرهقا ، وأغرق في
نوم عميق استعدادا لرحلة الغد الجديدة في يوم
جديد .

عُمان والتاريخ

فى مرحلة الطفولة والصبا ، وفى مرحلة الشيخوخة والافول ، لانرى الاشياء الا رؤية خدية ، فهى اما بيضاء ناصعة ، واما سوداء فاحمة ، وبينهما تنعدم عندنا الالوان . . فلا نعرف بالوان الطيف اما فى مرحلة الفتوة والرجولة الكاملة ، فنحن نعرف أن الدنيا عالم من الالوان ومن درجات الالوان — ونعرف أن هذه الالوان تتمازج بعضها مع بعض فتخلق الوانا جديدة فى عالم لا ينتهى من الوضوح والقوة ، والغموض والضعف . وساعتها لانعرف بالترادف فى اللغة ، فليس من كلمة يمكن أن تحل محل كلمة ، لان المعنى الواحد درجات ، وكل كلمة تعطى نفس المعنى ، وهى ليست تؤديه هو نفسه ، وانما تؤدى درجة معينة منه ، ومن هنا فلها دلالتها المستقلة ومفزاها الخاص — وفى الحالة الاولى نحن نريد المعلومة مبسطة ومتفقة مع قاعدة الابيض والاسود ولا لون بينهما . وفى الثانية نحن لانريد الحقيقة الا ممزوجة بالحس الانسانى ومتفاعلة مع ما فى حياة الانسان من الوان متعددة ، ودرجات فى الالوان متباينة . ومن هنا ايضا كان اختلاط الامر فيما ينقل الينا من أحداث ومعلومات عن شعوب من الشعوب أو أمة من الأمم . . فنحن فى حال لا نريد الا الحقيقة مجردة لاعمق فيها ولا تاويل لها ، لا تقل ماقد تتحملة من تردد أو تغير أو اختلاط .

وفى الثانية نحن نحب هذه الحقيقة حية ممزوجة

بمعنى تقلب الحياة واختلافها ، وبمعنى تغير الحياة وتطورها ، وبمعنى الرؤية المتعددة للون الواحد ، فإذا هو درجات ودرجات ، كل درجة تحمل عاطفة ومغزى ووجدانا .. والعلوم المرتبطة بالإنسان لا تعرف القوانين الحسية الصارمة ، ولكنها تعرف معها وجود هذا الكل الشامل الذى يعود ليربط هذه الحقيقة الحدية بالحياة فإذا هي تمتلئ بالتناقضات والاختلافات ، وإذا هي وجه من وجوه الرؤية ، ولمحة من عطاء الإنسان فى موقف ولحظة ما ، ولكنها ليست كل عطاء الإنسان من وجوهه المختلفة ولحظاته المتعددة والمتجددة معا .

ويتقدم الفن ليكمل الصورة ، ويعطى البناء شكله المتكامل ، والفن من شعر وملاحم وقصص ومسرح إنما هو المحاولة لتعميق الرؤية الحدية للتاريخ ، وإخراج النظرة من مرحلة الطفولة أو الشيخوخة ، لتظل دائما فى مرحلة الرجولة والنضج ، مرحلة الحيوية والتفاعل ، وتعدد الألوان ، ومحاولة البحث عن زوايا الصورة وما تحمله من وجدان وعطاء إنسانى ثرى .. ولعل علماء من العلوم الانسانية لا يعانون دائما هذه التجربة قدر علم التاريخ . فالتاريخ رصد لحركة الإنسان عبر الزمان وعبر المكان ، وهو بهذا علم طموح ، لأنه بهذا الرصد إنما يصبح علم العلوم ، فهو يتحدث عن الإنسان فى إطار من فعل المكان وفى إطار من فعل الأحداث ، وفى إطار من التفاعل بينه وبين غيره . وفى إطار من تأثيره بحركة الحضارة الانسانية والنمو العمرانى . وقد أدرك المؤرخون العرب هذه الحقيقة فرصدوا الى جوار الأحداث التى تتعلق بالقادة أو الملوك ، وإلى جوار التطورات التى تحدث للمجتمعات فى داخلها ، وإلى جوار تشابك

المجتمعات المختلفة وتصادمها وتفاعلها ، رصدوا ماهو
 وليد خيال الانسان في نظرتة للامور والاحداث ، وماهو
 وليد تفسيره التلقائي لحياته وحياة الآخرين ، وما هو
 انفعاله بوقع هذا الوجود على وجدانه . فامتزج العلم
 عندهم بالمتراكمات الفولكلورية ، كما امتزج بيقينايا
 الاساطير والملاحم : وزاته دائما وباستمرار عطاء الشعراء
 وابداع الرواة والقصاصين ، والمؤرخون العسرب حين
 قبلوا كل هذا قبلوه اما راضين واما راغمين . اما الرضاء
 فجاء من ظموحهم الى ذكر اول العالم وبدايات الاشياء .
 والى دخولهم بتواريخهم الى كل مجال من مجالات
 الحياة الانسانية ، الى خلق العالم وذكر تكوين الدنيا
 والى تواريخ الشعوب التى تسكن حولهم والتى يعرفونها
 أن يسمعون عنها ، والى الحديث عن النبات والحيوان
 والبحار والنجوم والكواكب ، والى ذكر الخوارق والسحر
 وعادات الشعوب وظرائف واسمار هذه الشعوب ، الى
 الحديث عن النفس والروح والمادة والجوهر . الى الآراء
 والنحل والجدل والمذاهب . فهم لم يكونوا مؤلفين
 تاريخيين وحسب ، وانما هم اقرب الى الراصدين لثقافات
 الشعوب وعاداتها ، الى جوار اخبار ملوكها وقاداتها ، ومن
 هذا المدخل دخل الشعر الذى هو فن العرب يرصعون
 به كتاباتهم ، ويسنشهدون به على صحة مقولاتهم . بل
 لقد كان الشعر والغناء وما صاحبه من ضروب الايقاع
 والعرف مدخلا لواحد كالأصفهاني فى تاريخه لحياة
 العرب فى جاهليتهم واسلامهم وحتى عصره .
 وأما الاضطراب فقد جاء لان التناقل الشفاهي للاخبار
 قد فرض نفسه وفرض طبيعته . . ومن طبيعة التناقل
 الشفاهي ان يرتبط بما يساعد على الحفظ ، ومن هنا كان
 الاعتماد على الشعر كوسيلة قولية الصق بالذاكرة واقرب

الى الحافظة . ومن طبيعة الناقل الشفاهى عدم الدقة ،
والارتباط بموقف الناقل ورأيه ومصالحته .
ومن طبيعة الناقل الشفاهى أيضا الاقتراب الشديد
من ميدان الحكى والقصة ، ومن فنى الحكى والقصة
وما يصاحبهما من أعمال الخيال وانطلاق المخيلة والرغبة
فى الحكمة والاختراع وجذب السامع وامتاع المتلقى . .
والى جوار الناقل الشفاهى هناك محدودية الطاقـة
الانسانية ، وما تتعرض له من عوامل التقصير والاهمال،
ويقول المسعودى فى مروج الذهب : « على أنا نعتذر من
تقصير أن كان وتتنصل من اغفال أو عرض لما قد شاب
خواطرننا ، وغمر قلوبنا ، من تقاذف الاسفار ، وقطم
القفار » الى أن يقول : « ثم مفاوضتنا فى اصناف الملوك
على تغاير اخلاقهم . وتباين همهم ، وتباعد ديارهم ،
وأخذنا بمسلك مسلك من موافقهم » ثم يقول مؤكدا
اسباب الاختلاط والقصور « على أن العلم قد بادت
آثاره ، وطمس مناره ، وكثر فيه العناء ، وقل الفهماء ،
فلا تعان الا مموها جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا ، وقد قنع
بالظنون ، وعمى عن اليقين » . . ولكن على الرغم من هذا
الادراك الفطن لصعوبة المهمة ، وعلى الرغم أيضا من
رجوعه الى العديد من المؤرخين المعروفين التى بقيت
كتبهم لنا والتى طواها النسيان والاهمال فضاعت ، الا
أن المسعودى قبل فى كتابه من الحوادث والاخبار ما أخذ
عليه وعد من مثالبه ، ولعل أشد الناقدين له كان ابن
خلدون الذى أخذ عليه ماحكاه عن جيوش بنى اسرائيل ،
كما نقد حديثه عن ذى الازعار من ملوك التبايعه فى جنوب
اليمن إذ يعقب على ماأورده المسعودى من أخبار بقوله
« وهذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحة ، عريضة فى
الوهم والغلط وأشبهه بأحاديث القصص الموضوعة » . .

وتحكي ابن خلدون المؤرخين عموما من تلقى الاخبار دون تمحيص ، وينصح بأن تعرض على قواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في المجتمع الانساني لبيان هل توافق ما هو معروف عن العصر الذي تحكى عنه أم تخالفه ، ويقول : « وكثيرا مارقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشا أو ثميناً ، لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار . فضلوا عن الحق وتاهوا في ييـداء الوهم والغلط ، ولا سيما في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ، ولا بدر من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد » . .

ونحن سنجد هذا الموقف من المؤرخين لعمان واضحا في المقدمة التي كتبها الدكتور سعيد عبد الفتاح هاشور للمخطوطة التي حققها باسم « تاريخ أهل عمان » . . فهو يقف أمام الظواهر المتعددة التي يجدها عند المؤرخين العرب لعمان ، فاذا هي نفس هذه المزالق التي تعرض لها التاريخ عند العرب منذ البدء ، واذا هي محاولة لذكر الحقيقة مغلقة دائما بهذا الفهم الانساني الذي يدخل بها في عالم ألوان الطيف المتعددة ، وفي عالم محاولة العشور على درجات ألون الواحد مهما دقت بينهما الفروق . فهو يقرر مرة « ان التاريخ يعبر عن الماضي ، يعبر عن أشياء حدثت فعلا ، يعبر عن سياسيات وأوضاع وعلاقات وحروب ووقائع وأحداث جرت ، ولا مجال كبير للخلاف حولها . . يصور اناسا حكاما ومحكومين - قاموا بدورهم على مسرح الحياة البشرية .

منهم العظيم ومنهم الوضيع ، فيهم الامين القوي صاحب الهمم ، والخائف الضعيف المتقاعس .. ولا بد من أن تتشابه صور التاريخ في كافة كتبه وكتابات ، وطالما يلتزم المؤلف بالحقيقة كاملة ، ويتحرى الاحداث غير ناقصة ، وينأى عن الاهواء وتعمد المسخ وافتصال التشويه .. » ثم يقرر مرة أخرى « نلاحظ قوارق بين الكتابات التاريخية عندما نتعرض لسوق رواية واحدة ، حتى لو كان مؤلفو هذه الكتب استقوا روايتهم من مصدر واحد . ذلك أن المؤرخين اللاحقين عندما يأخذون عن السابقين فانهم أحيانا لا ينقلون نقلا حرفيا ، وإنما يعبر كل واحد منهم عن شخصيته وعقليته واتجاهاته الفكرية واحاسيسه ، وكثيرا ما نقرأ رواية في كتابين من كتب اللاحقين اخذاهما عن مصدر واحد سابق عليهما ، ولكننا نجد بعض الاختلافات في العرض والتفاصيل ، أحدهما أطيب والآخر تعمد الإيجاز ، أحدهما حرص على أن يذكر كافة الاسماء المرتبطة بالحدث من قريب أو بعيد ، والآخر اكتفى بذكر اسم أو اسمين ، وربما علق بعضهم على ما حدث برأى جديد يعبر عن وجهة نظره ، أو استقاء من مصدر آخر لم يطلع عليه غيره ، مما يجعل لكل كتاب طابعه ومزاياه » .. وإذا كان هذا الحديث ينطبق على معظم الكتب التاريخية العربية فهو بالنسبة للكتب المكتوبة عن عمان وتاريخها واحداث ملوكها أكثر انطباقا وصحة .

وبادئ ذي بدء سنجد أن الاشارات عن تاريخ عمان في كتب التاريخ الكبرى محدودة وغير كافية ، سواء في ذلك كتب الطبري أو المسعودي أو ابن الأثير وابن سعد أو اليعقوبي وابن مسكويه أو ابن خلدون والبلاذري أو حتى ابن هشام الذي يتعرض لعمان في حديثه عمن

مرحلة دخولها الاسلام ، وايفاد عمرو بن العاص اليها من قبل الرسول الكريم . ويرجع الدكتور سعيد عاشور هذا الى أن المؤرخين العرب « سلطوا الاضواء على قلب الدولة الاسلامية ، وافاضوا في وصف ماكان يجرى فيها من تيارات سياسية وحضارية ، ودون أن تحظى اطراف الدولة - في المشرق والمغرب جميعا - الا بنسبة ضئيلة متفاوتة من عنايتهم » .. وربما صدقت هذه المقولة على جهود المؤرخين الذين عاشوا في قلب الدولة الاسلامية ، ولكنها في الواقع لا تندرج على المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ بلادهم قبل وبعد الاسلام ، كما فعل وهب بن منبه بالنسبة لتاريخ اليمن ، وكما فعل ابن خلدون بالنسبة لتاريخ المغرب . وكما فعل ابن تغرى بردي بالنسبة لمصر ، وكما فعل البيهقي بالنسبة لفارس ، اذ هنا يدخل الارتباط الشخصي بالمكان ، والعلاقة الحميمة التي تربط الكاتب باقليمه فيهتم برصد تاريخ هذا الاقليم في اطار التاريخ الاسلامي العام .. والمكتبة العربية لا تكاد تعرف من الكتب المؤلفة في التاريخ العماني الا العدد القليل جدا . فهناك كتاب ابن رزيق المؤرخ العماني وكتابه المعروف باسم الفتح المبين وقد طبع في طبعته الاولى في القاهرة . وعرفت القاهرة ايضا كتاب « تحفة الاعيان في سيرة اهل عمان » للشيخ ابو محمد عبد الله ابن حميد بن سلوم السالمي . كما اشتهر كتاب « كشف الغمة الجامع لخبار الامة » لسرحان بن سعيد الازكوى ، كما عرف ايضا كتاب « قصص و اخبار جرت في عمان » لمحمد بن عامر بن راشد المعولى - ويعتمد المؤرخ العماني الكبير الشيخ سالم بن حمود بن شامس السيابي على هذه المراجع المعروفة في كتابه الضخم « عمان عبر التاريخ » .. كما يعتمد ايضا على المؤرخين العرب

الموسوعيين ، في تمحيص ومقابلة ما جاء في هذه الكتب ، ويعتمد أيضا على مجموعة من المخطوطات التي لا يعرف كتابها ، وإنما وجدت نسخ المخطوطات دون وجسود الصفحات الاولى التي تحمل اسم المؤلف ككتاب تاريخ عمان ، وكتاب تاريخ اهل عمان الذي حققه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذي لا يفوته في المقدمة أن يتعرض لهذه الظاهرة وأن يعلل لها قائلا : « ان هذا التراث تعرض نتيجة لاحداث الزمان - لما تعرضت له بقية جوانب التراث الاسلامي في شتى البلاد ، من الضياع والبصرة والتشتت . هذا فضلا عما كان يصاحب الحروب المحلية والفتنة الداخلية من تخريب وافساد واحراق ، مما عصف بكثير من آثار التراث العماني » . . . وعلى الرغم من أن الدكتور عاشور لم يتحدث عن الخلافات المذهبية بين المتشددين والمعتدلين داخل المذهب الاباضي والتي أدت الى الكثير من الحروب والفتن الا أن الاستاذ « اف . س . ولكنسون » في أطروحته العلمية عن « تراجم علماء عمان » يلمح الى هذه الصلة الكبيرة بين الحركة العلمية في عمان وبين تقلبات السياسة فيها ، فهو يقول في رسالته التي ترجمها الاستاذ محمد أمين عبد الله : « ان التاريخ العماني في حد ذاته محدود الاطار الى حد لا يصدق ، لانه يعتمد على مجموعة من العلماء الاباضيين فحسب . وهؤلاء العلماء هم الذين حافظوا على ذلك التاريخ ، وهم يرون أن تسجيل الاحداث التاريخية ، حسب مفهومهم ، ينبغي أن يخضع للشريعة والفقهاء الاسلامي ، أي تسجيل تاريخ وجود الجماعة الاسلامية نفسها في جنوب الجزيرة العربية . وأما فيما يتعلق بالنشاط القبلي فيمكن والحالة هذه أن يكتب بكثير من التفصيل ، لان هذا

التاريخ مرتبط بشكل مباشر بتلك الجماعة . أما ما يحدث خارج عمان حتى ولو كانت له علاقة بما يجري داخلها فإنه لم يكن يهم المؤرخين العمانيين في شيء . لانهم يعتقدون أن ذلك من صنع « الجبابرة » أي السلطة غير الشرعية .. ومعنى هذا أن الموقف الذهبي دافع للمؤرخين لتسجيل حركة المذهب وأئمة ، وهو في ذات الوقت منظار يحدد كيفية رؤية الأحداث ، وكيفية تفسيرها ، بل هو أيضا الميزان الذي يوزن به الحدث وقيمه وأهميته ، والميزان الذي يوزن به الرجال ، وتقدير أفعالهم .. وربما كان هذا أيضا هو السبب في أن المؤرخين من خارج المنطقة أهملوا هذه المؤلفات التاريخية في كتابتهم للتاريخ الاسلامي العام ، ولم يهتموا بها إلا فيما يتعلق بكتابة تاريخ عمان نفسها ، أو في التعرف على الحركة الإباضية ورجالها وأئمتها ، ولعل هذا أيضا هو السبب في تشابه الكتب ، اذ ينقل بعضها عن بعض بصورة تكاد تكون متطابقة . حتى ليقول الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسي محقق الفصول التي طبعت من كتاب « كشف الغمة الجامع لآخبار الامة » للازكوي باسم « تاريخ عمان » : « مما يجمل ذكره في هذا الصدد أن هناك كتابين آخرين في تاريخ عمان يكادان أن يكونا صورة طبق الاصل من هذا الجزء الذي نشره اليوم من كتاب « كشف الغمة » ، والكتاب الاول هو كتاب « قصص واخبار جرت في عمان » من تأليف أبي سليمان محمد بن عامر بن راشد المعولي . والكتاب الثاني هو « تاريخ عمان » مؤلف مجهول . وكل الفرق بين هذه الكتب الثلاثة هو ان « كشف الغمة » تقف أخباره عند العام ١١٤٠ هـ - ١٧٢٨ م . في حين يمضي كتاب القصص والاخبار الى أبعد من هذا قليلا فيصل الى عام ١١٥٩ هـ - ١٧٤٦ م .

ويستمر تاريخ المؤلف المجهول الى أبعد من ذلك فيصل
بأخباره حتى نهاية القرن الثامن عشر وإلى أيام السيد
سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد أي إلى حوالي عام
١٢١٥ هـ - ١٨٠٠ م . وهذا التطابق الكامل يوقع
المؤرخين والباحثين في حيرة شديدة. عندما يعثرون على
مخطوط يؤرخ لعمان ، فهل هو جزء من كتاب من هذه
الكتب المعروفة ، أم هل هو مؤلف جديد يكتشف لكاتب
لا نعرفه بعد ؟ وقد وقع الأستاذ عبد المجيد حسيب
القيسي في هذا الاشكال حين ناقش حقيقة نسبة الكتاب
إلى مؤلفه الأزكوي اذ يقول : « والمعولى مؤلف كتاب
« قصص وأخبار » رجل معروف أرخ له المؤرخون
العمانيون وذكروا أنه كان عالما وشاعرا ومؤرخا وفتيا ،
وعددوا له بعض المؤلفات ، في حين أن سرحان بن سعيد
الأزكوي ، الذي ينسب إليه كتاب الكشف شخص مجهول
لم يرد له - كما قلنا من قبل - ذكر في الأخبار .
ولهذا فلا نرى من المعقول أن يسطو شخص له مقام
المعولى على كتاب لغيره . ثم ينسبه إلى نفسه وفي
استطاعته أن يكتب مثله وأحسن منه . ولعل هذا يوحى
لنا بأن المعولى نفسه هو مؤلف كشف الغمة ، والله أعلم »
والمسألة ليست مسألة سطو قليس في نقل مؤرخ
عن مؤرخ ما يمكن أن نسميه بالسطو ، لان أحداث التاريخ
واحدة ، وأيرادها يعتمد على النقل عن مصادر سابقة
لِلناقل ، ولكن المسألة هي هذا التخرج من التفسير ، وهو
تخرج يأتي من أن النظرة التي ينظر بها المؤلف اللاحق
والمؤلف السابق واحدة ، نظرا لانطلاقهما من موقف مذهبي
واحد ، وقد لاحظ هذا الدكتور سعيد عاشور بعث
دفعه إلى أن يقول عن المؤلف المجهول لكتاب « تاريخ
أهل عمان » : « .. نجد مؤلف هذا الكتاب ، يقدر

مابطنب في حلقات الازدهار وعهود المبرزين من الائمة
وحكام عمان ، بقدر مايوجز احيانا في عصور التفكك
والانحلال . . » ثم يقول : « ومع هذا ، ومع تشابه
المعلومات التي جاءت في هذا الكتاب مع ما جاء في غيره
من الكتب التي وقعنا عليها في تاريخ عمان ، فائنسا
تكرر ماسبق ان اشرنا اليه من ان الخطوط العريضة في
التاريخ - تاريخ امة او اية دولة او اى فرد - ثابتة
لا تتغير » .. وهذا اعتذار طريف لحقيقة لا تحتاج الى
اعتذار ، اذ ان الاصل في تأليف التاريخ هنا ، هو
تاريخ الامامة بالدرجة الاولى .

والازكوى نفسه يوضح هذه الحقيقة حين يقول في
مقدمة كتابه : « وقد دعتنى الهمة الى جمع هذا الكتاب
وتأليفه وتلخيص معانيه وتصنيفه فليتها أهلا وسهلا .
وان لم اكن للتأليف أهلا ، وذلك لما رايت اكثر اهل
زماننا قد غفلوا عن اصل مذهبهم الشريف . واقبلوا على
ائمة مذهبهم بالتعنيف والتعسف ، ومالوا الى حب
السادات ذى التشريف ، قد رغبت أنفسهم عن قراءة
الكتب التي خلفها السلف ليعرفوا المحقق ممن هو على
شفا خرق قانهار به الى الثلف » .. الى ان يقول :
« فصنفت هذا الكتاب ، وبينت فيه عذر اولى الالباب ،
وجعلت ظاهره في القصص والاخبار ، وباطنه في
المذهب المختار ، لان الناس لقراءة الاثر لا يستمعون ،
ولاستماع القصص عن اللغو يتفنون ، فملت الى رغبتهم
لكى يكونوا مستمعين ، ولقراءته بصميم القلب مطمئنين ،
عسى انهم لاصول المذهب يعرفون ولاهل الحق بالحق .
يعترفون » .. فالامر واضح بين اذن لا يحتاج الى مناقشة .
فالتاريخ عند الازكوى وعند الآخرين من المؤرخين
الاباضيين مجرد احداث تشوق القارىء ليتمكن المؤلف

من غرس القضية الأساسية في نفسه ، والقضائية الأساسية هي تاريخ الإمامة الإباضية ، وما يتعلق بها من دفاع عن مواقف فهمت خطأ ، وإبراز مواقف ذات إشراق وسمو ، ومن هنا لن يختلف التابعون مع السابقين في شيء ، فالنقل للأحداث والعبارات يتم بلا تحرج طالما أن هذه الأحداث تحقق للتابع نفس ماحققته للسابق من أهداف ورؤى . . . وصاحب كتاب « تاريخ أهل عمان » وهو مؤلف مجهول . يقفز على فترات طويلة من التاريخ قد تمتد بضعة قرون ، ويعتذر عن هذا بقوله « . . . فهذه مائتا سنة وبضع ، لم أجد فيهن تاريخ أحد من الأئمة والله أعلم ، أنها كانت سنتين فترة عن عقد الأمانة ، أو غاب عنى معرفة أسمائهم » . . . وهذا يعنى أن انحلال الإمامة لأسباب سياسية ، يسقط الفترة كلها . فلا يهتم المؤرخون بأثبات الأحداث فيها ، أو محاولة معرفة ماتم فيها من حروب أو قلاقل أو نشاط إنسانى أيا كان شكله . فالذى يجذب المؤرخ إلى الأحداث هو ارتباطها بالإمامة وتاريخها ، وهو لا يجد حرجا أو غضاظة في ترك ماعدا هذا من أحداث تقع في نفس المنطقة ونفس الشعب .

ويذكر الأستاذ « اف . م . ولكنسون » في رسالته عن تراجم علماء عمان ، عن الشيخ بن عبد الله بن حميد السالمى صاحب كتاب « تحفة الأعيان » أنه كان من الشخصيات البارزة في عصره . وأنه كان صاحب نشاط سياسى ملحوظ ويقول : « وقد ورث من أستاذيه اللذين تتلمذ على أيديهما وهما ماجد بن خميس العبرى ، وصالح بن على الحارثى . تلك التقاليد النضالية للعلماء والإباضيين العظام . ممن عاصروا القرن التاسع عشر ، كما لعب السالمى دورا في إعادة الإمامة سنة ١٩١٣ ،

ولابد من وضع هذه الخلفية المتميزة في الاعتبار عند دراسة أو تقييم افكاره واعماله ، والتي كانت في معظمها ترمى الى غاية واحدة : الا وهي بعث وتعميق الروح القديمة للشريعة الاسلامية بين العمانيين « . الا ان الاستاذ ولكنسون يستدرك ليؤكد ان هذا التقيد بالمذهب لم يمنع السالمى ان يكون « أدق عالم فى نظر كاتب هذه الرسالة » كما يقول ، ويدلل على دقته بقوله : « ومن خلال تتبع الكاتب وتمحيصه لما ورد فى تحفة الاعيان ، اقتنع ، بالتزام السالمى بالنصوص الاصلية للمراجع التاريخية لعمان » . . والالتزام بالنصوص القديمة من مؤلف الى مؤلف ، جعل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور لا يجد حرجا فى ان يحقق كتاب « تاريخ اهل عمان » لا على نسخ اخرى مخطوطة لنفس الكتاب . وانما على باقى كتب التاريخ العماني . فهو يحقق النص الاصلى للكتاب معدلا له او مقيما لعبارة من تحفة الاعيان للسالمى كما فعل فى اكثر من موضع ، فيقول فى الهامش « ما بين حاصرتين من تحفة الاعيان للسالمى » فكانه يدخل نص السالمى لايضاح وتصحيح النسخة المخطوطة التى يحققها . واستعان كذلك باضافات وتصويبات اضافها على النص الاصلى من كتاب « الشعاع الشائع بالعمان فى ذكر ائمة عمان لحميد بن محمد بن رزيق » وذلك من كتاب « الفتوح المبين » لنفس المؤلف ابن رزيق .

هذا الموقف الموحد للمؤرخين العمانيين جعل التاريخ عندهم يرتبط ارتباطا كليا بالحركة الاباضية نفسها ، والواقع ان هذا شيء منطقي طالما كانت الاحداث نفسها فى عمان مرتبطة ارتباطا كليا بالحركة الاباضية . . ويقول ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » عن عمان : « وأكثر أهلها فى إيماننا خوارج إباضية ليس بها من غير هذا المذهب

الا طارئ غريب ، وهم لا يخفون ذلك » ، وقد أخطأ
ياقوت ، كما أخطأ معظم المؤرخين والكتاب باعتبار
الاباضية إحدى فرق الخوارج ، ولكن القضية تظل أن
عمان مركز رئيسي للاباضية مما يدفع الدكتور سيدة
اسماعيل الكاشف في كتابها « عمان في فجر الاسلام »
الى أن تقول : « الحق أنه لا يمكن للباحث أن يدرس تاريخ
عمان الاسلامي دون أن يفهم الحركة الاباضية من حيث
نشأتها وتطورها ونشاطها ، والمعروف أن المذهب
الاباضي في عمان أقدم من اسمه ، كما أن الاباضية في
عمان قديمة قدم الاسلام فيها ، وتعتبر عمان الوطن الأم
للاباضية في العالم الاسلامي » . فلاحداث والحياة
التحمت مع المذهب الديني التحاما عميقا ، والمؤرخون
جزء من الاحداث والحياة ، وهم حين يرصدون هذه
الاحداث وتلك الحياة متأثرون تماما بالمذهب والامامة .
ولذلك فعندما تسقط الامامة لاسباب سياسية ، تسقط
معها الفترة كلها من اهتمام المؤرخين مثل فترة حكم
النبهانيين فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ،
ويقول الاستاذ ولكنسون « أما تاريخ عمان في عهد حكم
النبهانيين فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر
فهو مجهول تماما ، وديوان الستالي « ابو بكر أحمد بن
سعيد الخروصي » يشير الى أسماء أوائل الملوك النبهانيين
الذين كانوا يحكمون البلاد من نزوى . وعن بعض الصلات
التي كانت تربطهم بشعوب ساحل الخليج ، أما بعد
تلك الفترة فلا توجد أية معلومات عن تاريخ عمان » .
وهذه الملاحظة تجدها في كل فترة تضعف فيها الامامة
وتنزوي ، ولا نعتقد أن المسألة ترجع الى ضعف المصادر
او الى عدم معرفة الاحداث ، وإنما هي ترجع الى هذا
الموقف الثابت من المؤرخين ، ويقول الاستاذ ولكنسون :

« ان عدم وجود تاريخ مدون عن تلك الحقبة من تاريخ عمان لايعنى ان تاريخ اولئك الحكام لا يستأثر بأية أهمية، وانما على العكس من ذلك فهناك أدلة قوية على أن عمان في عهد النبهانيين قد شهدت فترة ازدهار وتألق . غير ان النبهانيين كانوا يحكمون داخلية عمان بأساليب تختلف عن أسلوب الإباضيين ، وبهذا فقد اعتبروا جبابرة ، وبالتالي فلم يكن لهم دور في تاريخ عمان » . .

اذا كان هذا الموقف من المؤرخين قد أدى الى تشابه أعمالهم من ناحية ، كما أدى الى حذف بعض الحقب من تاريخ عمان في مدوناتهم من ناحية أخرى ، فلاشك انه كان وراء عزوف المؤرخين في باقى الوطن الاسلامى عن الاخذ عنهم ، أو نقل مادونوه في كتبهم الاوسع انتشارا . وبهذا أصبح تاريخ عمان شبه مجهول من عامة المسلمين ، وأصبحت عمان نفسها فى شبه عزلة لايعرف العالم الاسلامى عن الاحداث التى تجرى فيها ، أو التى جرت فيها عبر التاريخ الشئ الوافر الكثير . وقد أدى هذا الموقف أيضا الى أن المؤرخ المعاصر مضطر كما يقول ويلكنسون فى صدر رسالته « تراجم علماء عمان » الى اللجوء الى مصادر أخرى مكمله ، ويقول : « وبالتالي فانه يكاد يكون مستحيلا كتابة تاريخ عمان دون الرجوع الى المصادر الاجنبية العديدة ، والى الادلة التى كشفت عنها الحفريات والعملات القديمة المستخرجة » . . وهذا الموقف نفسه من المؤرخين قد أدى الى ضم حكايات تاريخية لم تتم فى عمان الى تواريتهم . فكتاب « قصص وأخبار جرت فى عمان » للمعولى ينتهى بقصة « الحجاج ابن يوسف والصبى » وهى قصة يقول عنها محقق الكتاب الأستاذ عبد المنعم هامر : « هى قصة يتفرد الكتاب بذكر تفاصيلها . ولدور بين الحجاج وصبى دون

سن الحلم ، وتصور الحجاج بأنه رجل أخرق ، تنقصه
والحكمة والروية . وتغلب عليه القسوة والغلظة » . ويقول
« ومع أن هذه القصة ليست من القصص والأكابر التي
جرت في عمان حتى يمكن أن تنتظم في سلك الكتاب إلا
أن ذكرها دليل على كثرة ترديدتها بين مجالس القوم في
عمان ، وهي تصور الحجاج بما يتمشى تماما مع مشاعر
العمانيين نحوه ، وقد ذاقوا منه العسف وقساوموا
بطشه » . . والحجاج وموقفه من الإباضية والاباضيين
ذكرى مرة في حلق أصحاب التاريخ بعامة ، وأصحاب
التاريخ العماني بخاصة . ومن نفس المنطلق نرى كتاب
كشف الغمة يهتم في فصوله الأولى بما يتناول العقائد
العربية قبل الإسلام : فالباب الأول منه « في ذكر عبادة
الاصنام واعتقادات أهل الشرك والضلال » ، والباب الثاني
« في آراء العرب في الجاهلية وما كانوا عليه » . ثم نجد
أنفسنا في الباب الرابع مباشرة أمام هجرة الأزدي من اليمن
إلى أرض عمان واجلاء الفرس عنها . ثم نقف في الباب
الخامس إلى ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم . .
وذكر العقائد العربية قبل الإسلام شيء هام للمؤرخ
المسلم الذي يريد إثبات فضل الإسلام على العرب . ولكن
بدء تاريخ عمان بهجرة مالك بن فهم إليها يسقط المراحل
التاريخية السابقة على هذا ، والتي لا تذكر المصادر الأخرى
عنها إلا أنه يرجح أنها استوطنت من هجرات يمنية
وعربية قديمة وأنها كانت على صلات بالحضارات القديمة
في العراق ومصر وفارس والهند ، وأنها خضعت
لغزو الأحباش ثم لغزو الفرس . فما قبل هجرة الأزدي
لم تزد المصادر التاريخية العمانية على مجرد الإشارات
أن وجدت أصلا ، وتهتم كلها اهتماما بارزا بالفترة التي
تبدأ بهجرة الأزدي بعد انهيار سد مأرب وطرد الفرس من
عمان . .

هذا الموقف المذهبي من المؤرخين العمانيين قد ترك
طابعه على التاريخ العماني ، وعلى موقف المؤرخين
المسلمين والعرب من عمان وتاريخها . ولكنه في نفس
الوقت قد حفظ لنا التراث الاسلامي العماني من الضياع .
فالحماس الديني المذهبي قد جعل الكثير من العلماء ،
على مر التاريخ يشغلون أنفسهم بتسجيل الاحداث
ورصدها ، ولولا هذا الحماس ما نقل اليها هذا التراث
الفني الذي يكشف عن حياة هذا الجزء الغالي من الوطن
العربي . والذي ظل تاريخه مشوبا بالفموض الى ان
نشطت حركة تحقيق تراثه ونشره ، واعادة احياء الكتب
والمخطوطات الموجودة عنه في مكتبات العالم ، وفي مكتبات
عمان وقصورها وقلاعها . وهذا الحماس نفسه هو الذي
ملأ كتب التاريخ العماني بالقصص ، والاخبار ذات الطابع
المشوق ، التي عمقت من عمق النظرة الى الشعب العماني
ثقافة وتاريخا معا . وجعلتنا مع الحدث التاريخي نلمح
النبض الانساني المتحمس او الفاضب ، الفخصور او
اللائم . فالتاريخ يقدم لنا وسط الدفء الانساني لكتاب
يكنون بحب لانهم يكتبون من منطلق احساس برسالة
هامة تهون من اجلها العقبات والصعاب . وان كان
لاصحاب علم التاريخ ملاحظات على هذه الاعمال ، فان
لاصحاب فن الادب ، واصحاب الدراسات الحضرارية
والاجتماعية راى مخالف ، لان الثراء الانساني للمؤرخين
العمانيين القدماء قدم لنا الصورة بألوانها المختلفة ، بل
قدم لنا الصورة بدرجات متعددة من اللون الواحد .
وهذا ما يعتبره اصحاب الفن واصحاب الاجتماع
ثراء هم يحتاجون اليه في النظرة الى الانسان الانسان من
خلال الحدث ، واستخراج صورة الفعل المرتبط بالوجدان
بما هو مجال ضخم للاستلهام الفني ، والدراسية

العبادة لحقيقة هوية الانسان في عمان ، الذي هو شريحة
من الانسان العربي بوجه عام . والمؤرخون العمانيون لم
بخالفوا في منهجهم منهج المؤرخين العرب الذين احتفلوا
بالقصص والشعر ، والذين احتفلوا بمظان البطولة ينقلون
أحداثها ذات الطابع الدرامي والذي زانه الخيال ،
وحفل بالحبكة والحركة معا . فهم في هذا جزء من كل ،
وزاوية من صورة التاريخ العربي بصفة عامة ، وان زادوا
عليها ، هذا الموقف المتعاطف الوجداني ، الذي يجعل
كما يقول الازكوي من الاحداث ، ظاهرا له باطن آخر
مقصود ، ومن الوقائع مدخلا الى وجدان حي له هدنه
ومغزاه .



فارس الأزد

”التداء المجهول“

قال معن بن مالك بن فهم ساخرا :
— لا أحد يقترب من عظام الشاة وما بقى فيها من
لحم ، والا فله الويل من مالك ..
قال هناءة :

— كفى بامعن ، أنت تعرف طبع أبينا فلم كل هذا
الكلام الذى لا طائل وراءه ؟
قال فراهيد :

— والله ان معنا يهزل — فيها اجمعوا مابقى من الشاة
ولحمها ، وهيا بنا .

وهنا جاءهم صوت مالك بن فهم الاجشى القوي يقول :
— نعود الى الديار يا قوم ، وليحمل كل واحد رحله
بما غنم من الغزوة ، وليبق هناءة فى مؤخرتنا ومعه
عشرون فارسا حتى لا يدهمنا اصحاب المال قبل ان نصل
الى الحلة ..

ضحك معن فى خبث وقال :
— لا يذكر الا الحملة والنصر ، وانا نسوق ابل القوم
ومالهم — ولكنه ينسى عشاءنا وينسى الشاة التى اكلناها،
وعند الديار يذكر كل شيء ، ويلوم من نسى عظام الشاة
ولحمها المتبقى .

ضحك هناءة وهو يقول :
— هو يعرف اننا نعرف مايريد — فلماذا كل هذا
اللجاج ، انا سأحمل على رحلى عظام الشاة وبقاياها ..
فهي أسرعوا خلف مالك ، وكفى كلاما خلف ظهره ..
ضحك فراهيد وهو يقول :

— لو دخل الحلة دون ان يحمل العظام واللحم لهذه

الكلبة لاصابه غم شديد ، هو يتفاعل بها ويحبها ،
ولا يخرج أبدا الى غزوة الا وهو يحييها وهي تنبح ركبته
وهو يفادر الحلة . ولا يعود أبدا الا وهو يحمل لها
نصيبا من العظام واللحم كأنما هي جزء منها وجزء من
الحملة .

ضحك معن في تخايب وهو يقول :

— لو نسيناها ، نسينا في الفء ، ونسى أن يعطينا
سهامنا في الغزوة ، ولهذا .. اياكم أن تنسوا كلبة الحي
عند العودة .

قال هناءة في حزم :

— هو يعطف عليها ويحبها ، وما يحبه أبونا نجسه
ونرعاه ، فها بنا ، واحمل العظام واللحم في صمت ..
وحذار أن يحس أبوك أنك لا تحب الكلبة .

ضحك معن ، وهو يلكر فرسه وقد حمل عليها عظام
الشاة ولحمها المتقى وقال :

— بل أنا أول من يلبي رغبات مالك ، وما مالك الا
الازد ، وما الازد الا الاسد ، وما كل هذا الا نحن .. وما
نحن الا هو .. به نحن الازد ونحسن الاسود ..
النعونى .

ومضى الفرسان يسرعون خلف معن وهو يبتعد بحمله
التريب من عظام وبقايا لحم ، بينما يرقبون العبيد
يسوقون الغنيمة من ابل وخيل واغنام تأتي وراءهم في
رتابة واستمرار ، ووراء الجميع يسير مالك بن فهم على
فرسه وقد شهر رمحه تحديا لمن يتبع خطهم مسن
فرسان وأعداء .

— ٢ —

حين اقترب الركب من المرابض ، تعالى نباح الكلبة .
وضحك معن وهو يقترب منها ، ثم رمى حمله من عظام

— ٨٠ —

ولحم اليها ، فأسرعت اليه تنبع ، ثم انقطع صوت
نباحها وهي تنهك فيما بين فكيتها من عظام ولحم ...
وضحك فراهيد وهو ينزل عن فرسه ويقول :
- ما أسعدها بما تجد من لحم وعظام .

وترجل هذاء وهو يقول :
- هي تعرف أن هذا هو عطاء الرحلة وبقايا فوز
مالك ..

وقبل أن تكمل كلماته جاءه صوت مالك الأجنس صائحا
من بعيد ، وهو يقترب مسرعا بفرسه :
- هل أكلت الكلبة ؟

وضحك الأولاد الثلاثة وهم يقودون خيولهم الى الخيام
وقال معن :

- هي تعرف أن الأكل منك يا أبى ، ونحن لم نقصر
في عطاء تريده :

وتعالت ضحكات الإبناء الثلاثة وهم يخلعون السروج
من خيولهم ، بينما تقدم مالك بفرسه الى حيث كانت
الكلبة تأكل في نهم ما رمى اليها من عظام ولحم ، وترجل
عن جواده ، وتركه بلجامه لن يسوقه الى المرباض من
أبنائه ، بينما تقدم نحو الكلبة يعابثها ، وهو يهمس لها
في تودد :

- ياغريبة هذا طعامك ، هذا نصيب اليوم ، أنت
بشرت به في الصباح ، وها نحن نعود بالجمال والمساكن
والأسرى في المساء ، وما كان لنا أن ننسى أنك البشرى ..
وحركت ذيلها ، وقفزت ، ثم قفزت فاذا هي عند
يده الممتدة نحوها ، واخذت تلعق اليد ، بينما يربت
على رأسها بيده الأخرى وفي عينه بلمت نظرات حنان ،
وهي تنبع وتقفز وتحرك ذيلها ، ثم تجرى الى أخسر
المخيم وتقف ، وعواؤها رقيق حنون حلو رقيق ..

- ٢ -

جعل مالك بن نهم ينظر الى الكلبة ، وهي تلتقط

طعامها ، وتسرع به الى جرائها في آخر المخيم في حنو
ورحمة - فلم يكن الكثيرون يعرفون أنها قد ولدت ،
وأنها تحاول أن تطعم جرائها من فضلات القوم . كان هو
يجنبها هذا كله حين يعود بحمله من العظام واللحم من
نقايأ طعام القوم في مخيمه .. وضحك مالك وهو يلتفت
الى تاحتها في حنان ، كم هي غريبة خائفة تائهة ، مثله
.. منذ انهار سد مأرب ، وتفرق القوم والصحاب ، لم
يعد زرع ولا ضرع ، ولم يعد هناك هذا الزاد الثابت
الأكيسد ، تأتي به الأرض ، وما تربيته على الأرض من
ضروع وماشية - كل شيء فجأة قد انهار ، كل شيء ضاع
ورذهب ، أمان الأرض ، الاحساس الكامل بأن القدر يأتي
بالطعام حين تمتد الشجرات فروعها القصيرة من الأرض
السوداء ، فإذا هي ثمار وعطاء - ضاع السد ، وضاع
معه كل أمل - كم كان يريد أن يعد أرضه السوداء
المعطاءة الى الشرق والى الغرب والى الشمال والى
الجنوب . في البدء لم يكن أحد مثله يملك كل هذه
الأرض السوداء المليئة بالثمار والعطاء ، وكان السكك
يحسدونه على ماتصفيه الأرض عليه من ثروة ونوال ..
ثم جاءه .. ثم سطوة ، ثم انه مالك بن فهم ملك الازد
جميعا ، يتطلعون الى نواله وعطائه ، ويعطيهم من هذا
النوال والعطاء ما يكفل له أبدا صدقهم في مودته .
وصدقهم في حبه ، وصدقهم في الولاء له .. ولكن منذ
ان انهار السد ، وضاعت الأرض .. آه من الناس ،
وآه من معنى الولاء والحب ..

كل شيء مرهون بالعطاء ، أنت حين تقدر تعطى ،
والناس معك . ولكنك حين تعجز لا تملك ان تعطى ، والناس
حينئذ عليك . هذه الكلبة فقط لاتعرف مقاييس الناس ،
بل هي لا تعرف الا معنى الحب والوفاء .. في هيئتها!

يلمح آيات الحب حين ينظر إليها ، وحنان الرحمة حين
تمتلىء نفسه بهمومها واحزانها ، ومعنى الامتنان حين
يعود إليها كل مساء بطعامها وطعام جرائها .. ثم تهرح
الى باب مضاربة تقف عند حافة خيمته هو ، يعرف منها
الذى يقترب من الخيمة ، أهو أحد اولاده ، أم هو
أحد رجاله ، أم هو أحد العبيد ، أم هو غريب تمام
عن الحى والحلة .. صوت نباحها كان يحمل اليه
كل هذه المعانى وهو داخل الخيمة ، بل لقد غدا يعرف
من نبرات هذا النباح من هو القادم بشخصه ، فهى تهرح
بحنان وحب عندما يقترب من الخيمة ابنه هناة ، بينما
كان نباحها مخافتا ومرحبا عندما يقبل الى الخيمة ابنه
فراheid ، اما اذا كان المقبل ابنه معن فهى تتبع فى عنف
وخوف ، وينتهى نباحها دائما بعواء غريب ..

جلس مالك على الصخرة الناتئة التى تعود ان يجلس
عليها كلما أحب ان يخلو بنفسه وأفكاره ، وجعل ينكت
الارض امامه « بخيرزانتة » الطويلة ، وهويتأمل الشمس
تمتصها الارض من بعيد وتبتلع قرصها فى ببطء ولكن
فى اصرار .. كانت هذه اللحظات من عمر اليوم تحمل
الى قلبه ثقلا لا يعرف سببه ، كان هذا القرص المنحدر
يحمل له رسالة مبهمة .. هو ليس يدري حقيقة هذا
النداء الغريب . فقط كان يحسه كالحقيقة الاكيدة
الثابتة فى أعماقه .. غريب هنا هو فى هذا المكان ..
غريب هنا وسط الضنك الذى يطبق على كل شيء ،
غريب هنا وسط الصحراء التى تبتلع كل حلم ، وتبدد
كل أمل . هو غريب هنا ، كل شيء فى داخله يصرخ
بالتحدى ، والفعل - وأى تحد فى هذا المكان ، وأى
فعل ؟ مجرد غارات لا طائل وراءها هنا أو هناك ، لا تعود
الا بعدة نوق عجفاء لا تزيد على نوقه العجفاء فى

شيء .. الصحراء تمتص كل شيء ، تبتلع كل شيء ،
حتى قرص الشمس تبتلعه في صمت ولكن في اصرار .
وأفاق مالك على هدير الكلبة ، وعجب حين أدرك أنها
أطعمت جراءها وعادت تقعى عند قدميه دون أن يحس .
والتفت إليها فهزت ذيلها في اطمئنان ، وعسرف أنه
هناؤه ، وحين رفع رأسه كان هناؤه يقترب منه بجسده
الشامخ وعوده المفتول ووجهه الشاب المليح ، وأحس
بالحنان يفيض مع قلبه الى وجدانه وشعوره كله ..
وأعتدل في جلسته ، واستند الى « الخيزرانة » في يده
وهو يقول في صوت ملء بالحنان والدفع :
- مرحبا يا هناؤه ..

ضحك هناؤه ، وهو ينظف جانبا من صخرة مقسابة
لتلك التي جلس عليها أبوه ، وقال وهو يجلس في
استرخاء :

- لن أستطيع أن أفاجئك أبدا ، وهذه الكلبة عند
قدميك ، فهي تشي لك بكل من يقترب منك .
ضحك مالك وقال :

- ما أحسب أنك جئت تحدثني عنها ..
قال هناؤه في جدية :

- بل جئت أحدثك عن بنى أخيك عمرو بن فهم ..
اعتدل مالك في جلسته ، وقال :

- وماذا عنهم .. ؟

قال هناؤه :

- هو أخوك ، وهم أهله ، ولن تقبل فيهم حديث
أحد .

- إلا حديثك أنت يا هناؤه ، فما عهدتك تكذب أبدا
ولا تحمل لأحد في قلبك غلا أبدا .
هذا هناؤه ، وصمت وهو يأخذ نفسا طويلا من هواء

الفروب ، ثم يخرججه في ثؤدة واستمتاع وقال :
- ثقتك هذه في ، وحبك لى ، ومعنى حبى انا الذى
لا حدود له لك ، هو الذى يدفعنى لاتحدث عن اخيك
عمرو ، عمى - وانت تحبه وانا احبه ، ولكن قسومه
لا يعرفون معنى هذا الحب .

قال مالك ، وقد ابتدا ينسى المساء والفروب وقرص
الشمس الذى يغور تدريجيا عند الافق :
- وماذا عنه يا هناءة ..

تمهل هناءة قبل ان يجيب ، ومضى واقفا يضرب الارض
بعصاه « الخيزانة » . وكأنما يعينه هذا على انتقاء
الكلمات ، ثم قال :

- انهم يا أبى ينقمون علينا كل شيء ، ان قعدنا قالوا .
كسالى وقاعدين ، وان غزونا قالوا لصوصا وخارجين ،
وان عدنا صفر اليدين تبادلوا الابتسامات الصفراء ،
ونظروا بعضهم الى بعض نظرات العارفين ، وكأنما
يؤكدون لانفسهم اننا ضعاف مستضعفون .. فان عدنا
بما غنمنا ، كانت نظرات الحسد والحقد هى ما يشم
من عبونهم ، ثم هرعوا اليك يطلبون انصبتهم فى شيء لم
يبدلوا فيه عرقا ولا دماء ، وانت دائما تعطيههم ، وانا
دائما امنع اخى معن من ان يجاهر باعتراضه على ماتعطيه
لهم ..

واطرق هناءة كأنما لا يجد فى نفسه الجسارة على
مواجهة عينى أبيه .. ووقف مالك ، وجعل يتحرك فى
صمت حول الصخرة ، وحول ابنه . وحول الكلبة المقيمة
عند قدميه ، وهو صامت لا يتكلم - وحين طال صمته ،
قال هناءة فى صوت متخاقل :

- ما كان لى ان اتحدث فى أمر يخص اخاك عمرو بن
قهم ، وقومه - فاغفر لى كلماتى واتسها .. وانى منصرف

.. ووقف هناة ، فهزت الكلبة ثم نبحت . وحين تحرك هناة ، وقفت الكلبة منتصبه وهي تنظر اليه وكأنها في دهشة ، ومضت تنبح من جديد .

ضحك مالك بن فهم وهو ينقل بصره بين ابنه والكلبة ، هو مطرق ، وهي متوقزة متحفزة ، وعاد يضحك من جديد . وتململ هناة في وقفته ، واستشعر الحرج أمام أبيه ، فلملم ثيابه وهو يقول :-
- انصرف الآن ..

عاد مالك يضحك من جديد ، وتقدم الى ابنه يضع يده فوق منكبه وهو يقول في حنان :

- بل تجلس معي وتحدث ، فالغريبة - وهو الاسم الذي أطلقه على الكلبة هنا - تحس أنك تقول شيئا هاما لي ، وهي لا تريدك أن تنصرف ..

نظر هناة الى الكلبة المتوقزة ، فاذا هي تتحرك بسرعة يمينا وشمالا في توفز ، ثم تعود تقعي أمامه وتنبح ، وتنظر اليه بعينيها البراقتين ثم تنبح في خفوت ، ثم تعود لتنتصب من جديد لتوجه نظرها الى أبيه وتنبح في خفوت ، ثم تقفز ذات اليمين وذات الشمال وهي تحرك ذيلها باستمرار ، ثم تنبح . وتقعي ناظرة اليهما ، وتصمت تماما .

قال هناة في ذهول :

- كأنها تتكلم !

ضحك مالك بن فهم وهو يقول :

- وهي تتحدث بالفعل . وتخبرني أن ماتقوله هو الصدق ، وتقول لك لا ترع وتحدث ، وتقول لي لا تكذبه واسمع له .

تنهد هناة والدهشة تملكه ثم قال :

- هي كلبة الجار ، ومع هذا فهي ملازمة لخيمتك ،

تسمع عنها وتسمع عنك ، وتخبرك وتخبرها ، حيرتني
والله يا أبى .. كنت من قبل أحس أن عطفك عليها
مجرد نزوة وعيب ، أما الآن فأنا أحس أن هذا الحيوان
الاعجم يستطيع ما لا يستطيعه الانسان المبين .
— المخلص لو أحببت أن تكمل الصورة .
— الكلبة ؟

— نعم يا هناة ، من الحيوان ما أن اخلص لك كان
دليلك الى الصدق والحقيقة .. وهذه الكلبة ، هي ليست
كلبتي ، بل هي كلبسة جارنا ، ولكنها تعرف الصدى
والحقيقة لا احتاج معها الى كلمات لكى اعرف صدق
قولها ، وهي فى حديثك هذا تقول لى انك صادق ، وانك
تحمل الى النصيحة الصحيحة ، واننى يجب أن آخذ
كلامك مأخذ الجد .

ضحك هناة فجأة ، ثم أغرق فى ضحكه — وصعدت
أبوه فى دهشة ، وتمالك الابن نفسه فقد كان ضحكه
المفاجيء هذا شيئاً يخرج عن حدود الاداب ، تمالك
نفسه ، ثم قال وهو ينكت الأرض بعصاه الخيزران :
— ما أضحكنى يا أبى وعفوا حين ضحكك كل هذا
الضحك فى حضرتك ، هو أن هذه الكلبة تنبح عمى عمرو
ابن فهم ، ورجاله وغنمه وابله ، ما أن تراهم قادمين حتى
يسرع نحوهم وكان هناك ثأراً بينها وبينهم ، فتنبحهم
وتفرق أغنامهم ، وتوقع الاضطراب فى مالهم كله .
قال مالك :

— لاحظت هذا من قبل يا هناة — ولهذا صدقتك ..
قال هناة فى دهشة :

— صدقت الكلبة ، فصدقتنى .. ؟
ضحك مالك بن فهم وهو يقول :

— ضمير الضير ان تقى ظلق لا يعرف الكذب والنفاق
يا هذائة ، وضمير هذا الكلبة دلتى على سر قلقي فى هذا
الكان ، ولكن تلمذك انت جسده ووضحته ..
— فاذن ؛

— اترك كل شىء لميقاته يا هذائة ولا تتعجل الامور .

— ؟ —

هب مالك بن فهم من نومه مدعورا ، كان الحلم ثقيلا
وكريها ، رأى نفسه يغريش فى بحر من دماء وسيفه فى
يده ، وهو يصرخ يندفع ، ويخوض فى الدماء الزرجية ،
التي تشد قابضه شدا ، فيجهد ان ينتزعها بصعوبة ،
ويتقدم شاهرا ، وأواج من الدماء تحيط به
وتحتويه حذر ، هناك تغريته ، ولكنه يتأزم يجذب الدماء
لجسده ، يجذب الدماء تقدميه ، يجذب الدماء لساعديه
.. ويصيح ، ويصرخ ، وهو يتقدم وسط موج الدماء
شاهرا سيفه صائجا ماوحا صارخا .. سر يتقدم دائما ،
ولكن الدماء تتحول الى رمال ، فاذا هى تحوط جسده
وتجذبه الى دوامات من رمال .. الرمال حوله ، الرمال
تحوطه ، الرمال تشده شدا الى الارض ، وهو يصرخ
ويلوح بسيفه ، ولا غدو هناك ، لا احد فى الأفق ، لاشىء
الا النجمة تلوح من بعيد ، وهو يندفع نحوها .. والرمال
تشده ، وهو ينفضها عنه ، ويصرخ ، ومع صرخاته
تجواب صرخات وصرخات ، وثغاء ابل ، وعواء كلب ،
ينبح وينبح ، ثم ينبع فى اصرار ، وينبح .. وضحكات
وصيحات ، ثم صوت عيل يصيح فى عنف وقسوة ،
ثم صوت خبطة كاذبة شيئا انهار .. ثان شيئا اصاب ،
قلبه .. وعواء ألم مرير .. مرير .. مرير .

ورفع مالك ماعليه من غطاء ، وأسرع يتقند مسرعا
وهو يندفع خارج الخيمة . وواجه نور الصباح الضئيل
وقطمان تسرخ مبهدة ، وصيحات الرعاة ، وصرخة فارس

مننصر يقول :

— قتلت الكلبة ، أخيرا قتلت الكلبة .
وعواء اليم يتضاءل يصدر من مكان قريب .
وتلفت مالك حوله ، الفجر يغبشه الصباح ، وفرسان
يسرعون ، وقطعان تهرع مهرولة ، وثغاء وصهيل ،
وصيحات .. ولكن العواء الاليم هو هو ، يصدر قريبا
منه .

واقعد سيفه ، ثم تقدم يتحسس بأذنه وسط غبشة
الصباح مصدر العواء المتألم الباكي الحزين .
هناك عند الربوة كانت ، يلتوى بعضها على بعضها
ووسطها سهم التصق باللحم والعظم ، وثبتها في مكانها
لا تريم ، تحرك قدميها في عنف ، ومن فمها يصدر العواء
الاليم .

وعلى الضوء الوليد وضحت صورتها ، متكومة ، متألمة
تموت .. وتعوى في خفوت .. والاطراف تتحرك في
عناء — وكل شيء يهمد ويهمد — والموت يزحف في ثقة ،
وهي تموت ..

واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقترب من القتيلة ،
أسيرة السهم المثبت في الجسد المنهوك ، وهمس :
— ياغريبة ..

وحركت ذيلها في ترحاب ، في حجب ، في فتور ،
وسكت الذنب ، سكت في وداع الموت الحزين ، وبرقت
عينها وهو يمد يده الى جسدها والى وجهها ، وامتد
لسانها يلحق كفه في فتور ، وصمت ، وحزن ، وماتت
العينان ، وكف اللسان ، وسكت الذنب الحزين ..
وانحنى مالك بن فهم يحتوى جسد الكلبة المتقلص
والفاقد الحياة بين ذراعيه في صمت ، وقد اغرورقت
ميناه بالدموع . وحوله يصنخب فرسان ويصيحون ،

وتشفو ابل ، وتصيح ابقار ، وتسهل خيول — كل العالم
توقف ، لا شيء الا هذا الجسد الذى همد ، ولن يعود
الى توثبه بين سنابك جواده من جديد .. احس أنه يبكى
وأنه وحيد .. وضم الجسد الساكن الى صدره وبكى
من جديد ..

وصاح صوت فتى صاحب وسط سهيل جواد ، ووقع
سنابكه فوق الارض الصلبة ، كأن صاحبه يريد أن يهد
الكون هذا :

— أخيرا قتلناها ، قتلنا الكلبة اللعينة التى كانت
تفرق اغنامنا وتزعج رجالنا وتخيف أطفالنا ..
لم يجب مالك بن فهم ، فقط رفع عينيه الى الرجل
الطروب فوق جواده المتوفز ، كان الرجل أخاه عمرو
ابن فهم ، وكان يبتسم فى انتصار .. ويقول :

— لن يورقنا نباحها بعد الآن ..
وكانما رأى مافى وجه مالك بن فهم لأول مرة ، فصمت
.. وهذات حوافر جواده فاستقر فوق الارض ...
راختفت الابتسامة من وجهه ، وصمت .

وهرعت أقدام وأقدام الى حيث ركع مالك بن فهم ،
ورأى وجوها ووجوها ، هناة ، وفراheid ، ومعن ..
وآخرين ، كثيرين ، كثيرين ..

وتقدم فزاهيد فربت على كتف أبيه وهو يقول :

— لقد ماتت ، قتلها السهم ..

وصاح عمرو بن فهم :

— مالك ومالها هى كلية جارك ؟

ترك مالك الجسد الهامد ، ودعه الارض ، ثم وقف ،
وتراجع الفرسان خطوة الى الوراء حين وقف مالك ..
ونظر اليهم واحدا واحدا ، ثم همس :

— لا اقيم ببلد ينال عليه هذا من جارى .

وصمت القوم وكان على رؤوسهم الطير ، وقال
فراheid :

— هي ماتت ..

وقال مالك :

— ولا بقاء لنا هنا ، نرحل ..

وقال هناة :

— ولكن .. يا أبى ..

قال مالك :

— نرحل .. بلغ السيل الزبى ، ولم يعد فى قوس

الصبر من منزع .. هذه نهاية المطاف .

قال معن :

— بل نقاتلهم ، ونرغمهم على الرحيل ..

ارتفع صوت مالك وهو يقول :

— لا .. نرحل نحن .. غرباء هنا نكون ، وغرباء اذلاء

ان بقينا .. من معى ؟

ونظر الفرسان بعضهم الى بعض فى حذر ، وصاح

فراheid :

— كلنا معك ..

وصاح هناة :

— بل كل رجالنا معك ..

وصاح معن :

— وراءك يا أبى ، ومعنا كل من ينحاز الينا من فهم ..

صاح عمرو بن فهم :

— ولكن ..

صاح مالك :

— لا لكن هناك ياعمرو .. اتركك مراغما ، واترك

مراعيك لك ولاهلك ولبنيك ، وضاق النفس ، ولا مفر

من الخروج .. من معى ؟ ..

وتجاوبت أصداء الصحراء بصيحات الفرسان تردد
كلها :

— نحن معك يا مالك ..

قال مالك :

— نحن الآن نشد الرحال ، وليتبعنى كل من يحسب
مالكا بن فهم ..

وصاحت فرسان ، وضجت رجال ، واحتدم جدل
ولكن عندما ارتحل مالك كان وراءه آلاف من بنى فهم ،
يرحلون لرحيله ، ويتحركون لحركته ، ويسافرون معه
.. وعلى المقدمة مالك بن فهم ، ووراءه أبناؤه يقودهم
هناة ، وصهيل خيل وصيحات فرسان ، وضجيج
جيش لجب يتحرك فى صمت وهناء .

ووقف الأزد الباقون يرقبون الراحلين فى صمت ،
وقد نكس عمرو بن فهم رأسه وحوله فرسانه ينظرون
فى تعاسة الى جيش الراحلين ، وقد عم الجميع صمت
حزين .

كل الرجال يومها ساروا مع مالك بن فهم ولم يسبق
فى المضارب الا الحرانى والتعساء ، والاكول بنانهم
أسفا .. فاليوم ، ومن هذا الرجل ، غادر مالك بن فهم
الأرض الضيقة الى أرض الله الواسعة ، اليوم هاجر
مالك بن فهم بالأزد بالأسود ، الى دنيا جديدة لن تضيق
عن أحلامه وطموحه فى الأرض السوداء والشجر المثمر
وأحلام الغد العظيم .

فارس الأزدي

”الرحلة الصعبة“

كان فراهيد يعود مسرعا يثير الرمال أمام جواده ..
ووقف مالك بن فهم في مكانه وجوله فرسانه ينتظرون
مقدمه .. ووقف فراهيد امام ابيه وتد نفضي وجهه
وامتلا بالرمال . واحمرت عيناه . واشبرت لحيته ، ومد
يده يربت بها على عنق جواده وهو يقول في صوت أجش
تصدر كلماته من بين شفتين متشققتين خشنتين :
— لا ماء ..

همس معن من بين الشفتين التريبتين في حلق :
— اللعنة ..

قال مالك في هدوء :

— الثبات .. يامعن .. عد الى افراد القافلة وقل لهم
نحن نسير على الطريق ومازالت امامنا مراحل حتى
نصل الى الماء .. وكن كما احب منك ، ثابتا هادئا ،
واثقا ، مقنعا ..

ضحك معن وهو يحول رأس جواده ويقول :

— الكل عطاشي من امس ، فما يفسرهم عطش يوم
جديد ؟

ثم لكز جواده ، ومضى مسرعا الى صفوف الازد
المتزاحمين وراء مالك بن فهم في رحلته الشديدة نحو
الشرق الجنوبي كأنها يرى في مرآة سحرية ان هذا قدره
وقدر رجاله .. لا الظما ، ولا الجفاف ، ولا خوف الغد
المجهول يمنع القافلة أن تسير ، او يوقف الرحلة المتحركة
دائما الى الامام .. لا شيء الا السير الى الامام وإلى الامام
دائما .

عاد مالك يقول :
- الثبات .. الثبات وحذار من الخوف .. حذار من
الفوضى .

قال فراهيد :
- كفى ماتثقل به على نفسك يا أبى ، لابد أن نجد
الماء ، وسنجده ، المسألة كلها أننا نسير فى أرض جديدة
علينا وهى فيما يبدو أيضا جديدة على أدلائنا .
قال مالك : وهو يحرك فرسه ايدانا بالسير من
جديد :

- بل نسير يا فراهيد .. فليس أمامنا الا السير الى
الامام .

لم يتوقف السير أبدا طوال الليل ، وكان السير لم
يتوقف من قبل طوال النهار السابق له ، ولهذا كان الرجال
متعبين ، وكانت الرواحل تكاد تستنفد آخر ما لديها من
طاقة ، حين دخل الركب كله عند الفجر فى واد ضيق
طويل ، تحفه الصخور من الجانبين ، تتعالى حتى
تحجب الرؤية او حتى تبلغ فى قممها الى حافة السماء
.. وجاء صوت هناءة من امام الركب :

- الى السلاح ..
وكان أول من سمعه مالك بن فهم الذى حدد له من
قبل أن يكون فى مقدمة الجيش وطلأته ، فصاح فى
فرسانه وأولاده ورجاله :

- الى السلاح .
وتحولت مسيرة الركب الى جرى سريع تمتزج فيه
أصوات حوافر الجياد مع صيحاتهم وقعقات السلاح ،
والكل يتأكد من أن سيفه فى جرابه ، وأن خنجره فى
مكانه ، وأن رمحه فى يده .

وقال هناة ، وهو وفرسه يظهران مع غبشة الصباح :
— هذا الوادى لنا كمين مخيف ، فحذار .

قال مالك وابنه يقترب منه :

— ماذا تعنى يا هناة ؟

قال هناة ، وهو يربت على رقبة فرسه يدفعه الى
الهدوء والاستكانة :

— هذا الوادى الضيق مهلكة ، وحولنا من كل مكان
فرسان اغراب يحيطون بأعلى الوادى ، وما أن نكون فيه
جوفه ، حتى نصبح تحت رحمة سهامهم .

صاح مالك بن فهم وهو يشير الى فرسانه بالوقوف :
— كل فى مكانه ، وكل يحمل سلاحه ، ولا حركة ، ولا
نأمة الا بأمرى .

ومن حول المقدمة التى دخلت الوادى ، ظهر الرجال
الاغراب يحملون الحراب والسكاكين والدرق الجلدية
العريضة الطويلة ، التى تحمى اجسادهم حتى أسافل
الاقدام . من كل مكان ظهوروا ، وكان جنبات الوادى
انشقت عنهم .. كل مكان تغطى خسولهم بالرجال ،
والسيوف ، والحراب ، والسكاكين ، والدرق .
ووجم الجميع فى أماكنهم ولم يتحرك أحد . وقال
فراheid :

— نحن محاصرون .

وقال هناة :

— لو حرك أحد يدا لاصابه سهم من القمة او من
الجوانب .

وقال معن وهو يجيل طرفه حوله فى عصبية ، وفرسه
يتحرك فى عنف ، وبده تمسك سيفه فى تشنج .
— لو أمرت يا أبى لهجمنا عليهم هجمة رجل واحد ..
صاح فراheid :

— حذار ، أى حركة فيها هلاكنا ، بهم يمتلكون كل القمم العالية فى هذا الفخ الذى وقعنا فيه .
قال مالك فى هدوء :

— لم ينطلق نحونا سهم واحد الى الآن ، ولو كانوا أرادوا قتالنا متركونا أبداً نجتمع فرساننا فى هذا الوادى .. تنهد هناءه فى عمق وهو يقول :

— عضلات ظهري تتقلص من زمن فى انتظار السهم الاول من هذه الايدي السمراء المتوفرة .
قال معنى :

— لو أصابك هذا السهم لعرفنا حقيقة نواياهم ..
ثم ضحك فى عصبية ، وهو يقول :
— ولكنك محظوظ لن يرخموك بهذا السهم أبداً ..
ضحك مالك رغم الموقف العصيب .. وأشار بيده وهو يصيح فى الجمع حوله :

— أين زهير .. أرسلوا الى زهيرا .. وبسرعة .
وانفرج جمع الفرسان عن فارس يقود فرسه بسرعة نحو المقدمة . وانكشف الغبار عن الرجل المسن العجوز فوق جواده المعروق الذى لا يقل عنه اعياء من فرط تقادم السن وعناء الرحلة . ونظر اليه مالك وابتسم ، هذا الرجل قد جاب كل هذه البقاع ، بل ربما كان عرفها قبل أن يسكنها البشر . لا احد يعرف عمره بالتقريب :
فمنذ شب مالك وهو يراه حين يعبر خيامهم على نفس الجواد ، وبنفس هذا المظهر العجوز المتهالك ، ولكنه كان يخفى وراء هذا المظهر صلابة وقوة يعرفهما الجميع ..
وقال مالك :

— يا زهير .. أنت الوحيد قينا الذى يعرف هذه الارض . فمن هؤلاء الناس ..
رفع زهير وجهه الحالك السواد ، وبرقت عيناه

الصغيرتان اللتان امتزج بياضهما بخيوط جمرات واضحة
وقال في صوت واضح :

— هم ناس هذه الأرض يا ابن فهم .. وهم فيها من
زمن طويل ..
سأله مالك :

— أتعرفهم ؟

قال زهير العجوز ، وهو يجيل عينيه في الجموع
الحاشدة التي علت قمم الوادي الضيق ، والجموع
الأخرى التي أغلقت طريق السير فيه أمامهم ، وأخذ
يتمتم لنفسه بعبارات مبهمه ، ثم عاد بنظره إلى مالك
وقال :

— نعم هم فيه من زمن طويل ..

وفجأة طوح بيده المعروقة في الهواء وقد خلت من
رمحه ، وصاح بكلمات لم يفهما أحد من رجال مالك ،
ولكن جواده الذي انطلق إلى الامام في سرعة لا تشي بها
حالته ولا سنه . وصاح معن وهو يلكر جواده ليلحق به :
— سيقتلون الساحر العجوز .

فصاح به أبوه في حزم :

— قف مكانك يا معن — قلت لا يتحرك أحد إلا بأمرى .
وحد معن من سرعة جواده ، وهو ينظر إلى أبيه في
دهشة ، ويعود إلى جواره في ببطء ، وقال :

— ولكنه وحده .. ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه ..
ضحك فراهيت في مرآة وهو يقول ، وبصره يجول
في الجمع الفقير من الرجال الذي انفرج ليبتلع زهيرا
وجواده ، ثم ينطبق مرة ثانية في صمت :

— ومن منا يستطيع أن يدافع عن نفسه .. لقد
صدق هناءه تماما ، أنه فح .. أوقعنا فيه التعب
والعطش ، وأنا لم تنم منذ ليال طويلة ..

قال مالك ، وهو ينقل عينيه بين أولاده :
- لو كان فينا أحد سينجو من هذا الفخ فهو زهير ،
وان نجونا كلنا فبفضله .

ثم التفت الى فراهيد وقال :
- قل للرجال ان يعيدوا الرماح الى أماكنها ، وان
يسترخوا قليلا فيبدو أن امامنا وقتا ننتظر فيه عودة
زهير .

واندفع فراهيد يخب بفروسه الى صفوف الازد يهدىء
روعهم ، ويطلب اليهم أن ينفذوا أوامر أبيه ، بينما قال
معن ، وما زال القلق يبدو واضحا في نبرات صوته :

- اتحسب أنه سيفيب كثيرا يا أبي . . ؟

ضحك مالك ضحكة قصيرة وهو يقول :

- ما زلت تحسب أنهم سيقتلونه . ؟

رد معن في ثقة مفتعلة ، يشي صوته بأنه لا يحس لها
بصدى حقيقى فى أعماق نفسه :

- لو كانوا يريدون قتله ما انتظروا كل هذه المدة . .
ولكن الامر كله يدهشنى . لو كانوا لا يريدون بنا شرا
فلماذا حاصرونا ، ولماذا السلاح واعتراض الطريق ؟
وان كانوا يريدون قتلنا ، فلم الانتظار والصمت المريب ،
ولم رحبوا بزهير وسطهم . ؟

خرج هناة من صمته الطويل ، وقال متسائلا :

- لم اخترت زهيرا يا أبى لتسأله . . فما كان لزهير
اى مكان فى القبيلة ، بل أحس أنه ليس من ازد ، وهو
دائما كالشبح يظهر ثم يختفى بالأسابيع الطويلة ، يعود
وقت ما يريد ، ويذهب وقت أن يعن له الذهاب ،
لا يستأذن أحدا ، ولا يخبر أحدا بشيء . .

وعاد معن يسأل فى أصرار :

- من هو يا أبى . . ؟

ربت مالك على عرف جواده ، وسرح يبصره الى بعيد
وهو يقول :

— هو منا ، وهو ايضا ليس منا ..

اندفع معن قائلا :

— لست افهم يا ابي ..

قال مالك بن فهم :

— هو منا بحكم الجوار ، من زمن طويل جدا لا يذكره
ابي الذي حكى لي عنه وعن قافلته التي ضلت الطريق ،
ثم وصلت الى جوارنا وقد انهكها طول السير . فقصد
كانوا مجموعة من اهل الحبشة يفرون من ملك ظالم
طفى وتجبر حتى لياخذ كل عروس ليلة عرسها غصبا .
وخرج زهير وزوجته الشابة وأخوة له هاربين من وجهه
حتى ضلوا الطرق الملوقة وانقطع عنهم زاد الماء . ولعبت
الاقدار دورها فوصلوا الى ديارنا ، واجارهم ابي ، يرحون
الى جوار مالنا ، ويردون منابع الماء التي نردها ، ويزرعون
الحنطة والشعير في قطعة ارض الى جوار غدير صغير
.. ومن ساعتها وهو منا ، وان ظل منعزلا عنا بأهله .
وولد له اولاد كثيرون ، ومرت به الايام ، وماتت زوجته
التي غدت عجوزا قبل موتها ، ثم مات اولاده ولدا وراء
ولد . وهو ساعة يبقى الى جوار الارض ، وساعة
يرعى في المراعى بأغنام قليلة ، وساعة يختفى فلا نعرف
عنه شيئا ، ثم يعود حاملا صيدا هدية لابي ثم لي بعد
ابي .. لا يكلم احدا ولا يضايق احدا .. ولكننا كنا نلجأ
اليه في الملل فهو يعرف الكثير من أمر الاعشاب
وسرها في الطبيب والدواء ، وهو يعرف الكثير من أمر
الارواح الشريرة التي تركبنا بأمراض لا دواء لها ، وهو
يستطيع ان يطردها بما يعرف من أمرها ، وما يعرف
من أسرار .

ضحك من قاطعا الصمت الذي ران عليه وعلى أخيه
وقال :

- اليوم أحاطتنا ارواح شريرة تركبنا بظلمها الثقيل ،
عل ما يعرفه زهير يطرد شرها عنا .

وقبل أن يجيبه أبوه ، علت همهمة بين القول ، وارتفع
صوت فراهيد وهو يقول :

- هاهو يقبل ..

ونظر الجميع الى مدخل الوادي الذي احتشد
بالجمع الغريب ، وقد انفرج هذا الجمع ليخرج منسه
زهير يسير على قدميه وهو يجر جواده العجوز المتعب ،
وخلفه عملاقان لا يقلان عنه سوادا ، ولكنهما كان
لا يستران جسديهما بشيء الا بمئزر يلتف حول خصر
كل منهما ويتدلى فوق ساقيه .. ولم يكن أحدهما
يحمل سلاحا ، كما أن مشيتهما كانت هادئة وثيدة لاتحمل
عنفا أو تهديدا .. وتحرك مالك فترجل عن جواده ،
وسار الى أمام دون سلاح متقدما نحو زهير ومرافقيه .
والانظار من الجانبين تتعلق به وبهم .. ولاحظ مالك
الابتسامة العريضة على وجه زهير المتفطن فدهش .
فهو لا يذكر انه رأى الرجل العجوز يتسم مثل هذه
الابتسامة أبدا .. وكان كلما تقدم الى أمام ازداد احساسه
بجو من الود يشع من المرافقين العملاقين . وما أن ضاقت
المسافة بينهما حتى ابتدره زهير قائلا :

- يا مالك بن فهم أنت ورجالك وقومك ومالك في أمان،
وهذا حبيش الى يميني وحبشان الى يساري يرحبان بك
في أرض الاجداد المقدسة ..

ولم يفهم مالك ماذا يعنى الرجل العجوز بهذه الكلمات
الملفة . ولكنه حين وصل اليهم مد يده مسلما ، فتقدم

منه حبيش واحتوى كفه في يده العريضة ثم مال يقبل
كتفه الايمن ، ثم كتفه الايسر ، ففعل مالك مثله ، فقبله
وقبل كتفه العارى الايمن ثم كتفه الايسر . وتقاسم
العملاق الثانى حبشان فحياء كما فعل زميله الاول . .
وكان زهير طوال هذا الوقت يتمتم لنفسه وهو يتقافز
سعيدا مسرورا ، فما أن انتهى السلام حتى تداقعت
الكلمات من فمه الادرد مختلطة ومتداخلة ، واخذ
يقول :

— انهم من أبناء عمومتى ، جاءوا هم أيضا من الحبشة
من زمن ، واستقروا هنا حتى قبل أن أهرب بأهلى الى
بلادكم . وما كانوا يقصدون بك شرا ، وانما هم كانوا
يمنعونك أنت ورجالك أن تطأ خيولكم قبور آبائهم
وأجدادهم . فهذه أرض مطهرة ، لا يمشى فيها أحد الا
راجلا . ولا يمر بها أحد الا ويقدم القرابين وينحر عند
القبور القديمة تحية لارواح الاجداد . والا غضبت هذه
الارواح فانتقمت منه ومنهم أيضا ، واصابتهم بالامراض
وركبتهم ارواح الشر . .

وكان العملاقان يتابعان قفزات زهير وكلماته ،
وعضلات وجهيهما تتحرك فى تقلصات متتابعة كأنهما
يفهمان مايقول . وكانا يهزان رأسيهما من حين الى حين
وان كان مالك يدرك تماما انهما لا يفقهان من لغة زهير
التي يخاطبه بها حرفا ، وحين انتهى زهير من حديثه
قال له مالك :

— وما كل مظاهر العنف والاستعداد للقتال هذه ؟
صمت زهير ، وكأنما أدهشه أن يتحدث مالك عن شيء
آخر غير الارواح ، وتلفت حوله فى حيرة ، ثم هز رأسه
وقال :

— أحسب أن عدد رجالك وحشدك هذا قد أفزعهم ،
فأخذوا للأمر أهيته ، فلو استمر سيرك في الوادي
لاقترب من أرض المدافن ، وكان لا بد أن يمنعوك أن سلما
أو حربا .

قال مالك :

— اذن كان وجودك معنا نعمة لاشك فيها ..
عادت الكلمات تتدافع من جديد من فم زهير الادرر .
وهو يتصايح ويفزع ويتكلم في وقت واحد ، وقال :
— نعمة .. أه نعم نعمة .. لي ولهم ولكم وللأجداد .
قال مالك :

— ماذا تعنى يا زهير ؟ ..

قال زهير :

— قبل أن أخبرك عن معنى ما أقول ، تعال معي وحدك
تتري القبور التي حرص القوم على منع خيولكم من
الاقتراب منها .. وهناك ساجيب عن تساؤلاتك ،
كلها ..

أشار مالك بن فهم إلى ابنه هناءة الذي أسرع نحوه
فوق جواده ، فقال له :

— سأذهب معهم وعليك أن تحفظ للرجال نظمامهم
وتماسكهم ، ولن أغيب كثيرا ..

وكاد هناءة يعترض على ذهاب أبيه وحيدا وسط
هذا الجمع من الاغراب ، ولكنه رأى النظرة في عيني
أبيه تحذره من الكلام ، كما رأى السيف في مكانه في
القرباب المثبت بوسطه ، والخنجر مكانه في منطقتة ،
فاطمأن إلى أنه يأخذ حذره وأن تظاهر بالهدوء والاطمئنان
اليهم . فقال :

— أمرك يا أبي ..

ولكن جواده عائدا الى اخوته والرجال .. يعيد تنظيم صفوفهم وكأنه يدعوهم الى الراحة والاسترخاء ، بينما هو في الحقيقة يرتبهم في كراديس صالحة للهجوم السريع لو تطلب الامر ذلك .. بينما سار مالك الى جوار زهير والعلاقين ، فانفرجت صفوف الاغراب المتجمعين تفسح لهم طريقا الى نهاية الوادي .. وكان الجميع عراة الاجسام الا من المئزر ، في ايديهم الحراب والدرق ، حفاة الاقدام ، سود البشرة ، شعورهم كثة تكاد تنتصب فوق رؤوسهم وقد تشابكت من خشونتها وتلدها بالفبار .. وكانوا من جميع الاعمار وجميع الاحجام ، منهم العجوز والكهل والطفل ، ومنهم القصير والطويل النحيل والعملاق الضخم ، وكانوا جميعا يتحدثون معا بهذه اللغة الغريبة السريعة ذات المقاطع المتلاحقة .. وكانوا يتقافزون فوق الصخور المكونة لجدران الوادي في خفة وسرعة ، وكأنهم في مهارة القروذ وخفتها . ووسط جدار الصخر المتعالي الى اليمين انفرجت فتحة ضيقة تقدم العملاقان منها . وتبعهما مالك وزهير ووراءهم الجميع المتقافز الذي لا يكف عن الكلام والضجة .. وانفرجت هذه الفتحة عن واد فسيح تلمع رماله تحت اشعة الشمس المتوهجة التي بدأت تأخذ سمتها في السوء الصافية . وكان الوادي يمتد على مرمى البصر وكأنه بحر من الرمال .. وجاءت كلمات زهير المتلاحقة كأنما تؤكد ما كان يجول في خاطر مالك ، اذ قال وهو يشير بيده اثناء حديثه :

— هذا هو بحر الرمال .. هكذا يسمونه ، وهنا وادي القبور المقدس .

وكان زهير يشير الى فتحة اخرى في جدران الصخر

يلجها العملاقان حبيش ونحيشان ، بينما توقف باقى
الجمع فى صمت كامل لا يتحركون . وشد زهير ساعده
مالك فتبعه الى داخل تجويف كبير فى جدار الصخر
حجب ضوء الشمس وحرها اللافح . وادرك مالك انه
يعبر كهفا ضخما من تلك الكهوف التى يتناقل الناس
حكاياتها برهبة وخوف ، ويحكون عنها الاقاصيص
والمغامرات العجيبة .. وكان العملاقان يسيران وقد
انتصبت قامتاها دون اى انحناء ، ورفع مالك رأسه
ببحث عن سقف المغارة فتأهت عيناه فى طبقات الظلام
التي تغطي سقف المكان ، بينما كانت أصدااء وقسم
أقدامهم تتردد فى أرجاء المغارة فتزيد المكان رهبة .. ومن
بعيد لاحظ بقعة ضوء لامعة ، أخذت تزداد وضوحا ولمعانا
كلما اقتربوا منها .. من الوادى فجوة تقود الى وادى
الرمال ، ومن وادى الرمال فجوة تقود الى المقابر
المقدسة .. كم يتفنن هؤلاء القوم فى الحفاظ على المشوى
الآخر لاجدادهم .. ومدخل هذا كله تحرسه دائما
كوكبة من الفرسان ليل نهار فى يقظة دائمة حتى لا يقترب
غريب .. وافاق مالك من تأملاته على صوت زهير يقول :
- هاقد وصلنا ..

ورفع مالك رأسه ليفلق عينيه بسرعة ، فقد عادوا
فجأة الى النور المبهر ، حيث انفرجت فتحة السكف
النهائية عن منطقة صخرية واسعة ، مليئة بالكتل الحجرية
المتراصة فى صفوف طويلة . كل كتلة حجرية تتكون من
ثلاث قطع حجرية عارية مستطيلة الشكل ، وجنادل
صخرية قائمة عالية الارتفاع تقوم على قواعد من الحجر
.. تمتد هذه الكتل الثلاثية على خط مستقيم ، كل
عامود يبعد عن الآخر قدر خطوة أو خطوتين ، ويتكون

كل خط من خمس أو سبع كتل متتالية تليها مجموعة من الأعمدة الصخرية المخروطية الشكل .
وكان المكان يسوده صمت رهيب ، هنا يرقد الجدد من أجيال وأجيال .. وإلى هنا تساق الأجساد المتعبة انهكتها رحلة الحياة لتجد السلام النهائي تحت كتلة صخرية مستطيلة أخرى وتكوينها الثلاثي .. الشمس ، والقمر ، والزهرة .. إلى جوار رمز الأرباب المقدسة تساق الأجساد التي ضجت بالحياة في الوادي لترقد في استسلام إلى جوار الآباء والأجداد تحت حماية الرموز الإلهية ، وتحت وهج الشمس المقدسة نهاراً ، وسلام ضوء القمر الفضي ليلاً ، تلمع فوقها توهجات الزهرة واعدة بحياة أخرى مليئة بالبهجة والسعادة والسلام ..

وتقدم العملاقان وتبعهما مالك وزهير ، ولم يكن في هذه المقبرة الواسعة المخيفة فيهم . وعند الجنادل انحنى العملاقان في حزن ووقار ، ورفعاً أيديهما إلى السماء ، ثم إلى الشرق ، وإلى الغرب ثم عاداً يضعان أكفهما فوق صدريهما ، وقد تندت عيونهما بدموع حبيسة .. ثم مضيا في همس أخذ في الارتفاع ، يرددان أغنية جنازية حزينة ، وزهير يتابعهما بعينيه ، وسرهان ما كانت شفتاه تستعيدان من ماضيه القديم نغم الأغنية وكلماتها ، وشيئاً فشيئاً امتزج صوته الصدى بصوتيهما العميقين في ابتهالة حزينة موقعة .. وأحس مسالك بالرغبة تملكه ، وبغصة تملأ حلقه ، وبدموع قريبة تحاول أن تتسلل إلى عينيه .. لم يكن ما يحسه خوفاً ، وإنما كان هناك شيء كالحزن العميق الدفين يزيح كل ما في فكره ليتسلل إلى عقله يملأ وجوده كله بأحاسيس

مرير بالحزن .. ودهش مالك ، فما كان يعرف القوم
الذين ثوروا هنا ، وما كانت له بهم صلة قبل الآن .. ولكن
احساس الحزن ملكه كله بحيث اندمج بقلبه في أهزوجة
الجناز التي ملأت بتنغميماتها الجو حوله .

وكما بدأت أغنية الجناز توقفت فجأة .. وعاد صمت
كثيف يسود العالم الغريب الذي يقفون فيه .. واستلفت
نظر مالك أشكال غريبة على الصخور الثلاثية فاقترب
منها يتأمل فيها ، كانت كتابات بلغة غريبة تتخللها دوائر
ومثلثات ، وأشكال صور لحيوانات .. وقال حبيش
شيئا سريعا لزهير ، فقال هذا لمالك :

— هذه آثار ناقة صالح بن هود ..

وابتسم مالك وعاد يتذكر الحكايات الغريبة التي
يرددها الناس في سمرهم يحوطهم جو من الرهبة
والغموض . وعاد حبيش يتكلم ، وعاد زهير يترجم
حديثه قائلا وهو يشير بيده الى الجنادل :

— عند هذه الجنادل تنحرق القرايين ، والقوم هنا
يرحبون بما تقدم من قرايين لاجدادهم ..

أطرق مالك برأسه مفكرا ، كان هذا بلا شك هم
حق الطريق .. الدية التي يجب أن تدفعها كل قافلة
تمر .. في البدء الحصار المهدد بالجموع المسلحة
الكثيفة ، ثم هذا العرض المهدب بالسلام في مقابل حق
الطريق .. هل يستسلم لهذا التهديد ... أم يرفض
ويدخل في معركة بالسلاح ؟ وعاد يرفع عينيه فوقعت
على صفوف القبور الطويلة المتراسة ، وعاد احساس
الحزن العميق يملأ نفسه من جديد ، فأخذ ينقل نظره
بين رفاقه وبين القبور ، وقال :

— وكم يحبون أن أقدم لاجدادهم ؟

عاد زهير يتحدث الى حبيش ، وأخذ حبيش يتشاور مع حبشان ، وظلت المداولة فترة طويلة ، كان من الواضح فيها أن زهيراً قد دخل معهم في مساومة عنيدة .. وأخذ مالك ينأمل المستطيلات الصخرية وهو يعجب من طولها البالغ ، هل كان الناس قديماً في مثل هذا الطول ان كل واحدة تتسع لثلاثة رجال يتمددون متعاقبين .. وعاد يبصره الى حبيش وحبشان ، ان هذين الصملاقين معاً لا يملآن قبراً من قبور هؤلاء لو تمددا ورأس أحدهما عند قدم الآخر .. وحين صمت المتحاورون بادر زهير سائلاً :

- هل هذه القبور تملأ بالطول ؟
وفقر الرجل العجوز فمه الادرد في دهشة ، وعاد ينظره الى المستطيلات الصخرية ، ولعت عيناه ، ثم ضحك وهو يقول :

- لا ، انما كان الاجداد في مثل هذا الطول ، فقد كانوا ضخاما بحيث يملأ جسد الواحد منهم مثل هذا القبر ، كما أنهم كانوا يعمرّون طويلاً جداً ..
ثم صمت ، وأطرق الى الارض ، وهو يقول في حذر :
- هم يطلبون الكثير ، ولكنى وصلت معهم أخيراً الى أن يكون القريان ثلاث نياق ..

قال مالك بسرعة وهو يبتسم :
- بل خمسة ، وسندبحها فوق هذه الجنادل ، ونقضى ليلنا معهم ونرحل في الصباح لو أنهم قدموا لنا فضلة ماء ترد عطشنا وعطش الابل والخيول .
ووجم زهير وهو يحمق في وجه مالك بن فهم في دهشة واكبار :

- ولكنهم لم يطلبوا غير ...

قاطعه مالك بقوله :

— هل لديهم ماء ؟ ..

قال زهير وهو ينقل نظره الى آخر الصفوف الحجرية
المتراصة :

— هم لا يقيمون مقابرهم الا على الماء ، وهنا عين ماء
من اعدب ماء الصحراء ..

انفرجت أسارير مالك بن قهم وهو يقول :

— هذا أسعد ما سمعت من أخبار ..

وكان زهير منهمكا في الحديث مع العملاقين ، اللذين
ماكادا يسمعان ما قاله زهير لهما حتى انفرجت أساريرهما
بدورهما ، وأسرعاً يصافحان مالكا ويقبلان كتفيه ،
ويتواثبان ، وسرعان ما اختفيا عن ناظريه داخل الكهف
وهما يسرعان بالانباء السعيدة للجموع الغفيرة المحتشدة
فوق الجبل .

وادی الخیات

- ٧ -

كانت اصدااء الموسيقى تملأ الليل حولهم ، دقات
الدفوف والطبول المسكونة من جلود رقيقة للحيوانات
شدت الى قطع فخار او اخشاب مزينة بنقوش مصبوغة ،
وانغام قيثارات صنعت من قرون الظبيان الوحشية .
وتنفخ ابواق طويلة على شكل قرون الابقار . ومع كل هذا
تدوى تصفيقات الرجال الموقعة ، ودقات اقدامهم
واقدام النساء اللاتي يرقصن معهم وسط الحلقة الضخمة
التي جلس فيها رجال مالك ورجال الجبل جنباً الى
جنب ، وامامهم اللحوم في اوان فخارية او فوق قطع
ضخمة من اكتاف الابقار او الجمال .. المكان كله يعبق
برائحة زكية نفاذة تتصاعد من النيران المشتعلة في كل
مكان حول الحطاة ووسطها ، وقد رمى فيها القوم
ببلورات بيضاء داكنة كانت وهي تحترق تصدر هذا
الدخان الازرق الذي يفوح بالرائحة العطرية اللذكية
النفاذة .. ومد مالك بن فهم يده الى « القربة » الجلدية
المليئة بالماء الى جواره ، فرفعها يشرب من الماء في حذر ،
وقلص شفثيه وهو يبعد « القربة » عن فمه وهو يحس
للماء ملوحة ولدعا ، ولكنه عاد يرفع الماء الى فمه من
جديد ، فالماء هو الماء ، وفي مثل هذه الصحراء فان
طعم الماء لا يهم كثيراً مادام صالحاً لرد العطش القاتل ..
وقال فراهيد وهو يرقب اباه وعلى شفثيه ابتسامة
ساخرة :

- اهذا هو اعذب ماء في الصحراء ، ترى ماذا

سيكون عليه الماء الذى ليس أعذب ماء فى الصحراء ؟
ضحك مالك وهو يفلق فم « القربة » الجلدية ، شد
سيورها الجلدية المحيطة بفتحها فتضيق وتقلقها
باحكام :

— هكذا قال زهير ، وأحسبه يندم الآن على هذا
الوصف الذى نقله عنهم بكل تفاخر !
تدخل هناة فى الحديث قائلاً بعد أن ابتلع ما فى فم
من طعام :

— ان زهيراً يبدو وسطهم كطفل تائه يعود الى أهله
وذويه ..

قال فراهيد :

— هذه اللغة التى يستعملها معهم ما أظنه استعملها
منذ زمن طويل .
قال معن :

— هناك شيء جديد يحدث ، بعد حكاية الذبائح عند
المصاطب على القبور ، ثم هذا الرقص الذى لا ينتهى ..
انتبه الجميع الى حيث ينظر معن ، فاذا بالعملاقين
حبيش وحبشان يسندان رجلا لا يقل عنهما طولا
أو سواد بشرة ، وهو يسير بينهما منهكا لا يكاد يقوى
على نقل قدميه .. وكان من الواضح أنهما لو تركاه
لوقع وتهاوى الى الأرض فى الحال . ووراء الجميع كان
يسير رجل عجوز ، محنى القامة رث الثياب يحمل فى
يده مشعلا متوهج الطرف . وما أن وصل هذا الحشد
العجيب الى وسط الحلبة حتى ركز الرجل العجوز
مشعله فى الأرض كما تركز الحربة ، ثم رفع ذراعيه فى
الهواء ، فصمت المغنون وكفت الموسيقى عن العزف ،
ورفع الآكلون أيديهم عن الطعام ، وشخص الجميع
بأبصارهم الى المجموعة التى وقفت وسط الدائرة ، وساد

صمت كامل قال معن :

— هذا الرجل مريض .

ردوى صوته فى وسط الصمت المطبق ، فأحسن بالبحر ، ومضى يسعل فى خفوت بينما امتدت يد الى كتفه ، وهمس صوت زهير الذى تسلل الى جوارهم دون ان يشعروا به ، وقال زهير :

— صدقت هو مريض ، وهذا العجوز هو الطبيب ، وسيبدأ علاجه مما فيه ، ثم يعالج المرضى بعد هذا واحدا بعد واحد قبل ان يستأنف الجميع طعامهم ولهوهم من جديد ..

همس مالك بن فهم :

— وماذا به ..؟

وقبل ان يجيبه زهير ، ارتفع صوت حاد من وسط الحلبة فالتفت الجميع الى حيث وقف المريض ومن معه ، فاذا بحبيش وحبشان يرقدان الرجل على الارض ، وقد وقف العجوز خلف رأسه يصيح وهو يلوح بشيء فى يده فى الهواء ، ويرقص رقصات منتظمة ومن قمه ينثال سيل من كلام سريع متداخل متتابع .. ثم تقدم يعرى جسد الرجل ويمر بيده التى تحمل ما وضع أنه أناء فوقه جمرة نار يرتفع منها دخان كثيف ، فسوق الجسد المسجى أمامه من الرأس الى القدم . ثم يتوقف سيل كلامه المندفع فيردد حبيش وحبشان معا جملة عجيبة تتكون من مقطعين ،! ووراءهما يردد كل المتحلقين نفس الجملة .. ثم يعود الرجل العجوز يرقص من جديد حول الجسد المسجى وهو يمر بمبخرته فوق كل جزء من اجزاء جسد الرجل المسجى أمامه وهو يردد هذا الكلام السريع المتتابع فاذا سكت وتوقف ، عاد حبيش وحبشان يرددان الجملة ذات المقطعين ، ومن ورائهما يردد الجميع

نفس الجملة .. ولم يتمالك مالك بن فهم نفسه فلكن
زهيرا بمرفقته وهو يقول :

— ماذا يقول هذا العجوز ، وماذا يردد الجميع ،
وما الامر كله .. ؟

قال زهير هامسا وصوته يضيع وسط صخب
المتحلقين وهم يرددون الجملة ذات المقطعين من جديد :

— هذه حمراء الراية .. والعبارة التي يرددها الجميع
كلمة « حمراء الراية » أما الطبيب فهو يتلو التعويذة
التي تطرده العين .

وعاد الصباح من جديد يلفت نظر مالك بن فهم الى
وسط الحلبة ، حين تقدم حبش من المريض فقبل مكان
القلب من جسده ، وأخذ المبخرة من يد الرجل العجوز
ومضى يلفها فوق مكان القلب عدة مرات وهو يتلو
التعويذة التي كان يقولها الرجل العجوز بصوت مرتفع ،
فاذا ما انتهى منها صاح الجميع بالعبارة التي ترجمها
زهير وهي « حمراء الراية » ، ثم أسلم المبخرة الى الرجل
العجوز من جديد . ثم تقدم حبشان ففعل نفس الشيء
وأخذ يقبل مكان القلب من المريض وهو يتلو الرقيصة
بدوره ، وعندما عاد الى مكانه ، خرج من المجاميع
المتحلقة واحد ففعل ما فعل العملاقان . وتلاه آخرون ،
وكل شيء يتكرر كل مرة من جديد ، وينتهي دائما بنفس
الجملة « حمراء الراية » ..

وقال زهير وقد أشتد الصخب :

— لقد أوشك العلاج على الانتهاء .. انظروا ..

وتقدم الى وسط الحلبة مجموعة من الرجال يحملون
أقواسا وسهاما ، وأخذوا يصوبون قسيهم الى السماء
ويطلقونها بينما تتعالى الصيحات من الجميع . وانحنى
الرجل العجوز قبل مكان القلب من جسد المريض ، بينما

حملة حبيش وحيشان واختفيا به فى ناحية من الحطية .
وقال فراهيد :

— قلت تطرد العين يازهير ، فهل هذا الرجل العملاق
كله يخاف من العين ؟
قال زهير وهو ينظر الى فراهيد فى دهشة
واستنكار :

— العين تهد الجبال !يها السيد فراهيد .. وهذا
الرجل ليس به اصابة ، ولا يشكو من علة واضحة ،
وانما هو مهدود الجسد لا يقوى على السير ، وكل مايفعله
ينقلب الى ضد ما يريد منه ، ماذا يكون فيه الا انه
محسود ، اصابته عين شريرة فاقعدته عن العمل
واصابته بالفشل .

كان فراهيد يجيب فى سخرية لولا ان مالكا بن فهم
مس ذراعه فى رفق ، وهو يقول :

— هناك شىء جديد ..

كان المتقدم الى الحطية رجلا وحيدا ، شديد البدانة ،
ولكنه كان يسير متمايلا ، وهو يحرك راسه الى اليمين
والى اليسار ومن فمه يسيل لعاب كثير ، ووراءه كان
يسير الطبيب العجوز وفى يده مبخرته وفى يده الاخرى
حبل طويل .

وهمس فراهيد فى اذن زهير :

— امصاب آخر بالعين ؟

قل زهير وهو يهز راسه فى استنكار

— لا ، هذا مسته الارواح ، الا ترى .. الحبل بيد
الطبيب ؟

قال فراهيد فى دهشة :

— الحبل ؟ ..

قال مالك بن فهم فى حزم :

- صممتا يافراهيد ، ودعنا نر ما يحدث .

وحين صممت فراهيد وتطلع الى وسط الحلبة ، كان الطبيب العجوز يشير بيده الى أحد الجالسين في اطراف الحلبة ، فقام واتجه اليه . واجلس الرجل العجوز المريض البدين بعيدا عنه بعدة خطوات ثم أشار الى الرجل القادم من الحلبة ومد له طرف الحبل فأمسك به . . وأخذ الرجل العجوز يقيس الحبل باصبعه وساعده ثلاثا ، ثم تكس رأسه وأخذ يتمتم بسرعة بكلمات متلاحقة غير مفهومة ، وما ان انتهى من كلماته حتى أمسك بحفنة من تراب فنشرها على الحبل ، ثم وقف حاملا مبخرته ، وأخذ يديرها حول رأس الرجل البدين وهو يتمتم بكلمات عديدة . ثم أخذ حفنة أخرى من تراب ورمى بها من جديد فوق الحبل المسترخى في يد الرجل الآخر، ثم جمع الحبل ووقف مخاطبا المريض بجملة طويلة ، ثم احتضنه وقبل كتفيه ، وصاح صيحة كبيرة وهو يعود راقصا الى داخل الحلبة ..

وسأل فراهيد زهيرا :

- انتهى العلاج ؟

قال زهير :

- نعم ، لقد حدد له مكان خروج الارواح اليه عند نخلة الى جوار بيته ، وامره ان يأخذ تمرا وزبدا ويتوجه بها الى الشجرة عند غروب الشمس فيلقيها هناك فوق الرمال . . ويظل الى جوارها الى الصباح ، وفي الصباح تذهب عنه الارواح الشريرة ..

قال مالك وهو يللم ملابسه وينهض :

- كفى ما رأيناه وهيا بنا قبل ان يأتوا بمريض

جديد ..

قال زهير في دهشة :

— ان تمكثوا الى نهاية الاحتفال ؟
قال زهير :

— فى الغد امامنا رحلة طويلة ، ولايد ان نستعد
للرحلة قبل غروب الشمس ، فبلغ القوم شكرنا على
حفاوتهم ، وحاول ان تستاذنهم فى ان نعلأ اوانينا بشيء
من هذا الماء الصالح الذى يشربونه .

ضحك معن بن مالك وهو يقول :

— اعذب ماء فى الصحراء ..

قال زهير ، وهو يقف لوقوفهم :

— ستصدق قولى هذا بعد ان تمضى فى الرحلة جزءا

من الطريق .

— ٨ —

مع النسمات الاولى للصباح كان الركب قد اكتملت
استعداداته ، الاحمال فوق الجمال ، والخيام جمعت
فوق الرواحل . والرجال قد ركبوا خيولهم ، والعبيد
قد انتشروا يسوقون الانعام ، وكوكبة من الفرسان قد
سبقت القافلة تستطلع الطريق ، وكوكبة اخرى من
الفرسان قد سارت بخيولها الى آخر الركب كله لتحرسه
من المؤخرة .. واقبل جمع من رجال الجبل يحملون احمالا
من تمر وزبد هدية للقافلة ، وكاد مالك بن فهم يردهم فهو
يعرف حاجتهم الى الزاد . ولكن زهيرا همس له :

— هذا تقليد يراعى هنا ، الضيف لابد ان يخرج

بهدية ، والهدية بمعناها لا بقيمتها ..

فتقدم مالك من حبش وحبشان وحياهما وقبل
اكتافهما بعد ان قبلا هما كتفيه ، وامر بالهدية ان تحمل
الى حيث توضع فوق الجمال .. ثم اشار بالتحية الى
مضيفيه والجمع الذى احتشد لتوديع القافلة رغم ساعات
الفجر الاولى التى تخرج فيها الى الصحراء من جديد ..
ثم ركب فرسه ، وأشار الى القافلة لتبدأ سيرها : ومضى

يسرع ليكون فى المقدمة وحوله اولاده وزهير .. ولاحظ
أن حبيشا وحبشان قد ركبا فرسيهما وصاحباها فى
مقدمة الركب ، والتفت يسأل زهيرا عن امرهما .
فقال له :

— هذه عادة اخرى تتبع هنا ، لابد أن يصاحبنا
المضيف جزءا من الطريق ..

ولم يعقب مالك فقد شغله أمر انتظام الركب فى سيره ،
ومضى يرسل اولاده الى ناحية هنا ، وناحية هناك ،
والركب ينفذ السير .. ومع استمرار المسيرة كان كل شيء
ينتظم خطوة خطوة ، واخذ كل انسان مكانه كالمعتاد .
وارتفع ثغاء الابل وصهيل الخيل يشق وجه الصباح
الندى ، بينما كانت مهمات الرجال فى ندائهم للابل
يبدو مرضيا وطبيعيا . ولكن مالك بن فهم كان يخشى
هذه الارض الغريبة التى لا يعرف عنها شيئا ، والتى
سمع عنها حكايات وحكايات .. القوافل الصغيرة التى
ابتلعتها الصحراء ، اذ يسقط عليها أبناء القبائل كالصقور
لا يبقون حيا الا الاناث اللاتى يرحن سبايا لهم ، أو يبعن
جوارى أو أماء ، والا مافى القافلة من ابل وخيل وابقار
فهى الفريسة التى يستهدفها الغزو والسلب دائما ..
ولم يكن مالك يخشى هذا الهجوم الآن ومعه حبيش
وحبشان يضمنان له أن يعبر ارضهم دون ازعاج من
شباب القبيلة المغامر الذى يبحث فى غزواته عن الصيت
قبل الفنائم .. كما أنه لم يكن يخشى كثيرا مثل هذا
الهجوم بعد أن يغادر ارض حبيش وحبشان فهو فى عدد
وفر ورجال كثيرين سيجعل مراءهم كل مغامر يفكر
مرتين . ولكن كان يخشى على من يستخفه الطيش فيبتعد
عن الركب وراء صيد ، أو طمعا فى بعض التحرر من
سير القافلة الرتيب .. كم سمع عن بحار الرمال

المتحركة التي تبتلع الفارس وفرسه وتظل تمتصه
وهو يغوص فيها حتى يختفى تماما ، ثم تعود الرمال
الى شكلها الاول وكان شيئا لم يحدث ، تلمع حبسات
رمالها تحت الشمس المشرقة وكأنها لتغرى فريسة
جديدة .

سمع مالك الكثير من مخاطر هذه الارض المخوفة ،
بحفافها ، ورياحها ، وصخورها المديبة ورمالها الخادعة .
رصدق ماسمع واصدر اوامره لرجال له للاحتراز من اخطار
ماسمع .. ولكنه سمع ايضا اشياء كثيرة أشد هولا
واخافة ، ولكنه لم يكن يميل الى تصديق كل ماسمع ..
سمع من الجن التي تسكن الكهوف ، وعن الارواح
الشريرة التي تصيب الرجال والحيوان بالجنون والعمى .
وسمع عن السعلاة والشق الذي يركب الفارس ويسوقه
رغما الى حيث يأكل رأسه ، ثم يترك جسده لجوارح
الطير ، وسمع عن قوافل القروء المتوحشة التي تعترض
القوافل ، وترجم رجالها بالاحجار وتشق اواني الماء
وتخطف كل ما يحملون من زاد ، وتركهم للعطش والجوع
والموت الاكيد .. لم يكن يحب أن يصدق كل هذه
الحكايات التي يرويها السمار حول نيران المخيمات في
الليل ، فيصغى اليها من يسمعونها وقد تسمرت آذانهم
عند كلمات هذه الحكايات ، يستزيدون منها ويستزيدون
وان كان هو يرجعها دائما الى مبالغة القصاص وخيالهم ،
الخصب ، وحب قومه للتضخيم والمبالغة في كل شيء ،
في الحكاية وفي المخاوف . وفي ادعاء الشجاعة والبطولة
الفذة في مواجهة هذه الاخطار .. فلم يرجع احد ممن
غاصت بهم رواجلهم في الرمال السائخة ليحكى عما
حدث له ، ولم يشاهد احد واحدا ممن اكلت السعلاة

أو الشق وعوسهم حتى يسترجعوا حكايته ، ولم يعد
أحد ممن تخاطفتهم الجن والشياطين أو القردة المهلكة ..
وإفاق مالك بن فهم من تأملاته على أصوات مضطربة
تصدر من مقدمة الركب ، ثم رأى الجمال تتدافع -
رغم محاولات راكبيها كبح جماحها - نحو الامام ، وقال
في فرح ..
- انه الماء ..

ثم لكز جواده ، ومضى يسرع الى الامام سابقا
الجمال المسرعة ، وأمله يتزايد في أن يكون الركب قد
صادف نهرا من تلك الأنهار الصغيرة التي تظهر وسط
ثنيات الجبال ، تتدفق بمائها فترة قبل أن تجف وتنضب
من جديد ، فقد أذاه هول الشرب من ذلك الماء الملح الذي
حمله معه من الجبل . وما أن وصل الى مقدمة الركب
حتى رأى الجميع وقد توقفوا عن الحركة ، بينما تجمعت
الجمال حول مجموعة من الشجيرات الخضراء تتكاثف
حول غدير صغير ، بعضها يأكل من أوراق الشجر ،
وبعضها يدس رأسه في الماء يشرب في شراهة ونهم ..
وأحس فجأة بالعطش الشديد . ولكنه لم يكن يستطيع
أن يبعد النياق ليشرب هو أو أحد الرجال . فالجمال
أولا ، الماء من حقها قبل أي شيء حتى في الركب كله .
ولكن أمله في ماء النبع سرعان ما تبدد إذ رأى الجمال
تراجع بعد أن شربت طلائعها الأولى وتقف حائرة ،
تشم مكان الماء بأنوفها الملوثة بالطين ثم تضرب الأرض
بأقدامها وتلف حول نفسها وتدور .. وأسرع نحو
هناة المغبر الوجه يقول :

- انها واحدة من خدع الصحراء اللعينة ، وما أن
شرب من الغدير بضعة جمال حتى نضب الماء وجف ،

والآن وقد شم الباقون رائحة الماء قلن نستطيع السير
الا اذا سقيناهم ، وليس معنا من الماء ما يكفينا ويكفيهم .
صاح مالك وقد بدا شيء كالفضب يملأ نفسه :
- استدع زهيرا .
قال هناءه :

- هو مع حبيش وحبشان يتحدثون بهذه اللغسة
الفريبة التي لا افقها ، واظنه يسألهم عن نبع الماء التالي
في طريقنا . وهم يرسمون له على الرمال خطوطا متعرجة
لا اول لها ولا آخر ..

قال مالك وقد بدأت نفسه تهدا :
- ارسله الى حين ينتهى من الحديث معهما .. واطلب
الى الرجال ان يسقوا الجمال مما نحمل من ماء ، بضع
جرعات لكل جمل حتى لا ترفض السير بعد ان شربت
طلائعها ، واعد تنظيم الركب ، فسير مرة اخرى فور
حديثى مع زهير ..

وانطلق هناءة يحمل أوامر ابيه ، وسرعان ماقاد كل
راكب جملة الى ناحية ، وانزل قرية الماء ، يسقيه ويشرب
ثم يعيد ربط القرية مكانها .. بينما رأى مالك زهيرا
يتقدم نحوه ومعه حبيش وحبشان ، فترجل عن فرسه
وامسك بمقوده وهو ينتظرهم فى صبر . وتبادل مع
حبيش وحبشان التحية المعتادة بينما قال زهير بصوته
العجوز المشروخ :

- توجد عينان للماء ، اقربهما ينصح حبيش وحبشان
بتجنبها ، ويريدان منا ان نستمر بلا توقف حتى العين
الثانية . وهذه لن نصل اليها الا بعد يومين او ثلاثة على
احسن الظروف ، ولو أسرعنا فى السير ليل نهار بلا
توقف او راحة ..

قال مالك بن قهم :

— والعين القريبة .

قال زهير :

— يقولان ان الارواح الشريرة تسكنها ، وتسكن الطريق المؤدى اليها ، وان من سار فيه مات وذهب بلا رجعة ..

ضحك مالك وقال :

— ليحددوا لك الطريق اليها ، فانا لم اتق بهسده

الارواح الشريرة بعد ..

نظر اليه زهير وقد برزت عيناه المحمرتين ، وفرك كفيه في عصبية ، ثم استدار يحدث حبش وحبشان بتلك اللغة الغريبة التي لم يكن مالك يعرف منها حرفا . ولكنه لاحظ هذه الطريقة العنيفة والقلق في وقت واحد التي اتسم بها حديث رجلى الجبل ، والتي كانت تزداد عنفا مع استمرار الحديث مع زهير .. وأخيرا رفع زهير يديه في يأس ثم أنزلهما الى جانبه وهو يقول :

— لا فائدة هما يصران على ان السير الى النبع الاول ضرب من السير نحو موت اكيد ..

قال مالك :

— ليس أمامنا خيار ، ولنجرب حظنا مع هذه الارواح

الشريرة .

وبدا ان رجلى الجبل قد فهما قرار مالك ، اذ التفت حبش الى حبشان يحدثه ، ورد عليه حبشان ، ثم التفتا معا الى زهير ومضيا يتحدثان اليه بسرعة وهما يلوحان بذراعيهما في عنف .. وحين انتهى حديثهما قال زهير :

— سينصرفان عائدين الى مضاربهما ، هما يقولان ان القبائل التي تسكن المنطقة التي منعبرها تعسادي

قبيلتهما وربما هاجمونا لمجرد الانتقام منهما فهما
يستأذنان في العودة ..

ضحك مالك بن قهم ، وقال وهو يتقدم الى العملاقين
يقبل اكتافهما في تحية الوداع :

- صحبتهما السلامة ، واخبر معنا أن يعطى كلا
منهما جملاً مثقلاً بالهدايا من أجود ما عندنا من زاد .

ثم رفع يده يحيى الرجلين وقفز الى جواده ، وهو
يسرع الى مقدمة الركب ..

- ٩ -

كانت حركة الركب قد تشاقلت بعد السير الحثيث
الذي أرغمهم عليه مالك بن قهم ، ومع هذا فلم يكن أمامهم
الا المزيد من الرمال الممتدة ، والمزيد من الارض الصخرية
التي تؤذى أقدام الجمال والتي بدأ بعضها يترنح في
مشيته . كما امتدت أمامهم وحولهم مرتفعات جبلية
بعضها يصل بقمته الى السماء العالية وتلمع صخورها
بشدة تحت أشعة الشمس فتعيد عكسها شديدة
الحرارة والقيظ لتلهب عيون الرجال ، وتبتز من
أجسادهم القطرات القليلة الباقية مما فيها من عرق .
والتصقت شفاه الرجال وهم يتطلعون حولهم في قلق ،
وينتظرون في صبر موعد إيقاف القافلة لدقائق يهللون
فيها شفاههم وشفاه رواحهم من القطرات القليلة
الباقية من المياه المالحة في قريهم .. ورفع مالك رأسه
الى السماء . كانت السحب متغيرة اللون ، بعضها قاتم
وبعضها أحمر اللون ، وبعضها شديد الشفافية ، ولكنها
تملأ السماء ، فهل هي نذير مطر ؟ أم هي مجرد
سحب تساعد على حجب لهيب الشمس عن الارض تحت
قدميه ؟ واحس أن الوقت قد آن للتوقف . وقبل أن
يرفع يده إيدانا بوقوف الركب ، رأى زهيرا يسرع

- ١٠ -

نحوه منحدرًا من مشارف الركب وهو يصيح . فأسرع نحوه بجواده ، وقد أحس أنه يحمل إليه أمرا مشيرا . وكان زهير يصيح وهو يقترب منه :

— الوادى ، وادى الارواح ، هو أمامنا تماما .. بعده نبع الماء .

وأشار مالك بيده فتوقف الركب ، وترجل عن جواده وهو يسأل زهيراً :

— أين هذا الوادى ؟

قال زهير ، وصوته المشروح يتحشرج ، وكلماته تخرج متقطعة :

— أمامنا تماما .. هل نخترقه ام نتركه الى العين الآمنة ؟

صاح مالك فى ضيق :

— كفى حديثاً عن الخطر والامان . كل طريقنا مخاطر اختر خمسة من العبيد الراكبين وامتنط جوادا واذهب معهم فاستكشف الوادى ، وحدد طريق الركب فيه . صمت سيل الكلمات المتدفق من فم زهير ، وحسّدق فى وجه مالك فى استنكار ، ثم قال فى همس :

— أنا ؟ ولكن ..

صاح مالك فى غضب :

— اذهب ، واختر العبيد ، واسرع بهم ، فقد كاد صبر الجميع أن ينفد ..

وقفز زهير مسرعا وهو يتلفت حوله فى خوف ، وكأنما يتوقع أن تنقض عليه قوى مجهولة فى أى لحظة ترفعه عن الارض وتقذف به الى السماء . وضحك مالك ، وهو يشير الى الرجال ليتوقفوا ، وحين اقترب من هناية قال له :

– لتوقف هنا حتى يعود زهير ، وأخير الرجال أن
يحصوا مابقى من ماء ، وليستعمل كل ما عنده بحذر
شديد ..

نظر اليه هناءة في دهشة ، وقال :
– لماذا ؟ والماء قريب ، ما أن يعود هؤلاء حتى يشرب
الجميع ..

وكان يشير بيده الى مجموعة من العبيد يركبون
الخيول ويسرعون يتقدمهم زهير حتى غابوا عن الابصار .
قال مالك :

– لو وجدنا الماء انتهى عذابنا ، اما أن عادوا مخفقين
وقد نفذ ماؤنا فقد هلكنا ..

ضحك هناءة ضحكة خشنه وهو يقول :
– في نفسك شيء من حديث حبش وحبشان عسى
الارواح الشريرة ..

أطرق مالك الى الارض وهو يقول :
– الحذر واجب يابنى ، أسرع الى الرجال بما أمرك
به ، وارسل الى أخاك معنا .

ومضى هناءة مسرعا فوق جواده ، بينما تحرك مالك
يقود جواده الى جوار صخرة عالية ، حيث جلس يرقب
الحركة النشيطة التي دبت في الركب كله .. لقد
شاهد الرجال زهيرا ومن معه يتقدمون نحو الوادي ،
كما سمعوا أوامر مالك . وامتلات قلوبهم بالامل في ماء
عذب يحصلون عليه بعد قليل ، كما انتعشت نفوسهم
لهذا الماء القليل الذي سيبللون به شفاههم المتشققة
الآن .. ورغم نشاط الحركة الا أن مالك كان يحس فيها
اثر الاجهاد ، والعطش ، والقلق الذي بدأ يدب في نفوس
الرجال . وتحرك في بطنه يمتطي جواده ، ويسير على

مهل يتفقد مايفعله الرجال ، وينظر في قريهم التي كادت
تخلو ، ويرقب في اشفاق ارادتهم القوية في تنـاول
الماء في حذر ، واعطاء الرواحل جرعات محسوبة
تلتقطها في شفاها في شراهة ، ثم تهز رءوسها في
احتجاج صامت حين يبعد الرجال الماء عنها .. وفجأة
ارتفعت صيحة من امام ، وتلاحقت صيحات الرجال .
وحين التفت مالك وجد زهرا فوق جواده يجرى به
نحوهم وكان شياطين الجن تتبعه ، وخلفه رجلان يترنحان
فوق جواديهما والجوادان يتبعان جواد زهير في جريه ،
بينما بدا من طريقة جلوس الرجلين فوق جواديهما كأنهما
لا يريان شيئا . وكان احدهما بالفعل يضع يديه فوق
عينيه وهو يصرخ ، و يترنح ، والجواد يجرى به بكل
سرعة ..

غمر مالك بطن جواده بعقبه واندفع يجرى نحو زهير
وهو بصيح في الرجال ان يلزم كل مكانه . وحين وصل
الى حيث أوقف زهير جواده وجواد الرجلين الآخرين .
وجدهما يتهاويان الى الارض ، وكل منهما يغطى عينيه
وصراخهما يصم الاذان .. قفز مالك من فوق جواده
وأمسك زهرا من كتفيه يرغمه على الهدوء وسأله :

— ما الامر ؟

صاح زهير :

— الارواح الشريرة ، الارواح الشريرة ..

وعاد مالك يرجه في عنف وهو يصرخ فيه :

— أهدأ واحك ماحدث .

قال زهير ، وقد أعاده صوت مالك العالي الى

هدوئه :

— كنت وراءهم تماما .. هم حين راوا الوادي اتحدروا

اليه مسرعين فسبقوني الى دخوله . وقبل ان يخطو

جوادى خطوة داخل الوادى سمعت صراخهم . ثلاثة سقطوا على الارض بلا حراك ، وجرت خيولهم مجفلة الى عمق الوادى ، وسرعان ما سقطت هى الاخرى تضرب الارض بأقدامها فى نزع الموت ، اما هذان فقد ترنحا فوق جواديهما وهما يصرخان ، ثم قفز جواداهما نحوى مجفلين . وحين رأيتهما اسرعت اجرى امامهما خوف هذا الموت الذى يتخطف الناس .

كان فراهيد قد انحنى فوق الرجلين وهو يصيح فى الرجال أن يأتوه بماء ، ورفع رأسه الى ابيه قائلا :
- لقد عميا ، لا يريان ..

اضطرب الرجال وارتفعت أصواتهم القلقة الخائفة ، وكل يتلفت حوله فى رعب ، وتقدم معن بالماء فى اناء فى يده ، فرش فراهيد منه على وجهى الرجلين ، وبلل شفاههما وقطر فيها قطرات من الماء . وسكنت حركة الرجلين ، ثم قال الاول فى صوت مرتجف :

- الحيات .. صغيرة لا تزيد على شبر فى طولها ، لا تراها أبدا ، ولكنها تجمع رأسها مع ذيلها وتقفى فتطول الرجل على جواده ، وتنفخ لتعمى ، أو تنهش فتقتل ..
وسمت الصوت الخافت المتردد ، وقال فراهيد فى حزن :

- لقد مات .

وجاء بعده صوت معن فى أسى يشوبه الغضب :

- وهذا أيضا قد مات .

وصاح زهير ، وكل صوته رعب :

- هى الأرواح تحيط بالرجال وتتخطف أرواحهم

وتعمى أبصارهم .. كل الوادى ملئ بالأرواح تنسأفر على السائر من كل مكان لاتخطىء أبدا .

صاح فيه مالك في حريم :
- اصمت يا زهير .
ثم التفت الى اولاده قائلاً :
- ليظل الرجال هنا ، واتبعوني لترى ماذا حدث
للآخرين ..

صاح زهير :
- ولكن الارواح .. الارواح .
ولم يعبأ به مالك وانما سار بفروسه مسرعاً ووراءه
اولاده نحو المنعطف المؤدى الى الوادى ، بينما ساد صمت
عميق كل الركب وخيم وجوم على الصحراء . وسكت
كل حى حتى الابل والخيول . وحين وصل مالك واولاده
الى حافة الوادى طالعتهم القصة المخيفة الحزينة ؟ على
امتداد البصر تناثرت جثث الرجال الثلاثة وجثث خيولهم ،
وفوقها تتقاذف حيات رفيعة صغيرة ، كأنما لا تكتفى بما
أحدثت من بلاء فهي تجمع رأسها مع ذيلها وتقفز لتلدغ
الجثث وتنهشها كأنما لتميتها من جديد ..
واطرق مالك برأسه وهو يقول :

- لهذا حذرنا حبيش وحبشان من سلوك الوادى ،
وادى الحيات ، حيث لا يعود احد ابداً .. انه وادى
الموت الاكيد ..
قال فراهيد :

- وهى ارواح شريرة خبيثة ، ولكنها تجسدت فى هذه
الحيات ..
قال معن :

- ارواح او لا ارواح ، هذه المئات المئات من الحيات
لن تدع احداً يعبر الوادى ابداً ..
استدار مالك بجواده وهو يقول :

— لا فائدة من وقوفنا هنا .. هيا بنا ..
و حين وصل مالك الى الراكب الذى تبعثر رجاله
ورواحه فى كل مكان ، نظر اليهم فى حزن ، ثم قال :
— اجمعوا كل شىء ، ولنسر من هنا فى الحال ، فلابد
ان تقطع الطريق الطويل نحو عين الماء الثانية ..
وبقلوب مثقلة مضى الرجال يجمعون الرواحل ويعيدون
للراكب نظامه ، بينما تقدم زهير من الجسدين ومعه بعض
العبيد يحملونهما الى حيث يودعونهما بطن الرمال الى
جوار وادى الحيات المخيف . وكان زهير يهز رأسه وهو
يقوم بمهمته الكريهة ويهمس :
— امامنا يومان ، او ثلاثة وسط هذا الجحيم ...
ولا ماء .



فارس الأزد

”الأرواح الشريرة“

كان لابد من اتخاذ القرار بعد أن أجله مالك بن فهم أكثر من مرة ، نعم لابد من ذبح بعض الجمال لاستخراج ما في أجوافها من ماء لاستنقاذ حياة الرجال ... كان يعرف أن كل رجل في الركب يعتبر ناقته أهم من أي شيء في الوجود ، وإن أحدا منهم لن يضحي بحياة جملة حتى لو كان المقابل هو ضياع حياته هو نفسه .. ومن هنا كان لابد أن تكون الجمال التي ستذبح من جماله الخاصة هو .. ورغم أن هذا الأمر كان يضايقه بل ويؤلمه، إلا أن تأخير أكثر من هذا يعني سقوط بعض الرجال صرعى العطش ، فقد مرت ثلاثة أيام منذ غادر الركب وادي الحيات المهلكة ونفذ كل مامعهم من ماء منذ يومين، وهم لم يتوقفوا عن السير لحظة ، لا نهارا ولا ليلا .. وما كان نسيم الليل الرقيق إلا ليزيدهم عطشا واحساسا بالجفاف الذي يسيطر على أجسادهم .. كانت الجمال تستطيع أن تحتمل هذا العطش لأيام أخرى قادمة ، أما الرجال فقد وصلوا إلى نهاية قدرتهم على الاحتمال والصبر . وبدأ الأعياء الشديد يظهر على حركتهم ، كما بدأت تظهر في عيونهم نظرات غاضبة مشاكسة لاتظهر إلا في وجوه الرجال وقد وصلوا إلى نهاية مرحلة الاحتمال وإلى أبعد مدى يمكن أن يوصلهم إليه الصبر ..

أوقف مالك جواده ورفع يده ، فتوقف الراكب في
كسل وفتور ، وأشار بيده الى معن ، فأسرع اليه فوق
جواده في استرخاء وضجر ، وقال مالك حين وقف
معن أمامه :

- لا بد مما أخرجناه حتى الآن ..

صاح معن وفي صوته رنة غضب وتحد ، ما كانت
تكون هناك لولا ما يحسه من ظمأ وضيق :

- أترك أبل في حالها ..

قال مالك في هدوء وصبر :

- لي تضار أبل أحد .. اذهب واختر عشرة من البعير
ممن تتوسم في جوفهن الماء الوفير ، وخذ معك عددا من
العبيد ، وابعدوهن تماما عن القطيع ، وانحروا الأبل
واستخرجوا الماء ووزعوه بالعدل على الرجال ..

ثم ابتسم في برارة وهو يقول:-

- ولا تنسى أن تجعل لكل واحد نصيبا من اللحم ..

اعنى الشواء فلا ماء عندنا لظهوره ..

انفجرت أسارير معن المقطبة ، وقال وكأنما يعتذر عن
خشونته في خطاب أبيه :

- هذا شيء مؤلم .. لو استمر الحال هكذا فستفنى

أهلك ، ثم أبلنا ، ثم نفنى نحن بعدها .

قال مالك ، وملامح وجهه لا تنم عن شيء مما يدور
في خاطره :

- واذبحوا من الاغنام من أوشك أن ينفق .. ولا تنسوا

نصيب الباقي من بعض الماء ..

ضحك معن في سخرية مرة وهو يقول :

- الاغنام ، منذ جفت ضروعها وهي فريسة للجوعى

من الرجال ، ولا أحسب أنه قد بقي منها الكثير ..

أطرق مالك للحظات متأملاً كلماته ، ثم رفع رأسه وقال :

- اختر في الصباح الباكر مجموعة من العبيد ، وتقدم الراكب بأسرع ما تستطيع أن تحملك الخيل المجهدة ، واستكشف لنا هذا الماء الذي تحدث عنه زهير .. قال معن وشبح ابتسامة يبدو فوق شفثيه : - زهير ، انه يترنح من شدة العطش والاعياء ... ولكنه مازال من أكثرنا احتمالا للعطش والطريق ، فر الفد سأسحب معي وان لم نصل الى هذا الماء الذي تحدث عنه سأعصر جسده عصرا لاستخراج كل ما بقى فيه من ماء وأوزعه على الرجال .. ثم ضحك في خفة ، ولكن مالكا لم يضحك .. فلو لم يفعل هذا لفعلته الشمس والصحراء القاتلة .

- ١١ -

كان صوت الفناء خافتا ورقيقا ، ومليئا بالشجن والحزن . وكانت نسمات الليل الرطبة تعطر الجو بما تحمله من روائح الشواء مختلطة بدخان نيران الحطب المتناثرة هنا وهناك ، وقد بدأت جذواتها تخبر تدريجيا ، وان بدا المخيم كله واضحا تحت أشعة القمر الرقيقة التي تنير في رقة تزيد الشجى والاسى الذي يملأ قلوب الرجال . كان مالك أقل الرجال نصيبا من الماء المر المذاق الحاد الرائحة الذي حمله معن ومن معه من عبيد يوزعون على كل من في المخيم ، وكان نصيبه من الشواء أقل من نصيبه من الماء .. فما كان يحس في نفسه حاجة حقيقية الى الطعام ، انما الماء فحسبه مايبل شفثيه ، ويبعد عنه احساسه الحاد بالظما .. فما كان في نفسه هو هذا الشجن الذي يجد صدها في الاغنية المنبعثة من آخر المخيم ، وهو هذه الرقة التي يصبها ضوء القمر

صبا في وجدانه ، فتهدأ افكاره ، وتسير على مهل ،
ويسترخي في جلسته ، وظهره الى صخرة يحس
بصلابتها تتجاوب مع عضلات ظهره المشدودة القوية ..
ماكان في نفسه هو هذا الحنين الى ما فارق من مرابع
صباه وشبابه ومطالع رجولته .. يخرج مشتاقا الى
المغامرة ويبحثا عن الفوز والظفر ، ويعود محملا بما كسبه
سيفه ، تتبعه الاموال والعبيد والسبايا والاسارى .
اما الاموال فيوزعها على كل محتاج في قومه ، ليعلو
قدره وينبه ذكره بينهم ويتقدم تدريجيا الى مقام الزعامة
فيهم . واما العبيد فينضمون الى رجاله وخدمه وحاملى
عدته وسلاحه ، ورعاة غنمه ونوقه وخيله . واما السبايا
فمن وقعت في قلبه انضمت الى نسائه عزيزة مكرمة ،
ومن اقتداها اهلها عادت اليهم . والاسارى ليس لهم
الا الفداء او العبودية حتى يفتدوا انفسهم بالعمل او بما
يجمعون من عطايا واحسان هو اول من يساهم فيها ..
سألة لم تكن من السبايا فقد كانت ابنة عمه ، يعرف
لها قدرها وتعرف له قدره ، كانت هى سيدة بيته ،
اها فيه الامر والنهى على كل النساء . هى التى توزع
عليهن المال والنوال ، وهى التى ترتب امور طعامهن ،
وهى التى تحدد ما يخصصهن من الجوارى ، وهى
التي ترتب لهن منازلهن ، وتراعى اموالهن ، وهى
ايضا التى تفض ما ينشعب بينهن من نزاع وخصومة ،
وما اكثر الخصومة بين النساء .. ولكنها مع هذا لم
تنجب له ولدا .. وكان يحس الاسى فى عينها دائما
وهى تخب فى سيرها بسرعة فى انحاء الحلة والجهامة
تعلو وجهها ، والكل يقف لمقدمها ، ويسكت عن حديثه
عند مرورها . لم تكن ابتسامتها الا له وحده ، والا

لاولاده الذين كانت تعطف عليهم جميعا ، بل لعلها كانت تفدق عليهم من حبها مايعوضها هذا العقم الذى ابتليت به .. ولكن ماذا يفعل .. ؟ قالوا لايد من الفداء عند مذبح « الزهرة » وصحبها معه ، وساروا وحدهما الى المعبد القديم فى بطن الجبل . وأمام المذبح فى واجهته مثلث من حديد فى جوف مربع ، ذبح ما قالت الكاهنة من كباش .. قدم الزيت والتمر والنبيل ، وضمت الكاهنة رأس سالة وبطنها وثدييها وقدميها بدمساء الذبائح . واطلقت البخور الحاد الرائحة ، وتمتمت ورقت وصرخت ، ورقصت حول المذبح .. ولم تحمل سالة ، وانتهى كل ذلك الى لا شيء ، ولم ترض الزهرة ربة الخصب والعشق والنبيل .. ولم يطلع على رحلتها هذه أحد .. حين رجعا منها ظلت سالة ثلاثة أيام لا تفتسل من دم الذبائح ، وكل ليلة تمر فوق مجمره مليئة بالبخور المحترق الذى أهدتها اياه الكاهنة ، وعند ظهور الزهرة فى السماء كان دائما مضجعهما .. ولكن كل هذا انتهى الى لا شيء .. وذهب بها الى كاهن الوادى الاحمر حيث تسبخ الاقدام فى الرمال الحمراء ، وتضج الدنيا باللون القانى حين تصعد الشمس الى كبد السماء فتغمر كل شيء يوهجها ، وتعكس الرمال حمرتها على كل شيء .. وأمر الرجل أن يؤتى اليه بشور فى جبينه علامة بيضاء ، وخمس جديان سود الوبر ، ليطرد الارواح الشريرة .. وأعطاه تميمة تعلقها تحت ثيابها ، وشرابا تشرب منه عند لحظات الفجر الاولى ، وحفنة من تراب ترميها فى عين الماء عند كل غروب .. وأحضر الراقصين والعازفين ، وظل يرقص وحوله العازقون والراقصون حتى غابت الشمس ، ثم ذبح الثور والجديان،

ووزع لحومها على الراقصين والراقصات ، وعلق جلودها
فوق عيdan منتشرة حول خيمته .. واختفت اللحوم
والجلود والانعام الاخرى التى طلبها وساقها اليه مالك
كأجر له وللراقصين .. وانتهى كل شيء .. ولم يحدث
أى شيء .. وشريت كل ماوصفته النساء العجائز ،
واغتسلت بكل انواع الفسول التى اوصت به النساء
المجربات ، ولم يعد هناك أى أمل . والنظرة الحزينة
تزداد عمقا ، والنفس الجريحة تطل من العينين الواسعتين ،
وهو يحس بألمها فيتألم معها فى صمت ، ويزداد اكراما
لها لمكانها منه ومن ماله ومن عبيده ونسائه ورجاله .
وكانت كل واحدة من امائه ما أن تلد حتى تعفى من الخدمة
ويخصص لها الجوارى والعبيد والمال والخيمة الخاصة
والمؤونة المعلومة ، وتخرج من عداد الاماء الى عداد
الحرات .. وحين جاء فراهيد ، ولدته وضاجة من
قبيلة من قبائل الشمال ، فرحت سالمة لمقدمه أكثر من
فرحه أو فرح أمه التى حررها بمجيئه .. لم تكن تغادر
الطفل الا حين ينام الى صدر أمه ، أما طوال النهار
فهى مشغولة به وبنظافته ورضاعته وضحكه وبسكائه
ولعبه . وفى أول الامر كانت وضاجة تتضايق من هذا
كثيرا ، ولكنها بعد حين أحسست أن سعادة سالمة حقيقية
وأن حبها لطفلها صادق ، فلم تملك الا أن أحبتها هى
الاخرى الحب كله . وعندما جاء هناءه ولدته آمنه التى
أسرها من قبائل الشاطيء ، أصبحت فرحة سالمة فرحتين ،
وسعادتها سعادتين .. ثم جاء معن بن عفراء أمة مولدة
أسرها وسط الصحراء من قافلة كانت تضمها أسيرة
مع أخريات .. وكان معن هو الطفل الوحيد الذى يتفر
من سالمة ، ولا يستجيب لعطفها ومداعباتها ، كان يبرع

الغضب ، حاد الصوت ، كثير البكاء . وكان يعرف أن
أمه لم تكن سعيدة بوجودها في الحلة بعيدا عن
ناسها وأهلها الذين تقطعت كل وشائج الصلة بينها وبينهم
.. كانت عفراء دائمة الجهامة والتفور ، لا تختلط
بغيرها من نساء الحلة ، وتجلس حاملة طفلها في حجرها ،
ساهمة الى بعيد ، كأنما تناجي أطياقا بعيدة لماض مجهول
لا أمل فيه .. هو يحس الآن بأحاسيسها هذا ، النظر
الى ماض بعيد لا أمل في العودة له ، فقراره بالرحلة
نهائي مهما حن قلبه الى الأرض التي شاهدت مسعاداته
وغزواته وحبه وأمله .. ولكنه لا يستطيع أن يبعد هذا
الحزن الهادئ الذي يمر به فيظفنه في ضباب من وجدان
مبهم لا يستطيع تحديده ومعرفته .. بعد هؤلاء الأولاد
الذين كبروا الآن وأصبحوا سواعد القوية في رحلته ،
وفي أموره كلها ، جاء أولاد كثيرون وبنات كثيرات ..
مات منهم عدد لا يذكره ، كان الطفل ما أن يشب عن
الطوق حتى تنخطفه أمراض غريبة .. يسعل ويسعل ،
ثم يبصق دما ، شهرا أو شهرين ولا ينفع فيه تطبيب
أو دواء ، ثم يذهب ، ليصاب غيره ويموت بدوره -
ويمتلئ جلد الطفل بالادرن ويحمر جسده كله ، وتتوهج
جبهته كأن تحتها نارا محرقة ، وتزوغ العينان ، ويرتعش
الجسد الصغير ، ويفرز الجسد افرازاته الخضراء
المقينة ، وأيام قليلة ويمضي كغيره .. وكان حزنه على
مرض الاطفال يفوقه دائما حزن سألهم عليهم والمها لهم
ومعهم ، ثم فجيعتها فيهم حين يموتون . واكثرت من
التعاويد ومن الاحجية ، ومن تقديم القرابين لهياكل
الالهة في كل مكان .. ولكن الموت كان دائما يتربص
هؤلاء الصغار من البنين والبنات معا .. وهو يحس

تجاه بنائه بنوع من الرحمة يبلا قلبه ويظفي على مشاعره
كلما خطر وجه واحدة منهم بباله .. فما اشد حياة
البادية على الفتاة وما اقساها عليها .. ولكنه يعرف
أن قوته وعزوته ، تجعل امنهن وسلامتهن شيئا مضمونا ،
ولو أن هذه الصحراء اللعينة لا تقدم الضمان لاحد ولا
لشيء .. واحدة فقط هدأت نفسه لموتها ، وان كان في
القلب قصة وفي الصدر زفريات .. تلك هي شفق اخت
هناءة ، ولدت عمياء . وكانت الحقيقة مفاجئة وواضحة
ولا تبديل فيها . كان كلما رآها تقطعت نفسه حشرات ،
وكانت أمها أمنة منذ ولدتها لا تكف عن البكاء شفقة
عليها وحسرة لها ، فلما انتابها الهزال المخيف والاسهال
الدائم عزلت نفسها الى جوارها ليل نهار ، ليس معها
في محنتها في ابتها الا سائلة القوية التي حاولت قدر
الجهد مقاومة الداء الويل ، ولكنهم كانوا يعرفون أن
المقاومة لا تجدى ، وسرعان ماذوت الصغيرة وماتت .
ويحس مالك دائما في نفسه نوعا من الغضب لانه وجد
في موتها راحة و خلاصا لها .. وليلتها بكت أمنة «شفق»
طفلتها الداهية ، وبكى هو ، نعم بكى واتشج كالطفل
على صدر سالة التي تهدده ، وتربت على جبهته
وشعره بأصابها اللدنة الطويلة حتى نام ..

كان صوت المغنى قد خفت ، وأخذت سحابة تزحف
على وجه القمر فتحجب نوره - وسادت للعة باردة هواء
الليل ، فرمى الغصن الذي كان ينكت به في الارض ،
وقام متاثقلا ، الى هناك ، الى حيث مرقد سالة في زاوية
من المخيم - وهو يحس وقع اناملها الطويلة اللدنة فوق
جبهته ، بل فوق قلبه - وأحس راحة وهدوء يسيران
إلى نفسه ، فرفع رأسه وابتسم في هدوء - وأسرع في

مشييته . . .

- ١٢ -

ارتفع صوت صياح من أمام الركب ، أعقبته أصوات
خيول تجرى نحوهم بسرعة . فلكر مالك بن فهم فرسه
واسرع يلقي القادمين نحو الركب ووراءه هناءه وفراhide .
وصاح هناءه في فرح :

- وجدوا الماء . . .

وأمامهم كان معن ومعه زهير ووراءه العبيد ، وعلى
وجوههم علامات البشر . وما أن أوقف معن فرسه أمام
فرس أبيه حتى قال في انفعال :

- شاهدنا قطيعا من الإبقار الوحشية ، وحين اقتربنا
منها جفلت .

قال مالك بن فهم :

- هذا يعنى وجود ماء ، فالقطعان لا ترمى بعيدا عن
الماء . . .

قال زهير وهو يلوح بيده :

- ليس هذا هو المهم . فالماء قد يكون الى جوار
القطعان وقد يكون بعيدا عن مرعاها . . . وانما المهم
هو أننا وجدنا غزلانا بريّة أجفلت حين أحست بنا ،
ولكن آثار حوافرها واضحة على الرمال وفوق الصخور ،
ونستطيع بالتأكيد بتتبعها أن نصل الى مورد الماء الذى
كانت تشرب منه . . .

قال هناءه وقد أصابته عدوى انفعال الجميع :

- فماذا ننتظر هيا بنا اذن . . .

قال مالك ، وهو يرفع يده طالبا منه الانتظار :

- نحن فى أرض غريبة ، والاندفاع قد يوردنا موارد
التهلكة . ليذهب عبيدان معن يعرفون تتبع الاثر وراء آثار

- ١٣ -

الظبيان . وابعهم يامعن على مبعدة ومك زهير وباقى
العبيد . وسنسير نحن وراءكم على مهل . فان وجدنا الماء
وردناه بعد ان نعرف الارض ، وتترك الحراس حول
اموالنا ونسائنا .

قال زهير وهو ينظر الى مالك فى اعجاب :
- نعم الراى يامالك . فالحذر اكيس للمرء فى ارض
يجعلها .

قال مالك بن قهم :
- مازلت اذكر ان حبيشا وحيشان قد قالا ان الارض
تسكنها قبائل لا يؤتمن سلوكها .
صاح معن بمن معه من العبيد ، واندفع بهم الى الامام .
وسرعان ما انفرد عبدان يسبقان الجميع عدوا . وحول
زهير رأس فرسه نحو معن ورجاله ، وقال وهو يتركهم
فوق فرسه المندفع :

- سنلزم الحذر ، وسنجد الماء . .
وبينما كان وقع سنابك الجياد يتعد عن مالك وأولاده
قال فراهيد :
- سأذهب ومعى بعض الرجال لنصطاد من هذه
الابقار الوحشية .
قال مالك :

- لا وقت للصيد الآن ، فلا اريد ان يشى شىء
بوجودنا ، وقد عرفنا مظانها ، وحين نصل الى الماء ،
سنخرج للصيد ، اما الآن ، فأجمع الرجال ورتبهم
استعدادا لاي خطر واقفل النساء ، وضع عليهن حرسا
قويا ، وليضم العبيد الابل والانعام بعضها الى بعض
فى مجموعات صغيرة وليحرسوها فى انتباه ، فقلبي
يحدثني باننا مقبلون على خطر . .

أحسنى فراهيد رأسه فى أذعان ، ثم أطلق فرسه عائدا
الى الركب ينعد اوامر أبيه بينما قال هناءه :
- لم اشهدك على كل هذا الحذر من قبل يا بى ..
قال مالك :

- انه الحليم القديم هاودنى بالامس .. والفسارس
التمرس يابنى يحس توفز جسده توقعا للمعركة قبل
حدوثها فيتأهب لها ..

- ١٢ -

كان اول مايشيرهم باقترابهم من الماء سهيل الخيل ،
ونشاطها المفاجيء ، ورغبتها من أن تسرع بالجري الى
أمام . وكان الرجال يجدون صعوبة كبيرة فى كبسح
جماحها . ثم جاء دور الابل التى اخذت تزد وهى تضرب
الارض باقدامها تريد أن تنطلق رغم محاولة الرجال
التحكم فى حركتها .. وصاح مالك بن فهم :

- حذار أن تسمحوا للخيل أو الابل بأن تفلت أزمتهما
إن الماء أمامنا لاشك .. ولكن الزموا الحذر ..
وأخذ الرجال يهدثون رواحلهم ، وأخذ المبيد
يحكمون أزمته على مقاود الابل .

وكان اول نذير لهم بالخطر الذى يتهددهم ، صياح
فراهيد الذى كان يتقدم الركب مع مجموعة من الرجال ،
فقد توقف هو ومن معه فجأة ، وترجلوا عن جيادهم ،
وبدا بهم يتأملون شيئا فوق الارض عند الحافة المخفية
من الانظار من رابية تعترض الطريق . وأسرع مالك بن
فهم يبحث جواده على الركض ، ووراءه هناءه وكوكبة من
الرجال الى حيث جثا فراهيد ومن معه ، متحلقين حول
جثتين .. ورفع فراهيد رأسه ونظر الى أبيه وقال فى
صوت متوتر :

قتلاهما العبدان اللذان كانا يتعقبان الاثر ، لقد ماتا ..
قتلا شر قتلة — انظر ..

كان الجسدان العاريان مليئين بالسهام ، حتى غطت
السهم كل جزء فيهما .. تقلصات العضلات التي توقفت
وففة الموت تنبئ بالآلام الرهيبة التي عاناها قبل ان
يرحمهما الموت ، وعاد فراهيد يقول :
— سهم واحد كان يكفي ، ولكنهم لم يوفروا اسهامهم
.. انه انذار رهيب لنا .

وقال هناءه ..

— من هم .. ولماذا البدء بالشر ونحن لم نفعل لهم
شيئا ..؟

وأبعد مالك بن فهم عينيه عن الجسدين المتقلصين
وهو يقول :

— وأين معن وزهير ومن معهما من باقى العبيد ..؟
وساد الوجوم الجميع ، واخذ الرجال يتبادلون
النظرات المتسائلة الحائرة .. وقال مالك :

— ادفنوا العبدین بسرعة . وليعد كل الى مكانه .
إما أنت يافراهيد فاجمع خمسمائة رجل وأسرع بهم الى
يمين هذه الربوة فى دائرة واسعة ، فاذا مارأيت أعداءنا
فحاذر أن يروك ، وحاول أن تكون الى يمينهم وخلفهم
تماما . وأنت ياهناءه اجمع خمسمائة رجل وتحرك بهم
الى اليسار ، وافعل نفس ما أمرت به أخاك وكن الى
يسارهم وخلفهم تماما . وعندما يصل كل منكم الى مكان
يطمئن الى حسن موقعه فيه ، يرسل أحد العبيد ليخبرنى
بمكانه ..

ثم التفت الى الرجال من حوله وقال :
— لتسرع مجموعة الى مؤخرة الركب خلف النساء

والاموال ، وليسر الباقيون ورأى في نصف دائرة ، ولا يفعل أحد شيئا حتى أمره ..

واسرع هناءه وفراheid يختاران رجالهما ويفادران
الركب ، بينما تحرك حرس المؤخرة الى مكانه ، وحمل
العبيد الجسدين لدفنهما ، بينما أخذ الفرسان
ينتشرون في نصف دائرة واسعة خلف مالك بن فهم .
ثم أمرهم مالك أن يتحركوا في ببطء وحذر الى الامام
وأشعة الشمس تلمع فوق أسننه وملاحهم المشرعة ،
وخيولهم المدربة قد كفت عن نزقها وكأنما انتقلت اليها
عدوى الحذر من الرجال ، فمضت تنقاد لهم في طواعية
رتتحرك في يسر ونظام ..

- ١٤ -

عرف مالك بن فهم العبد حين رآه ، كان نجاح عبد
فراheid ، فقال له :

- ماذا لديك يانجاح ؟

قال نجاح وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بعد أن قطع
المسافة من مكان فراheid الى الركب بكضا :
- انهم ألوف ياسيدى ، ولكنهم لم يرونا ، ونحن الآن
خلفهم ، وهم متعلقون حول مجرى ماء واسع عريض
يلمع مأؤه تحت أشعة الشمس .

نظر مالك الى وجه العبد المغبر ، وشفتيه المتشققتين
من الظما ، وضحك قائلا :

- سرعان ماسيصبح الماء لنا يانجاح . اسرع الى
سيدك وقل له حين يرى سهما واحدا مشتعلا يشق كبدا
السماء نحوكم فعليه أن يطرهم بالسهم من قسى كل
الرجال ثم يهجم عليهم مرة واحدة . ولتحدثوا الكثير من
الجلبة والصياح ..

أطرق العبد نجاح برأسه ، ثم أسرع يجرى كفحل
الابل ، وهو يخب خبا . وتتبعه مالك بعينيه في اعجاب .
فهذا العبد حين يسرع يلحق بالابل وربما يسبقها أيضا ،
كأنه هبة ريح أو نسمة هواء . والتفت مالك الى الرجال
فانتقى أحدهم وأشار اليه ليتقدم نحوه ، ثم قال له
حين اقترب منه :

— اشعل خرقة الى سهمك واستعد اطلاقه ناحية
مراهيد ورجاله حين أشير اليك .

وما كاد ينتهى من حديثه معه حتى جاء العبد الثانى
لاهثا ، وكان مالك يعرفه أيضا ، فهو من أشجع العبيد
واسرعهم وأخلصهم لابنه هناءه . كان وقد ولد معه فى
يوم واحد ، ومنذ ولادته وهو لا يفارق هناءه فى صيده
أو لهوه أو مرانه الدائم على ركوب الخيل والطعن بالرمح
والرمى بالنبل والقتال بالسيف — وحين اقترب منه العبد
وضاح قال :

— لقد نفلنا أمرك ياسيدى مالك ، وسيدى هناءه فى
انتظار أوامرك .
سأله مالك :

— هل رأيتم قتلة العبيد ؟
قال وضاح :

— هم عند غدير كبير وفى عدد كبير جدا . وهناك شىء
كنت لا أود أن أخبرك به لانه سيحزنك ولكن مسيدى
هناءه أمرنى أن أحكى لك عنه .
بدا الاهتمام على وجه مالك بن فهم ، وهو يسأل
العبد وضاح :

— فما هذا الامر ياوضاح ؟
سكت وضاح لحظات ، ثم طرق برأسه ليعيد عينيه

عن عيني مالك . وقال : ٥

— سيدى معن والسيد زهير والعبيد الثلاثة الباقون .
— مالهم ؟

— أسرى هؤلاء القوم . فقد أمرنى سيدى هنساء
فتسللت على حذر الى قريبهم ، ورأيت سيدى معن ومن
معه مقيدى الى أوتاد متينة بالأرض أمام فلج المساء
الذى يتحلقون حوله ..

وأطرق مالك فى عيوس وضيق . أن يقتل الفارس فهذا
امر يحتمله الصراع ، أما الأسر فهو مذلة لا يقبلها الفارس
فهى عار عليه .. وكأنما قرأ وضاح ما يجول فى رأسه
اذ قال بسرعة :

— لا أظن معنا رمن معه أتيت لهم فرصة القتال ،
أحسبهم أخذوا من كمين غادر كما أحسب من قتلنا
بالسهام لم يعرفا ماذا أصابهما ولا من هاجمهما ، فقد
أخذا من كمين أيضا ، فقد لاحظت أن احدا منهما ما كان
يمسك سلاحا فى يده استعدادا لقتال حين فاجأهما
الموت .

لمعت عينا مالك فى اعجاب وقال لوضاح :

— لقد لاحظت هذا أنا أيضا وكتمت الامر عن الرجال ،
ولهذا أمرت بالاستعداد واليقظة . والآن قل لهناء يلزم
الحذر ، وحين يشاهد سهمين مشتعلين يطلقان ناحيته
فليطلق رجاله سهامهم مرتين على جموع الاعداء ، ثم
اهجموا عليهم بالرماح والسيوف ، والان وقد تسللت
اليهم فهل تعرف أين مضاربهم ؟ ..

قال وضاح وهو يمسك بعود يخط به فى الرمال
موضحا قوله :

— أنهم لا يسكنون الخيام ، وانما هناك عند هذا التل

وفي حوض الجبل عدة كهوف واسعة تتناثر امتعتهم
وخيولهم حولها ، أما أغنامهم وأبقارهم وجمالهم فهي
ترعى الى الغرب من هذه الكهوف ، وليس هناك من
يحرسها الا مجموعة صغيرة منهم .

- أسرع وأخبر هناءه بأوامري ..

وحين انطلق وضاح يحمل أوامر مالك ، أخذ مالك
ينادي على رجاله ويمهد الى كل منهم ومعه مجموعة
من العبيد بمهمة من المهام قائلا :

- سالم عليك عند بدء القتال بالهجوم على الكهوف ،
لقد وضع وضاح مكانها بهذا الرسم فوق الارض ،
ولتأسروا الجميع واقتلوا من يقاتلكم .. وأنت يا حمود
حاصر أموالهم ونوقهم واقتل الحرس وابعد بها بعيدا
واترك خلفك مجموعة من العبيد يعوقون بالسهم كل من
يتعقبكم ، ولكن لا تهجم على المراعى الا بعد أن تبدأ المعركة
وانظر الى رسوم وضاح على الرمال لتعرف المكان
فتقصده مباشرة ودون تعويق .

وماكاد مالك بن فهم ينتهي من حديثه حتى علت امامه
غبرة ضخمة انفرجت عن رجال عديدين يحملون القسي
والسهم والحراش والسيوف ، ويقفون في صفوف
متراصة تملأ الصحراء امامهم تماما .. وكأنما انبتت
الصحراء رجالا فقد غطتها جموعهم التي كانت تتزايد كل
دقيقة تمر .. التفت مالك الى سالم وحمود قائلا :

- أسرعوا انتما لتنفذا ما امرتما به .

ثم أشار الى الرجال قائلا :

- أريد مائة من حملة القسي من امهر الرماة هنا عند
حافة هذا الجبل ولينتظروا أوامري .

ثم أشار بيده فتقدم الرجال خلفه ، ومضى هو يسير

بجواده ببطء متقدما نحو الجموع أمامه ، يتفحص أجسادهم العارية تماما الا من أزار عند الوسط ، ملابس رجال الجبل ، وشعورهم طويلة يضع كل واحد عصا به حول رأسه ينسدل من تحتها شعره الكث المغير . كانت بشرتهم سمراء ، لوحتها الشمس وان لم يكونوا في سواد جلود قوم حبيش وحيشان .. وكان يتقدم الجمع رجل ضخمة الجثة لا يحمل سلاحا ، وانما يحمل في يده عصا خشبية ضخمة تصلح في مثل يده هراوة مميتة عند القتال . وحول أعناقهم قلادات تتدلى منها قطع معدنية أو أحجار لامعة تخطف الإبصار . وفجأة انفسرحت الجموع المحتشدة وراء الرجل الذي يتقدمهم ، وظهر مجموعة من الرجال يسوقون الأسرى أمامهم في عنف ، وكان معن وزهير والعبيد الثلاثة قد ربطت أيديهم خلف ظهورهم ، ووضعوا بحبال حول أعناقهم .. وتنهى الرجل الغليظ الجثة ليرمي الرجال معن ومن معه الى الأرض ، ثم تقدم مجموعة يحملون الحراب ووضع كل واحد منهم حربته فوق صدر واحد من الأسرى .. وكان المعنى واضحا .. واخذ مالك يتأمل ابنه والرجال ، لم يكن فيهم جرح واحد ، اذن فقد أخذوا بغدر كما قال وضاح .. وانتبه على صوت الرجل السمين وهو يصيح في صوت جهورى عال ، وكان يقول :

— أيها المفامر بالمجئء الى الأرض المجهولة — لا يمر أحد من هنا دون اذن منا .. وهؤلاء رجالك أسرناهم لتعرف أننا قادرون على منعك وكل من معك .. فلا عبور على أرضنا الا بشروطنا .

التفت مالك بسرعة الى الفرسان حوله وقال في صوت منخفض :

— أخبروا الرجال حاملي القسي ان يطلقوا سهامهم

على حاملي الحراب ، وليطلقوها ليقتلوا فحياة معن وزهير
ومن معهما تتوقف على دقة التصويب ، ومن السهم
الاول . ولتكن العلامة أن اطلق انا اول سهم ، ولحظة
يطلقون سهامهم ليطلق حامل السهم المشتعل سهمه
ناحية فراهيد ، وليطلق آخرا ن سهمان مشتعلان ناحية
هنا ، واتبعوني حين اهاجم ..

وحين أنهى كلامه كان الرجل الغليظ الجثة يتقدم
وحده الى أن قطع منتصف المسافة بينه وبين مالك بن
فهم ، ووقف مستندا الى هراوته ، وعاد يقول بهذا
الصوت الجهورى العالى :

— لقد كنا نراقب ركبكم من فترة طويلة ، ونعترف
ماتعانون من عطش شديد ، والماء عندنا ، ولكن كل شيء
يشمن ، وسنسمح لكم بالشرب من ماء الفلج العذب مقابل
مامعكم من ائعام وبعير وخيول وأسلحة ..

قال مالك مخاطبا اياه لأول مرة :

— تأخذون كل شيء ..

ضحك الرجل الغليظ فى خشونة وقال :

— نترك لكم الحياة .. الا يكفى هذا .. ستشربون
وتستردون قواكم المنهكة ، لو منعنا عنكم الماء لتم عطشا
بلا أدنى شك ، ولكننا سنسمح لكم بالشرب والحياة ،
وهذا كثير جدا .

قال مالك وهو يحدد مكان الرجل الذى يقف فوق
أنه معن مصوبا الحربة الى قلبه :

— اتركوا لنا السلاح والركائب وتخذوا الباقي ..

ضحك الرجل الغليظ مرة أخرى وعاد يقول :

— نحن فى حاجة الى كل مامعكم من خيول وابل
وسلاح ، فعبدة النيران الملاعين فى جوارنا يغيرون علينا

بأفئالهم وتخيلهم ولسنا كفؤا لهم ، أما لو كان معنا
خيلكم وأبلكم وسلاحكم لاستطعنا أن نجلبهم عن عمان وأن
نعيش نحن في خيرها .. ثم أنتم كفره مثلهم ، أنتم تعبدون
النجوم والأصنام ، وهم يعبدون النيران ، فأنتم أعداؤنا
مثلهم تماما ..

قال مالك بن قهم وقد حرك قوسه ليكون بين يديه :
- ليس بيننا وبينكم عداً أيها الرجل ، نحن لا نغرقكم
من قبل ، ولم تدر بيننا حرب ، ولم يجر قتال .
قال الرجل الغليظ بصوته الجهوري الخشن :

- لا مكان هنا إلا لنا ، فقد ورثنا الأرض ، لأننا
شعب الله المختار . آخضنا بكل الأرض ، وجاء جدنا
سليمان على جناح الريح يحمله الجن فوق السحاب ،
فشقوا لنا بأمرة هذه الأفلاج ليكون الماء لنا وحدنا هنا .
استطاع مالك أن يخرج سهما من جراب السهام دون
أن يلتفت إليه الانظار ، وقال وهو يعدل من وضعه
ليصبح في منتصف القوس :

- جن سليمان .. وأنتم من نسله ..
قال الرجل :

- نعم من نسل عابر بن شالح زول من ملك في الدنيا ،
صاحب الصحيفة ، وأبو هود النبي ، ومن نسلهما داود
وسليمان وهو من ملك الانس والجن . وأنا الملك الآن ،
أنا متشولح ..

قال مالك بن قهم :

- ان كنتم من نسل من حكم الجن فانا أحكم الانس ،
انظر ..

وأشار بيده نحو السماء فالتفت كل العيون حيث
أشار ، وثبت مالك السهم في القوس ، وقبل أن يلتفت

أحد أطلقه فأصاب قلب الرجل الواقف فسوقاً ممن
فسقط قتيلاً لتوه . وانحدر ممن من مكانه ، بينما ضج
الرجال بالصراخ وصيحات الحرب ، واندفعت في السماء
سهام مشتعلة ، واحدة عن يمين واثنان عن يسار ، وضرب
الرجال فوق الراية بسهامهم حراس الأسرى ، وصرخ
مالك :

— ورائي يا رجال الأزد . . .

واندفع كالسهم المارق الى حيث وقف الرجل الغليظ
الذي أدهشه كل هذا الذي يحدث فجأة ، فضربه بعقب
رمحه فأرتمى فاقد الوعي — وعدل مالك رمحه وانقض
به في صفوف الغابريين الذين أخذتهم صيحة فراهيد
ورجاله من ناحية ، وهنأه رجاله من ناحية ، بينما
ارتفعت الصرخات من عند الكهوف ، وصاح العبيد من
عند المرعى — وأسقط في يد رجال متشولح فرموا
السلاح وقد سقط منهم القتلى بال عشرات ، ووقعوا
الى الأرض يركعون في استسلام . . وأسرع مالك يفك
قيود ممن وزهير ومن معهما من الرجال . بينما شق
فراهيد وهنأه طريقهما الى حيث وقف أبوهم فوق رأس
متشولح الذي أفاق من ضربة الرمح ووقف غائر العينين
بجائه البصر يتلفت حوله في دهشة وذهول . . وقال مالك
ابن فهم :

— لقد انتهى أمرك يا ابن ملك الجن والانس . لقد
بغيت وطفوت فحق عليك العقاب . ولا مكان لك هنا ،
وما حكمت به علينا ، نحن نحكم به عليك ، تغادر أنت
وقومك هذه الأرض الى الشمال .

قال متشولح وهو يترنح في وقفته :

— الى الشمال . . هذه أرض مخوفة قاحلة .

قال مالك :

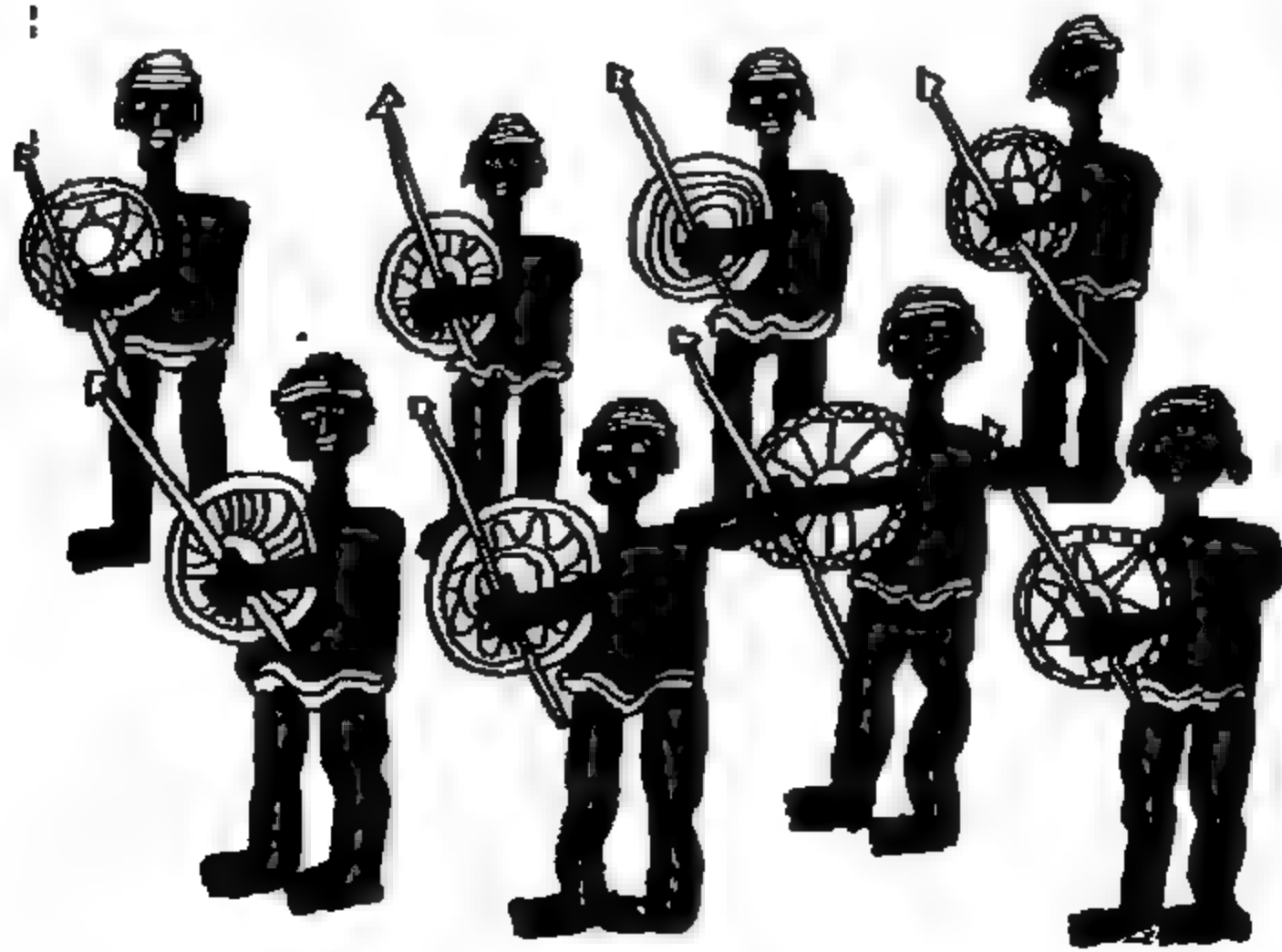
— لقد انتهى أمرك لحظة غدوك برجالى ، وتصورت
أنك تتحكم فى وفى طريقى ، ومثلك لايساوم ولايساوم ؛
فأنت اما منتصر فتزهو على العالم كله وتدل بقوتك ،
وتنسى دينك ونفيسك ، واما مهزوم تلزم جدارك وتخضع
لن هزمك .. ولكنى سأكون أرحم منك ، فأحمل نساءك
وجرحاك على الرواحل وخذ من الرواحل مايحملك عبر
الصحراء ، وخذ من الماء والانعام كفايتك .. ولكن الترك
سلاحك وامض .

قال متشولع :

— بلا سلاح تتخطفنا الامم :

قال مالك :

— هذا قدرك ، ولا تطمع فى كرمى اكثر من هذا ..
فسيدير فراهيد امر رحلتك ، ولتغادر يائسل عساير
هذه الارض ولن تعود اليها ابدا .



فارس الأزدي "تحرير عثمان"

كانت أصوات الغناء الطروب تنبعث من كل مكان في المخيم الذي أقامه الرجال حول الفلج العذب الماء . وكانت دقات الطبول وأصوات المزامر وتصفيقات الراقصين تشيع روحا من البهجة والفرح . فقد شرب الجميع واغتسلوا واكلوا واخذوا بعد كل هذا يطربون ويرقصون ويمرحون . . وكانت النساء تشاركن في هذه البهجة كلها ، فهذه هي المرة الاولى التي يسمح مالك بن فهم للجميع بأن يمارسوا الحياة الطبيعية التي كانوا يمارسونها في حلتهم السابقة . . وشاركت أصواتهن الرقيقة العذبة أصوات الرجال الخشنة في الغناء والضحك والمرح . واخذ الاطفال يجرون هنا وهناك وهم يتلاعبون ويتضاحكون . وكان مالك بن فهم يتأمل هذا وشعور من العجب والدهشة يملؤه . . لقد مر هؤلاء بأيام كان تصور صدور الضحكة عن أحدهم تصورا مستحيلا . . فعل العطش والتعب والعناء فيهم فعله . أما الآن وقد توفر الماء العذب ، وشربوا واغتسلوا فقد تغير الحال وتبدل . . وفدا الرجال الكبار الذين علتهم الجهادية في الايام الاخيرة للرحلة كالاطفال مرحا وانطلاقا ، بل لعلهم كانوا يفوقون الاطفال في مظاهر البهجة والسعادة التلقائية التي تصدر عنهم . . وتمتم مالك

لنفسه ، وهو واقف أمام قلع الماء يتأمله :
- وكلنا أطفال حين نسعد ، لا تثقل علينا السنين الا
في لحظات العناء والشقاء :
جاء الصوت المشروح الذي طعنته السنين من ورائه
قائلا :

- صدقت بامالك ... نسوا اعمارهم جميعا وعادوا
اطفالا ...
قال مالك :

- نحن معشر البدو لا ننسى لحظات البهجة أبدا حين
تناح . ننسى العناء لحظة الراحة ، وننسى الجوع لحظة
الشبع ، وننسى العطش لحظة الري ...
قال زهير ، وهو يمد بصره الى الكلج ومائه المترقري
تحت اشعة الشمس الباكورة :

- ما كنا نحتمل ما تفرضه الصحراء علينا من عناء ان
لم تكن قادرين على استقطار لحظات السعادة من
شقاؤها وتعسها .. انظر الى هذا الماء لكأني أريد أن
أبتلعه كله . لحظة سمحت لنا باستعمال مائه ، دفنت
رأسي فيه ، وأخلت أعب بكفى منه عبا ، وهو لا يريد أن
ينتهي ، كنت أريد أن شرب كل قطرة فيه .. ولسكنتني
ما أخذت حاجتي منه ، حتى أحسست بالرى ، وظل
هو موجودا متدفق الماء ، مستمرا في الجريان .. ان
الحياة لا يمكن أن يستوعبها احد مهما أحس بالظما الى
استيعابها كلها وحده .. بل هي التي تستوعبه آخر
الامر حين يحس أن حاجته ضئيلة ضئيلة الى جسوان
ثرائها وتدفقها الدائم ...

ضحك مالك بن فهم وهو يتأمل الوجه الشديد السمرة
الملىء بالتضامنين والتجاعيد التي حفرها الزمن ، وقال :

— اتها تعلمنا الحكمة يا زهير ..

قال زهير :

— من أراد منا أن يتعلم علمته ، ومن نسي أن يستفيد من التجربة عبرته دون أن يضيف الى ما يعرفه شيئا .
لك هذا الشره الغريب متشولح له كل هذا الماء ، وكل هذا المرعى ، ومع هذا يتربص بالعطاشى والمتعبين ليسلبهم مالهم وسلاحهم مقابل جرعات ماء ، ومن يدري ربما كان يفكر فى أن يتعقبنا بعد أن نسلم اليه سلاحنا ليقتلنا جميعا ونحن عزل لا نملك لانفسنا دفاعا او مجالدة ..

قال مالك :

— سيظل متشولح ينتقل من ارض الى ارض الى نهاية الدنيا — ما أن يستقر بأرض حتى يطفى ويتجبر ، ويركب اهلها بالذل والاذى والتعذيب ، حتى يثوروا عليه ويطردوه منها ذليلا مهانا ، ليحل بأرض جديدة ، ويبدى من الخضوع والمسكنة والدلة مايمكنه من مقادير الارض ومقادير اهلها ، فيعود سيرته من جديد ..

قال زهير ، وهو يشير بيده الى الارض حولهم :

— كان هنا فى جنة حقيقية ، الماء والمرعى ، وكهوف الجبل يأوى اليها .

قال مالك بن فهم :

— والعبيد ، ألم ترا أنهم كلهم من البدو أصسحاب الارض الاصليين ، لقد غزاهم واستحل اهلهم واستعبدتهم قال زهير وهو يتطلع الى وجه مالك :

— هذا صحيح يا مالك .. كلهم من البدو ، أعراب مثلنا ، ومع هذا استحل هذا المافون وقومه أرضهم ومالهم واعناقهم .. ماذا ستفعل بهم ؟

قال مالك :

— لقد أمرت قراهيده أن يجمعهم وأن يعيد لهم أرضهم
كما كانوا يملكونها في السابق ، وأن يقسم عليهم من
الأبل والأنعام ما يقيم حياتهم من جديد ، وطلبت إليه أن
يحضر لي شيخهم فأنا أريد أن أعرف المزيد عن هذه الأرض
وعن هؤلاء الذين تحدث عنهم متشولح ..

قال زهير :

— تعني عبدة النيران الذين يستعبدون أهل عمان ..
— أياهم أعني ؟

— ١٦ —

كان الرجل عجوزا منحني الظهر ، ولكنه كان قويا
مفتول العضل ، حاد النظرات . في وجهه وداعة ، وعلى
شفته ابتسامة دائمة ، يتحرك وهو يتكلم وكأنها الحيوية
المتدفقة في جسده العجوز لا تدع له مجالا للسكون .
نظر إلى مالك بن فهم وهو يتنسم ، وقال :

— أخ عزيز حل أرضا عزيزة ، فأعزها وكرمها .
ابتسم مالك ودا على ابتسامة الرجل ، وقال يسأله :

— أم تباحون ؟

قال الرجل :

— بفضل بسالتك أيها الفارس .. أنا زاهر بن مسعود
وهذه الحلة اسمها برهسوت ، وأنت الآن في أرض
بحرمةوت ، وأمامك عمان تريد منك أن تحرر أهلها كما
بحررتنا ، وأن تخرج منها من اغتصبوها وركبوها بالنهب
والسلب والغطرمسة والتعالي ..

أخذ مالك بن فهم يتأمل العجوز ويعجب للنضالين
العميقة التي جفرت الأخاديد في وجهه ، وقال :

— سماهم متشولح عبدة النار .

قال الرجل وهو لا يكف عن الحركة في مكانه أبدا ،

— ١٥٢ —

يحرث متاعده ، وقدميه وعضلات وجهه دائما :
- صدق في هذا ، هم يعبدون النار حقا ، وعلى مسيرة
قريبة من هنا ستجد بيوت نيرانهم التي اقاموها هنا ،
وهم الفرس ، جاءوا عبر البحر ، فلا يفصل بين
ارضهم وهذه الارض الا البحر ، وهو هنا ليس عريضا
كالبحر الذي يقع في الجنوب ..

سأله مالك بن فهم :

- وكيف ملكوا ارض عمان ؟

- العدد والعدة والمراكب المسلحة والافبال ..

صاح زهير يقطع حديثهما لأول مرة :

- الافبال .. لقد سمعت عن مثل هذه الحيوانات
وفعلها في القتال ، ولكنى كنت اظن الحديث عنها من
قبيل السمر والخرافات ..

قال زاهر بن مسعود ، وهو يشير الى فراهيد بيده :
- لقد اخبرت السيد الفارس الشاب بكل هذا الامر
من قبل ، انها حيوانات مهولة ضخمة يركبونها وقد
صانوا جسدتها بالحديد ، ويرمون من فوقها بالنشاب
والرماح ، ويدفعونها فتخترق صفوف المقاتلين ، وتصيب
الخيال بالذعر والهلع ، فهي تمتد خرطومها الطويل تحيط
به الفرس وترفعه هو وراكبه في الهواء ثم تقذف به الارض
ليتمزق هو وفارسه .. لا ، لم يكن لاحد منا قبلا بها ،
فانهزمنا ، واستولوا على عمان كلها من صحار الى نزوى
الى مسقط ومطرح الى قلعات ..

قال فراهيد الذي صاحب زاهر بن مسعود عند قدومه
الى ابيه :

- لا تخيفنا هذه الافبال ، فلكل داء دواء ، وستستطيع
ان نهزمها ومن يحتمون بها ..

صاح زاهر وهو يرفع يده في الهواء متحدرا :
- لا تقلل أيها الفارس الشاب من شأن هؤلاء الفرسان
فقد رأيت منهم من يعدل العشرات ، فلهم في الحرب
مهارة لا ينكرها الا الاحمق ، ولا اظن فيكم من هو
كذلك وهذا فعلكم بمتشولح ورجاله ، وقد كنا نحسب
انهم قوة لا تقهر ..

ضحك مالك بن فهم ، وهو يقول :
- لا توجد على الارض قوة لا تقهر ! ايها السيد زاهر .
فكل قوي هناك من هو اقوى منه واشد بطشا . والآن
وقد استراح القوم واستقروا ، فوجهتنا عمان .
قال فراهيد :

- هذا ما انتظرته منذ مجيئنا الى هنا .
قال مالك :

- قل لهناؤه يهبيء الفرسان والمحاربين . اما انت
يا فراهيد فاختر الفين من الفرسان وتقسم امام
الركب حتى تدخل عمان ، فعسكر هناك ، واجد اختيار
مكان معسكرك ، وارسل امامك بالبصاصين يعرفون مواطن
القوة والضعف في اعدائنا ، وانتظر حتى نصل اليك
بجموعنا . ولا تحارب الا اذا اضطرت الى ذلك ..
قال فراهيد :

- هذا ما سافعله في الحال ، فالرجال مستريحون
والخيل متاهية ، ونحن نتعطش الى الانتقام ممن اذلوا
اهلنا من سكان عمان .

قال زاهر بن مسعود :

- ساذهب ونخبة من رجالي معك لندلك على الطريق ،
ولنكون عيونك على عدوك فنحن نعرف الارض ومطاسن
الماء ، وسيخبرنا اهلونا في عمان بكل ما تريد ان تعرفه

عن قوة الفرس وتوزيع جنودهم .
وانصرف فراهيد ومعه الشيخ العجوز زاهر بن مسعود
وهو يتوفز حركة وحيوية ، وتتبعهما مالك بن فهم
بمينه متأملا ، وهو يقول :

— لا تكاد تعرف أيهما الشاب وأيهما العجوز .
قال زهير :

— الناس هنا يتوفزون حيوية أيا كان عمرهم ، وهم
مقاتلون أشداء رغم ابتساماتهم وطيبتهم .
قال مالك :

— هذا ماتوسمته فهذا العجوز يحمل بين جنبيه قلب
أسد .

أطرق زهير برأسه لحظات ساد فيها الصمت ، ثم
رفع رأسه قائلا :

— قوم حبيش وحبشان أول الامر ، ثم قوم متشولج
بعد ذلك ، والآن الفرس .
قال مالك :

— لم يتعرض لنا طوال الرحلة أى إنسان من أحياء
العرب من معد وعدنان ، ما كنا نمر بأحيائهم حتى تلقى
منهم السلام والترحاب .
ضحك زهير وهو يقول :

— ربما لأن عددنا كان يهولهم ، فانت تسير فيما يزيد
عن ستة آلاف فارس غير العبيد والنساء ، فمن له
بمجالدة مثل هذه القوة ألا من يستخف بها ولا يعرف قدر
العرب فى القتال .

قال مالك بن فهم :

— ربما كان الامر هو هذا ، وربما أنهم كانوا يدركون
أنا نسير الى وجهة أخرى وأنا لا نناصبهم العداة ، ولا

نطمع في أموالهم وأرضهم .. وأهلنا يازهير لا يقتاتلون
الا من ابتدرهم بالعدوان والبغى ..
ومن بعيد لاح هناءه يسرع نحو أبيه ، فقال مالك :
- هذا هناءه قد جاءنا بأخبار الاستعداد للرحلة ،
وما أظن الا ان فراهيد في طريقه الى استكمال مسيرته
نحو عمان ..

- ١٧ -

عندما وصل الركب الى الشجر ، أمر مالك بن فهم
ان يستريح الجميع . وان يذهب العبد نجاح ليسانى
بأخبار فراهيد ومن معه من فرسان . وما استقر الركب
كل في مكانه وهم جميعا في حالة تأهب واستعداد حتى
أسرع هناءه الى أبيه الذي كان يعتنى بجواده كعادة
الفرسان .. وقال له

- لقد عبات كل الرجال واطمانت على خيولهم
وسيوفهم وحرابهم وقسيهم .. والفرسان آخرتهم الى
آخر الركب اما الراجلون فهم يسرون في المقدمة .
والنساء والاطفال حولهم الحرس الأشداء ، اما المال
والانعام فهي في حراسة العبيد في مجاميع صغيرة حتى
لا تجفل ، وحتى يسهل التحكم فيها . ولكن هناك أمرا
يضايقني وما كنت أحب ان أخبرك به لولا انه لابد ان
تعلم .

التفت مالك الى هناءه مستفسرا ، فقال هناءه :
- ان مهرة بن حميدان بن الحاف بن قضاة بن حمير
يريد ان يتخلف بقومه هنا ، وان ينزل معهم الشجر ،
ولا يكمل معنا المسيرة ، فقد أعجبه الكلا والماء هنا ،
ومن في الشجر من الاعراب قلة ولن يضرهم نزوله
بأرضهم ، بل لقد تكلم مع شيخهم بالفعل وحصل على
موافقته ان ينزل بأرضهم دون قتال .

أطرق مالك بن فهم متأملا ما أخبره به هناءه ، وأدرك سر قلقه وتخوفه ، ثم رفع رأسه الى ابنه وأبتسم في وجهه المقطب العابس ، وقال :

— ان مهرة بن حميدان ليس من اتباعنا او من رجالنا ، انما هو حليف من الحلفاء الذين ساروا معنا يبتغون من هذه المسيرة خيرا ، ولست املك ان آمره بشيء .. قال هناءه في اصرار :

— انه وقومه معنا على الخير والشر ، ولولانا ما وصل الى هنا ، ونحن مقبلون على معركة ولا بد ان يشارك فيها ثم يفعل بنفسه وقومه ما يشاء . قال مالك :

— لا أرغم احد على الاشتراك في حرب لا يريد . استمر هناءه في جدله قائلا :

— لو ان كل واحد وصل الى ما يريد من منتجع ففصل رجاله واعتزلنا فيه ، لما بقي معنا من نحارب به من الرجال .. ولو سمحت لمهرة لما استطعت ان تمنع الباقيين ..

قال مالك في اصرار وحزم :

— أترك هذا الامر يا هناءه والتفت الى ما كلفتك به .. وقبل ان يرد هناءه ، أقبل العبد نجاح يجسري وهو يثير الغبار حوله ، وقبل ان يتوقف عن جريه او يستأذن في مخاطبة مالك كان الكلام يتدفق من فمه كالسيل :

— هؤلاء الفرس جمع حاشد ، يسكنون في كل القرى والثغور ، ولهم معسكرات محتشدة بالخييل والابل ، وقد رأيت هذا الحيوان المهول — القيل .. عليه من الدروع ما يعجز البجن انفسهم عن الحركة ..

ثم توقف وجال ببصره بين مالك وهناءه ، وتلعثم

قليلا ، ثم عاد يقول وقد هدا اندفاعه فى الكلام :
- سيدى فراهيد يقرؤك السلام ياسيدى مالك ،
وهو والرجال بخير . وقد رأنا القوم فارسلوا طلائعهم
نحونا ، الا انهم لم يهاجمونا ، ونحن بناحية الجوف وهم
أمامنا بعساكرهم التى أخذت تحتشد وتتكاثر . وبالإمسا
أرسل قائدهم يسألنا ماذا نريد ؟ فأمله السيد فراهيد
حتى يرسل اليك فتجيبهم بما تشاء ..
قال مالك ، وهو يربت على عرف فرسه ، ويشهد
الركاب ليحكمه :

- سأحمل له الجواب بنفسى .
ثم قفز على ظهر جواده الذى دار دورات قبل أن تستقر
حوافره المتوفزة فوق الأرض ، واستدار الى العبد
نجاح يسأله :

- ألم تعرفوا اسم ملكهم أو قائدهم يانجاح ؟
قال نجاح :

- قالوا أن ملكهم فى بلاد فارس وهو الملك دارا بن دارا
ابن بهمن بن اسفنديار ، وأن المقدم عليهم فى عمان هو
المرزبان عامل هذا الملك ونائبه هنا فى عمان ..
قال مالك :

- أسرع الى فراهيد وقل له اننا فى الطريق فلا يتحرك
من مكانه فى الجوف .
ثم التفت الى هناءة قائلا :
- نظم الرجال للسير سيرا حثيثا الى حيث معسكر
أخيك ورجاله ، واتبعوني .
وبدأت رحلة الازد الى تحرير عمان .

- ١٨ -

لم يكن مالك يتوقع هذا المنظر الذى طالعه عندما
وصل الى معسكر فراهيد ورجاله . فأمام الرجال

- ١٥٨ -

اصطف الفرسان صفوفا متتالية لا يحصرها عد ،
واسلحتهم ودروعهم تلمع تحت اشعة الشمس .
وخيولهم تصهل وهي لا تكاد تستقر تحت الفرسان .
ثم رأى الافياء وعليها دروعها وفوقها الهودج المليئة
بالرجال والسلاح . فأوقف فرسه يتأمل هذا المنظر
الهائل الذي يبعث الرعب في القلوب . وقال معن الذي
كان يركب الى يمينه :

— ماكل هذا الزرد والحديد ، وانظر الى رماحهم
الطويلة ، وهذه الافياء . انهم لا يحاربون الا وكل الظروف
في مصلحتهم ..

قال مالك بن فهم :

— فيماذا تخرج من هذا يامعن ؟

قال معن :

— انهم يفضلون السلامة ، ولا يقسامرون بالتعرض
للأذى . وليس مثل هؤلاء من يصمدون لنا .
قال مالك بن فهم وهو يرقب ابنه فراهيد يتقدم نحوه
بجواده :

— لقد أصبت يامعن .. ان منظرهم مخيف ، وهذا
المنظر جزء من سلاحهم ، فان لم يحمل الرعب الى
قلوب الرجال فقد كسينا نصف المعركة .
قال فراهيد حين وصل الى أبيه وأخويه اللذين
يقفان خلفه :

— نحن نقف هكذا منذ الامس ، هم يستعرضون قوتهم
واسلحتهم وافيالهم ، ونحن نتفرج عليهم ، وقد عادوا
اليوم فأرسلوا رسولا جديدا يسألنا ماذا نريد ..
قال مالك بن فهم وهو يجول ببصره بين رجسالة
المتطلعين في دهشة الى جحافل الفرس أمامهم :

— أرسلوا الى هذا الشيخ زاهر بن مسعود ، ومعه زهير فلي حديث معهما ..

ثم التفت الى معن قائلاً :

— وراء هذا الجبل اوقف تقدم النساء والابل والانعام والرعاة والعبيد .
ثم قال لهؤلاء :

— تقدم بالراجلين من المقاتلين وليلبسوا السدروع وليخففوا من السلاح الا من القسي والسهام والسيوف وقال لفراheid :

— تراجع بفرسائك واترك للرجال ان ينضموا الى باقى الفرسان خلفهم ..

وبدا معسكر مالك بن فهم يهوج بالحركة ، وتغير مكان المقاتلين .. وظهر عددهم وكأنه يفوق حقيقته عشرات المرات ، وجوه تظهر ، وجوه تختفى ، والفرسان يتراجعون ، والرجالة يتقدمون ، وحركة فى آخر الصفوف ، واخرى على الجانبين . وبدأ جنود الفرس يتبادلون النظرات القلقة لأول مرة منذ رعدوا فرسان فراheid ، فما كان هؤلاء الا قلة ، وما كانوا الا كغيرهم من الفرسان العرب الذين لا يعرفون الا الهجوم المباشر والسريع ، والذي يمكن تحطيمه بسهولة أمام سسيل السهام وهجوم الافيال ، وأسنة الرماح الطويلة التى تطولهم قبل ان يصلوا الى حاملها .

وفى ناحية من المعسكر اجتمع مالك بن فهم بأولاده وزهير والشيخ العجوز زاهر بن مسعود ، وأجال فيهم مالك عينيه الحادتي النظرات ، وقال :

— هؤلاء لا يؤخذون بسهولة ، وعلينا ان نفاجئهم بطريقة قتالنا التى لا يتوقعونها . وأشغلوا الرجسـال

بالحركة الدائمة ، وسأخاطبهم قبل بدء القتال .
وسيتولى فراهيد الميمنة ، وهنائه الميسرة وأكون أنا في
القلب . أما معن فمهمته حماية المؤخرة وفيها النساء
والمال والعبيد . .

قال فراهيد :

— وكيف تقسم الرجال ؟

قال مالك :

— كل واحد منا على رأس ألفى فارس . . أما الرجال
فيرأسهم زهير هنا ، ومهمته إمداد أفيالهم وخيلهم بالسهام ؛
فاذا ما هجم فرسانهم تنحى هو ورجاله وتركوا لنساء
مواجهتهم ، وأعادوا تشكيل أنفسهم ورائنا ، فاذا تراجعنا
من أمامهم فجأة ، أصبحت الرجال وسهامهم في
مواجهتهم من جديد . . وتكرر هذا حتى تكسر هجومهم ،
ثم التفت إلى زاهر بن مسعود ، وقال :

— أنت تعرف الأرض هنا أيها الشيخ ، فأى مكان آمن
للنساء والمال ؟

قال زاهر وعيناه تتألقان إعجاباً بمالك ، وجسده
كله يتحرك فى توفز :

— ستهزمهم ، أعرف أنك ستهزمهم . . فهم لم يواجهوا
من يعرف معنى الحرب مثلك ، حقاً يا أخوان ، الحرب
ذكاء وخبرة ومهارة قبل أن تكون شجاعة وشطارة
واستهتاراً بالعدو . .

قاطع مالك قبل أن يسترسل فى حديثه المتدفق
قائلاً :

— سألتك عن مكان آمن للنساء والمال ؟

سكت زاهر بن مسعود فجأة ، وبدأ شكله مضطرباً وهو
يحاول أن يسترد أنفاسه اللاهثة ، ثم قال :

— الجوف ، حيث يكون مالك ونساؤك فى امان ، والماء
هناك وفير ، والمرعى جيد ..

قال مالك :

— اذهب مع معن ودله على هذا المكان ، وانت يامعن
لا تشترك فى المعركة ، ولكن صبر ما معك ...
ثم قال :

— والان لترسل الى الفرس جوابى ، قولوا لهم ان
مالك بن فهم يقول : لا بد لى من النزول فى قطر من
عمان وان تساوونى فى الماء والكلا والمرعى ، فان تركتمونى
ظوما نزلت فى البلاد وحمدتكم ، وان ابيتتم اقامت على
كرهكم ، فان قاتلتهمونى قاتلتكم ، فان ظهرت عليكم
قتلت المقاتلة وسبيت الذرية ، ولم اترك احدا منكم
ينزل بعمان ابدا ...

صاح زهير :

— نعم القول .. حقا ان القول ما قال مالك ..

— ١٩ —

جاءت رسالة المرزبان كما توقعها مالك بالرفض المتعالى
المهين ، وقرب الليل جاءه زاهر بن مسعود بأخبار عيونه
من اهل عمان ، قال :

— الفرس يحتشدون فى صحراء سلوب بالقرب من
نزوى .

قال مالك فى حزم :

— لقد اطمأنا على النساء والمال ، وان نتركهم حتى
يدهموننا ، سنرسل اليهم حيث يحتشدون لتكون المباداة
منا ، ونرحل الآن ، وفى الحال .

قال فراهيد :

— وهؤلاء المحتشدون امامنا من فرسان .

قال مالك :

— لكلام —

— ماوقفوا الا لتضليلنا حتى يتم للمرزبان تعبشة جنوده ، أقتحموهم الآن فورا ، وهيا بنا نسير .. ولم تصمد مجموعة الفرس امامهم ، بل تراجعست واثكشفت ، وبدا زحف الازد الى صحراء سلوت واستمر طوال الليل . وفي الصباح شاهدوا طلائع الفرس امامهم فأخذ الجيش الازدى مواقعه كما رتبها مالك ، وأمر الجميع أن يرتدوا الدروع ، وخرج على فرسه الابلق ، وعليه درعان عليهما غلالة حمراء ، وتكلم على رأسه بكلمة حديد ، وتعم عليها بعمامة صفراء ، والرجال وراءه قد تقنعوا بالدروع والبيض ، والجواشن ، لا تظهر منهم سوى الاحداق . ودار مالك برجاله المصطفين يتأمل أسلحتهم وخيولهم ، ثم وقف امامهم وظهره الى العدو الذى كان يرتب صفوفه ويعد كتابه ، وقال لهم بصوته الهادىء الواثق القوى :

— يامعشر الازد اهل النجدة والحفاظ جاموا عن نسائكم وذبوا عن اولادكم ، وأصدقوا عهدكم ، ولايهولنكم عدوكم .. وطنو انفسكم على الجلد والصبر فان هذا اليوم له مابعده .

ثم اشار فتراجعت الفرسان كما رسم لهم ، وهو فى القلب ، وعلى الميمنة فراهيد،وعلى الميسرة هناءه ، بينما تقدم الرجاله وعلى رأسهم زهير .. وما أتم الازد تحركهم حتى انبعثت صيحة عظيمة من صفوف الفرس ، وهجم رجالهم تتقدمهم الافيلة ولهم ضجيج وعجيج . وصاح زهير برجاله فأمطروهم بوابل لا ينقطع من السهام وقد ركزوا سهامهم على القيلة المتقدمة ، فصاحت القيلة وهى ترمى من عليها من رجال ورجعت هاربة الى عسكر المرزبان ، فأحدثت فيهم الفسوضى وصمدت خيلهم ووطأت

رجالهم . وما أن عمت الفسوفى صفوف الفرسان حتى صاح مالك برجاله ، فانتقضوا كالسيل على الصفوف المضطربة وقد اشرعوا رماحهم وسلوا سيوفهم وهم يتصايحون بنداء الحرب والقتال . . وتضارب الرجال بالسيوف والرماح ، وسقط القتلى والجرحى من الجانبين ، وامتزج صياح الرجال بصهيل الخيل بقعقة السلاح ، وثار الغبار حتى احتوى الفريقين ، والفرس يتراجعون فى اضطراب ، والمرزبان يرسل فرسانه هنا وهناك ليعيدوا للصفوف تماسكها من جديد . ثم رفع مالك رمحه فى يده فوق فرسانه ، وأشار اليهم فتراجعوا جميعا ، بينما تقدم الرجال من جديد وأمامهم زهير ينظم صفوفهم . وما أن شعر الفرس بتراجعهم الازد ، حتى صاح المرزبان فى رجاله فتقدموا فى أربعة كتائب على كل كتبة واحد من الاساور الشداد وأمامهم فيل ضخيم يرسل الرجال فوقه السهام ويلقون الرماح ، وتلقاهم زهير مع الرجال بوابل من السهام من جديد ، ثم تراجع مع رجاله ليفسح المجال أمام الفرسان . . وهجم مالك بن فهم من القلب وفراheid من اليمين وهناه من الميسرة ، بينما زعقت بوقات الفرس ، واشتد قسرع طبولهم ، وتعالى صياح فرسانهم . والتقى الجمعان فى موقعة جديدة مهولة . وقصد فراheid الى الفيل فضربه على خرطومه بحربته ثم اشرع سيفه يطعنه من جديد ، وصاح الفيل ودار وهو يرفع اقدامه فهجم عليه هناءه فعرقبه ، وضرب قوائمه المرفوعة فى الهواء ، فسقط الفيل صارخا ، وامتلات قلوب الفرس بالرعب ، ورجال مالك يضربون بالسهام حتى تفصدت وبالسيف حتى تكسرت وبالرماح حتى انحطت . . وكاد الفرس يولون

الفرار كالمرّة الأولى ، إلا أن المرزبان تقدم على جواده
وقد كساه الزرد والحديد وصاح برجاله ، فتراجع
الأساورة الأربع بالرجال قليلا ، بينما توقف مالك برجاله
في أماكنهم ، وصاح المرزبان بكلام كثير ، فقال مالك
على زاهر بن مسعود والذي كان يركب إلى جواره وسأله
عما يريد ، قال زاهر :

— أنه يطلب أن يبرز الفرسان فارسا لفارس .
قال مالك :

— أجبه إلى ما يريد ..

وما انتهى زهير من حديثه ، حتى تحرك فراهيسد
وهناؤه كل منهما يريد الخروج ، فمنعهما مالك بن فهم
وهو يخرج إلى الميدان ، فبرز إليه واحد من الأساورة
الأربع ، وكان رجلا ضخما عملاقا يركب على فرس كبير
الجسم بادی القوة — لم يمهل مالكا بل عاجله بطعنة من
رمحه ، تنحى عنها مالك ، وضربه برمحه بدوره فتلقاها
الفارس على درقته — واستهل كل منهما سيفه ومضيا
يصولان ويجولان ، والكل قد حبس أنفاسه في ترقب ،
حتى ارتفعت صيحة عظيمة من مالك إذ ضرب غريمه
بسيفه فاجتث عنقه واطاح برأسه . واخذ الفرس يخب
إلى صفوف الفرس ، والفارس بلا رأس يترنح فوقه إلى
أن سقط عن جواده .. واندفع الفارس الثاني وهو
يصيح بلفته صيحات عالية ، وضرب مالكا برمحه فتلقى
مالك الضربة على درقته ، ودار به جواده حتى خادع
غريمه ، فضربه على عاتقه فقطع السيف في جسده حتى
وصل إلى الفرس التي يركبها ، فجعلت وخر راكبها على
الأرض قتिला والدم ينحس من جسده . وقبل أن يعتدل
مالك على ظهر جواده ، هاجمه الفارس الثالث وضربه

فجرحه ، وظهر الدم على كتفه وترنح فوق فرسه .
وتعالت صيحات الفرخ من صفوف الفرس . وهاج فراهيد
وكاد يخرج لنجدة أبيه لولا أن منعه هناءه الذي رأى أباه
بعتدل فوق فرسه ويندفع مسرعا نحو الفارس الذي
استدار استعدادا لضربة ثانية ، ولم يمهل مالك فضربه
على مفرق رأسه فقد سيفه البيضاء التي تحمى الرأس ،
وتهاوى الفارس وسقط صريعا . ودار مالك وقد أخذ
حذره ليلاقى الفارس الرابع ، ولكن هذا استدار بفروسه
وولى راجعا الى صفوف الفرس . وصاح المرزبان وقد
رأى مصرع فرسانه وهروب أحدهم ، واندفع الى وسط
الميدان وهو يلعب برمحه ويجرى بفروسه ، ويصرخ بقوة ..
واتجه اليه مالك ، وقد أشرع رمحه من جديد ، ودارت
بينهما مبارزة لم يشهد أحد مثلها من قبل .. واشرابت
الابصار في كلا المعسكرين ، وقلوب كل جند عند قائدها
وقارسها ، تتبعه في قتال الجبابرة هذا ، وأنفاس الرجال
متعلقة بحركات الفارسين والفرسين ، تارة يظهران من
من وسط الغبار المنعقد حول سنابك جواديهما ، وتارة
تخفيهما سحابة الغبار الداكنة التي يثيرها الجوادان -
والضربات تتوالى ، ومظاهر الفروسية تبدى والشجاعة
الفائقة في مواجهة الخصم تظهر . والقتال قد طال
بينهما ، لا يكاد أحدهما يتفوق على الآخر ، فكل ضربة
ماهرة لها رد أكثر منها مهارة ، وكل مناورة بارعة لها
مناورة لا تقل عنها براعة .. وفجأة اشرابت الاعنساك
حين دوت صرخة عالية من وسط الميدان ، وانفجر
الغبار عن مالك بن فهم يحمل رأس المرزبان فوق رمحه ،
بينما كان الجسد الهامد المحطم يرقد تحت قدميه ..
وارتفعت صيحة ذعر من بين صفوف الفرس واندفعوا

نحو مالك ، بينما صاح هناءه واندفع نحو أبيه ، وأسرع قراهد يهاجم القرم المهاجمين ، ودار قتال عنيف يائس لا يعرف رحمة أو هوادة ، وكثر القتلى والجرحى ، وامتلا الميدان بالانات والصرخات وصهيل الخيل فى احتضارها الاخير ..

ووسط كل هذه الاصوات المتداخلة ارتفع نغمة الاواق ، وتطلع الجميع الى حيث ظهر رئيس الاساورة الرابع الذى فر من امام مالك ، وكان يتقدم منكسا رايته وبغير سلاح نحو مالك . فأمر مالك رجاله بالكف عن القتال ، وخرج اليه وحده يلقاه ومعه زاهر بن مسعود الذى أخذ يترجم بينهما . قال الفارس :
- كفى حربا نحن نريد الصلح .
قال مالك :

- تخرجون من عمان بكل نسائكم وخيلكم وسلاحكم .
قال الرجل وترجم عنه زاهر :
- ان مصالحنا هنا كثيرة ، وأعمالنا متعددة ، فلو أمهلتنا عاما خرجنا الى بلادنا بلا عودة .
قال مالك وهو يعرف أن الحرب لو طالت أكثر فلى يعجز فيها نصرا حاسما وهو فى مثل هذا العدد القليل :
- انه عام اذن على أن تدفعوا دية القتلى وتعودوا الى صحار وماحولها من شطوط ، ونبقى نحن فى عمان .

وأطرق الفارس برأسه فى اذعان ، فعاد مالك بفروسه الى رجاله ، بينما دوى النغمة من جديد وأخذ الفرسان القرم يتحركون منسحبين نحو الثغور .

- ٢٠١ -

دارت الايام دورتها مسرعة حتى لم يحس الازدبون

لرورها وقعا ، فقد شغلهم العالم الجديد الذى طالهم به
بشرائه العظيم وامكاناته الهائلة . فالجبال المفطاة بالخضر
الدائمة والاشجار المثمرة كفلت لابلهم وانعامهم المرعى
الخصب . والبحر بعطائه المستمر وصيده الوافر زودهم
بالطعام الذى لا ينضب . . ورغم تمسكهم بتقاليد حياتهم
التي اعتادوها الا ان الكثيرين منهم اخذوا يطسرون
انفسهم على عطاءات الارض الجديدة . . ولكن هذه الايام
في دورتها كانت تحمل لهم قلقا يتزايد كل يوم . فعيونهم
التي تأتيهم بالاخبار من الثغور تشي بأن الفرس لا ينوون
الارتحال ، بل لعلهم يصنعون كل شيء يؤكد بقائهم .
او نياتهم المبيتة على الاستمرار في الارض التي غنموها
يوما بالسيف ، واجلوا عن معظمها يوما آخر بالسيف .
وفي الخيمة الكبيرة التي اقيمت الى جوار فلج عريض
لاقامة مالك بن فهم ، جلس مالك وحوله كبسار رجاله
وأولاده يتشاورون في أمر هذه الاخبار التي تأتيهم من
الثغور المحتلة ، وكان زهير يقول :

— انهم يطمسون الافلاج وليس هذا فعل من ينتوي
اليقاء .

فصاح زاهر بن مسعود في غضب :
— هذه الافلاج حفرها لنا سليمان بن داود ، فكيف
يردمونها .

قال مالك بن فهم :
— حتى أنت يا زاهر تتحدث عن حفر سليمان رجى
سليمان لهذه الافلاج ؟
قال زاهر في اصرار :

— كلنا هنا نعرف أن سليمان بن داود أقام بعيسان
عشرة أيام حفر فيها عشرة آلاف فلج . وهي التي يطمسها

هؤلاء البغاة الآن :.

قال معن معترضا :

— أنا لا أفهم كيف يطمسبون موارد الماء ان كسانو؟
يريدون البقاء . لقد قال عيوننا انهم أرسلوا يطلبون
المدد من ملكهم في بلاد فارس .

قال زاهر بن مسعود :

— والمدد قد جاءهم بالفعل ، فعندما وصلت رسل
فرس عمان الى الملك دارا بن دارا بما حدث ، غضب
غضبا شديدا ، ودعا بقائده من أعظم قواده ومرابته وعقد
له على ثلاثة آلاف فارس ، وقد وصلوا بالفعل بالسفن
الى البحرين ، ثم ساروا الى عمان ، وقد رصد الرجال
وصولهم وسيرهم . وهم على وشك الوصول الى ثفور
عمان .

قال مالك بن فهم :

— وهذا مادعاني الى دعوتكم هنا اليوم فأسرسل
اليهم برسالة اذكرهم بالعهد بيني وبينهم .
قال فراهيد :

— لقد وصل في قومنا الازد كثيرون بمالهم ورجالهم ،
عمران بن عمرو بن ماء السماء وولدها الحجر والاسود ،
وربيعة بن الحارث بن عبد الله بن عامر الفطريق
وأخوته .

قال هناعه :

— لقد أمن القوم الى عمان ، وما اظن ان احدا منا
سيترجع عن اخراج الفرس منها .
قال معن في حدة :

— لقد طلبوا عاما للخروج بأموالهم ونسائهم والعوام
انقضى أو أوشك .

قال مالك بن قهم منهيًا الحوار الدائر :

— ولابد لهم من الخروج ، أرسل لهم يازاهر رسالتي اليهم مع كوكبة من الفرسان كاملي العدة والعتاد ، وقل لهم في رسالتي : لقد وفيت بما كان بيني وبينكم من العهد وتأکید الاجل وانتم بعد حلول عمان ، وبلغنى انه قد اتاكم من قبل الملك مدد عظيم وانكم تستعدون لحربى وقتالى ، فأما أن تخرجوا من عمان طوعا والا رجعت عليكم بخيلى ورجلى ، ووطيت ساحتكم ، وقتلت مقاتلتكم ، وسبيت ذراريكم ، وغنمت اموالكم .

قال زاهر :

— سأرسل الرسل فى الحال ..

وفال معن :

— لن يخرجوا طوعا ، لن يخرجوا الا كرها :

قال زهير :

— ما طمسهم للافلاج الا ليوهمونا بازماهم الرحيل حتى تأمن اليهم ، ثم يصيدون فتحها بعد الانتهاء من امرنا . وما اظنهم الا غطوها بما يخيل انه تدمير وطمس ..

قال مالك بن قهم :

— لن يخدعنا احد بحيلة كهذه ..

قال معن فى اندفاع :

— فما فائدة الانتظار اذن ، الراى أن نباغتهم بالهجوم

دون ائذان .

قال مالك فى تحزم :

— ماكنت اتقضى عهدا عاهدته لأحد الا بعد ان اعطيه

فرصة الوفاء بما عاهد .. ولكنى من الآن آمركم

بالاستعداد للقتال ، وليتول فراheid أمر اعداد الرجال

لمعركة حاسمة [١٠]

كان القتال ضاريا لا هوادة فيه ، وكانت موجات هجوم
الفرس تتكسر أمام بسالة مقاومة الازد وصمودهم
الشجاع . وكانت قد مرت ثلاثة أيام على بدء المعركة التي
رد فيها الفرس على رسالة مالك بن فهم اليهم . فبدلا
من ارسال رسول برد خطابه ، هجم فرسانهم فجأة
على معسكر الازد ومواقعهم . ولم يؤخذ الازد على غرة
وان أحدث الهجوم المفاجيء اضطرابا في صفوفهم اول
الامر . . وتراجع الرجال عن مواقعهم المكشوفة الى مواقع
أشد صلاحية لرد هجوم الفرس الشرس ، ووقع عبء
المعركة كله على الفرسان الذين أبلوا أحسن البلاء ، صال
مالك وأولاده وفرسانه وجالوا ، وأذاقوا الفرس طعم
حراهم وسيوفهم ، ووقع ضرباتهم ، وفعالية صولاتهم ،
الا أن المعركة ظلت تدور على نسق واحد ، هجوم من
الفرس مع مطالع الشمس ، وصمود للازد حتى الغروب
ثم ينفصل الجمعان . وفي هذا اليوم الرابع للقتال
كان زهير ومعه قد استقرا على أمر فاتحا فيه مالكا في
الليلة الفائتة ، ووافقهما عليه على الفور . وتمت ترتيبات
قتال اليوم على أساس ما اتفق الجميع عليه ، فاستمر
مالك وفرسانه يصدون موجات هجمات الفرس المتوالية
حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء ، واشتد وهج
الحر ، واجهد الكر والفر الرجال والخيول معا ، فأشار
مالك الى فرسانه فتراجعوا منهزمين أمام الفرس ، الذين
اندفعوا وراءهم وقد أعمت أشعة الشمس عيونهم فلم
يروا الكمين المنصوب ، اذ ماكادت ساحة القتال تملأ
من فرسان الازد حتى أنهالت على الخيول المهاجمة
والافعال المندفعة سهام مشتعلة من مرتفع على حافة

ساحة القتال ، وصهلت الخيول وصرخت الافيسال
وتساقط الرجال صرعى وهم يحاولون كبح جماح
خيولهم فى اندفاعها السريع الى امام ، ولكنهم ماكادوا
يملكون زمام رواحلهم حتى انتفض عليهم معن من خلفهم
على رأس العبيد المسلحين بالحراش والسيوف والهرافات .
وارتفعت الصيحات فى صفوفهم الخلفية وساد الهرج .
وفجأة عاد الفرسان المنهزمون يهجمون فى موجتين
متلاحقتين واحدة من يمين ، وواحدة عن يسار ، بينما
نزل زهير ورجاله من فوق التل يهاجمون القلب المكشوف
لصفوف الفرس . . . واتقلب الحال على فرسان الفرس ،
قولوا صارخين منهزمين ، وما لك على رأس فرسانه يتبعهم
فى هجوم مميت ، وتفرق الفرس فى كل ناحية ، والازد
يطلبونه أينما ولوا . . .

ووسط المعركة التقى مالك الذى ضسخت الدماء
دروعه وسيفه ، بمعن الضاحك الوجه ، وزهير المعفر
الجبهة ، وكل قد تلوث سلاحه بالدماء . . . وقال مالك . . .
- أحسن رجالتك يازهير ، وصدقت خطتك .
ضحك زهير وهو يقول :

- لقد عودتنا أن يكون الامر شورى بيننا ، فشجعنا
هذا على ما عرضناه عليك أنا ومعن من أمر .
قال معن ضاحكا وهو يهدىء من ثائرة فرسه المتوفز
الحركة :

- الفكرة كلها فكرة زهير يا أبى ، وقد وافقته عليها
فقط ، لم أضف شيئا الا رئاسة العبيد . . .
ضحك مالك ويقول :

- لم يعودوا عبيدا من اليوم يامعن ، بل هم احرار
لهم من الاحرار ما للاحرار من حق ، وعليهم ما على

الاحرار من واجبات :»

صاح زهير فرحا :

— هذا فعل السادة الاماجد يمالك بن فهم ، اليوم
كتب لك فعل يذكره الناس من بعدك .

ضحك معن وقال :

— وماذا ستفعل بهؤلاء الاسارى من الفرس الذين
يتساقطون فى ايدينا بالثبات . والسبايا من النساء
والاطفال والعبيد :»
قال مالك :

— الكل فى السجون اما العبيد فلهم مالعبيدنا من
حقوق ، اما السادة فسرى فيهم امرنا ..
ثم استدار بفروسه وانطلق يقود رجاله لانتهاء معركته
الاخيرة التى حررت عمان ، واعادتها ارضا دائمة للعرب .
— ٢٢ —

قال المؤرخ سرحان بن سعيد الازكوى العماني فى كتابه
« كشف الغمة الجامع لاختبار الامة » :

« وتحمل بقية الفرس فى السفن وركبوا البحر الى
فارس ، فاستولى مالك على عمان ، وغنم جميع اموال
الفرس ، واسر منهم خلقا كثيرا ، مكثوا فى السجن
زمانا طويلا ، ثم اطلقهم مالك ومن عليهم بأرواحهم
وكساهم وزودهم ووصلهم فى السفن الى ارض فارس .
ملك عمان وما يليها من الاطراف ، وساسها سياسة
حسنة وسار فيها سيرة جميلة . ولله ولاولاده فى
مسيرهم الى عمان وحربهم الفرس اشعار كثيرة وشواهد
تركها طلبا للاختصاص :»

انتهى كلام سرحان بن سعيد الازكوى العماني .

هموم فولكلورية

فى الصباح التقيت بالصدىق الفنان الاستاذ يوسف الشارونى واحد من ألمع القصاصين المصريين منذ الستينات ، وواحد من الاصدقاء الذين ظلت حبال الصداقة والفن والبحث ممدودة بينى وبينهم على مر السنين . . وكان يوسف هادئا مبتسما كعادته ، ولم الحظ عليه مر السنين . كان الاستاذ سعيد منصور الخبير فى المديرية العامة للاعلام هو الذى رتب لنا هذا اللقاء ، وكان الاخ نجيب رجب هو الذى اخلى لنا احدى الصالونات العديدة فى المديرية لتتحدث معابخرية . وكنا بالفعل لم نلتق من زمن ، اى منذ غادر القاهرة حاملا عصاه مرتحلا هنسا وهناك ، مرة يدرس ، ومرة يترجم ، وهو فى كل هذه المرات دائم الكتابة ، دائم الاطلاع والبحث . . وكان يوسف منذ البدء مهتما بالتراث العربى بعامة والقصصى منه بصفة خاصة . وقد دارت بينى وبينه مناقشات حميمة فى مكتبى حول نتائج دراساته ونتائج دراساتى . وكان دائما الطلبة الذى لا يتوقف عن الاستزادة وطلب كل شىء فى مظانه دون كلل او تعب . قال يوسف ونحن تأخذ مجلسنا فوق اريكة فاخرة :

— لا يدهشنى ان نلتقى هنا ، فانا اسبقك منذ سنوات فى التعرف على عمان وتراثها ، وكنت واثقا

ان طريقك لابد ان يقودك الى هنا ان آجلا او عاجلا .
وضحك وهو يقول :

— ماأخبارك مع مالك بن فهم ؟
وحين بدت الدهشة على وجهي قال وهو مستمر في
ضحكته الهادئة العميقة :

— كنت اعرف انك ستعثر عليه ، وانك ستقف عنده .
لو لم تسع أنت اليه لسعى اليك بنفسه ، وهي معادلة
مدهشة ، ولكنها ليست مجازا تأكد ، فهو شخصية
كشخصية سيف بن ذي يزن ، وان كنا لا نعرف عنه
الا الجانب التاريخي ، عكس سيف الذي عرفنا عنه
الجانبين التاريخي والشعبي معا .

قلت وأنا أستعيد تجربتي مع هذه الشخصية الفريدة
في تاريخ عمان ، بل وفي تاريخ العرب بعامة :

— في كتاب الازكوي وتاريخ اهل عمان ، وحكايات
حدثت في عمان ، وغيرها من مظان التاريخ العماني القديم
تكرر القصة بنفس الطريقة ، بل بنفس الاسلوب ، بل
بنفس الالفاظ التي استعملت في كل قصة ، وهذا يعني
ان القصة منقولة من مؤلف واحد ، او نقلت من مؤلف
الى مؤلف دون تعديل ما ، وان كان هناك بعض الحذف
عند واحد ، واضافات طفيفة عند آخر ، ارجعها كلها
الى طبعة النسخة التي نقل كل منهم عنها .
ضحك يوسف وقال :

— نحن امام مصادر تاريخية استقت من مصدر واحد
ربما ، ولكنها تظل في حدود العمل التاريخي .
قلت :

— قد يبدو هذا في ظاهره صحيحا ، الا أنني أميل
الى اعتبار مادون مادة تاريخية مختلطة بالمادة الشعبية،

قام جامعها ومصنفها الأول بحذف الإبداعات الشعبية منها ، والاكتفاء بالمادة الخبرية قدر الامكان . ودليلي على هذا قول الازكوى في كتاب « كشف الغمة لخبصار الامة » في نهاية ذكر رحلة الازد الى عمان : « وله - يعنى لمالك بن فهم - ولاولاده في سيرهم الى عمان ، وحربهم الفرس اشعار كثيرة وشواهد تركتها طلبا للاختصار » فالنص صريح هنا على حذف الشعر والشواهد الكثيرة . والشعر كما تعلم يقوم بمهمة ضابط الايقاع في السير الشعبية ، لانه يذكر الحفظة للسيرة والرواة بالمظان الروائية الهامة التي يدخل فيها الخيال ، وتبرز أهمية الشعر في التعبير عن رؤاه ، وعن مجال الحركة الوجدانية عند ابطال هذه السير .

قال يوسف التشاروني في بطن من يحاول ان يتذكر شيئاً قرأه من **سيرة**

- اذكر ان هناك في بعض الروايات المذكورة حول رحلة الازد شعرا كذلك الشعر الذي قاله مالك عندما اخذت ابله تتلفت نحو اوطانها الاولى عن مسيرها ، والشعر الذي قيل في تسمية عمان ، والشعر الذي قيل في مقتله بسهم ابنه سليمة . قلت !

- هناك فعلا بعض ابيات متناثرة هنا وهناك ولكنها كما قلت شاهد على ما حدث اكثر من كونها كل ما قيل من شعر ، فالازكوى يقول في صدد مصرع مالك « فقال مالك حين اصابه السهم قصيدة طويلة انتخبت منها هذه الابيات » ثم يورد مجموعة من الابيات ربما كان هدفه منها اثبات البيت التي سار مسرى المثل في المأثور العربي كله وهو « اعلمه الرماية كل يوم .. فلما اشتد

مساعدته رماني » . ثم يذكر أبياتا في رثائه لابنه هناءه ،
كما يورد بيتين من الشعر على لسان سليمان بن مالك في
ذكر حنينه الى عمان التي تغرب عنها .
قال يوسف :

— هذا صحيح وافتراضك هو الاقرب الى الصواب .
قلت مكمل الفكرة مما وعته الذاكرة من القراءات حول
الموضوع :

— هناك شاهد رئيسي في كشف الغمة يؤكد أن
حكاية مالك بن فهم كانت تتداول على السنة الرواة ، أي
أنها كانت تروى كما تروى السير الشعبية العربية
الكبيرة ، فهو يقول في ذكر تأمر أهل « كرمان » على ملكهم
حين مكنوا منه سليمان بن مالك بن فهم : « وكان فيهم
من بيت الملك وهم قوامه ونظام ملكه ولكن كثر عليهم
ظلمه وكرهوه ، وأرادوا قتله راحة لهم ، فانظروا أيها
السامعون في عاقبة الظلم والجور أدى الى أن يقتله
أقرباؤه ، ولو عدل لأحبه البعداء والأدنياء ، وتمنوا له
طول العمر والنصر على الأعداء » .
قال يوسف :

— هذا أقرب الى أسلوب السير الشعبية بالفعل ،
والسجع الموجود في آخر الفقرة يساعد على الحفاظ
والتداول ولست أدري لماذا لم تصل إلينا عن مالك سيرة
شعبية كاملة ؟
قلت :

— يروي برترام توماس صاحب كتاب « البلاد السعيدة »
عدة قصص عن أبي زيد الهلالي وعن دياب بن غانم سمعها
من بعض أفراد قبيلة الهلالية الذين يقطنون — كما
يقول — في نهاية منطقة الربع الخالي ، وقرب المنطقة

التي نسميها الآن دولة الامارات ، أى فى شمال عمان .
والدهش أن الهلالية أساسا هى سيرة التفريية ، أو
سيرة رحلة بنى هلال من منطقتهم هذه الى تونس . ومع
هذا فان تفريية مالك بن فهم أو رحلته من اليمن الى
عمان يقفز عليها من اوردوا قصتها قفزا ، فالجزء الخاص
بتفريية الازد لا قيمة له ، لانه يرد كمجرد أخبار عن
الرحلة ، واحسب أن هذا الجزء كان حافلا بالاحداث
والمغامرات كمادة السير الشعبية بعامة ، وكما حدث
بالنسبة للهلالية القريبة المنبع جغرافيا وبشرىا من رحلة
الازد أو تفرييتهم .

قال القصاص يوسف الشارونى :

— هذا الحوار يصلح لبدء دراسة هامة ومقارنة بين
السير الكاملة والسير المجهضة ، وأنا اعتبر سيرة مالك —
ان أخرجناها من حيز الخبر التاريخى التى وردت به
فى كتب التاريخ العماني — سيرة شعبية مجهضة ، أو
مختصرة ، وبمعنى آخر مظلومة .

قلت له متابعا مابدأته من حديث :

— وكما تمر الرحلة فى السرد لها دون حوادث ، فان
الحوادث التى أعقبت الرحلة تذكر بسرعة رغم ماتحويه
من مظان العقد الدرامية الثرية ، ومجالات القص التى
يحبها الروائيون العرب ، ويقفون عندها وقفات طويلة
متأنية مليئة بالشعر والاحداث والقصص الجسانية
المتعددة ، وكلها تسوق بالضرورة الى طرح لقضايا
فنية انسانية ثرية وعميقة فى آن واحد .

قال الصديق يوسف الشارونى :

— الحكايات العمانية التى جمعتها حتى الآن ثرية
بالفعل بالقضايا الفنية والانسانية ..

قلت له :

— هناك إشارة في أخبار مالك بن فهم أنه المقصود
ويقوله تعالى « يأخذ كل سفينة غصبا » وتستجد الازكوي
يجادل الروايات الاخرى التي تحاول أو تضع غيره من
ملوك عمان مكانه في تفسير هذه الآية . وعلى كل حال
فإن هذه الإشارة تحكى عن حياة حافلة في البحر ، وعن
مغامرات متعددة جعلته المسيطر على الخليج ومشارفه
سيطرة بحرية بحيث أصبح قادرا أن يأخذ كل سفينة
غصبا . . فأبن هذه الحكايات وماهى وكيف ضاعت . . ؟
كل هذه الاسئلة تحير أى دارس للأدب الشعبي ، وإى
قارئ لأخبار مالك بن فهم . ثم إن هناك قصة علاقة
زواج بينه وبين ابنة جار أزدي آخر له ، هسو مالك
ابن زهير الذى يقول عنه المؤرخون القدماء « وكان عظيم
الشان وكاد أن يكون مثل مالك فى العز والقدرة ، فخشى
مالك أن يقع بينهما تحاسد ، وأن تقع بينهما حروب
فخطب منه ابنته فزوجه على أن تكون لاولادها منه التقدمة
والكبر على سائر الاولاد من غيرها . فأجابه مالك بن
فهم الى ذلك وتزوجها فولدت له سليمة بن مالك . . »
وهذا هو كل القول الذى يغطى هذه الفترة المليئة بالتنافس
والحب والخطبة والزواج ، ثم مولد سليمة الذى يقدم
على كل الابناء الذين شاركوا مالك رحلته ، وقادوا جيوشه
وحاربوا جنبا الى جنب الى جواره .
قال الاستاذ الشارونى :

— هذه مواطن لايمكن أن يغفلها القصاص الشعبي
ابدا ، رغم أن المؤرخين اكتفوا بجملة واحدة إذ ذكروا
أنه ملك عمان سبعين سنة وأنه مات وعمره مائة
وعشرون سنة . ومثل هذه الحياة كفيفة من أى قصاص

بجهد ثرى وبعطاء فنى كبير :
قلت :

— وحادثة موت مالك بن فهم نفسها موضوع لعمل
درامى من النوع التراجيديدى المثير .
قال الصديق يوسف :

— قالوا أنه مات مقتولا بسهم خاطيء أطلقه عليه أحب
أبنائه ، سليمة الذى جاء به من هذه المرأة الازدية بنت
مالك بن زهير ..

قلت مستعيدا الاحداث ، وما ذكرته كتب وأغفلته
بعض الكتب الأخرى :

— قبل حادثة القتل هذه ، يذكرون حب مالك لابنه
سليمة ومدى حظوته عنده ويقول الازكوى « كان سليمة
أحب أخوته الى أبيه واحظاهم لديه وأكرمهم عليه وأرفعهم
منزلة عنده ، وكان يعلمه الرمي حتى أحذقه وصار
حاذقا ماهرا فحسده أخوته لمكانه من أبيه ، وكانوا
يطلبون له عشرة مع أبيه فلم يجدوا له عشرة » .. فأين
هذه المساحة من الحب ومن التنافس ومن الغيرة ..
— تهتم بسليمة هذا اهتماما خاصا فيما يبدو .

— رغم أن شهرة مالك بن فهم قد طفت على شهرة
ابنه سليمة ، إلا أننى أحس أن سليمة هو البطل الرئيسى
فى مثل هذه السيرة الشعبية لو وجدت . فحياته تبدأ
ومعها سيل من العواطف الانسانية المتضاربة والمتباينة ،
فهو يشير غيرة أخوته منذ البدء ، ثم يقتل أباه خطأ ، ثم
يهرب من انتقام أخوته منه وخاصة أخيه معن ، ويدفع
هناءه الدية عنه ويحفظ دمه ، إلا أن تهديد معن له لم
ينقطع ، فيخرج راكبا البحر الى بر فارس ، وهناك يقتل
ملك كرمان بحيلة تذكرنا بحيلة الزير سالم فى قنسل
حسان اليماني ، ثم يستولى على القلعة وعلى الملك وعلى

الزوجة أيضا ، ويحكم كرمان ويقيم علاقاته مع أخيه
هناة في عمان . وولد له عشرة أولاد كلهم ذكور ،
فاذا مامات اختلف أولاده فزال ملكهم بفارس .

قال الصديق يوسف الشاروني :
- هذه سيرة أخرى تبدو من ناحية البناء متكاملة :
قلت :

- أنت تعرف أن من عادة السير الشعبية أن تمهد
للبطل بتتبع نسبه ، والوقوف عند البطولات الموجهة
في حلقات النسب هذه ، وخاصة السير الشعبية
اليمنية . فسيرة سيف بن ذي يزن تبدأ في فصل ولها
الأولى بتتبع رحلة أبيه ذي يزن من اليمن إلى الحجاز ،
وانتصاراته في معاركه ، وبنائه لمدينة يثرب التي سميت
باسم وزيره المؤمن سرا والرافض لعبادة النجوم ، ثم
كسوته للكعبة قبل أن يموت ، وهزيمته لليهود ، ثم كيف
دسوا عليه زوجة هي قمرية أم سيف التي تقتله بدس
حسكة مسمومة في فراشه . وبعدها تبدأ السيرة
تتركز حول سيف ثم حول أولاد سيف من بعده .
هذا المنهج يبدو متبعاً في حكاية مالك بن فهم ، وابنه
سليمة . بحيث أكاد أحس أن الجزء الخاص بمالك
مجرد مقدمة لسيرة شعبية عربية تدور حول سليمان
ويكون هو بطلها ومن بعده أولاده .

صمت الصديق الشاروني لحظات يتأمل كلامي ، ثم
هز رأسه موافقاً وهو يقول :

- ربما كان في كلامك هذا ما يصلح منطلقاً لبحث موسع
في هذه السيرة ، وخاصة وأن رحلة مالك وهزيمة الفرس
في عمان تمهد لانتقال سليمان إلى بلاد فارس وانتصاره
عليهم هناك ، وهو منهج قومي متبع في كل السير
الشعبية العربية التي عرفناها ، أن يتحول البطل من

البطولة الفردية ، الى ان يكون بطل قبيلة تقوم باخضاع باقي القبائل العربية ، ثم تتزعم هذه القبائل في معركة قومية ضد عدو خارجي .. ولكن اذا كان افتراضك صحيحا فآين هذه السيرة ؟
قلت :

— عندي أمل كبير ان يكون هناك من يحفظون أجزاء منها من بين الاحياء اليوم . ولو استطعنا ان نعر عليهم ربما استطعنا ان نقوم بالدور القديم الذي قام بهما مجمع السيرة الشعبية العظماء القدماء . والا فستظل المدونات الحالية مجرد شواهد على بقايا عمل عظيم درس وضاع .

قال الاستاذ يوسف الشاروني :
— لقد شوقني الى بذل الجهود في هذا الميدان .
قلت له :

— فاذا أضفت الى كل ما اثاره حديثنا هذا من قضايا حول هذه السيرة ، والعلاقة بينها وبين السيرة الهلالية ، والعلاقة بينها أيضا وبين سيرة سيف بن ذي يزن ، فان هناك علاقة لاشك فيها بينها وبين سيرة حمزة البهلوان . فسيرة حمزة سيرة فارس عربي يغامر في بلاد فارس مرة مع كسرى ومرة ضد كسرى ، حقيقة تتركز هذه الاحداث في شمال الجزيرة حول مالك النعمان بن المنذر ، وهذه الدول الفاصلة بين ارض العرب وارض الفرس ، واعنى بها دولة الحيرة ، الا ان التشابه في الموضوع مع هذا يبقى قائما ..

ضحك الاستاذ الشاروني وهو يقول :
— لقد نجح صديقنا الكبير الاستاذ عباس خضر ! ان يحول اسمها في صياغته المعاصرة لها الى اسم حمزة العرب ، وفي هذا الجيل اشتهرت بهذا الاسم . وهذا

يريك مقدار أهمية راوى العصر ، ومدى تأثيره على النص
الشعبي القديم ، فقد يصل الامر الى احداث تغيير جذري
فيه ، والاستاذ عباس راي أن كلمة البهلوان الفارسية
وهي تعنى البطل تلقى بنظلال فارسية على حمزة بطل
السيرة ، ففضل تسميته حمزة العرب ليعيد الانتماء
العربي كاملا الى بطل السيرة .. ورغم أن راوى العصر
محقق في الصياغة التي تلائم عصره الا أنني شخصيا
أخرج من هذا .
قلت له :

— لقد رأيت لك صياغات معاصرة لبعض الحكايات
الشعبية العمانية ، ومنها ما نشر في العربي مؤخرا بعنوان
القصر والقصر ، ولاحظت فعلا ارتباطك بالصياغة الشعبية
ومحاولة الإبقاء على طابع الحكى القديم .
قال الاستاذ الشاروني :

— لاشك أنني أتدخل في السرد ، ولكنني بالفعل أحاول
أن التصق بالنص قدر الامكان .. وهناك كما تعرف ،
اتجاه في أدب القصة العالي كله الى العودة الى هذه
المنابع ، وإلى تقليد أصالتها وتلقائيتها ، فما بالك
وهي هنا عندنا بصورتها الأصلية دون حاجة الى بدل
ودناء لتقليد نموذج بعينه .
قلت :

— لاحظت أن الحكاية الشعبية التي تختارها مسن
الموروث العماني لها ارتباط بالموروث العربي بعامة ،
وبالانساني بشكل أعم ، فقصة الحية التي تسمم الطعام
والكلب الذي يحاول أن ينقذ صاحبه متكررة في حكاية
عن النعمان بن المنذر ، ولها شبيهات في أكثر من موروث
شعبي عالي .
قال :

— آخر الامر فالوروث العمانى الشعبى جزء مسن
الموروث العربى بعامه . وتكرار الوحدات الفولكلورية امر
انتهى اليه الدارسون من زمن . وقد حددوا مجموعات
« التيمات » أو الوحدات الفولكلورية المتكررة فى الماثور
العالمى الشعبى كله . وأصدروا بهذا الموسوعات والفهارس
بعد أن نبذوا فكرة انتقال التراث وهجرته . وان كانت
فكرة الهجرة والانتقال مازالت واردة فالامتزاج الثقافى
الشعبى بين شعوب العالم حقيقة لا مفر من الاعتراف
بها والتسليم بآثار الارتباط الثقافى والفزو السياسى
والهجرات الجنسية والحروب والتجارة والتصاهر
والامتزاج . وكلها عوامل فاعله فى تداول الوحدات
الفولكلورية وانتقالها .
قلت :

— حديثك هذا يعيدنى الى حكاية سليمة بن مالك
ابن فهم الأمير العربى الذى دعاه أهل كرامان الفرس
الى حكمهم ، والذى تولى الحكم طساردا الحساك
الفارس زمننا طويلا . فهى تذكرنى بحكاية وردت فى
الشاهنامه للفردوسى . كما وردت فى العديد من كتب
التراث الفارسى والعربى على السواء ، وهى حكاية
الضحاك الذى دعاه الفرس فى رواية الفردوسى للشاهنامه
الى حكم فارس بعد أن طغى ملكهم الاسطورى جمشيد
وبقى وكفر . ويحكى الفردوسى أن مرداس كان ملك
العرب وكان ملكا صالحا وكان له ابن اسمه بيوراسب
ويبور معناها عشرة آلاف واسب هو الفرس ، وكان
يلقب بالضحاك — ظهر له ابليس واشترى منه نفسه ،
فقتل أباه واستولى على الملك . ثم طلب كمنه ابليس أن
يقبل منكبيه ، فلما سمح له بتقبيلهما ظهرت على منكبيه
حيتان ، كلما قطعتا عادتا من جديد — وقال الحكماء انهما

لابد ان يأكلا من ادمغة الناس حتى لا يضطربا ويتأذى
منهما الملك ، فاستباح ارواح الناس لتغذية الحيتين .
وفي فارس استبد جمشيد ومرق عن الدين ، فخلع امراء
فارس طاعتهم له ، وتفرقوا ودب في البلاد الفساد ، حتى
اجتمع امرهم على تملك الضحاك العربي ، فقبل الامر
وملك على فارس ، واطاعه ملوكها وامراؤها . ويقول
الدكتور عبد الوهاب عزام في حاشية الشاهنامة ان
الضحاك كان تمثال العداوة بين الايرانيين والاشوريين
ثم الكلدانيين ولكنه يتحول في الشاهنامة عربيا وينسب
الى اليمن . وان العرب جعلوا بعد ذلك من الضحاك ملكا
من ملوك تبابعة اليمن . وحكوا عنه اساطير كثيرة . .
الصورة قريبة من الناحية الشعبية ، وامكانية تداخل
البطل هنا وهناك اكثر قربا . والقصاص الشعبي في
الادب الفارسي لابد ان يكون قد استند الى حادثة
تاريخية في نسبته العربية للضحاك الحميري اليمني .
ومالك بن فهم اتى من اليمن وابنه سليل الحميريين ،
والمكان والزمان عند القصص الشعبي اشياء نسبية ،
وعوائق وهمية ، لا تحول دون تحرك الروائي بحرية كاملة
في ابعادهما دون ان يجد في هذا غضاظة ، ودون ان
يكون فيه مأخذ عليه ولا على عمله القصصي . .

ضحك الصديق يوسف الشاروني الذي كان يتتبع
حديثي باهتمام زائد ، وقال :

— أنت تفتح بهذا كله بابا طريفا للدراسة المقارنة
للموروث الشعبي القديم . وقد أثبتت دراسات عديدة
حدوث هذا التزاوج والامتزاج بين الموروثات الشعبية
في آداب مختلفة ، فلماذا لا تصدق هذه الفرضية هنا
ايضا . ولكن المسألة لا تزيد عن الفرضية النظرية ،
فليس لدينا من قصة سليمة بن مالك الا هذه الصفحات

المتحجلة السريعة في كتب التاريخ العماني .
قلت مكرراً بعض الافتراضات التي سسببق أن
طرحتها :

— ليس أمامنا الا البحث عن بعض المعسررين الذين
يحفظون من الموروث الشعبي مايمكن أن يقودنا الى بعض
بقايا هذه الاعمال الشعبية . وكذلك اعادة قسراءة
المخطوطات التي تتعرض للتاريخ القديم ربما تكون الاحداث
قد افلتت من أيدي الرقباء على مر الزمن وبقيت لسا
لم نكتشفها بعد .

قطع علينا حديثنا دخول القهوة العربية والتمرالعماني .
فضحك الصديق الشاروني وقال :
— نحن ضيفان ، ومع هذا يبدو الامر وكأن أحسدنا
صاحب دار والثاني ضيفه .
رددت ضاحكا :

— بل ان الغمانيين يحرصون دائما أن يكون كل ضيف
لهم صاحب البيت .
عاد يقول :

— لا اظن ان رحلتك هذه على قصر مدتها ستنتهي
دون المزيد من القضايا الفولكلورية المثارة .
صافحته بعد أن شربنا القهوة ، وقلت مودعا :
— أرجو هذا مخلصا ، فكل جديد سيفتح لنا ابوابا
جديدة لنزداد اقترابا من روح الانسان العربي عبر تاريخه
ومن خلال موروثة الشعبي .

وقد صدق الاستاذ الشاروني في نبوءته ، فما كدت
أصل الى الفندق ظهرا حتى وجلت في انتظاري
صديقا قديما لم أره منذ سنوات طويلة . ولم يسكن
وجوده مفاجأة ، فقد كنت أعرف أنه في عمان من زمن ،

وأنه لو عرف أنني موجود بها لكلف نفسه مشقة البحث
عني ، ولقائي ، فالصديق الشاعر أبراهيم شعراوي من
هذه النفوس التي تخلص الود وتعرف لل صداقة حقها .
وكانت ابتسامته العريضة تملأ وجهه الاسمر النوبي
الملامح ، وقبل أن اتكلم بادرني صاخبا :
- كيف أنت .. تأخرت ، تأخرت .. لقد سبقناك
الى كنوز المعرفة الشعبية هنا ، فأحزم حقائبك وأرحل
.. في هذه المرة أنت جئت متأخرا ..
ضحكت وأنا أصافحه وأقبل وجنتيه السميكتي الجلد
وقلت :

- أنت كما هو لم تتغير يا ابراهيم ، العناء في عينيك ،
والحب في قلبك ، ولسانك سليط أبدا ..
قال وهو يجزني جرا الى جانب بعيد من صالة
الاستقبال في الفندق الضخم :
- لقمة العيال وضمناها فلا خوف على مصدر الوجبة
التالية ، وكسوة العيال ومكفولة والحمد لله ، وابتعدنا
عن المعذبين ممن يملأون الوسط الثقافي بضجيجهم
ولا طحن ..
سألته معاتبا :

- وانت هنا في طحن ؟
قال وقد تهللت أساريره فاخفت معالم السنين من
على وجهه وبدا بسماحته الطفلة من جديد :
- أنا أكتب الشعر والقصة ، ولى برنامج اذاعي في
اذاعة عمان ، ثم أنت تعرف أنني اتجهت الى الكتابة
للأطفال ، شعرا ونثرا على السواء .. فأنا هنا في طحن
دائم ..

أسعدني ما أسمعه منه فأسوا ما يصيب الفنان أن يتوقف
عن الانتاج ، وما يقوله يعني أيضا أن عمان الحديثة تسعد

سبئة أدبية تسمح للفنان ان يستمر وان ينوع وان يجدد،
وان يكتشف . وكأنما كان يقرأ ما يدور في خاطري اذ
قال :

— الحركة الادبية وسط الشباب حركة يقظة وواعدة ،
ولهم منتدى يقيمون فيه ندواتهم الادبية ، كما ان كتبهم
تلقى ترحيبا من أجهزة النشر . الا ان كبار الادباء من
الشيوخ لا يحسون بالاندماج مع هذه الحركة ، فهناك
مسألة التجديد ، والاغراب والغموض ، وهي القضايا
التي تبعد كبار الادباء عن انتاج الشباب في كل عالمنا
العربي .
سألته :

— هل من المتيسر اللقاء بهذا المنتدى ، وبعض شيوخ
الادباء ؟
قال بسرعة :

— اطلب من مرافقك وسيعد لك ماتريد ، فهم هنا
لا يخلون على ضيوفهم بشيء .
ثم أردف قائلا بعد سكتة قصيرة :
— الشعر النبطي هنا له جلساته وله احتفالاته
الخاصة ، والشعراء فيه عديدون ومجيدون ، والاذاعة
والتلفزيون يهتمان به اهتماما كبيرا باعتباره ابداعا
شعبيا مميزا .
سألته :

— اليس في وجودك هنا فرصة لدراسة هذا الشعر ،
وجمع مجموعة منه تبرز خصائصه المميزة ..
قال ضاحكا :

— هذا ما أفعله بالفعل ، وانا أبحث خاصة عند الشعراء
الذين يعيشون في القرى والجبال فهؤلاء يملكون الفن
التلقائي ابن الفطرة والوهبة ، والحامل لتراث كبير من

السمات والخصائص المميزة والمتوارثة ، ولو انى أعرف
انك لا تعتبر هذا الشعر شعبيا بالمعنى العلمى للكلمة .
قلت :

— هو عندى شعر عامى محلى ، لا يرقى الى مستوى
العمل الشعبى الا اذا استمر عبر الزمان ، وخرج من
محدوديته البيئية الى شمولية التلقى والتداول فى عمان
كلها ، فاذا ماتجاوزها تحقق له ان يكون شعرا شعبيا
عربيا لاعمانيا وحسب . ونحن نخلط بين الشعر العامى
والشعر الشعبى فى كل وسائل الاعلام العربية ، ونطلق
كلمة الشعبى هنا اطلاقا طبقيًا ، وهذا يغير من مفهومها
العلمى تماما . . فالشعر الشعبى هو الشعر المتداول
عند الشعب كله بحيث يصبح من مآثراته المتوارثة
ويثبت عبر الزمان وعبر المكان ايضا ، سواء كان مكتوبا
باللهجة العامية أو بالعربية الفصحى . . والشرط الثانى
ان ينسب قائله ، ويضيع المبدع فى زخم التداول الشعبى
بحيث يصبح النص الشعرى ملكا للمجموع الذى اختاره
للتداول وأبقاه ولم يلتفت الى قائله ، اذ وجد هذا
المجموع نفسه فيه ، وغدا النص الشعرى ينسب الى
المجموع كله لا الى فرد بذاته .

قال الصديق ابراهيم شعراوى :

— ستظل هذه القضية قضية خلافية فائر وسائل
الاعلام غلاب ، وهم يسمون كل شىء يأتى من الطبقات
الفقيرة وغير المتعلمة شعبيا ، وهى تسمية كما قلت
انت. طبقية لا علمية .
قلت له :

— المسألة ليست قاصرة على وسائل الاعلام ، فالمصطلح
نفسه قد اضطربت مفاهيمه عند الادباء والكتاب انفسهم .
بل ان بعض المتخصصين فى الدراسات الشعبية

يستعملونه بنفس المعنى الذى تستعمله به وسائل
الاعلام وتفرضه على المفاهيم العامة للناس .
قال :

— هذا صحيح وهناك كتب مؤلفة عن الشعر الشعبى
والشعراء الشعبيين ، وحقيقتها جمع لانتاج شعراء
العاميات المحلية ودراستها ودراسة الشعراء أنفسهم
والتاريخ لهم .
قلت :

— هذا أدخل فى دراسة الادب العامى ، لا الادب الشعبى
فهذا الشعر يعبر عن قائله وحده ، ودراسته لا يمكن أن
تم الا اذا تعرفنا على الشاعر وظروفه وبيئته ووسائله
الفنية ، والدراسة ستعرفنا بالشاعر وشعره ولفظه
وقاموسه ، ولكنها لن تقدم لنا شيئاً عن الشعب نفسه
الذى لا يكشف هذا الشعر عنه أكثر مما يكشف الشعر
الفصيح الذى نعرفه من خلال قائله أيضاً .
قال الصديق ابراهيم شعراوى وهو يتأهب للنهوض
ومغادرتى :

— اعدك اننى سأحاول جمع الباقي الموروث من مآثور
قولى متداول ، وهذا فى الحقيقة كثير جداً هنا ، ودراسته
ستقودنا الى معرفة لماذا بقى فى ضمائر الناس ، وكم
يكشف من خصائص الانسان العمانى عبر التاريخ ..
ثم صافحنى وهو يقول :

— أثقلت عليك ولو اننى اعرف ان موضوع حديثنا
يشوقك ، وارجو ان نلتقى مرة اخرى .

لم تتحقق أمنية الصديق ابراهيم شعراوى حتى الان،
ونعم اننا تركنا الموضوع مفتوحاً وصالحاً لمزيد من الجدل
والقول . الا ان المساء كان يحمل لى مزيداً من القضايا

الفولكلور التى تتعقبني في كل مكان . فقد دعاني الاخ
الاستاذ محمد سالم المرهون مدير الاعلام على العشاء ،
في قاعة الطعام الفاخرة بالفندق ضمتنا جلسة حميمة
شارك فيها الاخ الاستاذ غازي عبد الله من العلاقات
العامة والاخ الاستاذ نجيب رجب عوض المرافق لي في
هذه الزيارة ، كما ضمت هذه الجلسة الصديق الشاعر
مصطفى الضمراني ملحقنا الاعلامي في عمان ، والاستاذ
عصام رفعت رئيس تحرير الاهرام الاقتصادي الذي كان
في زيارة مثلى لعمان ، والصديق القديم الدكتور يوسف
شوقي الذي يقيم من فترة في عمان يقوم فيها بمهمة على
غاية الاهمية والدقة . فقد انشأ ما اسماء مركز الفنون
التقليدية ، ومن هنا كان مدخلنا الى الحديث طوال سهرة
العشاء عن الفولكلور من جديد - فقبل أن يصل الطعام
الذي اختاره لنا الدكتور يوسف - وهو بالمناسبة خير
لا يجارى في مسألة انتقاء الاطعمة - كان الجدل قد بدا
حول هذا المصطلح الجديد الذي اختاره للجمع المبدائي
الذي يقوم به من أنحاء عمان كلها للموسيقى والرقصات
الشعبية المعروفة والممارسة . ولانواع الازياء والحلى ذات
الطابع المحلي المميز . . فقد اختار المجمع اللغوي في
القاهرة تسمية المأثورات الشعبية ، واختار رجال علم
الاجتماع مصطلح الثقافة الشعبية ، كما اختار رجال
الادب كلمة الموروث الشعبي . الا أن الجميع اتفقوا على
استعمال الكلمة العالمية التى اخذت سمة الشيوع رغم
اختلاف اللغات التى تستعملها وهى كلمة الفولكلور ،
ليصبح المصطلح صالحا للاستعمال على المستوى المحلي
والعالمى معا . قال الدكتور شوقي مجادلا :
- الست معنى ان الفنون التقليدية تعطى نفس
المعنى ؟ .

تدخل الصديق عصام رفعت قبل أن أجيب قائلا :

— تقليدية من التقليد أم من التقاليد ؟

وقال الشاعر مصطفى الضمراني :

— لو كانت من التقاليد لكانت التقاليدية ، أما وهي
تقليدية فهي من التقليد أى المحاكاة ..

قلت :

— أعتقد أن الكلمة مترجمة عن معنى كلمة تقسالىد
الانجليزية والنسبة العربية اليها هى التى وقع فيها
الخطأ (10.10)

قال الدكتور يوسف :

— هذا صحيح ، ولوانى لأرى أى خطأ فى النسبة ،
فنحن نعنى الفنون المتوارثة التى هى سمة للتقسالىد
المتوارثة المعروفة من قديم . وهى لا تكون بهذا المعنى
إلا اذا قلد فيها الابناء آباءهم ..

قلت :

— ربما كان هذا صحيحا ، ولكن المصطلح يوقعنا فى
دوامة من المحظورات . وما كان أجدى لنا أن نختار
واحدا من المصطلحات المستقرة والواضحة الدلالة . وعلى
كل حال فان الفن التقاليدى ليس بالضرورة هو الفن
الشعبى المقصود بالمصطلح . فالتقاليد قد يحتفظ بها
بحكم سيادة طبقة ومعنى ، لا بحكم شيوعها عند الشعب
رتعيرها عن روحه ووجوده . والتقليد أو المحاكاة قد
تكون لشيء هجر ولم يعد سائدا لجرد طرافته أو غرابته
لا لدلالته على روح الجماعة ونبضها .

قال الدكتور يوسف فى حماس :

— ان ماجمعته يمثل الفنون التى يعيشها الشعب الى
الآن ، وزيارة الى المركز مستثبت بالتسجيلات الصوتية
والفوتوغرافية مدى ما أمكننا تسجيله من فنون عمان

التي مازالت تمارس في كل جهات عمان على اختلاف
طبيعة الفن وطبيعة الثقافة وطبيعة الحياة ..
تدخل الصديق محمد سالم المرهون قائلا بأدبه
الرفيق :

- في الحر وفي البرد ، في الصيف وفي الشتاء ،
ظل الدكتور يوسف شوقي ينتقل من مكان الى مكان
ومعه معداته وأجهزته ، لا يشيه شيء عن اتمام مهمته
في كل مكان وتحت كل الظروف .
وقال الاستاذ محمد غازي :

- لقد كان ولا يزال الدكتور يوسف صورة للداب
والاخلاص والجدية الكاملة في عمله الذي اخلص له وأحبه
وحقق فيه هذا الانجاز الضخم .
ضحك الدكتور يوسف وقال :

- وانا اعتبره هدية للبلد التي أحبيت ، لعمان .
تدخل الاستاذ عصام رفعت في نبذة هادئة في الحديث
قائلا :

- انا كرجل اقتصاد أحس أن الأعوام القليلة الماضية
قد حملت لعمان تعرفا حقيقيا بإمكانياتها الاقتصادية
الهائلة ، وانها استطاعت أن تخطط لتوظيف هذه
الإمكانيات توظيفا فعليا في بناء انسان اليوم وانسان
الغد على السواء . ولكنني كرجل اقتصاد أيضا أعرف
أنه لا يمكن البناء من فراغ ، وأنه لابد من وجود الجذور
العميقة في التاريخ وفي الأرض لكي يكون البناء
المشاد مستمرا وباقيا ، ورغم عدم تبخرى في العلوم
الأدبية فأنني أحسب أن علوم الموروثات ، أيا كانت
تسميتها ، هي المهاد الحقيقي الذي يقام عليه أساس أي
بناء ، ومن هنا كان اهتمامي بالقضية المطروحة ، فهل
ما حققه هذا المركز يكون لبنة مافي هذا الأساس ، أو
تعرف ماعلى معاله .

قال الصديق الشاعر مصطفى الضمراني :
- لقد زرت هذا المركز وعرفت الى حد ما حقيقة الجهد المبذول فيه ، وفي المادة المجموعة والمسجلة والمصورة ، وهي كلها تشهد بأن هذا الجزء من حياة عمان قد سجل بأمانة وصدق .
قلت :

- لقد مررت مرورا عابرا بالمركز ، ولكن ما قاله لي الصديق يوسف شوقي عن جهده يعكس الصورة التي نم بها جمع ما هو قائم الآن من فنون شعبية تؤديها الفرق الشعبية الموجودة في عمان ، والتي مازالت تحفظ هذه الألحان والأغاني والموروثات الشعبية القديمة . وهو جهد لاشك عظيم وكبير ، وكان لا بد منه حتى لا تضيع هذه الأشياء الموجودة الآن في غمار الفزو الاعلامي الاذاعي والتلفزيوني التي تعرضت له هذه الفنون في اجزاء الوطن العربي فزورت وضاعت صورها الممارسة والفعلية الآن . . . وحلت محلها في أداء الفرق الشعبية فنسون تزاوجية ، زاوجت بين الباقي من الموروث الشعبي ، والسهل والملفت من الأعمال الجديدة للاذاعة والتلفزيون قال الدكتور يوسف شوقي :

- لاحظ أن الكثيرين من اللحنين والمؤدين بل وكاتبي الكلمات أنفسهم يلجأون الى هذا الموروث نفسه في محاولة للاستفادة من سرورته وشيوعه . فهم يسطون على بعض الألحان أو الكلمات ويكملونها من عنسدهم ويعيدون طرحها على المتلقى باعتبارها من نتاجهم من ناحية ، وباعتبارها نتاجا شعبيا من جهة أخرى .
قال الاستاذ عصام رفعت :

- هذا واضح فقد أصبحت كلمة شعبي تطلق على فرق الرقص والموسيقى المتطورة والتي تعرض في أحدث

المسارح وتستخدم أحدث وسائل العرض وتقنياته .
قال الشاعر مصطفى الضمراني :

– اللجوء الى الموروث في الشعر والاغنية أمر مألوف
ووارد ، فنحن نستمع من تراثنا وجودنا الحضاري
والثقافي ، واعتقد أن هذا وارد أيضا بالنسبة للحن
والاداء في الرقص مثلا .
قال الاستاذ المرهون :

– حتى في الازياء ، فنحن نتمسك بأزيائنا المتوارثة
لأنها بنت البيئة من ناحية ، ولأنها زينا القومى من ناحية
أخرى .
قلت :

– من هنا كان فرق بين الجمع الشعبى الفولكلورى
للموروث ، وبين تسجيل ورصد ما هو قائم بالفعل عند
مرحلة زمانية معينة في شعب بذاته . فالبحث الفولكلورى
يهتم بالممارسات الفنية التلقائية العفوية التى لم يدخلها
التثقيب والتهديب ووسائل المدنية الحديثة . فهذه
الوسائل تضيف البعد المنظم الذى هو نتاج عقلية بذاتها ،
وليست هى وليدة الحركة الجمعية .
سأل الصديق عصام رفعت :

– وكيف يكون الجمع الفولكلورى إذن ؟
قلت :

– هناك حامل التراث ، أى ابن البلد الاصيل نفسه
الذى يمارس موروثه الفولكلورى ممارسة تلقائية ، سواء
فى استخدام أدوات البيئة فى صناعاته ، وفى ممارسة
بقايا عادات وطقوس منحدره اليه ويحفظها ويزاولها
كأشياء طبيعية فى المناسبات والازمنة التى توارث
الاحتفال بها فيها ، أو فى ترداد محفوظه من أغاني
العمل أو الافراح أو الاحزان أو المناسبات ترديدا محفوظا

بشكله التلقائي الذي انحدر اليه . من هنا يبدأ البحث
الفولكلورى ، والتصنيف الفولكلورى . ثم يبدأ بعد هذا
كل أعمال الدراسة والمقارنة وتطبيق مناهج ووسائل
البحث الفولكلورى العلمية . أما اللجوء الى راوى التراث
أى محترف روايته وتناقله فهذا لابد فيه من تحديد
الزمن والظروف وتثبيتهما ، لاننا نجمع الصورة المتطورة
من الموروث على ايدى المحترفين ، وبما وصلوا اليه من
تطور الآن ، أى لحظة الجمع . وهى مهمة خطيرة وهامة
ولكنها ليست كل المهمة .

وهنا جاء الطعام فسكنت الكلمات ، واستطعنا أن
نسمع أصوات الموسيقى الخفيفة المتسللة الينا من أرجاء
المكان ، وغدا صوتنا البشرى نشارا مع الطعام المنتقى
والموسيقى الناعمة ، الا أننى قلت للأخ سالم المرهون :
- أظن أننى سأتمكن من زيارة مسقط غدا ؟
ضحك وقال :

- لا ، رحلتك غدا الى نزوى ، وبعدها الى صلالة .
أما مسقط فباقية هنا بانتظارك .
وانصرفت الى طعامى وأنا أعجب من تصاريف القدر
فها أنا على باب مسقط لا يفصلنى عنها الا طريق قصر ،
ومع هذا فأنا بعيد عنها فى هذا الفندق الفاخر ،
وستبعدنى عنها رحلتان نائيتان واحدة بالسيارة الى
نزوى ، وواحدة بالطائرة الى صلالة .. ولكنى تعلمت
دائما أن كل شىء بميقات .

نزوى .. مدينة العلم والأقدار

المدن كالتناس .. تولد لنجم ساطع ، او تولد لنجم خاب . وتولد للشقاء والعناء ، فاذا هى فى القمة ، او اذا هى فى القاع . واذا هى تعرف الشرف والسؤدد ، واذا هى تتعرض للمهانة والعذاب .. ولكنها ايضا كالناس ان صدق معدنهم صدقوا . وان كان معدنهم زيفسا اندثروا مهما تألق وجودهم للحظات ، ومهما احدثوا من ضجة واثاروا لاهتمام لا يستمر الا الى حين ، ثم اذ هم صفحة من وجود انطوى بخيره وشره ، لا يعاد لها نشر او احياء .. وكم من مدن تألقت فى عصر وازدهرت ثم اندثرت تماما الى لا عودة - وكم مدن سميت بالمدن الاشباح شهدت الثروة والجاه والمجد ، وامتلات بيوتها وازقتها بالاطماع والطموحات والعنف ، ثم لم تبق منها الا اطلال تحكى ان حياة كانت هنا ، وان حياة انسحبت من هنا والى الابد .. ونزوى مدينة عرفت القمة ، وان تكون مركز الحياة ومركز الاشعاع . نزوى هى المدينة التى دارت فيها المعارك المحمية لملك بن فهم فى اخراجه للفرس من عمان . وهى المدينة التى شهدت احداث الائمة من عصر الجلندى وعبر تاريخ طويل ، من احتوى نزوى فقد سيطر على القلب من عمان . ووقفت نزوى مدرسة علمية دينية كبيرة لا يضاهيها الا مدرسة الرستاق .

وعلى مر الزمن عاشت نزوى كل أحداث الفتنة والمعارك، وكل أحداث النصر والازدهار . وكانت أبدا كلمة ! العلم والدين والمذهب .. فقد جعل آخز بنى الجلندى نزوى عاصمة حصينة كما يقول العسالى فى تحفة الاعيان . وحين انكر الاباضيون على الامام محمد بن أبى عفان فى حوالى عام نيف ومائة وسبعين أخرجوه أولا من نزوى ثم عزلوه . ثم كانت حاضرة الامامة بعد هذا الى أن سلمت نزوى الى جيوش الخلافة العباسية فى عهد المعتضد العباسى . ويعقب سرحان بن سعيد الازكوى فى كتابه كشف الغمة الجامع لآخبار الامة على هذه الواقعة بقوله : « وما كان قتالهم وحربهم بينهم الا طلبا للملك ورغبة فى الرياسة ، وكل منهم يود أن يكون الملك بيده أو بيد من مال اليه بوجهه ، فسلط الله عليهم من هو للملك أطلب منهم ، أفسدوا دينهم فنزع الله عنهم دولتهم وسلط عليهم عدوهم ، وكانت دولة الاباضية قد ملكوها الى أن خرجت من أيديهم مائة سنة وثلاث وستين سنة الا شهرا واثنى عشر يوما والله أعلم » .. هى قصة المدينة والناس . والناس يفقدون مكانتهم وسلطانهم أن هم أستسلموا لأطماعهم وشهواتهم ، وأعمتهم لحظات الان ، عن حقيقة الغد . ونسوا فى غمرة السباق نحو الملك والسلطة ، أن غيرهم يتربص بهم ، وأن فرقتهم هى سقطتهم فى بئر النسيان والتبعية والذلة .. وأنهم حين يضيع ريحهم يضيع معهم ومعه كل ما آمنوا به من مبادئ ، وما اعتنقوا من قيم ودين .. والمدينة تعز بفرسانها ، وتذل بذل رجالها ، ولكنها تبقى وهم يزولون .. تبقى شاهدا على قلب أحوال الناس ، وتقلب الاقدار بأحوال الناس . فى نزوى كان الملك والسيادة ، وفى نزوى كان العلم والريادة ..

كانت هذه الخواطر تدور برأسي والسيارة تنزلق نزل الطريق الاسفلتي الناعم الذي لا تحس فوقه لحركة السيارة السريعة أى اهتزاز ، وقال الصديق طارق فودة :

— السيارة كأنها تطير .. هذا طريق رائع .. ضحكت وأنا أقول :

— أول شاهد على التحرك نحو الحضارة قيام شبكة الطرق التى تحقق الاتصال والعمران ، وتؤكد وحدة المكان ، وتختصر البعد الزمانى بين الناس . وكان الاستاذ طارق رفيقى فى هذه الرحلة الى نزوى وكان رفيقنا الثالث من الأرجنتين ، جاء اندرو جراهام يول مندوبا عن مجلة « الغرب » التى تصدر بالانجليزية فى لندن ، ليزور عمان ويكتب عن عمان وحركة النهضة الجديدة الشامخة فيها .. ولكن الكتابة عن نهضة أمة عريقة لابد أن ترتبط بالتعرف على معالم العراقة والأصالة فيها ، ولذلك كان فى طريقه معنا الى نزوى . وقال طارق :

— اذا كان على الطرق فما أكثرها هنا ، لقد شاهدت الطرق المرصوفة فوق الجبال وفوق الاودية أيضا ، وكلها فى مثل هذا الانسياب . ثم ضحك وهو يوجه سؤالا بالانجليزية لرفيقنا الثالث قائلا :

— مارأيك يامستر اندرو ، هل لديكم فى الأرجنتين مثل هذا الاهتمام بالطرق .

ضحك اندرو ، فأوضحت ضحكته عن شباب تخفيه اللحية والنظرة الجادة وقال :

— ماتعيشونه هنا نعيشه هناك ، نفس الصراع من

أجل أن نستعيد وجودنا ، وأن نبدا من جديد ..
 ثم ضحك ضحكة خشنة وهو يقول :
 - الدول التي تريد أن تكون صاحبة القرار في أمرها
 عليها أن تصنع الكثير .
 نظر الى طارق فودة وقال :
 - نتحدث عن الطرق فينقلب الحديث الى السياسة .
 ضحكت وأنا أقول :
 - ليس هذا هما مشتركا أيضا ..
 تركنى طارق والتفت الى حمود السائق قائلا :
 - يا حمود تركوك معنا وحدك .. فأصبحت السائق
 والمرافق والدليل ..
 هز حمود محمد سائقنا الاسمر رأسه وهو يزيد من
 سرعة السيارة ويقول :
 - لا مشكلة .. لقد زرت نزوى مرارا ، وكل شيء معد
 لكم ، وهناك في كل مكان نذهب اليه من سيحكي لكم
 ما تريدون من حكايات حول القلاع والحصون ، فنزوى
 هي مدينة الحصون القديمة .
 عاد صديقنا الارجنتيني يسأل :
 - في أي المناطق نحن ؟
 ترجم طارق سؤاله الى حمود ، الذي هز رأسه وهو
 يشير بيده الى الاراضي الممتدة حولنا وقال :
 - نحن في الجبل الاخضر . ونزوى قلب الجبل
 الاخضر .
 قال أندرو وهو يستمع باصغاء الى ترجمة طارق
 فودة لاجابة حمود :
 - من عمق التاريخ نزوى .. اسمها يتردد كجزء
 من عطر الشرق القديم . مدينة الصناعات الموهلة في

القدم في الفضيّات والنحاسيات .. فصناعات الفضة
والنحاس من نزوى شهيرة من عمق التاريخ يوم كانت
صناعات الفضة والنحاس هي قمة الترف والوجاهة
في بيوت العالم القديم .
قلت أسأل حمود :

- هل مازالت نزوى تصنع الفضة والنحاس
باحمود .. ؟

هز حمود رأسه وهو يتابع الطريق بعينه ، وقال :
- أشغال الفضة ، والأواني النحاسية ، والمحضيات
وأشياء كثيرة أخرى .

وسكت لحظات كأنما يستجمع أشياء قديمة ، ثم تنهد
في أسى وهو يقول :

- ولكن مجد هذه الصناعات كان في الزمان الماضي ،
فالمرأة عندنا اليوم تفضل الذهب والحلى الذهبية على
الفضية والحلى الفضية .. وبدأ أصحاب المهارات
الموروثة يتركون الصناعة القديمة ، صناعة الآباء والأجداد
إلى أشياء أخرى أكثر رواجاً ، وجذب التعليم وجذبت
الوظائف الكثير من أبناء الجيل الجديد ، ولكن لا يزال
هناك مشايخ الصنعة المهرة القدماء يزاولون صناعتهم في
صبر ودأب .

سأل الأستاذ طارق فوده وقد شد حديث حمود
انتباهه :

- إذا كانت المرأة العمانية لا تلبس الفضة فلمن
يصنعونها إذن ؟

ضحك حمود وهو يقول :

- مازال البعض منا يتمسك بالفضة ، وريال ماويا
تريزا القديم مازال يتوسط القلادة التي ترتديها نساء

كثيرات .. ثم لا تنسى السياح الاجانب وهم يشترون من هذه المشفولات الفضية الكثير ، وبعضهم يعتبر ان ربحه نعمان لا تكتمل الا اذا حصل على هذه المشفولات الدقيقة بنقوشها القديمة . ثم البدويات عندنا لا يعرفن حلية الا اذا كانت فضة ، فالفضة عندهن ترتبط بأشياء سحرية تقيهن الشياطين والعسین وتجلب لهن الخير والخصب والسعادة ، وأشياء أخرى كثيرة ..

وكان حمود يضحك ، ويهتز جسده الصغير كله في ضحكته الصادرة من القلب ، ولفت هذا نظر اندرو فطلب من طارق أن يترجم له ما قاله حمود ، ويفسر له سبب ضحكته . وأخذ طارق يترجم وأخذت أنا أقامل في حديث حمود .. الفضة هي معدن القمر ، والقمر هو المعبود القديم في الجنوب ، ورموز القمر موجودة في كل الزخارف القديمة .. والشعائر العبادية القديمة قد تحولت بعد أن طردتها الأديان السماوية الى مجسود عادات اجتماعية متوارثة نسي أصلها ، ونسي ارتباطها الديني القديم ، ولكنها ظلت وستظل الى زمن طويل تتوارث وخاصة بين النساء فتشكل معنى الحلية عندهن التي لا تؤدي وظيفة الزينة وحدها ، وإنما هي أيضا تؤدي وظائف سحرية قديمة أخذت شكل التقاليد الموروثة التي تلقنها العجائز لبناتهن فيمارسنها في الزينة والملبس وعند الظروف الاجتماعية والحياتية بشكل تلقائي وفطري . ومن هنا كانت هذه الأهمية عند البدويات اللاتي لم تمس تقاليدهم الاجتماعية بعد زياح التغيير بشكل جذري .. والنحاس ؟ معدن السحر القديم ؟ وخرجت من تأملاتي على أصوات الضحكات التي يتبادلها رفيقاي مع حمود ، وكان طارق يضحك حمود

قائلا :

— عندما تتزوج البدوية التي تروكك ستشتري لها الشبكة من الفضة ، اليس كذلك يا حمود ؟
هو رأسه في دهشة ، ورد قائلا وقد غابت عنه فكاهة طارق :

— ولكنى متزوج ، وسعيد في زواجى ولا أفكر فى الزواج من جديد ..
وقبل ان يكمل طارق معابثاته مع حمود ، قلت لحمود :

— والنحاس يا حمود ، هل انقرضت صناعاته هو الآخر .. ؟

صمت حمود لحظات وهو يركز كل عنايته فى قيادة السيارة ، ثم قال بعد حين :

— اذكر أن الأوعية فى بيوتنا كلها كانت من النحاس ، أعنى نفس الأوعية التى كانت تصنع فى بيوت الاغنياء من الفضة الخالصة كالاكواب والاطباق والاباريق والطاسات ، كما أن الصواني وأوعية الطبخ كانت كلها من النحاس ..
أما الآن فقد دخلت بيوتنا الأدوات الحديثة ولم يعد النحاس مكان الا فيما ندر .. ومع هذا فما زال النحاس يصنع ويشكل بنفس الرسوم والأشكال والزينة التى أقديمة — وكما حدث بالنسبة لصناع الفضة المهرة ، حدث نفس الشيء بالنسبة لصناع النحاس الماهرة ، مجموعة من الحرفيين الكبار فى السن لا يزالون يزاولون المهنة بنشاط ، وفى سوق نزوى ، وفى كل أسواق عمان ما زال النحاس ومشغولاته يحتل مكانا هاما ، ولكن الذين يهتمون به جدا هم السواح الأجانب .

حين ترجم طارق كلام محمود الى أندرو ، سألتنى

أندرو ؟

— عرفت قبل أن أصبحكما ان طارق هنا صحفي ،
وانك باحث فى التراث ، فهل تستطيع أن تخبرنى عن
هذه الصناعات أهى وافدة ، أعنى بعد الاسلام ، جاءت
مع الحضارة الاسلامية ، ام هى قديمة . ومن اين
تأتى هذه المعادن ؟

صمت لحظات أتأمل الطريق والسيارة تسرع بنا
وكانها تطير ، ثم قلت :

— المسألة لاتحتاج الى باحث متخصص فى التراث ،
فقد اسدرت وزارة التراث القومى والثقافة فى عمان
سلسلة من الكتب الصغيرة تتضمن الابحاث التى صدرت
من عمان وبالذات عن الابحاث الاستكشافية التى قامت
بها الجامعات العالمية حول ميطان الآثار ، وما أسفرت
عنه عمليات التنقيب والحفر والدراسة ، وتتضمن هذه
السلسلة — وبالمناسبة اسمها « تراثنا » — التقارير
العلمية والاكاديمية عن الحفائر ومنها أبحاث عن التعدين
القديم فى سلطنة عمان قامت به شركتا بروسبكشن
ومارشال عمان اكسبلوريشن بالاتفاق مع السلطنة وذلك
فى عام ١٩٧٣ أى فى بدايات نهضة عمان المعاصرة ، التى
تشهد آثارها الآن فى كل مكان . وقد كتب هذا البحث
مجموعة من الدارسين ذكروا أن الذى لفت انظارالشركتين
الى أهمية الاستطلاع حول التعدين القديم فى عمان ،
بحث لعالم أثرى هو الدكتور « جيوفرى بيبى » الذى
ذكر فى كتابه « البحث عن دلون » وصف ألواح فخارية
عثر عليها فى « أور » تذكر شحن عشرين طنا من النحاس
حوالى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد من « مجان » الى « أور » ،
وذكر أن موضع مجان فى جبال عمان . ويقول الدارسون

ان نتائج الكشف والتنقيب قد ايدت نظرية دكتور
« بيبي » تايدا كبيرا « ففى اثناء برنامج التنقيب الجارى
عن المعادن فى سلطنة عمان تبين لرجال شركة بروسبكتشن
المحدودة مواضع بقايا ما لا يقل عن ٤٤ موقع تعدين
قديم » ..

صاح طارق فى دهشة :

— من عام ١٨٠٠ قبل الميلاد .. اى منذ مايقرب من
اربعة آلاف سنة ..

وقال زميلنا الارجنتينى فى دهشة :

— مواقع تعدين ، تعنى مواقع عمل ، لا مجرد مواقع
تدل على وجود المعادن ..
قلت مستسما لدهشتها :

— لقد تأكد لدى الباحثين فى الشركة ان عملية التعدين
كانت تتم فى هذه المواقع ومعها عملية الصهر اذ كان
يجلب اليها فحم الخشب اللازم ، ويتم التعدين على حفر
صغيرة وخنادق وقصبات او اثناق تحفر عند شواهد
وجود المعدن على سطح الجبل . واكد الكتاب ان النفايات
المعدنية الموجودة فى بعض هذه المواقع تحتوى على قدر
عال من النحاس .

قال طارق فوده :

— لابد انها تحتوى على قدر عال من المعدن الخام
والا ماتمكنوا من الحصول عليه بكميات صالحة للتصدير
وهم يستعملون وسائل بدائية لهذه الغاية .

بعد لحظة صمت ، قلت له :

— قدم المستشرق هارولديك الى مؤتمر المستشرقين
السابع عشر ! انعقد فى اكسفورد عام ١٩٢٨ بحثا قال
فيه « من اعظم مشاكل العالم القديم اثاره للاهتمام

صناعة استخراج المعادن ، ويبدو أن أول المعادن التي
استعملت هما الذهب والنحاس ، ونحن نشعر أنه
إذا أمكن أن نعرف من أين حصلت الشعوب المتقدمة
الأولى على خامات معادنها فإن الطريق يفتح أمامنا
كي نعرف من هي الجماعة التي كانت أول من توصل
للاكتشاف الهائل بأن النحاس يمكن صهره وصيبه في
قوالب » .

قال أندرو :

— لا أظن أن كل هذا العناء الذي يبذل في معرفة من
الأول في اكتشاف هذا الشيء ، أو ذاك مفيد في شيء .
فالبشرية قد عرفت التعدين في مرحلة ما وانتهى الأمر .
تحمس طارق فودة فقال :

— بل هي قضية هامة جدا . فمعرفة الأصول الأولى
للحضارات شيء هام في ذاته ، ثم هو شيء هام في معرفة
فضل السابقين ، ورفع عقدة التفوق التي تحسها بعض
الشعوب اللاحقة في مضمار الحضرة تجاه الشعوب
الأعرق ، والأكثر سبقا . وربما اللاحق بفرص أكثر عدالة
في حياة اليوم .

ابتسمت لحماس طارق واحمر وجه أندرو بينما قاطعنا
صوت نسيناه تماما ، هو صوت حمود يسأل عن حلية
هذا الحديث كله . وتذكرت أن حديثنا دار بالانجليزية
، أن حمود بهذا لم يكن طرفا مشاركا فيه ، ولا مستمعا
إليه . وعجبت من ظاهرة الالف وماتحدثه من آثار ،
فحمود منذ أول الرحلة أمام عجلة القيادة فهو بالنسبة
لنا موجود بالحتم ، وكنا نلتفت إليه كل لحظة سائلين
مستفسرين ، ولكن حين انهمكنا في الحديث والاقتباس
والتذكر نسيناه تماما . وتنهى طارق فودة وقال :

— يبدو أننى فى هذه الرحلة أصبحت مترجمها الرسمى
اسمع يا حمود ..

ومضى طارق قودة يترجم لحمود الحديث الذى دار
بيننا ، وأنذرو يلاحظ كلماته بعينيه وأذنيه كأنما يحاول
أن يفهم ماتقوله الكلمات التى سبق أن سمعها بالانجليزية
.. ومضى الطريق بنا والسيارة بسرعة وطارق يترجم
وحمود يستمع .. وحين انتهى طارق من ترجمته التفت
الى أندرو قائلا :

— يقول التاريخ ان السومريين قبل عام ٢٠٠٠ قبل
الميلاد أستخرجوا النحاس وعدنوه بل وصنعوه أيضا فى
منطقة ما بين النهرين ، والعلاقة بين بلاد ما بين النهرين
وهذه المنطقة علاقة وطيدة جغرافيا وتاريخيا على السواء .
وعرف المصريون فى نفس الوقت تقريبا أو قبل هذا عمليات
التعدين للنحاس والذهب وعمليات التصنيع أيضا .
ومحاولات البعثات العلمية والصناعية هنا هى محاولات
للبحث عن بقايا معادن لم تكتشف للمعاصرين بعد ، ولا
أظن العلم وحده هو السبب ، فهذه المعادن تشكل ثروات
ضخمة يطمع أصحاب التفوق الحضارى اليوم فى السبق
البها فى مظاهرها .. وكالمعتاد سيشاركون أن أمكن أو
ينهبون ان استطاعوا ..

قلت لطارق قوده :

— أندرو من الأرجنتين يطارق وليس من الولايات
المتحدة ولا من أوروبا ولا من روسيا ، ومع هذا فبلاده
تعرض لنفس المحنة ..
ضحك أندرو وقال :
— أن لم يكن أكثر ..
قلت لحمود :

— ألا تعرف يا حمود مكان جبل المعادن . لو عثرت عليه

لسبقت المنقبين الامريكان والانجليز اليه ولقدوت من
اصحاب الثروات الضخمة الى آخر العمر ..
التفت طارق الى متسائلا :
- ما جبل المعادن هذا ؟
قلت :

- تناقل الناس من زمن قديم ان العمانيين القدماء
كان لديهم جبل كامل من المعدن ، هو الذي يوفر لهم
النحاس وغيره من المعادن الاخرى ، ومن قديم والناس
يبحثون عنه ، وقد ذكره سارجون الاكادى فى لوحة
تنسب اليه ، واللوحه وجدت فى آشور عام ٢٧٥٢ ق.م
وذكرها ايضا معدن معاصر هو « سترجى . م ليس »
الذى ذكر انه عشر على جبل المعادن فى وادى « عاهن »
داخل صحار .
صاح طارق فودة :

- وماذا تنتظر ، هيا يا حمود الى عاهن هذه ولتنتظر
نزوى قليلا :
ضحكت وانا اقول له :

- وادى عاهن موجود هنا ، ولكن الخرائط الجغرافية
الحالية لا تحدد جبلا اسمه جبل المعادن ، وكل النحاس
الذى عشر عليه فى هذا الوادى بقايا نقايات قديمة قرب
قرية اسمها الميدان . ثم لا شيء بعد هذا ، فقد سكت
الودى عن سره ولم يبع به لاحد حتى الان .
وبدأت علامات الضيق على وجه طارق وهو يلتفت نحو
اندرو ويترجم له الحديث الدائر ، بينما ضحك حمود
ضحكة رقيقة وهو يقول :

- الحالمون كالانخ طارق كثيرون ، ولكن من تراهم

هنا كلهم من الاجانب يحسبون أن عيونهم ستري ما لا تراه،
وأن أيديهم ستصل الى ما لا تصل اليه ، انظروا هذه
نزوى أخيرا ..

والتفتنا جميعا الى أمام فاذا السيارة تدور لتخرج
من الطريق الاسفلتى الى ميدان يعود بنا عبر التنازيم
الى دنيا من الحياة الخصبة بالبراءة والسماحة والسلام..
دورة السيارة هذه نقلتني فجأة الى بلاد السندباد ، ولكن
السندباد البرى هذه المرة لا السندباد البحرى . شجرة
ضخمة عالية وسط الميدان وحولها مجاميع من الناس
والحيوان فى وقت واحد . سوق هى متحرك صاخب
ملئ بالرجال يرتدون اللشدشات العمانية وفوق
رءوسهم العمة العمانية ومعظمهم ملتحون ، وبعضهم
يمسك فى يده عصيا رفيعة من الخيزران . ومجاميع من
النساء يرتدين السواد ، وتغطى الملابس السوداء
وجوههن وأجسادهن كلها . واطفال فى عيونهم حكمة
الشيخ ، ووسطهم وحولهم أغنام وماعز وأبقار صغيرة ،
بعضها حديث الولادة صغير الحجم بشكل يبدو مذهشا
لواحد مثلى لم ير الأبقار الا وهى فى تمام نموها ..
وكان من الواضح أن حركة البيع والشراء على أشدها ،
وأن الكل منهمك فى مساومات ومزايدات . وقال حمود
وهو يوقف السيارة :

— هذا سوق الماشية .

ساحة فسيحة ، الشجرة فى وسطها والناس والماشية
حولها ، ومجموعة من الناس تجلس القرفصاء ، والتجار
يعرضون عليهم الماشية . وقال حمود :

— فى يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع يقام
هذا السوق والبيع بالمزاد ، وهم كىبدءون بالأغنام والماعز

وينتهون بالابقار . هل تحبون الرؤية عن قرب ؟
قلت وأنا أنزل من السيارة والآخرين يتبعوننى :
- بل هذه الرؤية من هنا تكفيننا .. ولا تعاملنا
كالسياح يا حمود ، ففى بلادنا هذه الاسواق تقام فى كل
مدينة وكل قرية ، وفى الاحياء المتطرفة من العاصمة .
نحن هنا نعيش تجربة مكررة سبق لنا أن مارسناها فى
طفولتنا وصبا .

وقال طارق وهو يضطك فى سعادة :
- فى قريتنا كنا نذهب الى سوق الثلاثاء ، كان هو
يوم المتعة والجري والعبث ، تمثل حكاية المساومات
مع التجار ، وبيع اشياء وهمية ونشد صفائر البنسات
الصغيرات ..

قلت له ضاحكا وأنا اشير الى الشجرة الضخمة والحياة
التي تدور حولها :
- حاول هذا الآن .

فتيات صغيرات كثيرات كن يمرحن ويلعبن فى براءة
وحرية حول الرجال وحول الماشية وحول الشجرة ،
وخاصة حول جذع الشجرة حيث وقفت مجموعة كبيرة
من الماعز حول حافة البئر هناك .. ومن ناحية تصبح
واحدة من النسوة بصوت آمر فتكف فتاة عن العبث
والجري وتعود مطاطاة الرأس الى حيث وقفت أمها امام
قفة كبيرة مليئة تعرض ما بها للبيع .. وقال حمود الذى
أغلق السيارة وجاء يقف الى جوارنا :

- البدويات يحضرن الى السوق كل ماينتجن طوال
الاسبوع وستجد قلوب النخيل وعسل النحل وشمعه ،
والجبين والزبد وكل شئ تتصوره ، الى جوار ماينسجه
الرجال والنساء بأيديهم من السعف .

قال أندرو وترجم طارق :
- لنذهب الى السوق القديم .
ضحك حمود وهو يقول :

- هو وراء ظهرك تماما .. وهنا مدخل من مداخله
الاربع ، فهيا ندخل منه فهو المدخل الرئيسى .
من عل تلوح القلعة كأنها تحتضن الباحة والسوق ،
وأشجار كثيفة تحيط بها وتحجب جسدها عنا ..
والجامع بواجهته المطلية مفتوح الباب يستقبل المصلين
الذين يستعدون لصلاة الظهر ، وعربات كثيرة من أحدث
الانواع وقفت هناك - ورجل يمر فوق حمار - والاصوات
تعالى من ورائنا - ومجموعة من السواح ينزلون واحدا
واحدا وواحدة واحدة من حافلة كبيرة ، ومدخل ضيق -
ويبدأ احساس بالعتمة والظل ، فالسوق مسقوف يحجب
سقفه اشعة الشمس الحارقة فى الخارج ، ونسمات
رقيقة محملة بعطور الشرق القديمة تملأ الطريق الضيق
تطل من ناحيتيه الحوائيت متجاورة متلاصقة ، حولها وفي
مقدمتها ألوان من البضائع الشرقية وألوان الملابس
والتحف والمصنوعات والمشغولات المعدنية .

بعض الدكاكين عالية المدخل ، أى أنها ترتفع على
أرض الشارع الضيق قدر سلمة كاملة ، وتمتد الدكان
كلها فى هذا الارتفاع ويجلس على حشيات فيها أصحابها
أو عمالها أو يقفون يعينون الزبائن على الارتقاء اليهم
للتفرج على مايعرضون ، وابتساماتهم مليئة بالترحيب
والرقة ، وعيونهم تبرق ذكاء ولماحية ، ولحاهم تخفى
وجوههم الصابرة الدعوية .. وكان النازلون من الحافلة
قد تدفقوا بقمصانهم الملونة وسراويلهم القصيرة ، وكلماتهم
المتابعة وضحكاتهم الكثيرة يملأون السوق حولنا ،

وكاميراتهم تلتقط صورة طريفة هنا ، ومنظرا اعتبره
صاحبها غريبا هناك ..

وكانت حوانيت الفضيّات والمشغولات الفضية تحتل
الجزء الاكبر من دكاكين السوق ، ومضى أندرو يتفقد
مجموعة من القلائد والسلاسل والعقود .. وخرج لنا
كهل مبتسم أنيق في جلبابه الابيض الناصع وعمامته
الملفوفة بعنايه ، وذقنه التي اختلط فيها البساض
بالسواد ، ورحب بنا ودعانا الى الدخول . لم أكن مستعدا
لشراء شيء ، ولكن طارق فودة كان قد أخبرني انه
لا يذهب الى مكان في العالم الا ويحمل لزوجته وأولاده
شيئا من إنتاج هذا المكان كهدية ، فتشجعت وأنا اتجه
الى المحل وراء أندرو وطارق المتحمسين ، بينما نظر الى
حمود ابتسامة العارف وهز رأسه ، كان يعرف انني
مثله لا قدرة لي على شراء شيء .. وأشار بيده وقال :
- السوق مليء بكل شيء من كل مكان في عمان ،
اللبان من ظفار والحلوى من مسقط ، والعطور والروائح
من عبر البحار .

وضحك ، وتتبعته اشارات يديه .. الجالسون حول
السوق وأمامهم أكوام البضائع ، والجالسون فوق عتبات
الحوانيت محملة بمئات البضائع من كل صنف ، الاقمشة
والجلابيب والطواقى والشييلان ، والعطور وأكوام وأكوام
من النباتات المختلفة اللون والرائحة والصنف . وجاء
صوت طارق يصيح بنا من داخل الحائوت ، قدخلنا ،
قال طارق :

- الحاج خميس هنا يحكى لنا عن كنوزه الفضية هذه ،
وأحب ان تسمع معنا ، وسأترجم للاخ أندرو ترجمة
فورية وأمرى الى الله .

ضحك الحاج خميس ، وازدادت البشاشة في وجهه وهو يقول :

— كنت أقول لصديقكما هنا أن الحلى الفضية عند الأسر البدوية رصيد مالى يقتنيها الرجل أو المرأة للزينة وحسب وإنما لتتفع في وقت الحاجة .

قال أندرو وترجم طارق ، واستمع الحاج خميس :
— لست أجد في معظم المعروض إلا قطعاً جديدة في الصياغة وفى النقش ، ألا توجد قطع من الحلى القديمة هنا ؟ .

ضحك الحاج خميس وهو يقول :

— صديقكم الأجنبى يبدو هاوياً وفاهماً ، ففى الحقيقة أن معظم الأسر التى كانت تملك قطعاً من الحلى تحضرها لئرسالها الى الصنائع ليعاد صهرها وصياغة قطع جديدة منها ، فقد أصبح الناس فى عمان يميلون الى الأنواع الحديثة من الحلى . ولكن القطع القديمة موجودة ومطلوبة ، وهذا الطلب هو الذى يرفع ثمنها ارتفاعاً هائلاً . ونزوى مشهورة بالحلى ذات الأشكال الهندسية والتى تشبه الماسة والتميزة بالنقوش والزخارف الجميلة .

وأخذ يعرض علينا أساور وخواتم وحلقان وخلاخيل زخارفها دقيقة وجميلة ، وتدخل الأشكال النباتية والزهور وأوراق الشجر بكثرة فى هذه القطع الجميلة . ولاحظت أن بعض الأساور ليست كاملة التدوير وإنما تشكل قوساً يلتقى طرفاه عند خط مستقيم ، وبعض الحلى توجد بها شرائط أو مشابك وتذكرت على الفور الحلى اليمانية التى رأيتها فى صنعاء ، وعندما أبدت هذه الملاحظة للحاج خميس قال :

— معظم التصميمات الحديثة والحلى المطعمة بالاحجار

الكريمة بالفعل انتقلت إلينا من صنعاء ، أو هكذا سمعت
المسنين من أهل الصناعة يقولون . ولكن صناعة الفضة
في عمان عريقة جدا ، وتشتهر كل مدينة بإجادة نوع معين
منها . فما تروته هنا من حلّى تشتهر بها نزوى ، أما
الرستاق فتشتهر بالاساور المطعمة بالفصوص والمختومة
الخارج ، أما الحلّى المشكّلة بزخارف مشتقة من الورد
فتشتهر بها عبرى وإبرا .

سأل طارق في فضول الصحفى الذى تفتحت شهيته
على موضوع طريف ؟

— ولكن ماهى الاحجار الكريمة التى يكثر استعمالها
فى الترصيع ، فلا أظن مسألة الماس هذه تتوفر
للكثيرين ؟

ضحك الحاج خميس وهو يقول :

— نحن فى عمان نرصع الحلّى بأحجار كثيرة ، ولكن
المألوف والجارى استعماله هو المرجان الطبيعى أو
الصناعى حيث نرصه بين الخرز الذهبى والفضى كما
نستعمل قطع الزجاج الملون أو البلاستيك . والترصيع
ليس كل الزينة المستعملة فى الحلّى ، فهناك الحفر
بالنقوش ، والحلّى المخرومة أو المشبوكة فتبدو الحلّية
وكان عليها كرات بارزة أو حبيبات ..

قال حمود مقاطعا الحاج خميس :

— اليس لديك المرد ، لترىهم آياه ..

أشار الحاج خميس الى واجهة زجاجية مليئة بالعقود
الفضية تنتهى بميداليات وسبائك عليها آيات قرآنية ،
وبعضها ينتهى بريال فضى هو ريال ماريا تريزا ، وبعضها
عليه تعويذات أو أحجية ، وقال الحاج خميس :

— هذه أحسن هدية للفتيات والشابات منهن بصفة

خاصة ، فهي الى كونها حلية ، تمنع الحسد والعين .
وتقى من شرور كثيرة ..

ضحك طارق وهو يقول :

— أهذه تحلية للبضاعة ، يا حاج خميس ؟

قال الحاج خميس :

— هذا شيء متوارث يسهر في صناعته مجموعة من
أقدم الصنائع وأشهرهم . والناس يعتقدون في قيمة
المردد ..

سأل اندرو وترجم طارق :

— اليس هذا ريال مارياتريزا ؟

قال الحاج خميس :

— هو ريال مارياتريزا الذى يتدلى من بعض السلاسل
الفضية ، وهذه السلاسل والعقود تصنع من فضة هذا
الريال . وفضة الريال قاعدة وأساس لتسعير قيمة
الفضة ونسبتها في أى حلية .

قال طارق فوده بعد أن ترجم أجابة الحاج خميس
لاندرو :

— ماهى حكاية ريال مارياتريزا هذا ، انه أشهر حلية
في اليمن ، وها أنا أجده أمامى هنا .
قلت له :

— احكى لك انا عن هذا الريال . فاسمه مأخوذ من
امبراطورة النمسا التى توفيت عام ١٧٨٠ وستجد هذا
التاريخ مسجلا على جانب الريال ، وقد صدرت هذه
العملة أولا عام ١٥٢٥ . ولكن الريال الحالى تم صكه
لاول مرة في مدينة فينا في عام ١٧٥١ لايجاد عملة
مقياسية لعملية التبادل التجارى — وبحلول القرن
التاسع عشر أصبح هذا الريال العملة المتداولة في أجزاء

كثيرة من العالم وخاصة في افريقيا واليمن وعمان وبعض البلدان الاستوائية . وقد تم صك ٥ مليون قطعة منه خلال الاثنى عشر عاما الاولى من القرن الحالى . وفي عام ١٩٧٤ ارتفع سعر الريال النمساوى من نصف ريال عمانى الى ١٤ من الريال وهذا مقياس على لارتفاع سعر الفضة في العالم .

عندما ترجم طارق لاندرو حديثى ضحك وهو يقول :
— من أين كل هذه المعلومات ؟
قلت له :

— هناك كتاب رائع في موضوع الفضيّات عموما من سلسلة ترائنا التى حدثتك عنها الفته روث هولى وقد صدر بالعربية باسم الصناعات الفضيّة في عمان .
قال :

— سأحاول الحصول على نسخته بالانجليزية عند عودتى الى مسقط .

واشترى اندرو واشترى طارق قودة ، وخرجت انا وحمود نتأمل على باب متجر قريب قطع قماش زاهية الالوان تشبه الشرائط الطويلة تنتهى بذيول ملونة ، وقال حمود يشرح لى :

— هذه هى المحضية ، والنساء تخطيها في حواشى العباءات ، وهى صناعة يدوية ..

وفى الداخل كان رجل ملتج منهمكا فى عملية النسيج على نبل يدوى صغير وألى جواره شاب صغير السن ، هو الذى التفت الينا وفى عينيه تساؤل .. فقلت لحمود :

— هيا بنا فقد غادر صديقانا أخيرا محل الصائغ ..
وانضمّا الينا ، ومضينا نجول فى السوق المسقوف ،

ارضه نظيفة وهواؤه رطب ، وروائح مميّزة تختلط
فيها التوابل بالعطور ، لتشكل هذه الرائحة الخاصة
التي تميز أسواقنا الشرقية الشعبية .. واستغرقني
ما أشاهد حتى لكزني طارق منبها إياي وقال :
- أين ذهبت بخيالك ؟
قلت له :

- إلى أسواق بغداد القديمة التي وصفتها ألف ليلة
واليلة ، وإلى أسواق القاهرة ودمشق وصنعاء ، وكأني
وأنا أسير هنا اسمع موسيقى شهر زاد لكورساكوف ،
وأتلقت حولى باحثا عن السندباد الحمال .
ضحك طارق فوده وهو يترجم كلماتي لاندرو الذي
سأل :

- وما السندباد الحمال ؟
قلت :

- الحمال عنصر هام في مغامرات ألف ليلة وليلة ،
هو الذي يحمل البضائع من السوق إلى المنازل ، مهمته
أن ينتقل من مكان إلى مكان ، ومهمته أن يدخل البيوت
حاملا حمله الذي أجر على نقله من السوق ، ومن هذا
المدخل تدخل الليالي إلى أسرار البيوت ، وأسرار
الحكايات التي تجري خلف أسوارها . وحين يستريح
حمال الليالي ذات يوم قائل إلى جوار بيت كبير تفوح
من حديقته الروائح الجميلة ، ويهب منها نسيم عليل ،
يلتقي بصاحب البيت الذي هو السندباد البحري ، واذا
بالحمال أيضا اسمه السندباد ، ولكن السندباد الحمال
أو السندباد البري ، وتبدأ حكايات رحلات السندباد ،
ويحكى مغامر البحار لمغامر الأسواق ، يحكى من يكتسب
الخبرة والمعرفة من جولاته التي لا تنتهى فى البحار

الجهولة ، لمن يكتسب الخبرة والمعرفة من جولاته التي
لا تنتهي داخل أروقة السوق المعروفة وحوانيته .

ضحك أندرو وقال :

— وهل وجدت السندباد الحمال ؟
قلت له :

— من يدري ربما كان أى واحد منا ، فنحن نحمل
معنا أثقالنا وفضولنا الدائم .

صاح طارق فودة :

— نسيت نفسك ، فلا تنسينا أنفسنا .

ثم التفت الى حمود وسأله :

— ماهى خطوتنا التالية ؟

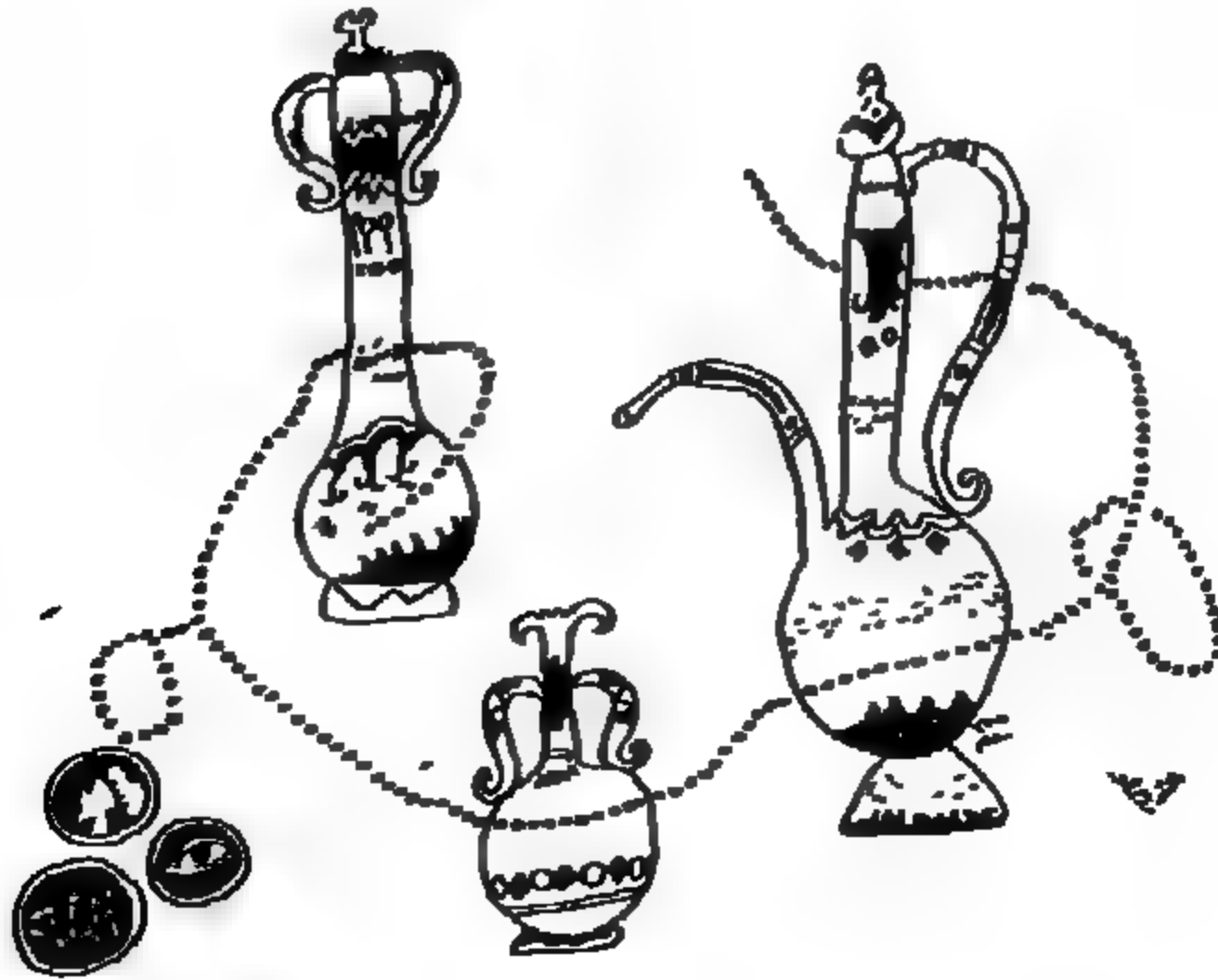
قال حمود :

— قلعة نزوى . أو حصن جبرين ..

قلت وأنا أعود الى دنيا الواقع ..

— هيا بنا اذن الى قطعة التاريخ الفذة وأسرارها

التراجيدية ..



الرجل والقلعة

دارت بنا السيارة فى الطرقات الضيقة المتسرجة
لنزوى ، حولنا بيوت تطل من خلف أسوارها رعويس
!أشجار ساكنة لا يحرك أغصانها أو أوراقها نسيم ،
فالقيظ يحكم حلقاته حولنا ، والشمس ترهق وجودنا
بضوئها المبهر وحرها الكثيف . ثم وقفت السيارة فى
باحة ضيقة أمام الجدران الصخرية العالية للقلعة ،
وقريبا من بابها الضخم المفلق ، ماعدا فتحة صغيرة فى
أسفله تشكل بابا صغيرا خشبيا عنده حارس يمسك
بندقية قديمة ويلبس الملبس العمانى المألوف ، ووجهه
الحاد التقاطيع لا يخفى صرامة النظرة فى عينيه ،
وترحية الابتسامة فوق شفثيه .. وقال حمود ونحن
ننزل من باب السيارة ، ونتجه الى باب القلعة الصغير :
- هذا حصن جبرين أو قلعتها أو قصر السلطان ،
فله كل هذه التسميات .

قال طارق فودة :

- أى سلطان ؟

هز حمود رأسه كأنه لا يصدق أن هناك من لا يعرف
اسم سلطان قلعة جبرين :
- هذا قصر الامام بلعرب بن سعيد .. وهذا أيضا
قبره ..

وحين ترجع طارق لصديقنا الارجنتينى اندرو حديث

حمود ، هز رأسه بدوره وهو يقول :

— قلعة وقصر وقبر معا ..

ثم سكت وسكتنا وحمود يحيى الحارس فيرد عليه التحية : ثم يبرز له خطابا يسمح لنا بالدخول ، ويسمح لنا أيضا بدليل يحدثنا عن هذه القلعة القصر المقبرة .. ودخلنا الى ممر صغير مسقوف ينتهي بنا الى فتحة تظهر منها باحة الحصن ، واحسنا بنعمة البناء العربي القديم ، حيث لا يوفر الظل وحسب ، وانما يتيح أيضا نوعا من الرطوبة تمس الهواء فتجعله منعشا .. وافترب منا رجل فى حرد الشبَاب ، مشوق القوام حبيب الذقن وابتسامته مليئة بالترحيب والبشاشة .. وكان فى يده خطاب حمود الرسمى ، وهو يقول :

— مرحبا بكم فى قلعة جبرين ، انا دليلكم الى القلعة واحب قبل ان نبدا جولتنا ان نتعارف ، فانا عمرو بن على بن سيف الحميمى ..

وقدم كل منا نفسه اليه فصافحنا جميعا ، وطلب منا ان نتبعه — ومن جديد وقفنا تحت الشمس الحارقة بعد ان غادرنا الممر المعتم بعض الشيء ، وأشار دليلنا بيده وهو يشير الى المدخل الاخر بعد الباحة وهو يقول :

— من هنا مدخل القلعة

ثم اشار الى يساره حيث تقف عنده مبان قديمة متداعية وقال :

— وهنا تقع اسطبلات الخيل ومخازن المونة ، ومساكن العبيد ، وثكنات الجنود ، وأجنحة الخدم . وحيث اشار تتجه عيوننا فى تطلع وفضول ، كأنما نريد بهذه النظرات ان نعود الى الزمن الذى كانت فيه هذه الساحة تموج

بالخيول والرجال ، وتعج بالحركة والنشاط ... والآن
لا شيء الا هذه الشمس الحارقة تلعح هذه البقايا
المتهدمة من المخازن والغرف التي تمتد الى يسارنا
لمسافة طويلة ..

وتبعنا دليلنا عمرو بن علي يسبقنا الى داخل القلعة ،
وقال عند الباب :

— بنيت هذه القلعة منذ حوالي ثلاثمائة وخمسين
عاما اذ بناها الامام سلطان بن سيف بن مالك العربي
المتوفى في عام الف وتسع وخمسين هجرية ، ويقال انه
بناها من غنائم غزواته في بلاد الهند ، وقد لث في
بنائها اثنتي عشرة سنة ، ثم عمرها ابنه الامام بلعرب بن
سلطان وحولها حصنا وانتقل اليها من نزوى فجعلها
مقر اقامته الدائم ..

بكنا نتحرك في ممر طويل ينتهي بباحة واسعة ،
والهواء منعش لا يعتوره أي اثر من روائح البيوت المهجورة
والقلاع القديمة . لاشك ان يد التجديد قد امتدت الى
هذه القلعة فأعادت لها رونقها وبهاءها .. بل اننا لاحظنا
وجود أثاث جديد وان كان مصنوعا بالطريقة التقليدية
القديمة ، كأن اليد التي جددت تريد أن تعيد القصر
بصورته القديمة في القرن السابع عشر الميلادي ، بأثاثه
ومفروشاتة المتوارثة القديمة .. وصعدنا سلما طويلا
وقائما بشكل حاد ، وكأننا نصعد جبلا فوق ممر ضيق
لا يتيح لمن يصعده الامان والراحة .. وامتد السطح أمامنا
لامعا تحت أشعة الشمس تحيط به هذه الفتحات الضيقة
التي لا تسمح الا بفوهات المدافع القديمة التي تحمي
الحصن من المهاجمين ، وحول بعض الفتحات كانت بعض
المدافع ترقد ساكنة صدئة والى جوارها قنابلها المعدنية

المستديرة . وعلى مدفع منها قرأت اسم سعيد بن سلطان
ابن سيف منقوشا بوضوح . وقادنا دليلنا الى فتحة بئر
عند حافة السطح ، وقال :

— هذه الفتحة تطل مباشرة على مقدمة المدخل ،
وهناك سبع فتحات عند مختلف مستويات الحصن .
تطل من خلال بئر كهذا على فتحة المدخل . وكل فتحة
تطل أيضا على سابقاتها ، ولهذا فكل من يقتحم المدخل
معرض للقتل ، وان نجا عند باب فهو لن ينجو عند
الابواب الاخرى التى تحرسها الفتحات الموجودة عند
الابواب التالية لها .

ثم عاد يقول كلماته مترجمة الى الانجليزية حتى تصل
الى رفيقنا اندرو ، بينما كان طارق فودة يتسسم فى
راحة وينظر الى فى انتصار ، فهناك من يتولى عنه
مهمة الترجمة الآن — وكان وجه اندرو يمتلىء بعلامات
الدهشة والعجب كلما مضى دليلنا فى حديثه بانجليزيته
السليمة التى تشوبها هذه اللمعة العربية المميزة .. وأشار
طارق الى فتحة فى ناحية من السطح يعلوها حاجز
خشبي وتخرقها اعمدة من حديد افقيا وقال :

— هل هذا مخزن او مخبأ .. او ماذا ؟

ضحك دليلنا وهو يقترب من الحاجز ويرفعه لتبدو
تحتة غرفة عميقة كبئر ، ملساء الجوانب كهواية وقال :

— هذا سجن من يحكم عليهم بالاعدام . يرمون هنا
بعد تعذيبهم ، ولا ينفذ فيهم حكم الاعدام حتى يعترفوا
.. ساعتها يريحهم الموت السريع من عذاباتهم البطيئة
والمخيفة فى هذا الجب ..

واقشعر بدنى ، وأنا انظر الى الفتحة الملعونة ، وعمر
ابن على يعيد الفطاء الثقيل الى مكانه فى صعوبة ، ثم

يدفع المزلاج بقوة ليصدر صوتا صديدا وهو يستقر في المكان المخصص له .. واحسست بهذا الصوت يضغط على قلبي ضغطا ، وانا اتخيل نزلاء هذا الجحر الملعون ، وهم يحسون به يفلق كل امل امامهم ، ليتركهم في معاناتهم الاليمة والاخيرة حتى ليتمنون الموت يرحم عذابهم ومعاناتهم .. وكنت اعرف الكثير عن تاريخ هذه الحقبة من وجود نزوى وقلعتها ، ولذلك لم أسأل ، ولكن طارقا سأل ، ولكن أندرو سأل ، احدهما بالعربية والاخر بالانجليزية ، وتحركت عينا عمرو بن علي بينهما في حيرة ، فقلت له :

— لا داعي لان تجيب بلغتين ، الانجليزية تكفيهما معا ..

وابتسم وقد استقرت حيرته ، ثم مضى يقول :
— لم تكن القلاع والحصون تبنى في هذه المرحلة من تاريخ عمان عينا ، فهذه مرحلة القلاقل والاطمـاع والغزوات .. كل قبيلة تريد الامامة فيها ، فكل منها تتربص بالآخرى الذوائر .. وكل اسرة من كل قبيلة كانت تريد ان تسود هي باقى اسر القبيلة ، فهي تنتهز كل فرصة لتغير ما هو قائم لصالحها ، ولتدفع برجالها الى اماكن الصدارة والرياسة ثم الامامة ان امكن .. بل ان الامام ما ان يموت او يخلع او يهرب حتى يتصارع ابناءؤه فيما بينهم حتى الاطفال منهم .. ومن وراء اصحاب الحق تتدافع امواج من المنتفعين والوصوليين والطامعين .. قالبلاد غنية وثرواتها كثيرة ، وتجاراتها رائجة ، واساطيلها تجلب الخير عبر البحار .
قال أندرو !

— تحكى كتب التاريخ ان فترة القرون الوسطى في

أوروبا كانت تعاني من نفس الاعراض ، ولهذا كثرت فيها أيضا القلاع والحصون ، وتصارع أصحاب النبل والملك ، وكثرت الفتن في القصور ، والدسائس ، والسموم والاغتيالات والمؤامرات ..
وقال طارق :

— نحن هنا فعلا نعود الى زمن مخاض البشرية وهي تستعد بكل الآلام والمحن لتلد الحضارة المعاصرة ...
قال عمرو مكملاً حديثه لنا

— الامام سلطان بن سيف الذي بنى هذه القلعة اشتهر بالفتوحات والتجازات ويقول عنه مؤلف كتاب « تاريخ أهل عمان » : « واعتمرت عمان في دولته وزهرت . واستراح الرعية في عصره وشكرت ، ورخصت الاسعار واصلحت الاسفار ، وربحت التجارة ، وسدت « أي وفقت « الاثمار » ..

قال طارق :

— مثل هذا السلطان لماذا يخشى على حياته فيبنى مثل هذه القلعة ؟
قال عمرو :

— بالعكس لم يكن الامام سلطان بن سيف يخشى على حياته من أحد فقد عرف عنه أنه لم يكن محتجباً عن الناس وكان يخرج الى الطريق بلا حراسة ويجلس مع الناس ويحدثهم ، ويسلم على الكبير والصغير والحسن والعبد .. وأحبه الناس جميعاً ، ومات ميتة طبيعية فترحم الناس عليه وعلى عهده ، ولكن بناء القلاع كان لحماية الدولة نفسها حيث هي مركز من مراكز المقاومة، وبؤرة تحرك العساكر ضد الاعداء ..

قال أندرو الذي كان يتابع حديث عمرو الذي كان يتحدث بالانجليزية :

— ولكنى أحس أن هذا المكان يحفه جو المأساة ..
ضحك عمرو وهو يقول :
— هذا صحيح تماماً ، واحساسك فى مكانه ، وقد
سمعتنه من الكثيرين من الزوار .
قلت :

— المكان دائماً يشئ بسره ، وينقل الى الناس بطريقة
خفية غير مفهومة ما يخفيه من معان وعواطف وذكريات ،
كان له لغة ما يتحدث بها ، لغة لا نعرفها ، وان كانت
تصلنا بنبض المكان وسره ..
قال عمرو :

— روح المأساة التى تعمر هذا المكان جاءت بعد موت
الإمام سلطان بن سيف ، وبدء النزاع بين أولاده على
خلافته فى الإمامة ..
قال طارق :

— قصة مكرورة ومعادة ..
قال عمرو وهو يتحرك نحو درج السطح الذى ينزل
مننا الى داخل القلعة :
— ننزل معاً لتفرج على القلعة او القصر ، وأثنساء
تجوالنا ساحكى لكم الحكاية ..
وبدأنا ننزل الى داخل القصر وراءه ، وأحب هنا أن
استعمل لفظ القصر .. فهنا حجرات واسعة رحيمة
جيدة الاضاءة والتهوية رغم سمك الجدران الصخرية ..
حجرات راحة السلطان ، وحجرات نوم النسيب ..
وصناديق ملابسهن وزينتهن .. وقاعات مخصصة لجلسات
الحكم والحل والعقد ، وأخرى لجلسات المحاكبة .
وقاعة رحبة هيئت كمسجد يتسع لعشرات المصلين ،
والمنبر فى وسطه .. وبين الطابق والطابق حجرات

صغيرة ولكنها رحيبة بها فتحات تصل الى بشر القصر
ومنها يرفع الماء الى هذه الحجرات التي جهزت كحمامات
تفى بحاجات اهل القصر وزينتهم . كل شيء ينقلنا الى
عصور كان القصر هو كل شيء فى حياة نسائه . لا تكاد
احداهن ترى العالم خارجه الا فيما ندر . وواضح ان
النساء فى هذا القصر كمن يعشن عيشة راضية ،
فالخادومات والجوازي متوفرات ، والخدم والعبيد
يحضرون من خارج القصر من هذه المساكن التى رايناها
داخل سور القصر ، ومخازن الطعام مليئة ووفرة ،
واماكن الاغتسال والزينة متوفرة ، والقصر رحب يسمح
بالزيارات والتنقل ، بل ان لهن سجننا خاصا بين
ف عند زاوية السلم العريض فى طابق حجرة ضيقة ذات
باب قصير سميك الخشب ، وعند زاوية ثانية من
السلم العريض فى طابق تال حجرة اخرى شبيهة فى
ضيقها وبابها ، واحدة مخصصة لسجن النساء ، والثانية
مخصصة لسجن الرجال . . وواضح ان هذه السجون
تخصص للمحبوسين فى جرائم عادية ، اما الجرائم التى
تنتهى عقوبتها بالاعدام فقد راينا سجنها المخيف فى
اعلى المكان . .

وبينما كنا نتجول ونرى ونتأمل كان عمرو بن على بن
سيف الحميرى يتحدث ويحكى ، وقال :
- لقد حول بلعرب بن سلطان الامام الذى نصب بعد
ابيه الامام سلطان بن سيف هذا القصر الى حصن منيع ،
وانتقل فاقام فيه هو وزوجاته وحاشيته وحرسه ،
اذ وقعت بينه وبين اخيه سيف بن سلطان فتن متعددة
راح ضحيتها عدد كبير من اهل عمان ، اذ اصابت
اموالهم وتجاراتهم بالضرر والتلف . كما تعرض العلماء

والفقهاء والمشايخ وأصحاب الرأي وأهل الورع لعقوبات كثيرة . فقد خرج سيف على أخيه وانحاز له المسلمون واتهموا بلعرب بأنه انحاز الى آراء السفهاء ، وقبل اقوال من لا رأى لهم - ودارت المعارك بين الاخوين ، وخرج بلعرب من نزوى الى الشمال وعاد مرتدا اليها فمنعه أهلها من دخولها فتراجع الى هذا الحصن وانزوى فيه . واكن اخاه سيف حاصر الحصن ، وظل يضرب الحصن محارلا دخوله ، وأهل الحصن يدافعون عنه في بسالة واستماتة ، وقد حوى سيف كل الملك ، ولم يعد بلعرب الا هذا المكان ، ولم يعد له من نفوذ الا داخل هذه الجدران ، ومات بلعرب في الحصار .. وأصبحت هذه القلعة مدفنه ، فكانه لم يملك في حياته وموته الا

هى ..

قال طارق :

- مات هنا ودفن هنا ..

أشار عمرو بن عبد الله الى سلم يقودنا الى مائحت مستوى الارض من القلعة ، وقال :

- اتبعونى نزود قبره

وقال طارق :

- ونقرأ الفاتحة على روحه .. فقد استضافنا هنا

قبر بنا التاريخ الى دنيا من الاحداث والمعارك . قلت مستعيدا مآثراته عن هذه الفترة .

- يذكر المؤرخ الكبير حميد بن رزيق أن هذه هى الفترة التى انعمشت فيها عمان وازدهرت فى ظل المعارك الدائمة ضد البرتغاليين من ناحية ، وضد الفرس من ناحية أخرى ... وخاضت عمان معاركها الباسلة ضد أعداء الخارج - ضد قلاقل الداخل معا .. ويذكر المسعودى أن ربانة

السفن العمانية كانوا يرتادون بحار الصين والهند...
والسند وأفريقية الشرقية واليمن والبحر الأحمر
والحبشة كما كانوا يقطعون أطول الطرق البحرية
التجارية في فترة القرون الوسطى .. ويقول أنهم
الذين ألفوا القصص والحكايات التي انحدرت منها
قصص السندباد ..

قاطعنى طارق قائلا :

— مغامرات وحروب ودسائس ومعارك ، وتناحر ..
ولابد من حكايات الحب والعواطف ، هذه الدنيا تستهوى
قلب الكاتب ، كما تستهوى أصحاب الفن الشعبي
أيضا ..

قلت وحديثنا بالانجليزية حتى يتمكن أندرو من
متابعتنا :

— ما حكاة لنا الصديق عمرو هنا حقائق تاريخية صلبة
أى أنها أحداث وقعت وأرخت ، ودونت كجزء من
تاريخ هذه الأرض ، ولا دخل للفن أو الخيال فيها ...
صحيح أنها تصلح مادة لأعمال فنية عديدة ، وخاصة تلك
التي تقترب من التراجيديات الضخمة كالمرح مثلا ،
الا أن هذا لم يحدث حتى الآن .
قال أندرو :

— انها ثروة مخبوءة تنتظر من يمد يده ليفتشف منها ،
أنا أحس فى هذا المكان بأصداء الحياة التي ملأته ،
السلطة والقوة والمال والنفوذ والسعادة والحب ، ثم
الأس والمرارة والهزيمة والحزن .. كأنما بنى هذا
المكان ليكون مخزنا لكل مافى الإنسان من نوازع وعواطف
واحزان ...
قلت :

— عجيب أمر مانسميه بصنع الاقدار ، يذكر المؤرخون أن بلعرب الذي تنزل الى قبره الان كان كريما حوادا الى أن وقعت الفتن التي حصرته داخل هذا القصر او القلعة او المقبرة حتى مات .. من يدري ماذا كان سستطيع أن يحقق لعمان لو استمر له الامر ، وقد ترك له أبوه دولة مزدهرة وشعبا متحدا قويا ، لا احد يعرف الآن الاجابة على هذا السؤال .. ولكن الغريب أن اخاه سيف دخل تاريخ عمان ، بل والتاريخ العربي كله من أوسع الابواب . فقد استطاع سيف أن يوحد عمان كلها تحت لوائه ، كما استطاع أن يحقق السلام والعدالة في ربوعها — واستطاع أيضا أن ينتزع من البرتغاليين بعض ما اغتصبوه من أفريقيا فخلص منهم ثغور ممباسا والجزيرة الخضراء وزنجبار وبتة وكلوة — وكون أسطولاً قويا مزودا بأقوى المدافع في عصره يفرض سيطرته على البحار حوله حتى ليقول المؤرخون أن نفوذ عمان في الخليج قد غدا نفوذاً غير منازع . ويقول المؤرخ الانجليزى هاملتون « ان العمانيين قسد فرضوا بهذا الاسطول هيبتهم على الساحل كله الى البحر الأحمر » ..

قال طارق في دهشة :

— كائننى أسمع أصوات المدافع ، وصرخات المقاتلين ، والمج لعان الأسلحة واندفاع المقاتلين فوق الاشرعة يتقاتلون على حواف السفن الصاخبة بالقتال .
وقال أندرو :

— انها لوحة منقولة عن روايات القراصنة في جزر الهند القريبة ..
ضحكت وأنا أقول :

لقد وجدت الاحداث الرومانسية هناك من يكتب عنها ، وجدت الروائيين الذين انتزعوها من صميم التاريخ ليعطوها عطر الفن ونبض الحياة الدائمة .. كلماتهم أعادت الحياة الى هذا الوجود المتشابك الملتحم الثرى بالعطاء الانساني ، والطموح الانساني ، والبطولة الانسانية ، وان استطعنا ان نقول بوحشية الانسان الطامع الجشع .. ونحن هنا في ساحل الخليج وفي جزر الهند الشرقية عشنا منذ زمن يسبق هذا الزمن بكثير كل احلام المرحلة الرومانسية التي عاشتها الانسانية - عشنا الاحلام الكبيرة في اكتشاف ثروات العالم ، والتعرف على مانجهل من ارض ، والاخذ بيد الشعوب التي تخلفت في مضمار التقدم فدخلنا بالاسلام الجزر النائية وأعماق الغابات والصحراوات - واقمنا القيم ، وحاولنا قدر الامكان تحقيق المعرفة والعدالة والحرية ، واستنطقنا الطبيعة أسرارها المخبوءة - وهنا في عمان حفرت الافلاج وزرعت الارض واستجلبت لها النباتات من كل انحاء العالم . وشقت الطرق وعبرت وصولا الى الشمال والشرق والغرب ، واكتشفت وسائل الملاحة البحرية ، ووصلت سفن عمان كل العالم المعروف بعضه ببعض في مقامرات جريئة عبر البحار قهرت المجهول واتاحت حق التواصل الانساني والحياة المتعاونة المشتركة .. ومع كل هذا لم تتقدم كلمات الابداع الفني لتسجيل هذا كله ، بل تقدم الرجال وتراجعت الكلمات ، وغامر الرجال ولم تغامر الكلمات الا في العطاء الشعبي المرفوض من اصحاب السلطة والحل والعقد والقسوة والتأثير ..

قال اندرو :

— لقد وجد الوجود الحضارى لانسان الغرب على
الكلمات — لقد تقدم الكتاب والمبدعون والكنانون فصاغوا
صراع انسان الغرب كلمات بقيت وخلدت ، وتحولت الى
عطاء لاصحاب الفرشاه والازميل ، ثم لاصحاب الكاميرا
والميكرفون ، ومع كل هؤلاء لاصحاب النغم والموسيقى ..
لولا هذه الكلمات ما استمرت مسيرة حضارة الغرب فيما
اعتقد ..

كان على وجهه سؤال حائر ، وكان السؤال فى عيون
الآخرين أيضا ، وجعلت أتأمل كلامه ، وأدور به فى وجدانى
وعقلى ، وأعرضه على كل ماعرفت ودرست من مقولات
وعطاءات ، ووجدت نفسى آخر الامر اقول فى صوت
هامس ، كأنما أخشى أن يسمعه احد غيرى :

— لقد قهرنا الكلمات فى شرقنا العربى فقهرنا
استمرارنا الحضارى .. هذا هو الامر بكل وضوح وجللاء
وبعد كل عناء السنين فى البحث عن السبب فى تخلفنا
وتقدم الغرب .

قال طارق فودة ، وكلماته تخرج متأنية مفكرة :
— لقد كنا اول الحضارات التى صنعها الانسان بيده
وفكره ، وكنا اول المكتشفين للمعادن واستخراجها
وصناعتها واول من قهر المسافات .. ثم كنا مهبط
الديانات السماوية — ثم توقف كل شىء فجأة حين تصور
حكامنا أنهم اوصياء على الانسان فى بلادهم . فلا فكر
الا لهم ، ولا رأى الا لهم .. للناس التجارة والزراعة ،
ولهم الفكر والامر .
اكملت قائلا :

— وحين هزم الحكام هزم معهم كل شىء ، وعاد حكام
جدد يبدعون من جديد ليهزموا من جديد ، والتواصل

الفكرى قد انقطع حين حرم على الناس تحت كل
الشعارات أن يستمر تواصلهم الفكرى وبنسأهم
الحضارى .

قال اندرو متسائلا فى دهشة ؟

- ولكن كيف حدث هذا ؟ ومتى ؟ ولم ؟

عدت أغوص فى أعماقنى من جديد وأنا أحاول أن بحث
عن اجابة ، وقلت محاولا التفكير بصوت عال :

- حدث هذا عندما هزمنا عسكريا ، ثم سارع أبناء

الغرب الى ارسالنا الى عصور الجهل والانحطاط الثقافى

والفكرى . ثم سارعوا أيضا الى وضع الحكام الذين

يرضون هم عنهم فى مقاعد القيادة لاجزاء امتنا التى

فرقوها ومزقوها .. وشغلوا هؤلاء الحكام بأحداث

يومهم ، وبالصراع من أجل البقاء فى السلطة ، والبقاء

لهم ومن يلتفون حولهم فى العز والجاه والمال والسلطان .

ولكى يبقى هؤلاء كان لابد من قهر الشعوب ، والشعوب

تقهر حين تتحول الى مجرد أدوات بقاء ، تقهر حين

تسلب القدرة على التعبير ، وحين تسرق منها الكلمات .

وجاء ملك وسلطان وذهب ملك وسلطان ، والشعب

يغوص فى أعماق الجهالة رويدا رويدا ، وكل جيل يحاول

أن يبدأ من جديد لا يجد أمامه إلا التكرار والحشو

والشروح والتعليقات والتعقيبات والمزيد من العودة الى

ماض موهوم .. فمضى وانتهى ، وأعداؤه ينطلقون بما

سجلوا من صروح الكلمات ، تنقل احساسهم الحضارى

من جيل الى جيل وتنمية وتزكية .

قال طارق :

من صمتنا فقد وصلنا ، وهنا جرم لا كلام فيه ، فقد

حل فيه السكون والصمت ..

كنا بالفعل قد وصلنا الى الحجرة السفلى المعتمة ،
فى قاع الحجرة قبر فوقه شاهد عريض ، وكأنما دلى
الجسد الى هذا القاع فى عمق اعماق القلعة التى حرس
حياة صاحبه ثم ضمت رفاته آخر الامر - وعند كل جانب
كان يقف رجل ملتج فى يده بندقية ، وقال واحد منهما
حين حل بنا الصمت ونحن نقرأ الفاتحة وكفوفنا مفتوحة
أمام وجوهنا :

- هنا يرقد الامام بلعرب ، عاش طيبا وكريما ،
وحين يش من عدل الناس طلب الموت ، وجاء بنفسه
الى هذا المكان حيث حفر قبره ، وورقده فيه ، ثم ودع
أهله ، وطلب الموت واستجيب طلبه ومات .. وجسده
يرقد هنا فى سلام ..

تبادلنا النظرات فى صمت ، وكل منا ينهى قراءة
الفاتحة ويدورا بكفيه الممدودتين ليمسح وجهه .. وأنذرو
ينظر الينا فى صمت واحترام .. وقال عمرو بن هلى :
- هنا تنتهى زيارتكم لقلعة جبرين .. ومن هنا نتوجه
الى خارج القلعة ..

وفادرتنا المكان المعتم ، وما يحمل من معان وأحداث ..
وعندما عادت الشمس الحارقة تلمح وجوهنا من جديد
عند باب القلعة ، قال أنذرو :

- كنت تريد أن تقول شيئا هناك ، وأسكتك
منظر المقبرة وحديثها المرير ..
قلت :

- لست أدري أيهما الفائز ؟ هذا الذى خسر المعركة
واستقر هنا فى جبرين فى حجرة ضياع الملك ، أم ذاك
الذى دفن فى الرستاق بعد أن ازدهى على الدنيا بنصره
على أخيه ، ثم بمعاركه العنيفة مع أعدائه فى الداخل

والخارج ، وثرواته ألجمة التي جمعها عبر الفزوات
والفتوحات والانتصارات ..

وسكت لحظات ، فقاطعتني صوت حمود الذي لم
يتكلم أبدا طوال الجولة ، كان يقول :
- الموت حق ، والمبنى بقى وصاحبه راح ، والعبرة
لمن اعتبر ..

بالقطع لم يكن يجيب على سؤالي فقد كان حديثي
بالانجليزية ، ولكنه كان يجيب على سؤال في أعماقه
هو أثرته هذه الجولة في ربوع التاريخ والحياة والموت
.. وقال طارق :

- صدقت يا حمود ، أكثر مما تظن ..
وسأل أندرو وقد أحس من لهجتنا أن مقاله حمود
قد هزنا ، فترجم له طارق ، وأطرق أندرو وهو
يهمس :

- هذا فضل بقاء شواهد الحياة والعظمة ، عرفناها
نحن في كلمات الفنانين ، وعرفتموها أنتم في التأمل
في الصخر الباقي الأصم ..
قلت :

- وبقينا نحن في سكون هذه القلاع الحصون القصور
المقابر .. أما أنتم فقد عاش الإنسان فيكم بكل مغامراته
وتجاربه ، آلامه وأحزانه .. دون ممنوع ودون خوف ،
ودون توقف .

جَنِّ سُلَيْمَانَ

كان الصمت يلفنا ونحن نتحرك بالسيارة التي أبطأت من سيرها كثيرا من شارع ضيق الى شارع ضيق . وعلى الجانبين حواجز من ابنية طينية تطل من ورائها الاشجار سامقة متعالية ، وقطعت الصمت السائد داخل السيارة وانا اتنهد كأنما انزع نفسي من مكان بعيد غاصت فيه ، وقلت :

— في يوم حار قانظ كهذا ، جال السندباد البري ببغداد وقد أمضه حمله واتعبه ، وسال عرقه واشتد عناؤه وجف ريقه ، حتى وصل الى حائط كهذا بعده بستان تطل اشجاره مثل اعالي هذه الاشجار — وعند الباب هبت عليه نفحات من نسيم معطر بما في البستان من زهور وثمار ، مرطب بما في البستان من عيسون ومياه جارية ، فانزل حمله وأراح ظهره الى جوار الباب — وجاءته أصوات غناء وموسيقى عذبة فدخل الى البستان يدفعه الفضول ، وشوق الى ماحرمة من متع الحياة .. ويراها سسندباد البحري فيدعوه الى مجلسه الزاخر بالحياة ، رفاق وخلان وجوار وعبيد ، وموائد محملة بالطعام الفاخر والشراب الصافي والفاكهة والبقول .. ومن ساعتها وسندباد الحمال يجلس الى مائدة السندباد البحري يسمع منه حكايات سفراته ومغامراته ، ويخرج من عنده محملا بالعطايا ليعود اليه مع المساء الجديد ..

ضحك صديقنا الارجنتيني اندرو وقال :
- نحن في حركة دائمة عبر الزمان كأننا نركب آلة
الزمان تعود بنا مرة الى العصور الوسطى ودنيا القلاع
والحصون وحروب البحار وعوالم القراصنة ، وتعود بنا
مرة أخرى الى دنيا سندباد ومغامراته ، وجو الليالي
الساحر وحكايات بغداد المليئة بالاسرار والغموض .

قال صديقنا الصحفي طارق فودة :
- بل نحن في دنيا من الصور المتحركة ، يجب أن تدب
الحياة هنا بكل عطرها القديم ، وتتحرك آلات التصوير
السينمائي لتصور الدرامات والتراجيديات وقصص
المغامرات والحب ، ودنيا البغض الذي عاش هنا زما
وولي ..

قلت والسيارة تقترب بنا من مبنى ضخيم يزداد
ضخامة كلما اقتربنا منه :

- تقصد أن نعيد التواصل الحضاري عن طريق الفن
الحى المستمر والمتلاحم ..

قبل أن يجيبني أحدهما قال سائقنا ودليلنا حمود :
- ها قد وصلنا .

ونزلنا من السيارة ، ليحتويننا صمت فرضه المبنى
الهائل المهجور الذى يواجهنا ، وقال دليلنا وهو يفتح باب
السيارة ليقف معنا :

- هذه قلعة بركة الموز ..

ثم صمت .. كان كل شيء أمامنا وحولنا يدعو الى
الصمت .. الصحراء تحيط بنا وفراغ هائل حولنا ،
وأمامنا سور ضخم يحيط بمساحة هائلة ، وفى النهاية
هناك عند الناحية الأخرى من حيث تقف مجموعة من
المباني العالية المليئة بالابرار وفتحات المدافع ، ودرجات

من المصاطب يتحرك فوقها الجند .. ودخلنا قلعة
بركة الموز .. القلعة المهجورة المتروكة لفعل الزمن والرياح
وغيبث العابرين ، وخيال الشعراء ، وأقلام الدارسين ،
ورؤى الفنانين الذين يتخيلون في كل بقايا انسانية نبض
حياة لا تموت ¹⁸²⁰

قطع صديقنا أندرو جبل الصمت قائلا ، وفي صوته
رهبة وتردد :

— لسنا هنا أمام القصر القلعة ، وإنما نحن أمام
المعسكر القلعة ..

وقد صدق أندرو في ملاحظته — فرق ضخم بين
حصص جبرين وبين هذه القلعة ، فهناك قصر بني كحصن
منيع ، أما هنا فهذه قلعة هيثت لحركة الجنود ، لكي
ترسل سرايا الغازية ، وتسيطر على كل المنطقة التي
تحيط بها ، وترد كل هجمة مضادة تستهدف الجنود
والسلاح .. حكاية تمرکز عسكري ، ربما كان برتغاليا
ثناء الهجمات البرتغالية البربرية على المنطقة .. وربما
كان عمانيا أيام الزهو العسكري العماني يرد القوس من
ناحية ، والبرتغاليين من ناحية ، والبدو الطامعين من
ناحية ثالثة .. كم من جنود تحركوا بخيولهم هنا
يهزون البارق ، وتلمع رماحهم في أشعة الشمس
اللافحة ، وتهتز خيولهم وتهز الأرض بسنابكها ، ثم
يدوى الأمر فيتحرك الجمع في نظام إلى خارج القلعة
لغزو جديد ، أو لرد غزو وشيك .. وكل القلوب
تتعلق بالجند الراحلين تتوقع نصرهم ، وتتوقع عودتهم
في قلق وتضرع وأمل في أن يعود الراحلون .. لعلها
كانت قلعة للرجال من أجل عمان ، ولعلها أيضا كانت
قلعة للغزاة من البرتغاليين الذين أقاموا قلاعهم بعد

الفزو على الثغور وفي الاعماق .. وسألت حميد عن هذا الامر ولم يكن يعرف اجابه ، وقال طارق فوده وهو يتأمل القلعة ويجول ببصره في اسكانها الخاوية :
- الاقرب ان تكون هذه القلعة من بناء الاوروبيين فأوروبا مليئة بأمثالها .
قلت :
- ليس هناك احتمال مستبعد طالما نحن لا نعترف

الحقيقة عن يقين ..
وترجمنا لاندرج حديثنا فقال :
- وما الذي جاء بأوروبا وقلعها القديمة هنا ...
هذه القلاع كانت تملأ أوروبا في العصور الوسطى .
قلت له وأنا اقلب البصر في المساحة الواسعة التي تشكل ساحة القلعة المعسكر .

- انها القصة القديمة المعادة والمكررة ، قصة الاطماع التي لا تقف عند حد ، والتي يتوارثها الابناء عن الاءاء ، وينفذ كل جيل جزءا من التحرك الاستعماري ، فاذا بالحلقات تتابع واذا بالفخ يفتح واذا بالحصار يحكم ، واذا بأوروبا هنا بالسلاح والدماء والقلاع أيضا . تنهب الثروات وتهزم الرجال وتحطم كل المعاني في الخسق والعدالة أو في الحب والحرية ..
قال أندو :

- الست تتحامل قليلا أو كثيرا ؟
قلت له :

- انها الاطماع يا صديقي ، انه عالم جديد فقير ينظر الى ثروات العالم القديم الغني بكل التطلع الشره والرغبة العارمة في أن يملك ويدمر ، ويحل هو محل اصحاب الثروة والمكانة .. والخداع والرشوة والخيانة أسلحة

تستغل في يسر وسهولة ، وكذلك التعذيب والارهاب
والقسوة اسلحة لا يجد احد غبارا في استخدامها .

قال أندرو :

- لعلك تتكلم بمرارة عن مرحلة المارك الصليبية ،
هذه يا صديقي كانت مراحل رومانسية في تاريخ العالم
القديم ، وكان السلاح يرفع باسم الدين ، وكان الغرض
هو وقف زحف المد الاسلامي على أوروبا المسيحية ..

قلت في مرارة :

- لقد قلتها أنت ، كان السلاح يرفع باسم الدين
هذا صحيح ، ولكن الهدف لم يكن الدين في شيء ،
وانما الهدف كان المال ومصادر الثروات ومفاتيح كنوز
العالم القديم . ولعل حدثا لا يكشف عن هذا كله قدر
الاحداث التي تعرضت لها هذه المنطقة بالفزو البربري
البرتغالي يقوده المتعصبون البرتغاليون الذين ما أن
توصلوا الى اكتشاف رأس الرجاء الصالح حتى بدأت
اسوأ فصول الاستعمار وأكثرها دموية . وإذا كان هنري
الملاح ملك البرتغال يعتبر عبقريا شجاعا في أوروبا ، فهو
هنا يعتبر سفاحا غليظ القلب ومعدوم الضمير ، فوراء
أوامره تكمن عمليات سفك الدماء والتعذيب والسلب
والنهب . ونفس الاكاذيب حول فاسكودي جاما الذي
يعتبر في أوروبا احد المستكشفين العظام . وينقل لنا
وندل فيليبس صاحب كتاب « تاريخ عمان » عن مؤلف
مجهول لكتاب « الرحلة الاولى لفاسكو دي جاما » قوله:
« استجوب الكاتبين ميجور « دي جاما » اثنين من البربر
من أهالي « موزمبيق » أحضرهما الى سطح السفينة ،
وذلك بالقاء زيت يغلى على جلدهما لكي يعترفا بأي خيانة

موجهة ضدنا » .. ويؤكد أحمد بن ماجد أن البرتغاليين حصلوا على خدماته ومعلوماته عن الملاحة في المنطقة بطريق « الفش الدنيء والخداع » وقد نص على هذا في كتابه « البرق اليمنى » . ويقول ويندل فيليبس « أن روايات المعاصرين وشهود العيان عن معاملة البرتغاليين للعرب والوطنيين الآخرين سواء في شرق إفريقيا أو الهند أو عمان ذاتها هي سجل طويل يشير التقزز لجرائم وحشية ارتكبت دون مبرر » ومن هذه الجرائم حرق الناس وهم أحياء ، ويورد ويندل فيليبس حكاية السفينة « فريوم » التي أسرها المكتشف الأوروبى « الشريف » وكانت تحمل حجاجا الى مكة ، إذ سجن هؤلاء الحجاج في عنبر السفينة ، ثم أشعل فيها النار » وأغرقت بما تحمل من بشر لا حول لهم ولا قوة ، وهم يصرخون وينوحون طلبا للرحمة ، بينما كان دى جاما يتمتع نفسه بهذا المشهد الذى أبصره من خلال كسوة السفينة دون أن يبدو عليه أى تأثر .. » وفى حكاية أخرى يستولى دى جاما على عدة سفن عربية ، ثم يأمر بقطع أيدي وأنوف كل البحارة . ووضعهم فى سفينة صغيرة ، ووضع أحد البراهمة الذى كان رسولا اليه من ملك هندى يصحب هذه السفن - بلا أذنين وأنف ريدين ، وأمر بوضعها على هيئة سلسلة حول عنقه وذلك بعد أن منح الأمان لهذا الرجل ، ويستمر صاحب الكتاب قائلا : « وكتب « دى جاما » رسالة على ورق نخيل للملك يطلب منه أن يعد طبقا من الكارى بما أحضره الراهب لكى يأكله . وبعد أن « عامل » كل الهنود الحجاج بهذه الطريقة ، أمر بتقييد أقدامهم معا ، إذ لم يعد لهم أيدى يفكونها بها .. وحتى لا يستخدمون أسننانهم

لفك قيودهم أمر بتحطيم أسنانهم ضربا بالهراوات ،
وأسقطوا الأسنان في حلوقهم ، ثم وضعوهم بهذه
الصورة على ظهر السفينة وقد تكلس بعضهم فسوق
بعض واختلطت دماؤهم المتدفقة بغزارة ، ثم أمر دى
جاما بعد حصائر وأوراق شجر جافة فوقهم ، وأن تفرد
القلوع كي تحملهم السفينة الى الشاطئ .. وأشعلت
النيران فيها بعد ذلك ، وكان في السفينة مالا يقل عن
٨٠٠ مسلم ، وكذلك أرسلوا السفينة الصغيرة نحو
الشاطئ بدون حرق وهي تحمل البرهمن ومعه كل
الأذان والإيادي المقطوعة . ويذكر ويندل فيليبس
حال سفينة أخرى وقعت في الأسر وقد استسلم كل
من فيها ، وأعلنوا خوفا من التعذيب أنهم سيعتقون
المسيحية .. ويقول ويندل فيليبس : « وعندئذ أمر دى
جاما بأن يقوم قسيس بتعميدهم بالماء المقدس ، وراح
القسيس يرتل مراسم الصلاة الربانية وهم يرددون وراءه
وبعد أن تم ذلك ، علقوهم بعد خنقهم حتى لا يشعروا
بضرب السهام .. »

قال أندرو ، وهو يسرح ببصره في الساحة الواسعة
وكانما يسمع في فراغها أصوات عذابات قديمة ،
وصيحات توسل ، وضراعات تطلب الرحمة دون
جدوى :

— هذه صورة مخيفة ، ألا تعتقد أن الخيال قد لعب

دورا فيها ؟

قلت له :

— لقد حرص المؤرخون الأوروبيون أنفسهم على ذكر

قسوة « دى جاما » حتى ليقول ويندل فيليبس معقبا
على الحادثة التي رويتها لكم « لم تكن تلك مجرد حالة

واحدة غير عادية ، بل تمثل سياسة برمتها .. وتظهر طبيعة الملاح والغازي « الكبير » في ذلك الخيالي في قسوته ، حيث أمر ذات مرة بقطع شفتي شخص من السراهمة ، وهو مبعوث من الساموريين في كلكتا ، حتي تبدو أسنانه ، ثم أمر بقطع أذني كلب كان في السفينة ، وربطهما وخاطهما بغرز عديدة في وجه البرهمي بدلا من أذنيه ..

قال طارق فودة :

— اذا كان هذا هو موقف المؤرخين الاوروبيين فلماذا سكت المؤرخون العرب ، ان شيئا من كل هذا لم يعرض في كتب التاريخ عندنا ؟ لا الكتب المدرسية التي كانت تقدم لنا فاسكو دي جاما كبطل تاريخي عظيم ولا غيرها من كتابات المؤرخين المطروحة للتداول العام . قلت :

— لم يسكت المؤرخون القدماء ، وفي القرن السادس عشر كتب الشيخ زين الدين في كتابه « تحفة المجاهدين » يعلق على سلوك البرتغاليين قائلا : « كم من النساء الشريفات ممن وقعن في الاسر بهذه الطريقة ، احتجزن وانتهكت اشخاصهن لانجاب اطفال مسيحيين ، ربوا على معاداة دين الله ، وتعلموا اضطهاد المسلمين » ولكني اظن ان سيطرة الاوروبيين بعد احتلالهم لبلادنا على مقدراتنا العلمية والثقافية جعلتهم يتجاهلون في كل ما كتبوه لنا ، هذه الصفحات السوداء من تاريخ استعمارهم المقيت لبلادنا .

قال اندرو وهو يشير لنا لتبعه في تفقد بقايا القلعة المهدمة :

— ربما كان هذا القائد متوحشا او مريضا ولكن

« هذا لا يعنى ان نتهم الجميع ، ولا تنسوا ان المسألة
مسألة حرب ، ومنهزم ومنصير ..
قلت :

- تاريخ هذه الحقبة يحفل بمجموعة من القواد
المتوحشين والمرضى كما تصسفهم ، فمنهم المدوم
فرانسييسكو دالميدا الذى يصف ملك ميباسا المهزوم
انتصاره الفاجر ويقول : « قد جاء هذه البلدة بقوة
وحشية بالغة حتى انه لم يترك رجلا او امرأة ، كهلا
او شابا .. بل واصغر طفل .. حتى اولئك الذين
فروا من ضراوته .. وهو لم يكتف بقتل الرجال وحرقتهم
بل واسقط حتى الطيور فى السماء . وأن رائحة الجثث
فى البلدة بلغت حدا شنيعا حتى اننى لا اجسرؤ على
الذهاب الى هناك ، كما لم استطع التأكد او تقدير مدى
مآتهبوه من ثروات فى البلدة » .. ويقول ويتدل فيليبس
« وبعد عامين ، قام هذا الرجل دالميدا ، الذى أصبح
نائباً للملك « البرتغالى » فى الهند ، باطلاق أسراه من
فوهات المدافع أمام « كانا فور » محييا البلدة بشظاياهم »
ويقول فى موضوع آخر « كانت مجرد لمسة البرتغاليين
تعنى الموت » وكتب مؤرخ من « كلوا » يقول : « ان
الذين يعرفون الحقيقة يؤكدون ان البرتغاليين كانوا رجالا
فاسدين غير شرفاء ، جاءوا للتجسس على البلاد لكى
يستولوا عليها » ..

ضحك اندرو ضحكة قصيرة حزينة ، وهو يهز رأسه
ويقول :

- نحن فى الارجنتين نعتبر انفسنا من نسل نبلاء
الفرسان الاسبان والبرتغاليين بالطبع ، ولكن ..
قاطعته بسرعة قائلا :

— حديثى لا يتهم شعبا يا أندرو انما هو يوجه أصابع الاتهام لفعل تم فى مرحلة . وقام به مجموعة من الرجال لهم مفاهيمهم الخاصة ، لست أعتقد أن المسيحية كانت أحد مصادرها ، فليس فى المسيحية ما يزعم أن المسيحيين هم شعب الله المختار ، وغيرهم من الشعوب تعامل معاملة الحيوانات والوحوش ، فلا الاسبان ولا البرتغاليون مسئولون عن هذه الجرائم كجنس ، ولا المسيحية مسئولة عن هذه الجرائم كدين . . .
قال الصديق طارق فودة :

— واضح أن هؤلاء الفزاة كانوا يتخذون الدين مجرد ستار . . .
قلت :

— بدأ الامر بالمراكز العمانية فى افريقيا وفى عام ١٥٠٧ ميلادية قام الفونسو البوكيرك أسوأ رجال البحر البرتغاليين ، بقصف ونهب وتدمير مسقط كلية تقريبا . وسمى هذا القرصان باسم « الفونسو البوكيرك العظيم » فى كتاب ألفه ابن غير شرعى لى . وهو فى هذا الكتاب يصف المعركة غير المتكافئة التى خاضتها حامية المدينة ببسالة ضد السفن المجهزة بالمدافع الثقيلة ، ويقول فى نهاية وصفه للمعركة اليائسة « بعد أن أمر الجنرال المنتصر بإشعال النار فى المدينة . . » أمر ثلاثة من رجال المدفعية بهدم دعائم المسجد بالبلط ، وكان مبنى كبيرا جميلا ، وقد أقيم الجزء الأكبر منه بالأخشاب المنقوشة ببراعة ، والجزء الأعلى من الجص المنقوش . . وأصبح لدى رجالنا كثيرون من المسلمين « العمانيين » رجالا ونساء ، أسرى لا يريدون منهم شيئا ، ولا يستطيعون حملهم معهم ، ولهذا أصدر الفونسو البوكيرك أوامره

تقطع آذانهم وجذع أنوفهم ، وإطلاق سراحهم بعد ذلك .. » ..

قال أندرو وعلامات الاشتمزاز واضحة على وجهه :
- لا احترام لشيء اذن لا للانسان ولا للفن ولا لشيء ..
كيف مر كل هذا دون عقاب .
قلت :

- لا نستطيع ان نقول ان هذا كله مر دون عقاب ،
لقد حارب العمانيون ببسالة وثاروا اكثر من مرة ، وخلال
ربع قرن كامل ظلت المناوشات قائمة .. كما ان مصر ظلت
تشن باساطيلها البحرية هجمات منتظمة ضد البرتغاليين
ايام قنصوه الفوري آخر السلاطين الماليك الذي فقد
اسطوله في هذه المعارك الدائمة . ولكن مصر عادت في
سنة ١٥٥٠ ترسل اسطولها البحري من السويس الى
مسقط . اثناء حكم العثمانيين ، واستطاع قائد هذا الاسطول
« بيري ريس باشا » تحرير مسقط . ومع هذا عباد
البرتغاليون الى عمان مرة اخرى واستمرت المعارك بين
الاهالي والاساطيل الاسلامية من ناحية وبين الغزاه من
ناحية اخرى ربع قرن آخر . الى ان يقوم الامام ناصر
ابن مرشد في عام ١٦٢٠ بطردهم من كل أنحاء عمان
ماعدا معاقلهم وابراجهم في مسقط ومطرح وصحار .
وبعد هذا استولى سعيد بن خليفة على قلعة الميراني ،
وسقطت مسقط في ايدى الامام سلطان بن سيف الاول .
قال طارق فودة وهو يتنهد في راحة :
- دارت الدائرة اذن ، وغدا الغازي مغزوا .

قلت :

- نعم لقد بدأ الاسطول العماني في عهد اولاد
سلطان بن سيف الاول في غزو مستعمرات البرتغاليين

فى شرق افريقيا وفى اجلائهم عنها .
قال أندرو :

— أليس هو بانى قلعة جبرين التى كنا نزورها منذ
قليل ؟

ضحكت وأنا اقول :

— ان هذه القلعة القصر هى التى فجرت كل هذا
الحديث ، لا هذه القلعة المعسكر التى تقف فيها الآن ..
لقد اختلف الاخوان بلعرب وسيف بن سلطان على الملك ،
وانتهت القصة كما سمعنا من حارس القبر بابتهاال
بلعرب الى الله ان يموت فمات وترك الامر لآخيه سيف
الذى اصبح اعظمك حكام اسرة اليعاربة على الاطلاق ،
والذى حرر كل عمان ، ثم حرر أيضا المستوطنات
العمانية فى افريقيا ..

ضحك أندرو وهو يقول فى صوت ساخر :

— وهل مرت حروبه دون أهوال ومظالم !

صمت لحظة قبل أن أجيبه :

— لا حرب بلا أهوال وكوارث ، ولكن فرق أن تحارب

لتتحرر ، وبين أن تحارب لتنهب وتسلب — وعلى كل حال

فان سلوك العمانيين فى حربهم فاز بالكثير من الثناء فبينما

يقول هاملتون فيما ينقل عنه ويندل فيليبس « ان

العمانيين لم يقتلوا أى رجل عمدا .. وكانوا يستخدمون

الاسرى بأدب » يؤكد ويندل نفسه أن العرب كانوا

يدمرون الحصون ولكنهم كانوا يتركون الكنائس .

تدخل حمود لأول مرة فى حديثنا الذى كان يتابعه

فى اهتمام وان لم يكن يصله منه شيء لانه كان يدور كله

بالانجليزية وقال :

— طال وقوفنا هنا وامامنا زيارة أخرى قبل العودة ..

ودعنا الساحة الواسعة بكل الذكريات التي أثارتهما
وركبنا السيارة وراء سائقها ، ودارت بنا السيارة لتعود
الى الطريق الرئيسى وتندفع الى الامام .

سأل طارق حمود :

— نحن نعود ؟

قال حمود :

— نعم نحن فى طريق العودة وسنمر على فلج دارس
لتشاهدوه ، ثم نعود الى مسقط .

قال أندرو :

— من يصدق أن هذه الارض الساكنة الهادئة شهدت
احداثا صاخبة مثيرة كالتى حكيت عنها .
ثم ضحك وعاد يقول :

— من يدري ربما كان أحد جدودى ضمن هؤلاء
البرتغاليين الذين زاروا هذه الارض وتركوا وراءهم كل
هذا الصخب الذى بقى عبر التاريخ .
قلت له :

— لقد حاول المؤرخون طمس هذا الذى تسميه صخبنا
لننساه نحن على الاقل ، ولكن ذاكرة التاريخ لاتنسى ابدا ،
وذاكرة الشعوب ايضا لاتنسى .
قال طارق :

— لابد أن هناك العديد من الحكايات الشعبية حول
هذه المعارك .
قلت :

— لا يمكن أن تمر مرحلة كهذه المرحلة من مراحل
التاريخ دون أن تترك آثارها فى الفن الشعبى ، ولو بحثنا
جيда ، وجمعنا مابقى فى ذاكرة الحفظة من كبار السن
فلا بد أن نحصل على ذخيرة كبيرة من الحكايات الشعبية،

والاغاني والاشعار ، وربما الامثال والحكم أيضا .
قال طارق فودة :

— أحس ان شيئا كبيرا قد فاتنا بضياغ هذه الحكايات
الشعبية :
قلت :

— كلما ازددت اقترابا من هذه الارض ، كلما زاد
احساسى باننى أقف فوق كنز مدفون ، دفنه الزمن
ونسيه الناس .. ولكن أين هو هذا الكنز وكيف نبدا
البحث عنه .. هذا هو السؤال .
قال أندرو :

— قبل ان تؤكد وجود الكنز لابد من وجود دليل
يرشدنا الى صحة وجوده .
قلت :

— ان كتب التاريخ مليئة بحكايات المغامرات والمغامرين
وحكايات البحار وعجائبها وقراصنتها والمهالك التي
تعرض لها البحارة فيها وعلى السواحل وفي الجزر
المتشعبة فيها .. وسواء كان المؤلف عربيا أو أجنبيا
فهو لا يستطيع ان يخلص من بقايا غريبة وشاذة لابد ان
من نسج الخيال الشعبي ، او على الاقل من بقايا متحورة
عما وعته الذاكرة الشعبية ، وفي ألف ليلة وليلة وفي
رحلات السندباد البحري بالذات بقايا من الممكن ان نعود
بها الى هذه المرحلة الصاخبة من تاريخ المنطقة ، وكتب
الرحالة والجغرافيين تحفل ببقايا شعبية كثيرة ، ولكن
كل هذه الشواهد مفرقة تدل على وجود الكنز ولكنها
ليست الكنز نفسه .

كانت السيارة قد وقفت بنا في سهل فسيح منبسطة
تتناثر فيه الاشجار شديدة الخضرة ويلعب في اجزاء

منه صبية صفار ينطلقون بكل براءة الطفولة ومرحها
وضحكاتهم تعلن وجود الحياة ، وتعلن أيضا دفء الحياة .
ونزلنا من السيارة نحرك أقدامنا لنعيد الدم الى جريانه
بعد احتباسه من جلستنا المتقلصة فى العربة . وكان
حمود يشير بيده الى مجرى مائى بهيج يمتد امامنا
لمسافة طويلة وماؤه النقى يلمع تحت أشعة الشمس
ويقول :

— هذا فلج دارس .

صاح طارق فودة وهو يسرع بمشيته الى جوار الفلج
تأمل ماءه الرقراق :

— كأنه ترعة أو مصرف ، من أين يأتى الماء . . ؟
قلت له :

— الافلاج كلمة قد تطلق على الممر المائى ، ولكنها هنا
تعنى هذه القنوات التى ينبع ماؤها من مياه جوفية ،
فهى آبار وممرات مائية أيضا .

طلب أندرو أن نترجم له كلامنا ، فعاد طارق يقوم
بمهمة الترجمة . وحين انتهى قال أندرو :

— كنت أعجب للخضرة الدائمة لهذا البلد فليس هناك
نهر معروف يسقيها ، ولكن هذه الافلاج اجابة كاملة عن
السؤال الذى حيرنى كثيرا .
قال طارق :

— نحن فى منطقة البلاد السعيدة التى عرفت بزروعها
وجنائها من قبل التاريخ المدون ، والتى نشأت فيها
حضارة من أعرق الحضارات القديمة . وحين عجزت
الطبيعة أن تقدم النهر صنع الانسان السدود وحفر الآبار
ثم صنع هذه الافلاج العجيبة . .
قلت :

... لقد كان من أمجاد الأئمة في عمان بناء الافلاج أو
مجرها بممى اصبح ، ويعتبر هذا حدثا هاما عند المؤرخين
ربما أهم من بناء القلاع . فيذكرون للامام سلطان بن
سيف بناءه لفليج البركة ، كما يذكرون لسلطان بن سيف
انه أجرى سبعة عشر فليجا في أماكن متعددة من عمان .
وحين هزم الفرس وخرجوا من عمان كان أول مافعه
هو ردم أماكن موجودا منها ، واضطر الازد بعد انتصارهم
أن يعيدوا فتحها من جديد .

قال طارق وهو يتأمل الفليج والصبيه يلعبون الى جواره
ويتقافزون بين ضفتيه :

— اذن فهذا هو الجزء البارز من المنبع ، وبعد قليل
يغطي الماء سقف ثم يختفى كل شيء في باطن الارض .
قال أندرو :

— بالفعل ان الفليج بهذا ظاهرة هندسية مذهلة .
ضحكت وأنا اقول :

— كثيرون دهشوا من الافلاج حتى القدماء فنسبوها
الى عالم الخوارق .
ضحك طارق وهو يقول :

— دخلنا في الادب الشعبي مرة أخرى .
قلت :

— هناك دبلوماسى انجليزى رحالة اسمه برترام توماس
الف كتابا عنوانه « مخاطر الاستكشاف في الجزيرة
العربية » وقف مثلنا مندهشا أمام ظاهرة الافلاج فسأل
شيخ قبيلة تقطن الى جوار أحد الافلاج « من الذى بنى
هذه الافلاج المائىة ؟ » ويحكى قائلا « فأجاب سالم دون
تردد : ان الذى بناها هو سليمان بن داود . . ولكنى
قلت : ان الملك سليمان لم يأت الى هذه المنطقة ، خاصة

وان انظمة هذه الاطلال تعود الى قرون سابقة .. فضحك
الشيخ من قولى وقال : الله يسلمك ، لقد جاء
الملك سليمان الى هنا فى موكب على اجنحة الريح ...
فعدت أسأله : ولكن من الذى قام ببناء هذه الافلاج ؟
ومن هو العنصر الذى قام ببنائها ، الفرس أم العرب ،
أم غيرهم ؟ فقال : الله أعلم ، ربما كان من صنع الجان
وليس من صنع أشخاص مثلى ومثلك ..
ضحك أندرو وهو يقول :
- الملك سليمان مرة واحدة ؟!
قلت :

- الملك سليمان فى المآثور الاسلامى مرتبط بالخوارق
عامة وبالجن خاصة نظرا لما ذكره القرآن الكريم عما
حباه الله به من سلطان على الجن والرياح والهوام والطيور
ومعرفته بلغات الوحوش والحيوانات ، ولهذا فلا تخلو
حكاية من حكايات الجان فى الاعمال الشعبية العربية من
ذكر لسليمان ، وللجن الذى حبسه فى القماقم ورماه فى
أعماق البحار . فلا عجب ان يرتبط عمل خارق كهذا
بالجن ثم بسليمان .
قال طارق :

- ولكن اذا كانت حكاية سيدنا سليمان هذه تنطبق
على الافلاج القديمة ، فماذا عن الافلاج الجديدة وخاصة
التي بناها الائمة مثل من ذكرت أسماءهم ..
قلت :

- الإجابة هي « العوامر » ..
قال أندرو فى دهشة :
- العوامر ؟
قلت :

١ - نعم ، العوامر قبيلة تخصصت في حفر الآبار والافلاج في شمال عمان ، وهناك آخرون مثلهم ، ولكن العوامر اشتهروا في التخصص في الحفر تحت الارض . وفي بحث بقلم « جى . س . بيركس ، وسالى . بى ليتس » يقول الباحثان « العوامر قبيلة قائمة منذ زمن بعيد قاعدتها قلعة العوامر قرب ازكى وديارهم في الشرقية ، واهم مواطنهم ادم والعيون والمضيبي » ويحكى هذا البحث الطريف قصة الافلاج منذ البدء في التفكير فيها . فالامر يبدأ « بباصر » والباصر رجل له خبرة بمعرفة مواقع الماء تحت الارض . ومعظم التبصر بمواضع الماء طلبا لتحديد الافلاج يفعله باصرون يزورون منطقة البئر الام ويتفحصونها ، ويقول البحث « وينقل الباصرون خطواتهم في المكان يتفحصون تشكيلات وجه الارض ، ويدققون النظر في الاعشاب البرية والتربة تدقيقا بالغا ، ويقال « أن من الدلائل المهمة وجود شجر السمر والسدر ، وأن تكون - ان وجدت مائلة » ..

قال أندرو :

- في بلادنا يستعملون العود او القضيب .

وقال طارق :

- ونفس الشيء بالنسبة للبدو في بلادنا .

قلت :

- ان الباصرين هنا عادة اكفاء لانهم لا يحددون وجود الماء وحسب ، وانما يحددون عمقه كذلك . وهناك باصرون مشهورون من غير العوامر ، غير ان العوامر يسكادون بنفردون باستعدادهم لحفر الافلاج وتمديداتها في الصخر الاصم . وهم يشتغلون في فريق من ٤ الى ٦ اشخاص ويرأوون بين فترات عمل تحت الارض وفترات على

سطح الارض يرفعون اثناءها الانتقاض من حفر الخندق ..
ويطرحونها على اكوام النفايات . فهم يمددون مجبرى
الفلج تحت الارض فى نفق ، والعمل يتم دائما فى وضع
القرقضاء ويستعمل فيه مطرقة وازميل ، ويتم ببطء
شديد وعناية كاملة .
قال أندرو :

— حقا ان ارادة الانسان تغلب كل الصعاب . من
النبع الجوفى يجرى نهر نفقى داخل الارض ليظهر
الى السطح ثم يعود الى الباطن مرة اخرى ، ويسقى الماء
الزروع والناس ويبعث الحياة فى الصحراء القاحلة
من جوف الصخر الصلب الاصم .
ضحك طارق وقال :

— اتبتمونا حديثا ، كفى وهيا بنا فقد اتعبتني
الشمس .

ومضينا مع حمود الى العربية ، وقال وهو يقودها :
— سنتوقف لتناول الطعام فى الطريق فأمامنا حتى
مسقط مسافة طويلة .
قال طارق :

— أين يا حمود ، وهنا وديان بلا قرى ؟
ضحك حمود وهو يقول :
— بل القرى كثيرة فى طريقنا ، وهناك فندق جميل
حجز لنا فيه طعام الغداء ..
وأدهشنى هذا التنظيم الدقيق لامور الرحلة فقلت :
— كان مقدرا من قبل اذن ان ننتهى من جولتنا فى
موعد الغداء .

فقال وهو ينطلق بالعربة التى أخذت تطوى الطريق
مسرعة :

— هذه رحلة يحرص عليها كل زوارنا .. ولهذا فقد
اعدنا حساباتها من زمن .

وشملنا صمت طويل لم يقطعه الا وقوف السيارة عند
مدخل فندق انيق — وحين نزلنا كانت حرارة الشمس
قائظة ، وفي الداخل كان هناك مسبح صغير يتبخر ماؤه
بشكل واضح بحيث احسست بارتفاع نسبة الرطوبة
وكأني امام حمام تركي قديم .. واسترحنا عنسند
المسبح ، ثم نزلنا الى قاعة الطعام ، وهناك كانت مفاجأة
جديدة ، كان كل الطعام هنديا ، وكان كل العاملين من
الهنود .. وكأنا مع الرطوبة الخائقة والموسيقى الهندية
والملابس الهندية والطعام الهندي الحريف قد انتقلنا
فجأة عبر المحيط ، ووصلنا الى قلب مدينة من الهند ،
وضحكت وانا اقول :

— لقد قهرنا المحيط دون ان نتحرك :

ضحك طارق وهو يقول :

— هذه علاقة في عمق الزمن ..

وقال اندرو :

— نحن في نهاية الشرق الاوسط وعلى مرمى من الشرق

الاقصى فلا عجب ان يمتزج الاثنان عند نقطة حية نابضة
بهذه الموسيقى وهذا الطعام الحريف ، ما كانت متعتي
بالزيارة تكتمل من غير وقوفي عند هذه النقطة .. وانسانا
الطعام باقى الكلام ، وحملتنا السيارة بعده الى اطراف
مسقط حيث الفندق الفاخر الكبير .

أرض البخور المقدس

منذ وصلت الى عمان والحديث يدور حول السفر الى صلالة ، فهذا الجزء من عمان يشكل جزءا أساسيا من التراب الوطنى من ناحية ، وجزءا هاما من عمق التراث العربى القديم من ناحية أخرى . فصلالة عاصمة ظفار الجناح الغربى من الأرض العمانية ، وظفار هى أرض اللبان والجبال المخضرة أبدا ، ومراعى الإيفار والأغنام . . . وهى أرض المزارع الخصبة المعطاء لزاد دائم من الخضروات والفاكهة ومنها الثمار الغربية فى عالمنا العربى كجوز الهند - وهى نقلة الى عالم أخضر ووديان مخصبة وسط وعورة الجبال الشامخة وضنك الصحراء القاحلة . وفى الصباح أخبرنى الاخ محمد سالم المرعون أننى سأسافر عصرا الى صلالة بالطائرة ، وأن إدارة العلاقات العامة قد أخطرت مدير العلاقات العامة فى صلالة بأمر رحلتى . . وطلبت أن اقضى فترة الصباح فى زيارة لإدارة التراث ، فعلى قدر مايمثل الحاضر من أهمية ملحة فإن كنوز الماضى المجهول حتى الآن مازالت تمثل عندى طموحا غالبا . . وحملتنى السيارة الى إدارة التراث ، وهناك التقيت بالشيخ محمد سعيد الوهيبى الذى رحب به وباهتمامى بكنوزه الثمينة ، ثم صحبنى الى مكتبة المخطوطات فانتقلت فجأة الى عالم قديم أحبه ، عالم الأوراق التى لم تبح بسرها بعد ، والتى تقف

شامخة مدلة بنفسها مذكرة بالجهود المضنية الشاقة التي
تمثلها والتي تقف تعبيرا عنها . واخذنى الاستاذ صالح
المصرى عبر الارفق المنظمة ، ركن للمصاحف ، وآخر
للتفاسير ، وثالث للأحاديث ، ورابع للفقهاء ، ثم هذا
الركن الكبير الضخم لكتب التاريخ . . كم عقسول
أضنت نفسها بحثا واطلاعا وجمعا للمعرفة - وكم من
قلوب أوقفت نبضها كله على رصد هذه المعرفة المحصلة
بكل المشقة والعناء ، وتدوينها فى كتب تبقى لأجيال
قادمة جماع معرفة وحصيلة علم ، وثمره خبرات وجهود
البشرية ، ويستمر الانسان ويبقى فى نمو دائم . . هذه
الورقيات المتلاحمة والمتساندة هى اختراع الانسان
الحاسم ضد الموت . . فعن طريق هذا التناقل الدائم
لخبرة الإنسان قهر الانسان الفناء ، وبقي فى عملية
استمرار وتواصل - القادمون الجدد يكملون طريق
الحياة من حيث انتهى السابقون من آباءهم وجدودهم .
ومن هنا كان حرق البرابرة الجهلة على المكتبات والكتب ،
آلاف الآلاف من الكتب تعرضت للحرق والاغراق
والتدمير لحظة يخفت صوت الحضارة فى ضمير عصر ،
ولحظة يسود ظلام الفكر وجود أمة . . أحرقت أساطيل
الرومان مكتبة الاسكندرية ، ودمرت جحافل التتار مكتبة
بغداد ، وأقام الجهلة فى العصور الوسطى المحارق فى
الميادين يرمون فيها الكتب وسط طقوس وثنية مقدسة . -
وهنا فى عمان تحكى كتب التاريخ عن الكتب والمخطوطات
التي ضاعت وسط الهجمات على الحصون والقصور ،
وكيف استهدفت هذه الهجمات البشر كما استهدفت
تماما الكتب والمخطوطات وحين غزت أوروبا المنطقة
منذ القرون الوسطى ، والغزاة لا تقف أطماعهم عند

خيرات الارض وكنوزها المعدنية ، ولا تقف عند السيطرة على المكان وجغرافيته ، وعلى قهر اهله وتسخيرهم في بناء ثروات الغزاة ، وانما امتدت أطماعهم لتشمل كنوز التراث بكل أنواعه وأشكاله ، وكما امتلات متاحف الغزاة بما في المعابد والمقابر والقصور من تحف ومشغولات وكنوز الفن الراقى الرفيع ، ونتاج الصناعة والعلم القديم ، امتلأت أيضا المكتبات في أوروبا بكل المنهوب والمسروق من كنوز التراث المكتوب ، المدونات القديمة على البرديات والرق والاختشاب والحجارة ، والمخطوطات على أنواع الرق والاوراق التي حرصت رغبة الاستثمار والبقاء على ايجادها في كل مرحلة من مراحل تاريخ المنطقة . . واستطاع أهل المنطقة بحسهم الحضارى أن يصونوا تاريخ الانسان من أعرق العصور وحتى مراحل تميزهم الحضارى ، ثم أتى غزاة الغرب فدمروا وأحرقوا ثم نهبوا وسرقوا - وأصبح أى باحث منا يحاول أن يعود الى تاريخ امته مضطرا الى أن يلجأ الى مكتبات أوروبا ومتاحف أوروبا ليطلع على كنوز آبائه التي انتقلت الى أوروبا لينتقل معها المد الحضارى والعمرانى الى هناك . . وهناك نشطت حركة الاستشراق وحركة التحقيق والترجمة والدراسة - وبدأ التراكم المعرفى يتزايد ، ونحن هنا مازلنا لا نعرف كم خسرنا حين فرطنا في هذه الكنوز الحية رغم جمودها ، المتحدية رغم صمتها ، المدلة بقيمتها رغم تواضعها . .

من رف الى رف مضيت اتنقل ، وقد ملأنى سلام هادىء ، وأنا أحس بالعناية الحقيقية التي تلقاها هذه الوريقات هنا ، بخطوطها شيء كالتقديس والتعبد . وكان صوت الاستاذ صالح يسبقنى الى كل كتاب يتحدث

عنه بحب وشفق ، ويفيض في وصفه وحكاية تاريخه، أين وجد ومتى ، وعدد النسخ الاخرى الشبيهة ، في نفس المركز ، والمحاولات العلمية التي قامت على أساسه ، والمحاولات الدراسية التي تهتم به وتعتنى بانطاقه سره وسر ما يحمل من علم وحكمة .. هذه العقول التي انطلقت تنقب وتبحث وتدون ، ما كانت مكلفة بكل هذا الجهد والعناء بحثا عن أجر ، وانما كانت تعسرف أن الانسان رسالة ، وأن الانسان أن لم يكن يحمل رسالة حقيقية لكل الناس فهو واحد من جنس حيواني يسير على قدميه، ويمارس العيش بفرائزه ولارضائها ، أما الانسان الانسان فهو من يعرف أن الهدف أساس يفرق بينه وبين السائمة، ومن هنا كانت أرضنا منبع العبادات القديمة ، وكانت مهبط الرسالات السماوية ، وكانت منارة الفكر المبدع في كل عصور حضارة بلادنا .. أما بعد هذا ، بعد أن تحولت ثمرات العقول الى سلع غير معروفة القيمة تهرب الى الاجانب الذين يدفعون ثمنها رخيصة ، أو تجمد في المكتبات الخاصة للتبرك أو لانها من بقايا الاجداد . بعد أن حدث هذا همد دورنا الانساني وتعثرت ثم توقف . كانت كل هذه الافكار تدور برأسي وأنا انتقل من رف ملء بالكتب الى رف محمل بالمخطوطات ، وقال الاخ صالح :

— مازال امامنا جهد كبير ، فمعظم المخطوطات تحتاج قبل نشرها الى تحقيق علمي جاد ، والمهتمون بالتحقيق العلمي أصبحوا قليلين ، وهؤلاء امامهم أعمال أكثر شهرة ، وأهم في حقل الدراسات في منظورهم من تركها والتفرغ لهذه الثروة المجهولة التي مازلنا نحاول أن نصنفها قدر الامكان ..

كنت أعرف صدق كلماته تماما ، فعلى الرغم من
الأعداد الهائلة التى تخصص فى دراسة الثقافة العربية
إلا أن العدد اليسير منها مؤهل لعملية التحقيق التراثى ،
وهى عملية شاقة ومرهقة ولا تجزى صاحبها عن عنائه
لا أدبيا ولا ماديا .. وقلت للأخ صالح أنا أقف أمام
الجزء الخاص بالتاريخ :

- علمتنا كتب التاريخ العربى أنها تجمع بين ذكر
الأحداث ، وبين تدوين الثقافة المعاصرة لهذه الأحداث ،
أو المتبقيات الثقافية حولها مما هو أدخل الى دنسها
التدوين الشعبى ، فإين فى هذه الكتب نبحت عن هذا
المأثور المدون من فننا الشعبى بما فيه الحكاية أو الرواية
أو المدونات عن العجائب والخوارق .

هز الأخ صالح رأسه الاشيب الوقور ، وهو يجول
بنظره بين أرفف الكتب التى سرقت من عمره أزهى
أيامه ، وقال :

- أن ماحقق حتى الآن عدد قليل اهتم به بعض أساتذة
التاريخ الإسلامى من الجامعات وغير الجامعات ، وهؤلاء
فى الغالب لا يبحثون سوى عن التاريخ ، والتاريخ وحده
.. فان وجدوا شيئا مما يتحدث عنه استنكروه
واستبعدوه أن أمكن ..
قلت له :

- كل يبحث عما عنده ، فرجال الدين أيضا فيمسوا
حققوا من كتب التفاسير والاحاديث يعبرون ويتجاهلون
ما يبدو لهم مخالفا لرؤيتهم الدينية ، فيهملون كل ما هو
إبداع للوجدان الشعبى الدينى الذى هو صادق فى
دلالاته ، حقيقى فى عطائه ، مخلص فى إيمانه .. انمبا
المسألة أن الضمير الشعبى أكثر ثراء وخصبا من أن تقيدته

بعض العقول التي تزعم انها تعرف الحقيقة ولا تريد ان تحيد عنها ..

ومضى الاخ صالح ليرينى الجهد ونتائجه ، والعمل
وثماره ، وقال :

— مازلنا نجمع المخطوطات من مظانها ، ولكن ما عند
الافراد منها اكبر بكثير من كل ما قد نلقاه فى القلاع او
القصور او المساجد .. ولو قدم هؤلاء الافراد ما عندهم
لنا لغدت عندنا ثروة هائلة بالفعل . ومعظم هؤلاء الافراد
الذين ورثوا المخطوطات القديمة اثرياء ، بل وعلى قدر
كبير من الثراء ، ولو انفقوا على تحقيق هذه المخطوطات
تحقيقا علميا ، ثم انفقوا على نشرها ، بعض ما ينفقون
على صيانتها والاحتفاظ بها ، لاثروا المكتبة العربية اى
اثراء ، ولقاموا بما كان يقوم به آباؤهم الذين كانوا
ينفقون المال فى سخاء فى استنساخ الكتب المعروفة فى
عصرهم .
قلت :

— هموم التراث لا تنتهى ، ولكن يكفى ان البدايات
قد تحققت فى معظم الاجزاء العربية التى ورثت جهود
علماء جادين من امتنا ، ربما كانت البداية متاخرة جدا ،
ولكن السؤال الذى يعرفه الدارسون للتاريخ بأشكاله ،
يقول : متاخرة عن ماذا ؟ .. فالتاريخ دورات ، والاحداث
لا تجعل بؤرة واحدة تسيطر على الوجود البشرى الى
أمد طويل ..

تنهد الاخ صالح ، وقال وهو يودعنى :
— صدقت .. من يدري ؟ ..



وظل لقاء الصباح هذا يشغلنى وانا فى السيارة الى
المطار ، ثم وانا فى الطائرة الى صلالة .. ان رجسالى

الحضارة قالوا ان هناك عشرين حضارة تعاقبت على العالم قبل الحضارة الغربية المعاصرة ، وان مراكز الحضارة قد انتقلت من بؤرة الى بؤرة ، ومن مكان الى مكان ، ومن قوم الى قوم على مدى تاريخ البشرية المعروف . ولكن تاريخ البشرية لم يعرف كله حتى الآن . . فحديث هؤلاء العلماء من منظور الغرب الاوروبى الذى كان يدون فى سجلاته ان تعرفه على الهند كان اكتشافا ، او ان اتصاله بافريقيا كان انتصارا للمعرفة ، وهذا قلب للحقائق ، فالحضارات فى آسيا وافريقيا اعرق واقدم من الوجود الحضارى فى أوروبا . وهذا الذى عدوه كشفا كان مجرد تعرف طفل ينمو على ارجاء المنزل التى كانت اقدامه الصغيرة ومداركه الطفلة لا تساعد على التعرف عليها ، ثم تعرف الصبي على الشارع والحي ، وتعرف الرجل على المدينة والوطن ، ثم على العالم الحى النابض بالوجود قبل ولادته . . وهذه المغالطة تجعل تاريخ الحضارة المدون كله سخرية وعبثا ، والا كانت الحقيقة نسبية ، وكانت حركة الفكر الانسانى قاصرة على رؤية اصحاب الغرب الذين يتناقضون مع انفسهم حين يقفون عاجزين مدهوشين امام معطيات الشرق الاقصى والشرق الادنى ووسط امريكا من معالم تؤكد حقيقة الوجود الحضارى المذهل فى تقدمه وتميزه . . لو امكن ان يتصل حاضرا العالم القديم بماضيه لاستكملت الانسانية رؤية فكرية وحضارية قطعتها الحضارة الغربية بغزوها البربرى العنيف لهذا العالم ، وبرؤيتها المسطحة النفعية والشديدة الانانية لا تقودها اقدامها اليه من معالم الوجود الحضارى ومظاهره . . فلا الحضارات كانت عشرين حضارة ، ولا هى كانت مرتبطة بالجنس الابيض

وهو الجنس الطفل الذى لم يعرف معنى الحضارة الا
فى الاحقاب الاخيرة من عمر الانسانية ، ولا هى ارتبطت
بوديان الانهار .. وانما المسألة تبدو أكثر عمقا ، وسرها
يبدو أكثر بعدا ، ما لم ننظر الى العطاء القديم باعتباره
ماضيا حيا لا مزارات للسواح ولا مجال لتعاليسات
اصحاب العلم المحدثين ..

ونزلت بى الطائرة فى مساء خريفى جميل ، وعجبت
كيف انتقلت من حر قائط ، الى رقة خريفية بمجرد
رحلة طائرة .. ولكن هذا هو التنوع الذى يحقق تكاملا
جغرافيا وبيثيا لوطننا العربى ، بل ولهذا الجزء من
وطننا العربى على سبيل المثال لاالحصر ، فالرقة المنفسحة
التي يشغلها هذا الوطن تضم السهل والجبل والوادي
والروابي ، وتضم الانهار والعيون والابار والسدود
والافلاج والسواقي ، وتطل على بحار الشمال وبحار
الشرق وبحار الغرب وبحار الجنوب ، تواجه كل القارات
وتواجه ايضا كل طقس ، فان سادها الربيع فى جزء
سادها الشتاء فى جزء ، وان كان جو جزء منها قاريا
فجو الجزء الآخر مدارى - الصحارى والغابات والاحراش
وعلى ظهر الارض الزروع والحيوانات ، وفى باطنها
المعادن والطاقة .. والعناصر السلافية اندمجت وتزاوجت ،
ودين واحد يسود ، وهجوم واحدة تجثم فوق الصدور
.. لم يبق الا بوق اسرافيل ، ويرحمنا الله ..

تقدم الى شاب سمهرى العود انيق الثياب العماتية
الزاهية ، يطل من عينيه ذكاء الجدود ، وطيبة العرق
الاصيل وحيانى فى رقة وهو يقول :

- تأخرت قليلا ، او الطائرة جاءت قبل مواعدها ،
ولكنى عرفتك على ايه حال دون سؤال ، وقد اخطرت

من أمس بقدمك فمرحبا بك في صلالة ، واسم اخيك
محمد سهيل حداد ..

وابتسمت في سعادة ، فكأنى أسمع ترحيب ابى بلد
قاهري أصيل لضيف عارض جاءه ، فوجد في استضافته
فرحة حقيقية ، وكان الضيف يضيف الى حياته جديدا
يسعده ، وان كنت أعرف اننى بالنسبة له جزء من
عمله الرسمي ، ولكن الكرم العربى يقلب كل احساس
بالفرض ، فالكرم نفسه فرض سواء كان رسميا ام غير
رسمى ..

واقلتنا السيارة الى فندق هوليداي ان على شاطئ
البحر - ومنذ لحظة دخولى الفندق اخذت اسمع
الاوردية والانجليزية فكل القائمين بالعمل هنا من
الهنود ، وهى ظاهرة عمت الخليج ، بل الجزيرة العربية
كلها ووصل امرها الى العراق نفسه .. فقد غدت
البلاد الثرية هدفا للعمالة الاسيوية ، كما كانت من قبل
منطقة جذب للتجار الهنود والصناع المهرة ايضا -
وتحدثنا كتب التاريخ القديم والمعاصر على السواء عن
دور الهنود الكبير في حياة ومقدرات وثروات هذه
البلاد . ولم أجد عجبا في هذا فهم على الناحية
الآخري من البحر - تماما كاللور الذى لعبه اليونانيون في
حياة مصر قديما وحديثا على السواء ، فهم ايضا على
الناحية الآخري من البحر ..

وانتظر الاخ سهيل حتى اودعت حقيبتى الصغيرة في
الغرفة التى أعطيت لى ثم صحبنى الى ادارة العلاقات
العامة للاعلام في صلالة .. وكشف الطريق معالم
المدينة ، وقد بدأت بعض الانوار تضاء في شوارعها ،
فهذه مدينة متكاملة وواسعة وتشبه الى اقصى الحدود

عاصمة محافظة من المحافظات في مصر ، الشوارع
الفسحة والمنازل متعددة الطوابق والمحلات المتنوعة ،
وان كان أكثرها محلات للخياطة ، والمعارض المليئة
بالمعروضات ، والبقالات والمطاعم - أنت اذن في مدينة
عريقة دخلها العمران من زمن كاف ليراح بين القديم
والجديد منها ، وهي أيضا مدينة ثرية .. وكأنمسا
أدرك سهيل حداد ما كان يجول في خاطري اذ قال :
- ان عطر الشرق القديم موجود في عمق المدينة ،
وعطاء المدنية الحديثة موجود في ظاهر المدينة ، وهناك
أماكن كثيرة من المدينة يتلاحم فيها عطر القديم بزهو
الجديد . .

وفي مكتب الاستاذ أحمد سالم المبارك مدير العلاقات
العامة شربنا القهوة العربية وقدم لنا التمر العماني ،
واستأنفت الحديث الذي بداته مع الاخ محمد سهيل في
الطريق فقلت .

- مدينتكم مدينة لها طابعها الخاص كما أرى .
ضحك الاستاذ أحمد سالم المبارك ، وقال بعد أن
قدمني الى الاستاذين عامر أحمد العمري وأحمد عمر
الرواس :

- هذا سؤال يسأله الكثيرون من زوارنا ، ونحن دائما
نحمل لهم اجابة واحدة وهي ، لا تنسوا اننا في مدينة
جبلية . اذ ان صلالة حاضرة جبال ظفار ، فواديها
المتد تحوطه الجبال الشامخة وتصبح كالقوس يحصرها
بينها وبين البحر .. وهكذا ترى أن المدينة ليست
حاضره ريف ، وليست حاضره سهل ، وانما هي حاضره
جبلية على شاطئ البحر المحيط .
وضحك وهو يقول :

- عندما تنتهي من قهوتك ستصحبك في جولة سريعة

داخل المدينة ثم نتناول عشاءنا في مطعم جيد ولسكنه
مطعم وطني ، يقدم الطعام الشعبي العماني في اطار
متحضر من ادوات المائدة والجرسونات واطباق السرفيس
يخلأه ..

و كنت انتهيت من قهوتي ، فنهضت قائلاً :
- ماذا ننتظر هيا بنا ..

واقلتنا السيارة من جديد عبر الشوارع الواسعة
التي أصبحت كلها مضيئة بأنوار النيون الملونة ، وهنا
وهناك تبص الانوار من محلات عامة عامرة بالرواد .
والسيارات كثيرة ولكنها لا تزحم الطريق . ونزلنا
ومشينا حيث طالعني وجه عمان كما كنت أحب ان اراه ،
محلات مليئة بكل المنتجات وخاصة جوز الهند واللبن
ومشغولات الرعاة من أهل الجبال ومناطق جلدية
ودشداشات ، وفوط يمنية ، وشيلان للعمائم وعصى
خيرزانية ، وملابس نسائية موشاة ، اكوام واكوام من
البضائع من اقصى الشرق ومن عطاء الجبل .. وركبنا
السيارة التي دارت بنا دورات لنعود الى شارع رئيسي ،
حيث وقفنا امام محل كبير على واجهته لافتة تعلن عن
هويته كمطعم عيسام ... الاضاءة خافتة بعض الشيء
والخدمة ممتازة ، والعمانيون في كل مكان يشغلون
معظم الموائد مما يشي بحركة دائبة ، وكان الخدم هنودا
ولكن الطعام كان بالفعل عمانيا ، واثناء الطعام قلت
مقاطعا عبارات الترحيب المتوالية من كل الحضور حول
المائدة :

- تركت الصيف وقيظه وفي اقل من ساعتين واذا
بي في الخريف وجوه الرطب .
ضحك الاستاذ احمد سالم مبارك وقال :

— المدهش أنك جئت فى آخر أيام الخريف وأول أيام الربيع .

قلت متسائلاً فى دهشة :

— الخريف ينتهى والربيع يبدأ فى سبتمبر ؟
قال الاستاذ عامر العمرى :

— الخريف عندنا يبدأ من ٢١ شهر ٦ الى ٢١ شهر ٩ أى اليوم ، والربيع يبدأ من ٢١ شهر ٩ أى اليوم ، وينتهى ٢١ شهر ١٢ والشتاء يليه من ٢١ شهر ١٢ الى ٢١ شهر ٣ أما الصيف من ٢١ شهر ٣ الى ٢١ شهر ٦ .
وضحك الاستاذ أحمد عمر الرواس وهو يعقب قائلاً :
— ومن هذا ترى أنك جئت فى أفضل الاوقات بالفعل ، ولو أقمت هنا لطابت لك الإقامة ، وخاصة اذا زرت الجبال كما هو مقرر فى برنامجك لعصر الفد .
وأكمل الاستاذ أحمد سالم المبارك هذا الحديث قائلاً :

— ستفاجئك الجبال تماماً ، فأظن ان فكرتك عن الجبال انها صخور وأتربة ورمال وكهوف منحسوة فى الصخر وأرض جرداء وحياء وعرة قاحلة ، وأظن ان ماستشاهد غدا سيمثل مفاجأة مدهشة تماماً لك ..
فأنت فى منطقة الجبال الخضراء ، الجبال المراعى التى تمتد خضرتها حولك وأمامك وخلفك حتى ليخيل اليك ان العالم كله اخضر اللون بكل درجات اللون الاخضر وطبقاته ..

وقال الاستاذ أحمد سالم المبارك :

— لاشك ان ظفار موجوده منذ خلق العالم . ولكننا لا نعرف عنها شيئاً فى العمق السحيق للتاريخ ..
قلت :

— أو قل لم تكتشف مدوناتنا القديمة عنها بعد ..
مادونه أبنائها أنفسهم ، ومادونه الجغرافيون والرحالون
العرب والافرنج .
قال :

— هذا صحيح ، والغريب أن أول ذكر لها يأتي في عام
١١٤٥ على لسان الجغرافي العربي الإدريسي الذي نقلت
عنه أوروبا الكثير واعتبروه هناك أبا للجغرافيين إذ يقول
أن ظفار كانت تابعة لعمان أي للأسرة الحاكمة في عمان
في ذاك التاريخ . ومع هذا فقد كانت ظفار دائما محط
انظار الغزاة ، فيذكر ياقوت الحموي الجغرافي المسلم
المعروف أن ظفار في أوائل القرن الثالث عشر — أي في
عصره — كانت تابعة للبحرين . ثم تعرضت في عام ١٢٦٥
لغزو من هرمز كما يقول ابن رزيق ، وقبل ذلك دمرت
ظفار عام ١٢٢١ بواسطة جيش من حضرموت ، ثم أعيد
بناؤها باسم المنصورة وهي المدينة التي عرفت في العصور
الإسلامية الوسطى باسم بليد ، واحتلت اليمن ظفار
محرره إياها من الحكم الحضرمي عام ١٢٧٨ وأضيفت
ظفار وحضرموت معا إلى ملك اليمن ، وقد هنا ملك
عمان ملك اليمن بانتصاره .
قلت :

— لا أظن أن القضية هنا قضية احتلال أو تبعية ،
إنما هو جزء يقوى بمد نفوذه إلى باقي الأجزاء ليستمد
من هذا النفوذ قوة .. ومن الطبيعي أن تتوالى حركة صعود
القبائل إلى مركز القوة وهبوطها مع حركة الزمن وتوالى
الأحداث ، وظفار هي ظفار الجزء الجنوبي من عمان ،
سواء قويت عليها عمان نفسها أو غلبت عليها أية قوة
عربية مجاورة أخرى ، فأي ثورة ثرية وسط الصحراء

الجرداء جديرة بأن تجذب إليها وإلى ثرواتها الاطماع . .
تدخل الأستاذ احمد عمر الرواس في الحديث قائلا :
- لقد ظلت ظفار دائما درة يذكرها الرحالة بأنهار
ودهشة - وفي حوالى عام ١٢٨٥ اكد ماركو بولو الرحالة
العالمى المشهور ازدهار ظفار وثروتها فقال فى وصفها :
« ظفار مدينة عظيمة ، نيلية وجميلة » وقال انه كانت
هناك حركة ملاحية كبيرة بينها وبين الهند ، ثم قال
« ويحصل التجار منها على أعداد كبيرة من الجياد
العربية ، ويحققون أرباحا وفيرة ، وتتبع المدينة بلاد
وقرى عديدة ، وهناك ينتج الكثير من اللبان الابيض . .
وهكذا ترى ان التجارة واللبان والبحر والجياد اشتركت
كلها فى اظهار حركة الازدهار فى أيام ماركو بولو .
قال الأستاذ عامر العمرى :

- ترك لنا ابن بطوطة أشهر الرحالة العرب وصفا طريفا
لظفار فى القرن الرابع عشر قال فيه « ان أسواقها من
أكبر أسواق العالم ، وأكثرها يغزوه اللدباب بسبب كميات
الفاكهة والاسماك التى تباع هناك . وأغلب أسماكها من
نوع يسمى السردين ، وهو سمين جدا فى تلك البلاد .
وهناك حقيقة غريبة ، وهى أن السردين هو الطمسام
الوحيد للبهائم والماشية » ويعقب قائلا « وهو شئ لم
أشده فى أى مكان آخر » وتحدث عن أهلها بعبارات
رقية فقال « والاهالى متواضعون ، مهذبون ، مستقيمون
ودودون الغرباء . ثيابهم من القطن المستورد من الهند ،
وهم يربطون سارونج على وسطهم بدلا من السروال ،
وأغلبهم يضع واحدا حول الوسط ، وآخر فوق الظهر
بسبب الحر الشديد ، وهم يستحمون عدة مرات خلال
النهار ، وفيها كثير من المساجد ، وبكل مسجد مقاصير

خاصة بالوضوء ..

عقب الاستاذ احمد سالم المبارك ضاحكا :

- لقد أنسانا الكلام الطعام ..

قلت :

- انا أستمع فلا يعوقني عن الطعام شيء ..

هاد يضحك وهو يقول :

- أنت لن تمكث الا نهارين وليلتين ولذلك فنحن نحاول

أن تقدم لك خلفية كاملة لنعمق انطباعتك ببلادنا ولنرسم

صورتها عبر التاريخ أمامك .

قبل ان اجيب قال الاستاذ عامر العمري :

- نحن نحس بعمق الجذور التي تربطنا بهذه الارض

ونحب ان تحس بما أحدثته الطفرة في عمان في نفوسنا

من زهو بحاضرنا وماضينا معا .

قال الاستاذ احمد عمر الرواس :

- فقط ينبغي أن تدرك أننا لا نرسم صورة ووعية ،

فقد عرفت ظفار أيام بؤس وأيام سعد مثلها في هذا مثل

كل مكان في العالم ، فبينما يقول عنها ابن خلدون في أواخر

القرن الرابع عشر « أن ظفار كانت حاضرة توباز ومرباط

وهي تقع على البحر ، وقد أصبحت كلتا المدينتين الآن

أطلالا » يقول عنها الرحالة الإيطالي الشهير لود فيكوإي

فارثيما ، أنه وجد « ظفار رائعة جدا ، وتزخر بكل

شيء .. »

قلت :

- لقد قرأت بدوري كلمة لويندل فيليبس في كتابه

« عمان المجهول » يقول فيها عن ظفار « هي جنة المناظر

الخضراء » وهذا ما اشتاق الى رؤيته بنفسى ..

قال الاستاذ احمد سالم المبارك :

.. ستراه بنفسك عصر الغد اما في الصباح فستلتقي
بظفار الآن والامس ، فقد حددنا لك موعدا لتلتقي بالاستاذ
الشيخ عبد القادر بن سالم بن احمد الغساني ، وهو
مدير التعليم في ظفار فهو امس واليوم والغد ، وهو
مؤلف كتاب « ظفار ارض اللبان » فهو القادر على ان
يكشف لك من امور الامس ما احاط به علما وما احطنا به
نحن الا لاما ..
قلت :

.. لقد جئت كيما ارى ماتبقى من الفنون الشعبية ،
وما ظل عالقا في ذاكرة الناس من ادب شعبي .
ضحك الاستاذ احمد سالم المبارك وهو يقول :
.. لقد جئت اخصب ارض تمتلئ حياة بفنون الشعب
العماني . قالشعب هنا يحتفل بمناسباته الدينية
والاجتماعية ومناسباته الخاصة بالعديد من الاغاني
والرقصات التي يمتزج فيها ماورثه الناس من كل العصور
ومن كل الاجناس الذين اختلطوا بها . ففي ظفار يزحف
الجبل بكل حكاياته واغانيه ، حكايات الرعاة واهازيجهم
وتقاليد حياتهم المميزة ، وحكايات الجبيل المخوف
والمغامرات الشائقة ، والبطولات التي تلمع منها عطر
الخوارق وبقايا اساطير الاولين . وحكايات البحر والطقوس
التي يفرضها على من يركبون ظهره ويتعرضون لغموضه
وسخطه وامواجه ومخاوفه ، فيركبهم هو بشبحه الم هول
يقدمون له القرابين في كل مناسبة ، ويعرفون بشعائهم
كيف يسترضونه وكيف يحدون من سطوته وغضبه ، ثم
يحملهم بحكايات الفرائب والمعائب التي تمتلئ بها جزره
المجهولة وسواحله المليئة بالمخاطر والثروات ، بما يستهوى
جشع النفوس ، وبما يستلعي المخاوف الموروثة في هذه

النفوس ، ثم الزرع وما يمثل في ضمائر أصحابه من ارتباط بالأمطار والآبار ، وما يكثر في موروئهم من معتقدات حول الجفاف وحول الخصب وحول ما يحيط بكل شجرة وكل زراعة من ظواهر تبدو خارقة مستعصبة على فهم الإنسان العادي فيروح ينسج حولها من مخاوفه وأحلامه وضراعاته الطقوس والرقصات والعادات .. وما أكثر ما يحيط بالآبار والأفلاج من حكايات شعبية ، وما أكثر ما يحيط بالأشجار وخاصة شجرة اللبان ، شجرة البخور المقدس من موروئ متداول باق حتى الآن ..

عقب الأستاذ أحمد عمر الرواس قائلا :

- ليس من زوارنا الكثيرون الذين يهتمون بالموروئ الشعبي ، هم غالبا يستهوئهم مظهر الحياة القديمة في اللاد ، أما الموروئ الشعبي بمعناه التراثي فهم لا يلتفتون إليه إلا بقلوب مافيه من مظاهر قريبة عن حياتهم ، بصراحة أنا لا أحب تلهفهم على رؤية الرقصات والملابس والاحتفالات الشعبية ، كأنهم في حديقة حيوان ، وكأنهم بشر يتفرجون على عادات قبائل متخلفة أو تجمعات من الحيوانات الطريقة .

قلت وقد لفتني نيرة المرارة في صوته :

- أنت تتحدث عن السائحين من بلاد الغرب ، وهذا حقهم ، فقد غلبت وسائل التقدم الصناعي على حياتهم حتى لنسبوا كيف يعيش الإنسان العادي . وهجروا بيئاتهم الى المدن ، كما نقلوا وسائل الصناعة المتطورة الى بيئاتهم حتى لنسبوا كيف يتعاملون التعامل الطبيعي السوى مع هذه البيئات ، ثم حكمتهم بعد هذا أسطورة تفوق الجنس الأبيض . وهذا كله لا يضايقنا في شيء ،

فالمتبقيات الشعبية عندنا هي الوجود الانساني الذي
ما يظل حيا رغم زحف المادة والآلة والصناعة ، ولكي
تبحث عن الانسان الانسان لابد لك ان تتعرف على جذوره
واعماقه .. وكم اخشى ان يأتى الوقت الذى يقضى
فيه زحف الصنامة الحديثة وأجهزة الاتصال المعاصرة
على كل ماتبقى لنا من نبض انساني طيب ورقيق ..
استأنف الاستاذ المبارك حديثه مكمل الصورة ،
فقال :

- لقد جمعنا هنا كل رؤى الشعوب ، فنحن قطعة من
آسيا وقطعة من افريقيا فى آن واحد ، فالسفن قد
جعلت الرحلة بيننا وبين الساحل الشرقى من افريقيا
أمرا مبسرا وسهلا وعاديا ، كما جعلت انتقالنا الى هناك
شيئا طبيعيا ، وقد ظلت عمان تسيطر على هذا الساحل
الى وقت قريب .. كما ان سفننا قد قهرت المحيط الذى
غدا كالقناة الضيقة بيننا وبين الهند وما يتخللها من جزر
وممالك ، فافريقيا والشرق الاقصى امتزجا هنا بآسيا
والشرق الادنى امتزجا حياتيا ومتكاملا .
وقال الاستاذ احمد عامر العمرى :

- شىء طبيعى ان يمتزج فى بلادنا اللون الاسود باللون
الاصفر باللون الاسمر ، وشىء طبيعى ان يواجه الجميع
الحياة ومغامراتها ومخاطرها معا ، وشىء طبيعى أيضا
ان يمتزج موروث هذه الشعوب امتزاجا كلياً ليغدو وحدة
يحتضنها المكان وتتطور وتتغير عبر الزمان .
قلت :

- كائننى اتلقى اليوم درسا فى الفولكلور يضيف الى
ماسبق أن تعلمته عن الفولكلور العربى منه بخاصة شيئا
جديدا .

ضحك الاستاذ المبارك وهو يقول :
- وغدا مع الاستاذ الفسائي ستضيف ماهو اكثر
وأغزر ، ولو طال مكثك لازدادت رؤيتك عمقا .
قلت :

- المفروض ان بدون كل هذا بسرعة قبل ان ينساه
أصحابه ، وكذلك المفروض ان يسجل بالصوت والصورة
قال الاستاذ المبارك :

- قبل سفرك بعد الغد ، ستزور مبنى التلفزيون هنا
في ظفار ، وقد ربنا لك موعدا مع الاستاذ عبد الله بن
صالح بن حيدر المخرج المهتم بالتسجيل الترائي لظواهر
الحياة الشعبية في عمان ، والمذيع الذي تخصص في تقديم
برنامج سهرة من الفن الشعبي الاستاذ سالم بن عوض
النجار ، وهما يعرفان اهتماماتك ، وقد أعدا لك عدة
أفلام مما سجلناه بالصوت والصورة كما تقول .. كما
ان مركز الفنون التقليدية قد سجل مكتبة كاملة اعتقد انها
سترضي فضولك العلمي تماما ..

كان العشاء قد انتهى ، وكنا نتناول القهوة في
استرخاء ، فقلت وقد بدأ تعب اليوم ينيم يقظتي :
- هذا حقا برنامج حافل ، وهام وسائل العلم الحديثة
التي أشكو منها تريحني حين توفر على تعب التنقل
والبحث ، فكل شيء جاهز ومعد لا ينقصه الا الضغط
على زرار فيدور التراث الشعبي أمامك بحكاياته وأغانيه
ورقصاته وكل شيء ..

ضحك الاستاذ عامر العمري وقال :
- ولم الشكوى ؟ مادام ماتريده قد تيسر ..
قلت :

- ربما ..

وسكت . فمادنا مع مخرج ومذيع فالاختيار قد تحكم
فيما سجل ، والانتقاء قد تم فيم اختيار ..
وقطع تأملني صوت الاستاذ أحمد سالم المبارك ، وهو
يقول ضاحكا :

— لا يحزنك هذا الامر ، فمازالت حكايات كثيرة يتناقلها
الناس هنا ، ويحكىها العجائز للشباب ولست أظن انها
دونت أو درست بعد .

بادلته الضحك في فتور النعسان وأنا أقول :
— ليس في هذا مايفرح فسرعان ماسيذهب العجائز
وتضيع حكاياتهم مع ما ضاع مما كان في ذاكرة من
سبقوهم وطواهم وطواها النسيان ..
قال :

— يتداول الناس حكايات حمد وحكايات خميس ، رجلى
الجبل المعمرين اللذين يتعاملان مع الجن ويعرفان أسرار
سكان الجبل من عالم الشياطين .. ويقسم اناس كثيرون
بصحة الحكايات التي تروى عنهما ، وكيف استطاع حمد
أن يحمل بقرة ضخمة كسرت ساقها عند مدرج الجبل
ويصعد بها الى سطحه حيث الامان والعلاج ، وكيف
استطاع خميس أن يرفع بيديه صخرة ضخمة في حجب
البيت الكبير كانت تسد الطريق امام قطع من القنم —
حجبه عن عين الماء التي كان يقصدها ، ثم صاح متحديا
الجنى الذى كان السبب وراء سقوط الصخرة لعداء بينه
وبين الراعى ، وتحداه وهزمه ، وطرده من الجبل
كله ..

قلت وقد طار النوم الوشيك من عيني ، وامتلات
بقطة :

— كيف كان ذلك ؟ ..

ضحك وقال : ياسيدى شهريار ، آن اوان النوم فقد
أدركنا الصباح ، وغدا يوم جديد ..
واخذنا نفادر المطعم وأنا سعيد برفاقي ، وبدهشة
شديدة أدركت أننا كنا نتحدث كأننا أصدقاء قدماء
تعودوا الجلوس على العشاء وتبادل الاحاديث ومناقشة
القضايا كل ليلة .. ادهشني أن الكلفة كانت مرفوعة
تماما ، وأن الود كان قائما ، وأن شيئا كالصداقة القديمة
كان ينخيم على الجلسة منذ بدايتها .. وحين فتحت
نافذة الغرفة في الفندق ، هاج على البحر بصوته الاجش،
تتكسر أمواجه على الشاطئ الرملى القريب ، وارسل
الى روائحه المliche تملأ الغرفة كلها وتغلف كياني تشي
بما يخزن في أعماقه من صبرات ومن أسرار يتوق الى
البوح بها - كان سندباد البحري يعطي سندباد البري
كل ليلة سره من دنائير ثمن سماعه لحكاياته وليغريه أن
يعود ليسمعه في الليلة التالية ، ترى ماذا يعرض على
هذا البحر الجياش لاسمع بوحه وحكاياته ، وأنا ابن السر
الذي يهوى تدوين الحكايات ، فان لم يحك له أحد حكى
هو لنفسه ، واستنطق الأشياء والحكايات ، حتى البحر،
نعم حتى البحر .. كان ضوء القمر خافتا ، وكانت ظلاله
موزعة على أمواج البحر بين القتامة والوضوح ، فيبدو
وكأنه يقوم بأشعته مع الأمواج برقصة سرية غامضة ..
وانسحبت من النافذة كما انسحب دائما أمام الكوى التي
تشع الأسرار ، فنحن نهوى الأسرار ، وخاصة تلك
التي تنبعث من أغوار عميقة في نفس الإنسان ضباب
الجدور في الحضارة وبدايات الوجد الانساني ..
وصمت كل شيء حولى ونمت .

سَبَّحَ اللهُ لَبَّيْكَ

كانت غرف المنطقة التعليمية في ظفار غاصة بالناس من كل الاعمار ومن كل الازياء ، وان كان معظمهم من الشبان والصبيان في سن الطلب وتلقى العلم . ولم تنتظر طويلا حتى ادخلنا الى مكتب الشيخ عبد القادر بن سالم بن احمد الفسائي مدير التعليم بظفار ، ولكن فترة الانتظار كانت كافية للاحظ ابناء الجبل الذين يكثرون بين المنتظرين .. ولم يكن التعرف عليهم صعبا ، فقد كانوا جميعا عراة الاجساد ماعدا السارونج كمشا اسماء ابن بطوطة ، وهو من قماش ملون قائم يحيط بأوساطهم ثم لا شيء على الرأس او في الاقسدام .. والاجساد شديدة السمار وعضلاتهم بارزة وشعورهم كثة شديدة السواد ، وفي عيونهم جراءة وفي حركاتهم تحد تلقائي طبيعي - وقال مرافقي الاخ محمد سهيل حداد :

- لا يمكن للانسان ان يتنقل في الجبل برداء يعوقه .. وعلى اى لقد تعودوا ان يكونوا جزءا من الطبيعة ، وحتى وهم هنا في المدينة لا يتخلون عن تحررهم الطبيعي .. وقد يبدو مظهرهم هنا شاذا بعض الشيء فالكل يرتدون الملابس الفضفاضة والعصامات والاحذية ، ولكنهم في الجبل شيء طبيعي لا شذوذ فيه ..
لم يكونوا عمالقة ، كما لم يكونوا اقزاما ، ولسكنهم

لا شك كانوا يتحركون في رشاقة وميوعة كأنما عضلاتهم
تتناغم في انساق كامل مع كل حركة ، بحيث تشي
الاجساد النحيفة بما تختزنه من قوة جسمية واضحة ،
ومن قدرة فائقة على تحدى الطبيعة العنيفة التي يطوعونها
لقدراتهم .. وقال الاخ محمد سهيل :

— هيا بنا فالرجل في انتظارنا .

وهب الشيخ عبد القادر الى استقبالنا من خلف مكتبه
وهو يصرف مجموعة من الموظفين يحملون اوراقا
ودوسيهات وقال وهو يمد يده مصافحا في حرارة :

— اعتذر عن هذه الدقائق فقد كنت مشغولا ببعض
التقارير .. ولكنى الآن تحت امرك ..

لم يكن قد غادر اواسط العمر الا منذ حين قريب
جدا ، وابتسامته تملأ وجهه ، وعيناه تلمسان ذكاء
ومعرفة ، ويده التي صافحتني قوية واثقة . واقتادنا
الى مقعد مستطيل في جانب من المكتب وطلب القهوة
ثم قال :

— نحن نستعد للعام الدراسي المقبل ، ونواجه ازمة
غربية في اصرار كل التلاميذ على الالتحاق بالدراسة
العادية رغم حاجتنا الشديدة الى تلاميذ في المدارس
الزراعية والصناعية ، فالبلاد تبنى نفسها وهي في هذه
المسيرة التي تحاول بها ان تسبق زمن التخلف وتستعويض
ماضاع ، تحتاج الى الزراعيين والحرفيين قبل حاجتها
الى اصحاب العلم النظرى ..

ووافقته على هذا وانا اقول :

— هذه ازممتنا في الوطن العربي كله ، نريد ان تقفز
من الامية الى الدكتوراه مرة واحدة ، لا تريد اجيال
منا ان تكون هي جيل النقلة ، او جيل الوسط الذي

يتحمل عبء النقلة الطبيعية بين مراحل الجهل ومراحل
الترف العلمى ..

قال وهو يقدم لى قدح القهوة التى دخل بها السامى
الينا :

— لم تظهر هذه الازمة عندكم فى مصر الا هذه الايام
عندما ازداد عدد الجامعات ، وكثرت هجرة الياضى
المدرية على الخدمات البناءة والانشائية . ولكننا نقفز الى
عصر الجامعة بسرعة ، وقبل ان يتوفر لنا عدد كاف من
اصحاب الثقافات الوسطى الذين تحتاجهم هذه المرحلة ..
ولكنك لا تستطيع ان توقف عجلة التقدم باى شكل ،
ولغبر ان يحدث نوع من النقص نسده بشكل او باخر
من ان تؤخر دخول الجامعة الى بلادنا باسرع وقت
ممکن ..

قلت له وانا انتقل البصر بين ما ملا جدران غرفته من
خرائط وجداول ورسوم بيانية :

— ليس اجدى على الامم من الاسراع بالتعليم ، وفى
كل مراحلها ، حتى لو احدث هذا نوعا من التضخم فى
حملة الشهادات كما هو الواقع فى مصر .. ولو اننا
لا ننتظر منهم جميعا ان يكونوا علماء باحثين من
امثالك ..

ضحك وهو يقول فى تواضع :

— ان الوقت والمسئولية لايتيحان لى التفرغ للبحث
العلمى الذى هو غاية وجودى ومدى طموحى فى الحياة ،
والبحث الذى أعدته عن اللبان وظفار استغرق سنين
عديدة من العمر ، ولكنها سنين مفيدة بالنسبة لى .
فالباحث لا يضمن على بحثه بوقت او جهد او مال بحثا
عن مظان الدراسة ومراجع البحث ، وهو ايضا لا يشعر

بالندم على ما أنفق من جهد وعرق مهما قل الجزاء المادى
الذى يحصل عليه عن بحثه . وقد بدأت فكرة الدراسة
كبحث ألقى فى ندوة الدراسات العمانية فى احتفال
البلاد بالعيد العاشر للنهضة فى عام ١٩٨٠ . وقد تقدم
الى الندوة عشرة بحوث منها بحثى وكان بعنوان « ظفار
أرض البخور المقدس » ثم عدت الى البحث فى عام الشبيبة
العمانية عام ١٩٨٣ فطورته واستكملته وتساءلت فى
مقدمته « ترى هل يسترد الذهب الأبيض مجده ، ويعود
سندا لآخيه الذهب الأسود ؟ » وقلت اجابة على السؤال
الذى طرحته « هذا مانرجو » .. وفى الحقيقة هسدا
مازلت أرجوه ..

قلت وقد كشفت الكلمات لى عن عمق الصراع بين
نوعين من الحياة يسودان الامة كلها :

- لقد رسخ التاريخ فى أعماقنا حب الارض ،
والاطمئنان الى ثروات الزراعة التى نعرف أسرارها ،
ورسوخ الحاضر فى أعماقنا الخوف من الثروات المفاجئة
وما تحدثه من تغير جذرى فى كل أنماط الحياة
والسلوك ، وما تستقطب من أطماع تلفنا فى أخطبوط
متشابك من المضالغ والارتباطات تهدد حقيقة استقلالنا
وارادتنا .. حقا أنا ألهم مانعنى ..

جعل الشيخ عبد القادر ينظر الى بعينه المتألمتين
لحظات قبل أن يقول وهو يتنهد :

- ربما كان السن المتقدم هو الذى يجعلنا ننظر الى
التغيرات المفاجئة فى ريبة ، والى الثروات العاجلة
والضخمة فى شك ، فقد عشنا نحفر طريقنا بأيدينا ،
ونسهر على ما نملك لتنميه ونيسر سبل الحياة من الضيق
وفوق الجبل ؛ على كل حال لقد كونت شجرة اللبان

ثروة عمان أجيالا عديدة ، واللبن لم تعقم أشجاره بعد ،
كما أنه لم يفقد أهميته بعد ، وأن اختلفت وسائل
استغلاله مع تطور الاحتياجات ووسائل التصنيع الحديثة
.. فمن قبل اعتمدت المعابد والكنائس والمحاريب على
اللبن كبخور مقدس ، كما اعتمد عليه المصريون القدماء
كجزء من المواد المستعملة في التحنيط ، وشق اللبن
لنفسه طريقا برياً من ظفار حتى سواحل البحر الأبيض ،
كما شق لنفسه طريقاً بحرياً إلى أطراف قارة آسيا
البعيدة .. وفي العصر الحديث يدخل اللبن كعنصر طبي
وعطري أساسي في صناعات عديدة .. وسأهديك كتابي
« ظفار أرض اللبن » ، وستجد فيه الكثير عن الشجرة
وعن تاريخها في ظفار وعن تأثيرها الاقتصادي والسياسي
على البلاد ، وعن الاطماع التي أثارته في العصور القديمة
للاستيلاء على مصادرها الغنية ، وكذلك محاولات
زراعتها في البلاد التي كانت تحس بحاجتها الماسة إليها
وقد ذكرت وتسن أوف سنت البان في كتابها « حيث
وقف الزمن » والذي أصدرته عام ١٩٨٠ حكاية طريفة
عن محاولة للملكة المصرية حتشبسوت لزراعة شجرة
اللبن في مصر بعد أن هيات لها الظروف المناخية
المناسبة ، ولكن الشجرة رفضت أن تنمو في عناد ، رغم
أنها تنمو في موطنها الأصلي دون أي رعاية حتى الآن .
فهي عندنا شجرة برية لا يقوم بزراعتها أو سقيها أو
رعايتها أحد ، وأرجو أن ترى في الجبل عند جولتك به
بعض هذه الأشجار في موطنها الأصلي ..

كنت سريعا إلى انتهاز الفرصة التي سنحت لي فقلت
ونا أتلص لنفسي طريقا للحديث حتى لا يفضب :
- اسمع لي ، أنا دارس للأدب الشعبي ، ويهمني أن

أعرف ، هل هناك موروثة شعبية حول شجرة اللبان
ما زالت تتداول حتى الآن . أعرف ان هذا السؤال قد
يشير استنكارك العلمى ولكن .. :
ضحك من اعماقه وهو يقول :

- هسل حسبتنى من هؤلاء العلماء الذين يكرهون
هذه المأثورات الشعبية ويقاومونها باعتبارها خرافات ؟
لا يا صديقى ، انا ادرك اهمية هذه المأثورات واتبعتها
بعناية ، والحقيقة ان دكنسن اوف سنت اللبان كانت
حريصة على ذكر هذه الاساطير فى كتابها ربما لان نظرة
العلماء الغربيين الى اهمية هذه الاساطير تفوق نظرتنا
اليها . وهى تنص على وجود حراس يحمون الشجرة ،
وهم مجموعة من الثعابين الصغيرة ذات الاجنحة ، لها
ألوان متعددة زاهية ، وهى تطير من الشجرة بعيونها
المضيئة ، مرسلة الشرر والنار من أفواهها .. وتقبل
ايضا أن العائلات التى تحتكر الاستفادة من شجرة اللبان
كل فى موطنه تعتبر عائلات لها قداسة خاصة ، وعليها
ان تخضع الى طقوس وقواعد وسلوكيات معينة خاصة فى
موسم ضرب اشجار اللبان حيث يراعى الرجال النظافة
الكاملة ، ويعرمون على انفسهم الاتصال بزوجاتهم ،
بل ويعتبرون ان مجرد الالتقاء بجنازة فى الطريق أمرا
يلوثهم ويجب عليهم فى هذه الحالة الامتناع عن الاقتراب
من الشجرة .. وقد وصف ويندل فيليبس فى كتابه
« عمان المجهولة » الثعابين التى ذكرتها دتسن بأنها فى
حجم الجراداة وتحوم حول الشجرة ..
قلت :

- هذا عن المأثورات الشعبية فماذا عن الممارسات
الشعبية التقليدية ؟
قال :

من التقاليد المرعية هنا في صلالة ما يسمى « بالتنوير » وهي عادة متبعة عند قدوم السلطان من مسقط الى صلالة ، وفي مساء وصوله يصعد السكان الى اسطح منازلهم ويفرقون اكوام اللبان على جدران السطح ثم يرشونه بالزيت ويشعلونه فترتفع الرائحة في المدينة وتبدو وكأنها شعلة من نور يطيب اريجها وتتعطر رائحتها . وهو تقليد متبع عند قدوم البحارة من المحيط بعد رحلاتهم الشاقة والطويلة فتقوم أسرهم باشعال البخور بنفس الطريقة تعبيرا عن فرحتها بعودة الغائبين . . والواقع أن اللبان فرض وجوده على المناسبات الاجتماعية كلها في البلاد . ففي الولادة تحرص الام ان تكون هناك مبخرة للبان على مقربة من مهد الطفل لطرد الارواح الشريرة وحمايته من الامين . كما يحرس كل بيت على وجود قدر من اللبان فيه كتميمة للبيت تصونه من الاذى وتدفع عنه مضار الهوام ، فهناك اعتقاد سائد أن بعض الحشرات من ذوات السموم تنفر من رائحة اللبان وتبتعد عنه عندما تشمه . ويلعب اللبان في حفلات الزفاف دورا هاما ، اذ تحمل الخادومات مباخر فخارية كبيرة فوق رؤوسهن وقد اشعلن النيران في اللبان لتصاعد روائحه ، ويسرن خلف العريس ، وهن يطلقن الزغاريد حتى الميدان الكبير الذي تقام فيه رقصات تقليدية اسمها « الهبوت » تقوم بتقديمها قبائل خاصة في اطراف صلالة ، ويتبادل الحاضرون الالهازيج والاشعار الشعبية التي يتحدثون فيها عن فضائل العريس وتقائه . . ورقصات الهبوت تتم على شكل دائرة كبيرة توضع المباخر في وسطها وتظل مشتعلة متوهجة بالبخور طوال فترة الرقصات التي تستمر من بعد صلاة العصر الى الغروب .

والمعتقد السائد أن هذا سوف يخصن الرئيس من الحسد
وضرر العيون الشريرة .

وسكت لحظات ، وقد أخذ يجيل نظره بين أرجاء
المكتب ، وادركت اننى عطلته كثيرا عن عمله ، فاستأذنته
فى مفادرتة ، وصحبنى الرجل حتى باب مكتبه ، وعند
الباب سلمنى نسخة من كتابه « ظفار أرض اللبان » . .
والكتاب تتصدر غلافه صورة ملونة للشجرة المقدسة .
وصحبنى الاستاذ محمد سهيل حداد الى الفندق وهو
يقول :

- ستركك لقدائك وراحتك ، ثم أعود اليك عصر
اليوم لاصحبك الى الجبل .

وبعد القاء لم أستطع النوم فقد مضيت أقرأ الكتاب
حتى أنهيته ، وأحسست أن هناك الكثير لم يكتب بعد
حول المأثور الشعبي سواء الفنى أو الادبى أو الحرفى
الذى خلفته الشجرة حولها عبر السنين . ربما لم يجمع
ويدون ، وربما جمع ودون فى مخطوطات لم تكتشف
بعد ، ولعلها مازالت تعيش فى ذاكرة بعض المعمرين الذين
تستهويهم مثل هذه المأثورات يحكونها للصغار ، أو
يتبادلونها فى مجالس السمر بينهم وبين أنفسهم . . .
فتاريخ الشجرة المعروف يمتد الى عصور مسحية
بختلط فيها التاريخ بالأسطورة ، والوقائع المحسدة
بالوقائع التى خلقها الخيال ، وفى أمثال العرب القديمة
« من دخل ظفار حمر » وهو يشير الى منطقة بنفس الاسم
حكما الحميريون فى اليمن . ولكن ظفار هنا فى عمان
منطقة أخرى فهى أبعد تاريخا من هذا إذ هى ترتبط
باحتشبات ملكة الفراعنة ، واساطيلها التى كانت
تنقل اللبان الى معابد بلادها وقصورها . . فهل ينطبق
الإسمان على أرض واحدة ، أم أن هناك منطقتين بنفس

الاسم وفي نفس المنطقة الجنوبية من الجزيرة .. سؤال
يحتاج الى كشف تاريخي يزيع عن غموضه الستار. ويؤكد
أنا أهملنا في أمور تاريخنا القديم اهمالا مزرية ، وتركنا
للأوروبيين أن يكتشفونا تاريخيا كما اكتشفونا برية
وبعريا ، وكان حق المعرفة وحق الكشف لهم ، وكأننا
لا نوجد الا حين ينظرون الينا ، ويتعرفون علينا ، ويكتبون
عنا .. والمدهش أننا نتيح لهم كل مظان البحث والدراسة
وتفخر بأنهم يتخصصون في دراستنا على مافى هذا من
خطر سياسي وثقافي معا . ولست أزعم أنهم جميعا
« لورنس » ولكني أزعم أن « مثل » لورنس يداعب
أحلام الكثيرين .. والمدهش أيضا أن احدا حين يحب
التعمق في دراسة التاريخ أو النتاج الفكري العربي مرغم
على زيارة مكتبات أوروبا وجامعاتها. بحثا عن المخطوطات
المسروقة ، والوثائق المنهوبة ، دون أن يفكر احدا في
ضرورة احصائها وجمعها وتبويبها وتصويرها في كل مكتبة
عربية على امتداد الوطن العربي . وعلى كثرة أقسام
التاريخ وأقسام الادب العربي من جامعاتنا العربية الا
أن مؤتمرا واحدا لم يعقد لبحث هذا الامر وتنسيق
التعاون بين العلماء والدارسين والجامعات لوضع خطة
شاملة تقوم بعملية المسح المطلوبة ثم التصوير ، ثم القيام
بالعمل الاساسي والجاد ، وهو التحقيق والدراسة
والنشر ..

وجاء الاخ محمد سهيل حداد نشيطا رقيقا مرحبا ،
وصحبنى في عربته نجتاز بها شوارع صلالة الى الجبل
.. وفي الطريق كان الاخ سهيل يشير الى البساتين
العديدة التي تنتشر على جانبي الطريق ويقول :
- في هذه البساتين ثروتنا القومية الثانية بعد اللبان .

أشجار جوز الهند والقاف والموز ومزارع الخضر وبساتين
الاعناب . وجوز الهند هنا يشرب ماؤه ثم يرمى ..
قلت له وأنا أذكر ملاحظته اليوم فى صالة المطعم
فى الفندق :

.. لقد رأيت الكثيرين يشربون من شىء مدور كجوز
الهند بشفطات بلاستيك ، ثم يتركون الجوزة كما هى
ليرفعها الساقى .. واستبعدت أن تكون هذه الأشياء
ثمار جوز هند ، فنحن نأكل لحم الثمرة ونبشرها
ونستعملها فى كل أنواع الحلوى ولا نتركها هكذا ربما
لترمى كما تقول .

ضحك وهو يقول والسيارة تترك البساتين المتسدة
لتدخل بنا طريقا صاعدا حوله مساحات خضراء كبيرة :
.. ان انتاج جوز الهند هنا وفير .. ومسألة أكل لحمه
هذه أو بشره لا تتم الا بعد تجفيفه واعداده للحفظ أو
التصدير .. ولكننا هنا نحب أن نأخذ ما فى الثمرة من
شراب وتنتهى بهذا مهمتها . انها الوفرة يا صديقى ..
ولم أجبه فقد بدأ بصرى يشد الى هذه المساحات
الخضراء الشاسعة لا يقطع خضرتها الزاهية الا بعض
شجرات متناثرة ، ورابية هناك تظهر منها بعض جوانب
صفراء داكنة لصخور لم يعلها العشب الثرى ، ومن بعيد
تلوح بعض غنمات ، وجمل وحيد يسير وحده الهوينى
كأنه يتنزه فى أرض يملكها وحده .. وسيارة تسبقنا
تختفى عند منحنى الطريق الصاعد ، ونحن نصعد ونصعد
والهواء يلطف ويرق ، والشمس استحت فاختبات وراء
سحابة رقيقة ، وطيور كثيرة تعود الى أعشاشها جماعات .
وفجأة انحرف سهيل بالسيارة ليخرج بها من الطريق
المعبد الى منبسط أخضر ، وأوقفها وهو يقول :

— تسال أريك شيئاً سمعت عنه كثيراً ، وربما قرأت عنه كثيراً ولكنك لم تره بعد ..

وحين نزلنا من السيارة أشار الى أجمة أمامنا ، أو ماخيل الى بأنه أجمة مليئة بالأغصان والأوراق ، ولكن كلماته التالية أوضحت هويتها إذ قال :

— هذه أخيراً شجرة اللبان .

قلت له مفسراً ما جال في خاطري :

— لقد خيل الى أنها أجمة منبثة ..

ضحك وهو يقول :

— بالفعل هي أقرب الى الأجمة منها الى الشجرة عند من يراها من بعيد ، إذ أن أغصانها تتفرع رأساً فوق سطح الأرض ، فلا يكاد الرائي يرى غير جزءها الرئيسي .. هيا اليها لتراها عن قرب ..

كانت الشجرة شيئاً نبيلاً بالفعل ، تقف وحدها وسط هذه المساحة الخضراء الشاسعة كأنها معلم بارز يدل بنفسه وبأهميته وبوجوده .. ترتفع حوالى ثلاثة أمتار ، وتتشابك غصونها وتغلظ وتكثر أوراقها الخضراء الداكنة التى تشبه الى حد كبير أوراق شجرة الزيتون ، وعاد سهيل يقول :

— تسمى هذه الأوراق « بالثال » ويعتز البسدوى بهذه «الأوراق علفاً للجمال والماعز ، كما أن أغصانها تتخذ وقوداً ..

وكانت الأوراق تنبعث منها رائحة صحية أدركت بعد لحظات أنها تشبه الرائحة المنبعثة من اللبان نفسه ، وتحمل الشجرة فى أغصانها أزهاراً يميل لونها الى البياض . وتشكل فى الزهرة حبوب خضراء .
وقال سهيل :

— عندما تجف هذه الحبوب التي تنتظر اليها تتحول
الى انلون الاسود ، وهذه الحبوب هي السبب في تكاثر
شجرة اللبان عندما تجف وتسقط على الارض . والبدو
يسمون الزهرة « البغوة » ، اما عنقايد الزهر بما فيها
الحبوب فتسمى « الترميت » .. وعنقايد الزهر تصلح
غذاء للابل والاغنام ايضا .
سأله :

— ومتى تصبح الشجرة مثمرة — اعني قادرة على
اعطاء اللبان .

كسر غصنا رقيقا صغيرا بين أصابعه وهو يقول :
— تبأنت الآراء حول هذا ، فقد قيل انها تعطى
اللبان بعد ثماني سنوات ، وقيل بعد عشر سنوات . ولكن
المسألة تختلف من منطقة الى اخرى . ونحن نسميها
حين تدر اللبان « مغرة » .. وهناك شجر لا يعطي لبانا
وان اعطى فكميات ضئيلة وبنوعيات اقل جودة الا انه
يعتبر الشجر الذكر ويسمونه « التيس » وهو الذي يقوم
بعملية اللقاح التي تتم بواسطة الرياح .. وعندما تنبت
الشجرة وتأخذ في النمو قليلا فانهم يسمونها « التلية »
قلت له وانا اجول ببصرى في هذه الشجرة التي حملت
كل هذا التاريخ وكل هذه الثروات وكل هذا الاهتمام :
— ولماذا هذه العزلة فهي وحيدة وسط البرارى .
ضحك وقال :

— قد تنمو الشجرة بمعزل عن غيرها ، وقد تنمو في
مجموعات حسب مناطق نموها وحسب الجو والتربة .
سأله ونحن نترك الشجرة وراءنا ونتجه الى السيارة:
— اعرف ان الشجرة ملكية قومية . ولكن يبدو انها
تشكل ايضا ثروة شخصية ، فمن الذي يملكها ؟

ركب السيارة وادار المحرك ، ثم عاد بها الى الطريق
المهد يرقى الجبل من جديد ، وهو يقول :

— تملك الاشجار القبائل التى تسكن الى جوار
منابتها .. والملكية تنتقل بالوراثة الى الذكور فقط حتى
لا تنتقل الملكية بالزواج الى قبيلة اخرى . وعلى كل فهناك
اعراف قبلية تنظم حركة الملكية وانتقالها . ومواقع الاشجار
مقسمة الى منازل . وكل منزلة تخص قبيلة معينة ان
تجاورت القبائل ، ولكل منزل حدود معينة متعارف
عليها ، وتتخذ الاحجار والصخور علامات لتمييز المنازل
بعضها عن بعض منعا للنزاعات والصراعات حول حقوق
الملكية ..

هناك فى آخر الافق يظل الجبل يصعد الى ان يلتقى
بخضرتة الصافية تحفها ظلال داكنة بالسماء الرقيقة
تغلفها غلالات من سحب شديدة الرقة ، فلا الضوء يلمع
فى عنف وصخب ، ولا الالوان تتباين فى تضارب وتناقض
ولا الجمال يقطع امتداده شىء ، وعاد الاخ سهيل يقول :
— الشجرة وحدها لا تمثل الثروة هنا ، بل لعلها
لا تمثل فى هذه المنطقة جوهر الثروة ، انما نحن هنا فى
ارض ثروتها الابقار اساسا ثم الاغنام والجمال .. فهنا
مراع حرة شاسعة تجد فيها الماشية جنتها ..
قلت وبصرى معلق بمجالى الجمال وبهجة الخضرة
وامتداد كل شىء وضخامته واتساعه :

— بل هى جنة الانسان ايضا ، فلا احسب ان هناك
بقعة تعيد الانسان الى صوابه ، وتجعله يحس بمظمة
خالقه ، وبرقة الكون وجمال الوجود ، قدر هذه البقعة .
هنا لا يحول بين الانسان وربى شىء ، ولا يحول بين الانسان

وسواء طبعه شيء . هنا يستطيع الانسان أن يدرك معنى الكلى ومعنى الشمول ، ومعنى ان يذوب وجوده في الوجود حوله ليتحد معه في واحد لا عداً بينه وبين شيء ، فلا شيء هنا الا معنى الامتداد والشمول والسلام .
ضحك الصديق سهيل ضحكه نابغة من أعماقه وهو يقول :

— لم اكن اعرف ان من ارافقه اليوم شاعر ..
قلت والسيارة مازالت تصعد وتصعد ، وأنا لا احس لحركتها صدى لنعومة الطريق وسوائه ، ولان كل حواسي تركزت في العين ترى والصدر ينشرح برقه الهواء .
— ما الشاعر يا صديقي الا انسان — رق حتى شعر ،
وشف حتى احس ، فقال — وفي مثل هذا المكان يرق الانسان ويشف وليس في حاجة الى القول ، فهو شاعر وان لم يصدر عنه قول نسميه الشعر ، الان أدركت لماذا كان الانبياء من الرحاة ، او ممن مارسوا الرعى فترة مامن حياتهم ، والان أدركت لماذا كان نبينا يصعد الى الغار ليتهجد ، والان أدركت لماذا كان الشعر هو فن العرب الاول ، ولماذا نبغ فيهم العديد من الشعراء المجيدين ..
ولماذا ارتبط هؤلاء الشعراء بالطبيعة حتى ان بعضهم قد توحد معها .

عاد يضحك وهو يقول مشيراً بيده الى الطريق الصاعد أمامنا :

— معظم الزوار يتجهون عند نقطة التحول أمامنا هذه الى اليمين فهذا الطريق يقود الى قمة الجبل ، والكل يحب أن يصعد الى القمة وأن يقف عليها لينظر الى الجبل كله يمتد تحته ، أما الطريق المتجه الى اليسار فهو يقود الى قبر النبي ايوب ، مادت قد ذكرت الانبياء .

فجأة توقف شيء في داخلي ، وجعلت انظر الى النقطة التي تقترب منها حيث يصبح الطريق طريقين في وجوم وشرود ، ولاحظ رفيقي مااعتراني فهذا من سرعة السيارة بعض الشيء وهو يقول في قلق :
- هل قلت ما اغضبك او ضايقتك او .. قل لي لماذا وجعت فجأة ..

قلت له وكأنني أعود بكل كياني الى وراء سسابعها في الزمن عبر الكهولة والرجولة الى أيام الشباب المتوفر الحلو :

- منذ عشرين عاما تقريبا نشرت لي مسرحية من ثلاثة فصول بطلها النبي ايوب الذي تتحدث عنه ، والذي جاءت حكايته في القرآن والتوراه وكتب التفاسير القديمة ، فان كنا نتكلم عن شخص واحد فهذه مصادفة عجيبة ، فلا تندهش ان اصابني الوجوم .
قال :

- بل نحن نتكلم عن نبي واحد هو ايوب النبي .
قلت ومازالت أسبح في ذكريات عناء الصبا في فهم سفر ايوب وتباعد الشخصية في كل المصادر ، وكيف استهواني موقف التحدي الذي وقفه ايوب من رهان الرب مع الشيطان حين ذكر الشيطان ان ايوب عبد صالح لانه غني ولان الله اعطاه كل ما يشكره عليه ويعبده من أجله :

- ليس لايوب رسالة الا حياته وكيف جاءت البنا في هذه الصياغة الدرامية . فحياة ايوب هي تراجيديا السقوط امام تحد لا يعرف هو من أمره شيئا .. هل الانسان يعبد الله لانه يمنحه كل الاشياء التي يحبها فان منعه عنها كفر به وكف عن عبادته ، ام ان الانسان يعرف

معنى الحب المطلق فهو يعبد من منطلقه ، وهو يؤمن من منطلقه ، وهو يجعل منطقة العبادة ومنطقة الايمان من معنى الحب ، والذي يحب لا يرجو النفع ثمنا لحبه ، ولا يشترط العطاء ثمنا لاستمرار هذا الحب ..
قال سهيل :

— لا أعرف عن هذا كله شيئا ، فقط أعرف انه نبي جاء ذكره في القرآن الكريم ، والناس يحسبون انه هاش هنا ودفن هنا في هذا الضريح الذي تراه .
وكانت السيارة قد دارت مع الطريق الجبلى الصاعد ، وكنا نقرب تدريجيا من قمة مسطحة وسطها مجموعة كثيفة من الاشجار ومبنى على اليسار كأنه ثكنة أو استراحة ، ومبنى على اليمين كأنه مسجد صغير . وتوقفت السيارة وسط سكون كامل الا من أصوات الطبيعة الحية وهبات النسيم ، وأصوات طيور مختلفة وروائح عطرية ونباتية متألفة في اتساق جميل . كانت الاشجار تكون أجمة صغيرة ، وكانت فروعها واغصانها تغطي ذلك البناء الساكن الذي يمتد على اليمين كأنها تحتضنه وترعاه ..
واقتربنا من المبنى فاذا هو مطلى باللونين الابيض والاخضر على شكل مستطيل من دور واحد يمتد مسافة طويلة — وخلقنا الاحدية ودخلنا المكان المقطى كله بالسجاد ، تضيوؤه نياقد متعددة ومتجاورة تصب فيه النور صبا من كل ناحية . والمكان على اتساعه لا مجال للحركة الحرة فيه ، اذ يتوسطه ضريح ٩ يعلو عن سطح الارض كثيرا ويمتد لمسافة طويلة تبلغ ستة أمتار تقريبا ، فيكاد يبتلع المكان كله ، والضريح على شكل جسد مسجى لمعلاق يتمدد في صلب المكان فيملؤه كله ، لا يبقى الا مساحات ضيقة في الجوانب امتلات بخزانات صغيرة للسكرتير ،

ومسائل شرقية وحملات للقراءة وبعض آيات معلقة على
الجدران ، ولا أحد في المكان ، ولا شيء آخر غير الضوء
الساطع ..

ليبك نبي الله لبيك ..

هأنذا نلتقي على غير موعد ، ومن غير ترتيب مسبق ،
ها أنا في هذا المكان امامك وكأنى كنت من الاصل
اقصد اليك ، وكان كل القوى والظروف كانت تسوقني
سواء الى أن أقف خائفا بين يديك . قلبك نبي الله
ليبك ..

يا من لم يقهره عذاب الجسد ، فعلا عليه وعلا ، وقهر
معنى الالم بمعنى الحب فلم تهتز ثقته بمن يحب ، لانه
حين أحب أعطى وجوده الانساني كاملا لمن يحب .. أحب
شاكرا ، ثم أحب راضيا ، ثم أحب لانه لا يملك الا الحب
وهو أقوى مافى الانسان ووجوده . فعلمت البشرية أن
الحب هو الاصل وهو الكل ، وهو المعنى الذى يمكن أن
يكون بذرة الوجود وسره ، وأن يكون معنى الاستمرار
وقهر الموت والفناء ، فحين يبقى الحب ، يستمر
الوجود الانساني ابدا شاسعا مدلا مزهوا بمطاء لا يحرفه
الا الانسان الانسان ، قلبك نبي الله لبيك ..

يا من لم يقهره عذاب الروح ، فسما عليه وسما ،
تمردت على معنى ظلم من أحببت ، ما أنت ليقهره
الحب الاعظم ، ما أنت لتتجلى قوة الانتقام العارمة فيك
وفي عذابك ، ما أنت وقد وهبت قلبك لتنشعب في قلبك
مخالب لا قدرة لأحد باحتمال قسوتها وعنفها ، ما أنت
يا انسان لتعطى فى وجودك كل مظاهر الغضب
والانتقام والعنف .؟ ما أنت يا انسان فى ظل المسكوت
الاكبر حين ترهو كل القوة بتحطيمك ، وترهو كل المظنة

بأذلاك ، وتزهو كل القدرة بصفارك ، ما أنت ومن أنت
.. انسان يحس معنى القدرة ، ويقر بعظمة القدرة ،
فما للقدرة لا تتخطاك ، وما للكأس المر لا يعبرك ؟ وتمتلىء
نفسك مرائر ، ويرتفع صوتك الخافت ليهتف : ما انا
لتنجلي على بسخطك ، ما انا لترزح على بكل ثقلك ..
شاه اليوم الذى حملت فيه امرأة بى ، شاه اليوم الذى
قالوا ولد انسان ، شاه اليوم الذى نظرت الى فيه ،
انظر ورائى واهتف ماكان لعطائك ان يكون الا الحب ،
وما كان لعذابك لى الا ان يكون الحب .. لماذا تتقطر
حبائى الصاب والعلقم ، ولماذا عذابى يامن احببت ؟ اقدر
ان اتعذب فى حبك ؟ تجليت يا حبي الاعظم ، وتجلت
عظمتك .

صدقت يا نبي الله ..

ليبك نبي الله لبيك ..

قال الرب : لى عبد صالح فى ارض عوص ، تبرا
وخلص ، صافية نفسه ، فكان نعم العبد الصالح .
قال ابليس : ما عبدك الا لنعمك عليه ، فاطلق يدى
ادم ما انعمت به ، وستراه يكفر ..
قال الرب : فاطلق يدك ولن يكفر ايوب .. فايوب
عبد صابر صالح ..

وانقضت الصواعق تحرق مخازن الفلال واشجار
الفاكهة ومزارع الكروم والخضرة .. وصير ايوب ، ورفع
كفيه ضارعا للرب ، وقال : انت اعطيت وانت اخذت ،
والحمد لك فيما اعطيت وفيما اخذت ، تقدس اسمك
وتقدس آلؤك ..

واهتزت الارض زلازل فدمرت المساكن العامرة ومات
تحت انقاضها الابناء والبنات ، قره العين وامل الفؤاد ،

ومعنى ان يكون للانسان وجود على الارض ، انه سارت
الجدران الصلبة فتحطمت تحتها الاجساد الرخوة ،
وضاع عمر الوجود نفسه حين ضاع أبناء ايوب .. ورفع
كفيه ضارعا للرب وقال : ما كان الاولاد الا منحة منك ؛
فحين جاءوا كانوا درة نعمتك ، وحين ذهبوا كانوا اختبار
طاعتك ، فالحمد لك فيما اعطيت وفيما اخذت ، تقدس
اسمك ، وتقدس الؤك .

وهبت الريح الصرصر السوم ، تحمل الجسرايم
والموت ، وانقلبت الماشية ترفع اقدامها مستسلمة الى
الموت المخيف المنتشر العاتى ، الف الف بقرة ، والف الف
ناقة ، والف الف كبش ونعجة وعنزة ، اجتاحتهم الموت
الزاحف ، وشرعت عيون صماء الى السماء ، وتعفت
جثث كانت تحمل الثروة والجاه ، وضاعت الثروة وضاع
الجاه .. ورفع ايوب كفيه ضارعا للرب وقال : ما الايقار
والاغنم والابل الا رمز رضاك فان منحتني لى فالحمد لك ،
وان اخذته منى فالحمد لك .. يرتفع الانسان وبسط
الناس بما اعطيت ، وينخفض قدره بما اخذت ، ولكن
الانسان امامك هو هو ، الحب لك والشكر لك ، والرضا
والقناعة بما اعطيت واخذت ، تقدس اسمك وتقدس
الؤك .

وزحف العفن الى الجسد فباخ بناؤه ، الاغصاء
انحلت ، والعظم وهن ، والقروح ملأت الجلد واللحم ،
وتقيعب حتى نفرت الزوجة والصحاب . الطعام يحمل
الى هذابي ، فلا آكله خرف التعاسة والالم ، خبزي
هذابي ، وحنطنى شقائى ، وجرة الماء هول بمسرق
وحودى كله ، والقيح يملأ جندى ، والدود يقفز منه
ابدانا بان الجسد ضاع ، ولا نهاية لكل هذا المذاب

المقيم .. من أنا حتى تزرع بعذابك علي ، من أنا حتى
تأكلني بقوتك ، من أنا وما أنا بآرب الوجود العظيم ،
تقدس اسمك وتقدس آلؤك .

وهب أهل عوص وقالوا كفر أيوب فحق عليه النفي
من الأرض النقية التي لا تعرف إلا الصالحين ، ملعون
هو ، مطرود هو ، مشرد هو ، فقد رفع صوته على الرب
ورفع أصبعه إلى السماء .

وضحك إبليس ضحكة الانتصار وقال : ضاع أيوب
وكفر حين ضاعت منه نعمتك وسلبت عنه عطايالك .

تقدس الرب وعلا .. فكلمة الرب هي العليا .. أيوب
عبد صالح ، وما كلمات أيوب إلا الصدق ، فما كفر
وما عصي وإنما اشتكى وتضرع ، ففر الله لايوب فارفع
نعمتك عنه فقد حوته الرحمة الكبرى ، والغفران الأعظم
.. ليبيك نبي الله ليبيك .. ثم ليبيك نبي الله ليبيك ..

قال سهيل :

— ابكى ..

وانتبهت إلى وجوده ، وإلى الضريح أمامي وإلى الغرفة
الساطمة الضوء ، وأحسيت رأسي وأنا أقول :

— بل ابكى يا صاحبي .. وليت لي مدد من دموع
فأستمر في البكاء .. بل جفت الدموع حين احتججت
إليها .. جفت الدموع .. هذا عذاب انسان عظيم سجل
هذا به في سجل لا يموت ولا ينتهي ، هذا وجود انسان
عظيم قهر التحدى وأعلن الكلمة الكبرى ، أن بالحب
يعيش الانسان ويوجد الانسان ، وأن بالصدق والكلمة
الصریحة ، يعود الانسان إلى ملكوت الرب ليحيا في جنة
الرضا المقيم ، وفي ضمير كل انسان إلى يوم الرضا
المقيم ..

قال صاحبي :

— لست أفهم .. لو اعرف ان دخلتنا الى هنا ستفعل
فيك هذا ما جئت بك ..
قلت له :

— يا صاحبي انت لم تجيء بي ، انما جاءت بي القدرة
.. وجاء بي أمر صاحب القدرة . أعوام وأعوام وأنا
أقرأ كلمات أيوب ، وأعوام وأعوام ، وأنا أسقط عذاباته
على قدر أنسان العصر لتتقطر كلماته مرائر في قلبي ،
ولاستمد من مرائر كلماته معنى الصمود في وجودي ،
وقدرة الاستمرار والبقاء في دنياي ..
قال صاحبي :

— أشركني فيما تجد .
قلت له وأنا أنلفت حولي ، أنظر الى الضريح الممتد
امتدادا خرافيا بغمرة ضوء مبهور :
— ليت الشمس تخافت من ضوئها حتى أخلو اليه ،
ليت من أقاموا هذا الضريح فهموا ان الانسان ليس
امتدادا طويلا عريضا . فتراضعوا في حجم الضريح حتى
اتواصل معه ، ليت يوما هذا كان حين كنت أكتب عنه
حتى أصدق أكثر وأعقب وأجل ..
قال الصديق :

— كفى ونخرج .
قلت له :

— نحن مسلمون ، لنقرأ الفاتحة على روحه ، فقد
علت الروح وطهرت حتى كانت من أشرف الارواح التي
عبرت عن نفسها بالكلمات المنقوشة على الألواح ثم على
القلوب ، سرق اللصوص كلماته ، ونسبوها وتسبوه الي.
أنفسهم ، ولكن روحه ملك الإنسان وملك هذا المكان ..
وخرجنا ، وأنا أهيم في صمت صاحب : ليك نبي

الله ليك ، ليك حبيب المعنى والروح القدس لبيك ،
ليك معنى الانسان والحب ليك ..

وعند الباب ونحن نلبس أحديتنا من جديد ، رأيت
أول انسان حى فى المكان غيرنا ، كان يجلس عند المبنى
المقابل ، عريانا هو ، مطاطىء الرأس فى جلسته ، جسده
الشديد السمرة ملىء بالقروح والندوب ، فى يده عصا
لا يستند اليها وانما تستند اليه ، فى عينيه الم
صارخ ، وفى وجوده المهزوم الضعيف المتهاوى عند مخافة
الطريق استسلام هادىء كريم .. وقلت لصاحبي :

— أعرف الحساسية الوطنية التى تملأ أعطافنا أبدا
.. ولكنى احب ان اعطى هذا الرجل كل ماعسى ، فهل
تسمح لى ان اوفى ديننا قديما انت لاتعرفه ..
نظر الى دون أن يفهم ، ولكنه كان ذكيا ومجساما
ورقيقا حين قال :

— افعل ماابدا لك ، فلست أعرف احدا رافقته فى
رحلة الى هذا المكان ارتجى كله كما حدث لك ..

وتقدمت الى الخطام الجسد ، العذاب الانسان ،
الصبر الهدوء ، وافرغت كل مامعى فى راحته ، ولم
انظر اليه وهو يرفع عينيه نحوى انما مضى مسرعا
وورائى سهيل ..

وقال سهيل :

— لماذا توقفت .. نركب السيارة لنعود ..

قلت له :

— انت تعرف هذه المنطقة فيما اظن ؟

قال :

— بل انا ابنها ، قاهلى هنا ، وولدت هنا ، وكل من

هنا يعرفون من انا ..

قلت في اوتياح شديد :

- هائل وتمام .. اذن اترك السيارة ، ودعنا نتحرك على اقدامنا في جولة حقيقية وطبيعية وسط المكان .. ضحك وقال :

- كنت اريد ان اقترح عليك هذا ، وخشيت انك تريد ان ترى كل شيء رؤيه السائح من خلال زجاج سيارة ، اما السير والجولة على الاقدام فهذا ماحبه ومااريد ، فكم بعدت عن المكان حتى اخشى ان اصبح غريبا عليه ، هيا وتعال ، وارجو ان تقوى على الجولة ..

لم اكن اسمعه ، فقط كنت اسير ، اقدامي تندفع ، وكأني اعرف المكان والارض ، وكأني كنت هنا من قديم الزمان ، واكون هنا كل زمان .. واسرع لتوافق خطواته خطواتي ، وقد تركنا السيارة في مكانها وانطلقنا الى العالم الاخضر الزاهي المحيط بنا .. وقلت له :

- اكنت تريد ان تحرمننا من كل هذه الخضرة . قال وهو يقودني عبر معرات غامضة لم اكن اعرفها وسط الجبل :

- هذه ارض لها اصحاب ، ولها حدود .. وكل ثنية في الجبل تحتاج الى اذن حتى نعب من مكان الى مكان .. ولو أنني اريد ان تعرف ان الناس هنا لا يهتمون كثيرا بمن يعبر طالما هو يعبر في سلام .. قلت :

- نعب في سلام اذن ، وانت مفتاحي الى هذا السلام .

لم يتكلم ، وانما سار معي .. وكل جزء من الجبل الاخضر يسلمنا الى جزء اكثر خضرة واشد خصبا ، ومن بعيد تلوح مجموعة من المنازل تريد ان تختفي حتى لا ترى ،

اسقف فى حذاء الارض تقريبا يعلوها النبات الاخضر
ليخفيها عن العيون . ولكن الذى يكشف انها منسازل
لاحياء ، مجتمعات من البقر تتحرك ويخرج الى مرمى
البصر ثم يختفى بعد حين ، والابقار هنا رقيقة جميلة
كانها وجدت لتكمل مع الطبيعة الخضراء معنى موسيقيا
متوحدا وعميقا .. ونحن ندور فى الطريق اذ بنا نضل
فنصل الى بداية حلة . ويجرى صبي ، ثم تختفى من امامنا
فتيات صغيرات ضاحكات ، وتبدو من بعيد ام صبية تنهر
هذا العيث من الصغار ، وتطل علينا من بعيد بجمال
بضارع جمال الطبيعة وبحياء بضارع حياء الطبيعة
وتختفى ، ويهتز كل شيء فى اعماقى واقول :
- اذن هنا حياة .

ويضحك سهيل من سلاجاتى وعفويتى ويقول :
- وماذا كنت تنتظر اذن .. هنا الحياة .. ولكن هيا
بنا نبعد عن هذه المنازل حتى لا نضايق اصحابها ..
وعدنا نرقى الى الجبل من جديد .. لا شيء الا الخضرة
الممتدة ، والا الصمت المقسم ، وتختفى كل مظاهر الحياة
كأنما تخشى فينا عدوا يهاجم معنى الحياة ، ونحن نندفع
الى سفح الجبل ، وتختفى بقرة ، ويظهر بعير ثم يختفى ،
ونغوص فى الارض الخضراء ، ممتدة كالابد ، ولا شيء
فيها الا انا فوق جبل عريض السفح لا ينتهى ، وانا
نتحرك فى ملك الله .. حيث لا شيء الا عظمته ووجوده
وقدرته .. وقال صاحبي :

- هل سنستمر فى السير على السفح كثيرا ..
ضحكت وانا انظر الى عينيه الضاحكتين الطيبتين
وقلت :

- الجبل لا انتهاء له .. وتنتهى قدراتنا على الحركة ،
والسفح الاخضر لا نهاية له الا المزيد من الخضرة الممتدة

بلا نهاية ، وانا اعرف ان اقدامنا لن تعبره أبدا الى نهايته
فلنعد أذن .

قال :

— ضايقتك حيث كنت منطلقا ، ولكن الليل يقبل ..
قلت له :

— ياسيدى هذه ارض عوص ، ان لم تكن ، ما كان
أيوب .. هذه ارض توحى وحدها معنى الصراع الى
القمة . هذه هي الارض التى كتبت فيها هذه الكلمات
التي ثبتت للانسان معنى الخلود فى مواجهة القمة ..
فهنا يلتقى الانسان بالقمة ، هنا يعرف الانسان معنى
التحدى ، وهنا ينطلق الانسان ، فهنا الحب المطلق ،
وهنا العذاب المطلق ، ثم هنا الايمان المطلق .. هنا ارض
عوص ، والا فاتنى كل شيء ، وتحطمت أحلامى ورؤاى
الى الابد ..
قال :

— لست أفهمك .

قلت :

— انا أحس فأنا أفهم ، فأنا والارض اتحدنا ، كما
اتحد بها من قبل أيوب فأخرج كلماته ، وسرقها وسرقه
كله من سرقوا كل تراثنا وادعوه لانفسهم ، فأيوب من
هذه الارض ، وهذه ارض عوص انبتت هذه الرؤية
العظيمة المتسعة للحب ، كما امتدت عظمة متسعة
خضراء .

وعدنا الى السيارة تدور بنا فى الجبل وتعود بنا من
جديد الى سجون الجدران والحوائط والبشر .

بعد أشهر من هذه الزيارة كنت فى صنعاء ، وفى

منزل الدكتور عبد الكريم الارياني كنا نتحدث عن سرقات
اليهود لتراثنا السامي كله ، وحكيت هذه التجسرة
الروحية الفذة واذا بالدكتور يوسف عبد الله رئيس قسم
الآثار بكلية آداب صنعاء وعميدها السابق يقاطعني
قائلا :

— عجيب ماتحكي ، لقد زار المستشرق «يرى» عالم
الآثار البريطاني المنطقة الجنوبية كلها ووقف عند الدلائل
العلمية ، والحفائر التي تؤكد ماذهبت أنت اليه بتجربتك
الصوفية هذه ، وألف كتابا عن هذه المنطقة أسماه
« أرض عوص » ..

وداعا أرض عوص ، ووداعا نبي الله ، دعوتك الصامته
قادتني الى أرضك ، ووقفتني أمام ضريحك ، اثرت
وجداني وقلبي .. وكفى أنني رأيت مثواك وأرضك قبل
ان أموت ..
واقتربت السهارة من صلالة وقد بدأت اخسوء الكهرياء
تفمرها بفيض من نور ..



١ طورا فرقا الدامية

كان هدى الاكبر من الرحلة هو الالتصاق بروح الشعب فى اطار التعبير الشعبى عنه اى فى الفنون الشعبية ، او فى العطاء الفولكلورى المتاح والذي لم تذهب به رياح التغيير والتمدن وتذروه بددا منسيا لارجعة له ولا امل فى التعرف عليه . وفى مكتب الاعلام قال لى الاستاذ مبارك الرواس :

— لقد حجزنا لك موعدا فى التلفزيون هذا الصباح ، وقد اعدوا لك عدة افلام تلفزيونية سجلت لاعمال من الفنون الشعبية هنا ، وسيلقاكم مخرج هذه الاعمال وهو الاستاذ عبد الله بن صالح بن حيدر ومديعها المعلق عليها الاستاذ سالم بن عوض النجار . قلت له :

— كنت ساقترح مثل هذا الامر لان زيارتى مستتتهى لصلالة عصر اليوم ولا اعتقد ان الوقت سيسمح لى برؤية شىء او الالتقاء باحد ، ولكن هذا اللقاء التلفزيونى سيحل الكثير من المشاكل .

وصحبنى الاخ محمد سهيل حداد الى مبنى التلفزيون فى صلالة . وهم مبنى متكامل اذ يضم الاذاعة والتلفزيون والارسال معا . ولهذا فالحراسة عليه مشددة . . والتقينا بمدير الاذاعة فى صلالة الذى قدمنى الى الاخ عبد الله بن صالح ، والاخ سالم بن عوض .

وصحبني الاثنان الى غرف الاستماع او المشاهدة بمعنى
أصبح ، وقلت وأنا آخذ مجلس أمام جهاز التليفزيون
كبير الشاشة :

— الفترة القصيرة التي أتبع لي أن أرى فيها صلالة
أكدت لي أنها مخزن مهم وضخم للتراث الشعبي فما زالت
الحياة تسير بطبيعة قريبة من البساطة والارتباط
بالتقاليد ، والناس هنا أيضا أصحاب بديهة حاضرة
ونكتة مواتية ، وهذا يشير الى قدرة على الإبداع
الشعبي .

قال الأخ سالم ، والاستاذ عبد الله يعد شريط الفيديو
الاول للمشاهدة :

— لقد حاولنا في صلالة أن نسجل بالصوت والصورة
كل ما أمكن لنا أن نسجله .. وبعضه التقطناه كما هو ،
والبعض الآخر درسناه دراسة وافية قبل أن نضع له
سيناريو يتم على أساسه التصوير . وهذا واحد من
هذه الأفلام ذات السيناريو . وهو يبدأ بصناعة الصنبوق
ثم صيد السردين .

وكان الفيلم قد بدأ يدور بالفعل . وبدأ صوت الأخ
سالم بن عوض النجار يملأ جو غرفة الاستماع بينما
أخذت المشاهد الاولى تتوالى .. وضحك المخرج
قائلا :

— صناعة الصنبوق شيء مميز لأهل عمان ، والصنائع
يتوارثونها أبا عن جد ، ولو أن أخانا سالم هنا خرج
عن هذا التقليد فترك صناعة الصنبوق الى صناعة
الاصوات ، فهذا الذي تراه هنا يشكل الصنبوق بكل
مهارة واقتدار عم له .
قلت ضاحكا :

... لم تكتنف الاذاعة بأن تقحم على الاذواق الشعبية ما يهدد أصالتها بالضياح فهأى تشرق الرجال من ترائهم الحرفى الشعبى .

قال الانح سالم وهو يشاركنا الضحك :

... لقد حلت مخترعات العصر محل هذه الصنعة المتوارثة حتى قل الطلب عليها . وقد عانيت الكثير كى أقنع العم هنا بأن تصور معه مراحل الصنعة مرحلة مرحلة ..

وفى نفس الوقت جاء صوته من خلال الفيلم يصف لنا هذه المراحل ، كيف تعد الاخشاب الرئيسية التى تكون العمود الفقرى للقارب ، كيف تختار الاخشاب التى ستكون جسد القارب ، كيف تصنع الحبال التى ستضم هذه الاخشاب بعضها الى بعض ، ثم كيف تستعمل هذه الحبال المصنوعة من الياف جوز الهند فى مهارة وحذاق لتعطى القارب شكله الاخير . ووسط الاهازيج والافغانى يحمل القارب الى حافة البحر ، وقبل أن يدفع الرجال بالقارب الى امواج البحر تساق بقرة لتدبج امامه وتمتلط دماؤها بماء البحر ويمثل لحمها وليمة فاخرة يدعى اليها طاقم القارب وصناعه والمشاركون فى رحلة الصيد . وتبدأ الرحلة ويشارك فيها مجموعة من فوق السباحل الى جوار مجموعة القارب ، وتجر الشباك المليئة وسط افغانى عمل جمعية لست اظن انها دونت كلمات ولحننا الا فى هذا الفيلم . والرقص والفناء بصاحبان عملية جمع الصيد الوفير الذى يرمى بكمية ضخمة فوق الرمال ثم يحمل فى مكاتل صغيرة الى الجمال ليفرغ فى الاكياس العميقة الكبيرة التى تحملها . ويأخذ المحتاجون حقهم فى السردين الذى يستعمل بعضه فى غذاء الجمال

والحيوانات . وقد ذكر ابن بطوطة هذه الظاهرة في
اندهاش ، كما ذكرها الكثيرون غيره من الرحالة العرب
والأوروبيين على السواء . ومنحة الطبيعة السخية هذه
زاوجت بين البحر والصحراء ، وبين القارب والجمال ،
وبين عطاء البحر وعطاء البر لتعطى تلك الميزة الخاصة
لهذه الأرض التي كانت دائما اللقاء الحى المتجدد بين
الصحراء والبحر ، او بين طريق البر وطريق البحر في
الوصل بين المدنيات والحضارات ، وفي خلق النبض
الدائم للثروات المتدفقة من الشمال ومن الجنوب معا ،
عبر الصحراء وعبر المحيط معا . . . انتهى الصيادون
مهمتهم ومضوا يغنون فوق جمالهم قاصدين شسين
الصيادين ، وأمام بيته ترتفع حناجرهم بفناء مبتهيج
هو مزيج من الاحساس بالزهو للعرق الذي صنع الخير ،
والخبرة التي وجهت العرق ، والاحساس بالشكر
للرب الذي حفظهم في رحلتهم ، ورزقهم الخير الوافر
الذي عم على الجميع . . . ومن داخل الدار تخرج الهدايا
السنية من البلح والدقيق - ووسط الاغاريد والاهازيج
تتحرك الجمال مفادرة الدار في فرحة وأمل جديدين . .
ومن هذا النوع من التسجيل الفيلمي لتقاليد العمل
المميز شاهدت عدة أفلام . واحدا منها عن موسم جمع
المان ونقله وتخزينه وبيعه . وأفراح الاسر المنتجة
للان والمتاجرة فيه . وما يقام اثر الموسم من احتفالات
وأفراح . . . وآخر عن زراعة الأرض وسقيتها عن طريق
المساقى التي تديرها الجمال ، يفنى لها حاديتها وهي في
ذهابها ومجيئها تملأ القواديس وتفرغها في مجارى الماء
في صبر وإناه ، والنساء يلدن الحب في الأرض التي
تم عزقها - ثم مواسم الحصاد ، وجمع المحاصيل في

جهد مشترك يساهم فيه الجميع وسط رقصات جماعية
وأغان بسيطة تعتمد على الإيقاع البسيط والنغم الرفيق
وأصوات المجموعات المشتركة في الأداء ..

وهذه الألوان من الأفلام التسجيلية هامة جدا ، وإن
كانت تهتم بالجماليات الفنية في العرض والتصوير ،
وبالمعلومات العامة التي تحيط بالمعرفة نفسها . ولكن
اهتمامها بالثروة الفولكلورية التي تسجلها اهتمام يأتي
في المرحلة الثانية ، أن كان يأتي على الإطلاق . فالراصد
هنا فنان يقف وراء الكاميرا ليُسجل بها أحسن ما يراه ،
وأجمل ما يحس أنه مناسب للذوق العام ، وما يوائم ولا
يجرح الإحساس الحضاري النامي في البلاد . ولذلك
فهو مهتم كثيرا بالأغنية والحركة الجمالية الإيقاعية
المصاحبة لها - ويهتم بمناظر البحر وتناسق الألوان ،
تناقضها ، ولكنه لا يقف وقفة متأنية عند لحظة نصر
الديبحة أمام المركب وتحت قاعها لتضطبع المياه التي
تلامسها لأول مرة بدم الفدية القاني ، بل لعله يعمرها
بسرعة حتى لا يشوه جمال المنظر بمعنى الدم .. بينما
الراصد الفولكلوري يقف عند هذه الظاهرة وقفة طويلة ،
وقد لا يستوقفه من الفيلم التسجيلي كله غيرها ، إذ هي
تسلمه إلى حقيقة وجود التراكم الفولكلوري القسادم
من عهود المعبود والفداء لرب البحر ، وطقوس الصيد
التراثية القديمة . والفيلم يقفز على الفواصل الزمنية
لأن الفيلم يعتمد أساسا على الحركة والفعل ، أما ما يملأ
هذه الفواصل الزمنية من عادات وممارسات وطقوس
فهى تغيب بالضرورة عن عمل لم يتجه أصلا إلى التسجيل
الفولكلوري . وعلى الرغم من فائدة هذه الأفلام
التسجيلية وشدة أهميتها إلا أن البعد العلمي الفولكلوري

يكاد يغيب عنها ، وليس هذا طعنا فيها . وانما هي أدت رسالتها الكاملة من الناحية الفيلمية والتسجيلية ، وهذا بالفعل يكفيها ، فما يريد دارس الفولكلور لا يصلح أساسا للمتعة الجمالية والتذوق الفني ، وانما يصلح بالدرجة الاولى للرصد التراثي الفولكلوري ..

والنوع الآخر من الافلام التي توالى عرضها في هذه الجلسة يسجل بعض الاحتفالات الشعبية التي تمارس بمناسبة شعبية عامة كهوكب الزفاف وكالمولد . وبرز المولد التي شاهدهت فيلما تسجيليا عنها كان مولد الشيخ فرج .. والفيلم تصوير واقعي لاحداث المولد ، يتبع مراحل الاحتفال به من لحظة توافد الاتباع الى الضريح ولحظة اعداد الموكب ، ثم خروج الموكب يتصدره الشيخ حاملا الكسوة - تتبعه الاعلام والطبول والاناشيد والرقصات الدينية تطوف بأرجاء المدينة . وتصحبها المبارزات بالعصى ، والهجوم او تمثيل الهجوم على السائرين ، ثم تحطيم الاواني الفخارية ، وايهام الممارك ومبارزات ، مما يوحى بحكايات شعبية حول هذا الشيخ ودوره في الحياة ، تمثلها هذه الطقوس ، وان فقد نصها الشعبي من السرد الفيلمي ، وربما من ذاكرة الاتباع او معظمهم ، الذين يمارسون هذه الطقوس كجزء من الاحتفال الشعبي دون ربط لها بالاصول القصصية التي تمثلها الحركات التي يقومون بها .. ونعود هنا لنكرر ما قلناه من قبل ، من ان العمل الفيلمي جميل كعمل تسجيلي ، ولكنه يسجل الظاهرة ولا يعمقها او يقدم خلفياتها الفولكلورية التي لاشك تتهدد بالانقراض والزوال .

والنوع الثالث من الافلام كان يسجل رقصات شعبية بصحبها بالطبع الاغاني الشعبية ، وهي رقصات متعددة

ومعروفة بالاسم ، كما أنها ترتبط بالمناسبات الاجتماعية كالزواج ، والموت ، والرحلة الى البحر ، وانتظار المسافر ، والاحتفال بقدوم الغائب . وهذه المجموعة من الافلام تعتمد في تقديم الرقصات والاغاني على فرقة ثابتة من النساء والرجال السود البشرة الافريقي الملامح ، يقدمون الرقصة وما يصحبها من اغنيات من اولها الى آخرها ، ولا يشاركون احد من خارج هذه الفرقة التي تكررت في كل العروض المسجلة ، وان شاركهم احد ، فمشاركون مجموعة من الاطفال من الصبية والبنات الذين لم يصلوا الى سن الحلم . فنحن اذن امام فرقة محترفة يحفظ افرادها الرقصات المتداولة ، والاغاني المصاحبة ، ويؤدونها في الافراح والمناسبات والاحتفالات لقاء اجر . وفي الدراسات الفولكلورية نسمى اعضاء هذه الفرق باسم « مؤدى التراث » فرقة لهم عن الاسم الاخر الذي نطلقه على الذين يتوارثون التراث مسبق حفظته من الناس العاديين وهو « حامل التراث » . . . وحامل التراث هو الوريث الطبيعي للعطاء الشعبي لبيئته وهو ايضا الذي يسقط على هذا الموروث هموم عصره ، واضافات هذا العصر ، ويلونه بالعطاء الاجتماعي المتجدد ليظل دائما هو الماضي الحي . ولهذا فان دارس التراث يبحث عنه في مظاهره لانه هو نفسه اصل من اصول البناء الفولكلوري المتجدد للموروث الشعبي . اما مؤدى التراث فهو محترف يتخذ من التراث وسيلة حياة ، ويهدف من ممارسته الى الامتاع الفني عند المتلقي وارضائه ، ولذا فهو يدخل حرفيته واتقانه لفن استهواء الجماهير ، ولا يجد حرجا من ان يغير في النص ليكون اكثر تأثيرا وتشويقا وامتاعا . وتدخل في ادائه حرفيات كثيرة احرفية الاداء والرقص والموسيقى . وهذه الفرق

المحترفة تقدم نفسها باسم الفن الشعبي وهذا حقها ،
فما تقدمه يعتمد اعتمادا كبيرا على ما حفظوه وجمعوه من
الموروث الشعبي ، وهم لهم يكون عند الدارس صيغة مع
صيغ العمل الشعبي في مرحلة ما ، وفي بيئة ما ، وعند
قدرات فنان شعبي ما . ولكنه لا يكون إلا مجرد صيغة
دالة ، فان ما بهم دارس التراث وجامعه ، هو ما عند
حامل التراث الاصلى ، أى قبل ان تدخل فنون هذه
الفرق وحرفيات اعضائها . . وقد تعرضت لهذه القضية
من قبل لانها قضية هامة وخلافية ، واحسب ان الكثيرين
من جامعى التراث الشعبي لا يجدو غضاضة في ضم
اعمال هذه الفرق ، أو اعمال المحترفين عامة الى مصطلح
الفولكلور . فنحن فى كثير من الاحيان لا نجده سوى
ما عندهم من بقايا الموروث الذى فقد واضاعه حملته
الاصليون .

وأيا كان الامر فان تناول هذه الفرق له تناول بدائى
يقرب به الى حد ما من أصوله الاولى . الا انه يحتاج
الى دراسة وتحليل يعيدانه الى منابعه الاصلية حيث
أخذه هؤلاء الفنانون من حملته . كما انه يحتاج الى
دراسة وتحليل يحددان الاطوار المختلفة التى تلقاها
فيها هؤلاء الفنانون جيلا بعد جيل ، وما أحدثه كل
جيل منهم من تداخلات فى صلب العمل الشعبي أو من
إضافات زادوها عليه . وطالما ظل الاداء فى أيدي هذه
الفرق الشعبية فنحن فى حاجة الى سرعة تسجيله قبل
أن ينتقل منهم الى فرق أكثر تقدما فى فنون الرقص
والغناء والاداء بحيث تدخل يد المعاصرة والحرفيات
المتقدمة لتخفى المعالم التراثية ولا تبقى الا الطسرافة
والامتناع . . وهناك عناصر كثيرة تجعلنا تأخذ هذا الموقف

الوسط في القضية ، فان معظم هذه الموروثات المغناة والراقصة تقوم بها الانثى بالدرجة الاولى . وهى في بلادنا لن تقوم بها امام الباحث الغريب عنها ايا كانت الاسباب . فان زاد وعيها الثقافى فهو يزيد على حساب تمسكها بالموروث القديم فتبتعد عنه كلما ازدادت ثقافة ، وكلما ابتعدت عن المصادر المعروفة لمعرفتها وثقافتها وادائها الفنى . . ومن هنا اصبح من المتعذر تعقب هذه الرقصات فى مصادرها العمانية الاصيلية ، ومن هنا كان الذين يؤدون هذه الرقصات من المحترفين من بقايا الطبقة التى كانت تقوم بالاعمال الصغيرة فى البيوتات الكبيرة للسادة الاثرياء والتجار من ابناء عمان الذين امتدت تجاراتهم واعمالهم الى السواحل الافريقية ، واصطحبوا فى هودتهم الى ارض الوطن مجموعات من الافريقيين الذين اعتادوا العمل فى الحقول وفى المنازل . ولاشك ان هؤلاء قد حملوا معهم موروثهم الشعبى ، وانهم فى اداء الرقصات العمانية التقليدية قد مزجوا موروثهم الفنى بهذا الموروث الجديد - فعلى الرغم من ان الموضوعات التى تتناولها هذه الرقصات ترتبط بطبيعة الحياة العمانية من وداع المسافرين فى البحر الى رقصات الابتهاال لعودته سالما ، الى رقصات الجناز على الزواج المتوفى ، الى رقصات العمل واغاني الجماعات فى الاعمال التقليدية داخل البيوت وخارجها ، الا أنك تحس ان ثمة بقايا وثنية غريبة ، وثمة اشارات الى تقاليد افريقية تدخل الى هذه العروض الشعبية ولا تستطيع ان تخفى وجودها ، وان كانت رموزها الحقيقية تحتاج الى دراسة وبحث . . والواقع ان ارتباط عمان بافريقيا الشرقية ارتباط موغل فى القدم مما لا يستبعد معه ، بل لعله مما يحتم وجود

مثل هذه التأثيرات الافريقية - وبكثرة - في الموروث الشعبي العماني . ويرى المؤرخ الاستاذ احمد محمود المعمرى صاحب كتاب « عمان وشرق افريقية » ان الفضل في هذه العلاقة الوطيدة المبكرة يرجع الى « الدلو » ... والدلو اسم لنوع عريق من السفن الشراعية العمانية كان يقوم برحلات سنوية الى شواطئ شرق افريقيا تحمل البلح وسمك القرش المجفف والقهوة والسجاد ، ويقول : « كانت هذه القوارب تخرج عادة من الجزيرة العربية في شهر يناير ، ثم تبصر عائدة الى بلادها فيما بين نهاية مارس وأوائل يونيو من كل عام - وكان مما يسهل هذه الرحلات المنتظمة ذهابا وايابا الرياح الموسمية التي تهب من الشمال الى الشرق في شهر ديسمبر ، وتصل بالعرب الى الساحل الشرقي من افريقية - وتهب من الجنوب الى الغرب في مارس فتعود بهم الى الجزيرة العربية في رحلة تستغرق ألفي ميل من مياه المحيط الهندي - وقد استفاد بحارة وتجار الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها من الرياح الموسمية طوال ما لا يقل عن ٣٠٠٠ عام . والواقع ان شرق افريقية قد جذب بحكم ثرواته الكثيرة وأهمها التوابل والعاج والذهب والاششاب الكثير من الشعوب فأبحر اليها السوريون والاشوريون والهنود والمصريون . » وقد ارسل المصريون بعثاتهم التجارية منذ ... عام الى الصين وماال التي أسموها « بونت » . وكانوا يتاجرون على نطاق واسم في الذهب والعاج وجلد النمر . الذي استخدمه الملوك والنبلاء المصريون القدامى في تزيين قصورهم . . ومنذ عام ألف قبل الميلاد قام الفينيقيون من الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، والكتعانيون ، بزيارات تجارية

للمنطقة . وكذلك قام الهنود والصينيون من سواحل
 المحيط الهندي . وقام الفرس عبر الخليج ، بمثل هذه
 الرحلات التجارية المبكرة تاريخيا جدا . الا أن العرب
 العمانيين كانوا أول الشعوب التي تقيم لها مستوطنات
 على الساحل الشرقي لأفريقية . ويحكى المؤرخون عن
 هجرات عربية وإسلامية متعددة منذ بداية العصر
 الإسلامي ، ويحكى الأستاذ عبد المنعم عامر في كتابه
 « عمان في أمجادها البحرية » عن أولى هذه الهجرات
 المنظمة والتي قام بها أهل الشام زمن الخليفة عبد الملك
 ابن مروان حوالي عام ٨٠ هـ أو ٧٠٠ ميلادية ويقول « وهذا
 بتوافق توافقا زمنيا مع رواية العمانيين عن هجرتهم الأولى
 لشرق أفريقية » ثم توالى بعد هذا هجرات متعددة : أهمها
 هجرة أنصار زيد بن علي بن أبي طالب الذي هزم وقتل
 في نزاع له مع أنصاره الخليفة فاضطر أنصاره إلى الهجرة
 للنجاء بأرواحهم ، فذهبوا إلى شرق أفريقية حيث
 استوطنوا « بنادير » في الصومال . . . ويحكى الأستاذ
 أحمد حمود المعمرى عن هجرة أخرى جاءت من الأحساء
 ثم عن هجرة جاءت من شيراز ، واستوطنوا أماكن مختلفة
 على طول الساحل الشرقي لأفريقية . وتعتقد قبيلة
 الحرث من عمان أنها أنشأت ديارا لها في مقديشيو وبرأوة ،
 منذ عام ٣١٢ هجرية أي ٩٢٤ ميلادية . ويذكر الأستاذ
 عبد المنعم عامر أنه في عام ١٢٠٣ ميلادية كان حاكم
 جزيرة « تومباتو » بالقرب من زنجبار رجلا من البصرة
 « على حين زعم أحد السلاطين في جزيرة « بمبا »
 بأن قومه قد نزحوا من البصرة » وفي عام ١٢٠٣ ميلادية

كان يحكم « بنه » أمير نيهاني من عمان ، وسيطر العرب
 العمانيون على أعمال التجارة والملاحة . ويؤكد ويندل
 فيليبس في كتابه « تاريخ عمان » هذه الحقائق التاريخية
 ويقول : « كان الدور العماني في استعمار وتمسك
 شرقى افريقية اكبر بكثير مما كان متوقعا اذا راعينا حجم
 عمان وعدد سكانها .. ففي تاريخ مبكر ليس بعد عام
 ١٢٠٠ ميلادية بالتاكيد قام أمير من بنى نيهان من عمان
 بتوطيد سلطته فى مدينة مبنية بالاحجار فى « بات » ،
 وكان هناك اخرى فى « سفالة » التى اشتهرت بتجارتهما
 المزدهرة فى الذهب ، وفى « كلوة » و « ممباسا »
 و « ماليندى » و « مقديشيو » و « بمبا » و (زنجبار) ،
 على طول ساحل الزنج فى شرقى افريقية .. ولا يعنى
 ذلك أنه كان هناك فى وقت ما « امبراطورية موحدة
 للزنج » فهذا لم يحدث ، ولكن كان نجاح بناء الامبراطورية
 العمانية الى حد ما ناجحا فرعيا لنجاحهم كبناء للسفن «
 وقد اهتم المسعودى بشرق افريقية فى اكثر من
 موضوع من كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر »
 تسجيلا لمشاهداته خلال رحلته التى قام بها حوالى عام
 ٩١٥ ميلادية الى فارس والهند والصين ثم عاد من
 طريق شرق افريقية ثم عمان . وقد اعتمد فى رحلته هذه
 على سفن عمانية يقودها ربابنة عمانيون . ويحكى عن جزيرة
 « كابنالو » فى بحر الزنج ان سكانها « كانوا خلبطا من
 المسلمين والوثنيين والزنوج » . وبعده جاء الادريسي
 المتوفى عام ١١٦٦ ميلادية وذكر فى كتابه العظيم « نزهة
 المشتاق فى اختراق الآفاق » ملاحظاته عن هذه البلاد
 فيقول : « ليس لدى زنج شرقى افريقية أى سفن
 يسافرون بها ، ولكنهم يستخدمون سفنا من عمان ودول

أخرى ، تسبح الى بحر الزنج .. وتستغرق الرحلة على طول الساحل الى مبابسا يومين .. ويعمل سكانها في مناجم الحديد وصيد النمر ، ولديهم كلاب حمراء اللون تقايل كل نوع من الوحوش البرية حتى الاسود .. »
ويجىء ذكر شرقى افريقيا فى كتسابات أبى الفسداء والمقرىزى وابن بطوطة الذى زار ساحل شرق افريقية فى عام ١٣٣١ م وقال فى وصفه لها : « وصلنا مبابسا .. وهو جزيرة كبيرة على مسافة يومين من البلاد السواحلية ومساجدهم متينة جدا وهى مقامة بالخشاب .. وكل من يرغب فى دخول المسجد يجب أولا أن يغسل قدميه ، والى جوار الباب قطعة من قماش ثقيل لتجفيفها .. وقد قضينا الليلة فى الجزيرة ، ثم اقلعنا الى كلوة المدينة الرئيسية على الساحل ، والجانب الاكبر من سكانها من الزنج ذوى البشرة الشديدة السواد .. » ويقول ويندل فيليبس « وحقة الالف عام من السيطرة والسلطان والثراء العماني فى شرق افريقية لم تقطعها غير فترة محدودة من الغزو البرتغالى » .. ومن هنا ندخل الى بداية الحقبة الدامية فى تاريخ المنطقة كلها .. فمنذ هزيمة الامبراطورية الرومانية وأوروبا تعيش عصور الظلام والجهل والفوضى وسفك الدماء . ومنذ القرن الخامس عشر وأوروبا تلملم اشلاءها وتحاول أن تحقق لنفسها ولادة جديدة ، وما كان يمكن أن تتحقق لها هذه الولادة الا بالسيف ، الا بنهب مافى ايدى الآخرين ، والا باراقة الدماء واستباحة الثروات والغزو المتوحش المجنون ، ثم بالصفقات والخداع والخسة ، وتستتر هذا كله باسم الدين كغطاء يغطى الاطماع المكبوتة والوحشية التى تتوفز لاقتلاع كل شئ ، والخبث الكريه لا يرعى

حرمة ولا عهدا ولا شرقا .. وحين اندفع تيار أوروبا الى
 الشرق الثرى الذى تحمل سفنه البضائع من الهند
 والصين وأفريقيا الى موانئهم ، تصدى لهم اهل الشرق
 المسلمون فى حروب مريعة ودامية .. ووجد الفرنسيون
 المدججون بالسلاح والمتوشحون بالحديد أن شوكة المسلمين
 مازالت قوية ، وأن الطريق مسدود أمام زحفهم الى
 البحار الدافئة .. كانت تجارة الشرق القديم تأتى عبر
 سواحل الجزيرة الجنوبية أما عن طريق الخليج فالصرة
 وعبر العراق الى موانئ سورية ، وأما عبر البحر الأحمر
 او الطريق الساحلى الى ميناء السويس أو شبه جزيرة
 سيناء الى موانئ مصر .. وتعبر السفن المحملة بالخيرات
 حملها الثمين الى موانئ جنوا والبندقية المزدهرتين ،
 ومنها الى الانادى النهمه فى أوروبا التى أصبحت تتطلع
 الى تملك الازرة التى تبض ذهبها بدلا من انتظار هبات
 البيض يأتى على أيدي الآخرين . وأصبح واضحا أن
 معارك المواجهة مع الدول العربية القوية لن تؤتى ثمارها
 الا اذا أمكن الالتفاف حولها وإضعافها بنهب ثرواتها ..
 ومن هنا بدأت محاولات كسر احتكار العرب لطريق
 البحر . وفى وقت سيطرة الأوروبيين على القدس فيما
 سمي بمملكة القدس المسيحية بدأت أولى هذه المحاولات ،
 حاول مغامر اسمه « رينودى شاتيون » نقل السنة
 من البحر الأبيض الى البحر الأحمر عبر البرزخ الى
 خليج العقبة ، حيث تم تجهيزها هناك ، وانزالها الى
 البحر لمهاجمة السفن فى البحر الأحمر ، كما انزل قوة
 فى شبه الجزيرة العربية للاغارة على مسكة ، وانتهت
 الحملة بكارثة .. ويقول ويندل فيليبس « لم يكن هناك
 جديد فى ادراك المصريين لخطر المنافسة . إذ كانت

يقول سيرجنت : قدم سلاطنة الممالك ، بتحريض من
البندقية حليفهم التجارية ، مطالب بالغة الشدة لكل
من الفاتيكان وحكومة البرتغال بأن يأمر كل المسيحيين
بالامتناع عن الملاحة والتجارة في البحر الاحمر . واذ
لم تؤت هذه المحاولة ثمارها بدأت محاولة الالتفاف حول
المنطقة التي تتحكم في منافذ تجارة الشرق ، وبدأت
مغامرات البحارة للبحث عن طريق آخر . وتم في عام
١٤٨٨ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على يد
« بارتولوميو دياز » ، ثم جاءت رحلة « فاسكو دي جاما »
عام ١٤٩٩ ليصل برحلته الى الهند ، وبهذا يتم الاوروبيون
هدفهم الاسمي والاصلى هو الوصول الى مصادر الثروة
الشرقية نفسها ، وتحجيم دور العرب والالتفاف حولهم
ثم سلبهم ثرواتهم ، واخيرا التمكن من هزيمتهم واستعمار
بلادهم نفسها ..

ومع اسطول فاسكو دي جاما ارتحل الشيطان ،
ففى كل مكان وفرفت فيه اشرعته وفرف ملك الموت وحل
بمنجله لا يقتل فحسب ، وانما يعذب ويمزق ويدمر
ويحرق ، ويخرج الناس عن دينهم ويلقى عليهم الزيت
المغلى ، ويقطع آذانهم ليعلقها في شفاهم ، ويشنق .. لم
يكن الامر استكشافا وانما كان ممارسة لكل انواع
الوحشية والقسوة والدموية .. كما لم يكن الامر
استعمارا وانما كان تدميرا وحرقا للعهود، واطلاقا للأسرى
من فوهات المدافع ، واحراقا للمراكب وبحارتها مقيدون
وسطها تأكلهم النيران وهم احياء .. ولم تكن مسيحية
وان رفعوا شعارها وحملوا كبر الكهنة معهم يتلقى
اعترافاتهم الجماعية عن جرائمهم ، ثم يمنحهم غفرانا
تاما بمقتضى الامر البابوى الذى يمنح لمن يهلك فى سبيل

العقيدة كما يذكر ويندل فيليبس ، ثم ينطلقون الى
المجازر من جديد ، بنفوس راضية وقلوب خالصة من
كل هم ، مادام الكاهن جاهزا لتلقى الاعتراف ومنسح
الفقران ، وتثبيت معنى الجهاد المسيحي في نفوسهم
البربرية الفجة المتوحشة . انما كان الامر وثنية مقنعة
تحرق للرب المتعطش للدماء، وتسفك لتقدم الضحايا للوثن
المعبود الذي لا يروى الا بدماء الافريقيين والعسرب
والهنود والفرس على السواء . . وبعد دي جاما امتلأت
البحار بمزيد من الانفاس الدنسة والنفوس المريضة ،
وحملت مياه المحيط أسماء السفاحين من امثال دالميدا
والبوكر ك الدين مدوا وحشيتهم من شرق افريقيا الى
عمان واستولوا على مسقط بعد تخريبها ، وعانت عمان
مما عانت منه شرق افريقيا ، وعرفت وسسط الآلام
والاجساد الممزقة والحرمان المنهوبة معنى حرية الغرب
ومعنى تحضر الغرب المخيف .

ولكن هذا كله لم يكن المقصود به هو مجرد الاذلال او
مجرد الاستجابة للنوازع الوحشية في قلوب أبناء
أوروبا البرابرة القادمين من عهد الظلام والتخلف ،
ولا مجرد السخرية من الشعار الديني الذي رفعوه
يخفون به أشر وأخط ما في الوثنية من قسوة وسفك
وعنف ، وانما كان المطلب الاساسي من كل هذا الدمار
المخيف هو اثناء المقاومة تماما ، وخلق الرعب في قلوب
الرجال ، واحباط معنى الرجولة والعزة فيهم ، ليتحولوا
الى سائمة تصطك أسنانهم عند رؤية السيادة البيض
أصحاب المدافع الأقوى ، والاسلحة الاحداث ، والنفوس
الاكثر قسوة وشرًا والضماير الميتة . . فهدم المدن
وتدمير المزارع وتحطيم السفن وتحريم التجارة الى جوار

الوحشية والقسوة كلها أمور محسوبة، المفروض أن تؤكد الوجود الوافد وتنتهي المقاومة الى الابد .. ولكن ما حدث كان شيئاً مغايراً تماماً .. من دمار المدن المحطمة ودخان المزارع المحترقة تولدت شرارة لا تموت ، شرارة المقاومة الدائمة .. ومن الاشلاء الممزقة والاجساد المعلقة ، وأنان المحتضرين وبكاء الاطفال وعويل النساء ولعنات الشيوخ ، زرعت بذرة الصمود والمقاومة التي لا تتوقف .. وبدأت طبول افريقيا الدامية تدق ، وبدأت المقاومة العنيفة للفرقة البرابرة تنتظم وتظهر ، وتقاوم « كلوا » و « زنجبار » و « مبابسا » .. وفي عمان كان عرب الداخل لا يهدءون في مهاجمة قلاع البرتغاليين وحصونهم . وشكل القواد البحريون للدولة العثمانية قوة ضاغطة على البرتغاليين ، وان لم يكن هدفهم التحرير قدر ما كان هدفهم المشاركة في الغنائم والاسلاب . ولم تنق الا قوة مصر البحرية تحاول الصمود في معركة يائسة دفاعاً عن معنى الوجود الاسلامي والسيكرامة العربية في المنطقة . وشن اسطول قنصوه الفسوري غاراته على البرتغاليين في كل مكان ، ومن وقت مبكر جدا ، الا ان عام ١٥٠٤ ميلادية شهد نهاية هذا الاسطول الذي خاض معركة يائسة دمر في نهايتها تماماً ، ومع دماره تم التفاف البرتغاليين والاوروبيين حول الحاجز البشري الذي اوقف تقدمهم في الشمال .. ومع كل انتفاضة تحرير تزداد وحشية البرتغاليين في توقييع العتاب الموجه والدامي على اهل البلاد . ولويندل فيليبس جملة كالقول المأثور يقول فيها « واذا كان دالميدا قد عاقب عرب شرقي افريقيا بالعصا فان افونسودا البوكيرك الذي كان اكثر دموية عاقب حاضرة عمان بالعقارب » ..

وقد صدق فيليبس في جملة هذه فقد ضرب هذا
الهمجي البرتغالي البوكيرك مسقط بكل العنف والوحشية
الممكنة . ولم يكتف البرتغاليون بغاراتهم الدائمة على
مراكز الثورة الوطنية ، بل لقد سلطوا الزيمبا وهي قبيلة
من آكلة لحوم البشر تسكن قرب رأس الرجاء الصالح ،
بأن تجتاح المراكز الإسلامية في شرق إفريقيا .
وبينما كان البرتغاليون يحطمون الاسطول الإسلامي
الذي يحاول أن يحمي الأهالي من غارات هذا الجراد
الدمي المتوحش ، كانوا يعطون الأذن للزيمبا لاجتياح
« كلوا » مرة و « مباسا » مرة . ويحكي ويندل فيليبس
عن مجزرة مباسا قائلا : « وراح الزيمبا بعد ذلك
كالجراد البشري يشقون طريقهم في جراحة ببطء نحو
الشمال ، تاركين في أعقابهم الموت والدمار . . وظهروا
بعد عامين أمام جزيرة مباسا التعسة ، حيث وجدوا
العرب يتحصنون وراء أسوارها يعززهم وجود على مريك
والأتراك الذين معه . . وسرعان ما رأى الزيمبا الذين
لا يهدءون وهم عدة آلاف ، البرتغاليين يظهرون ويدمرون
السفن التركية ويستولون على المدينة . . وبعد فترة
أسرع سمح القائد البرتغالي « تومي راسوزي كوتنهو »
لهؤلاء المتوحشين بتمشييط الجزيرة بحرابهم في أبشع
حدث في كل تاريخ مباسا الكئيب . . وبعد مباسا
شن آكلوا لحوم البشر حلفاء البرتغاليين هجوعهم على
ماليندي ، التي قاومت بالاستعانة بقبيلة « الواسيجي »
زحفهم ، وهزمتهم وقضت عليهم إلى الأبد في معركة
وصفها السيرجون جراي بأنها « من المعارك الحاسمة في
التاريخ الإفريقي » . ثم بدأت أنظار أوروبا كلها تتجه
إلى نفس المصادر التي أثرت البرتغال ، تحركت هولندا

وألمانيا وإنجلترا وبلجيكا وفرنسا في زحف نحو إفريقيا،
 وبدأ الغزاة الجدد يقطعون أجزاء من جسد الامبراطورية
 البرتغالية المتسعة .. وكما تدين تدان . وبدأ البرتغاليون
 يعانون من أخوة الدين والدم والسلاح ، كل أنواع
 الاطماع والمؤامرات والغزوات . ويقول ويندل فيليبس
 انه « وفي ختام القرن السادس عشر كانت البرتغال
 لا تزال أبرز دولة أوروبية ممثلة في الخليج ، رغم أن
 سلطتها في المحيطات سرعان ما واجهت تحديات من
 هولندا وإنجلترا ، وقد ازدادت ضعفا نتيجة التدهور
 والاضمحلال الداخلي الذي نجم عن ستين عاما من ضمها
 إلى إسبانيا » .. آن اذن لمالء الكأس أن يشرب من سمه
 النقيع .. فما ان وصل الامام ناصر بن مرشد في عام
 ١٦٢٠ الى الحكم حتى استطاع أن يتعقب البرتغاليين
 بالطرد والتدمير في كل عمان . ولم يعد لهم الا أبراج
 وتحصينات مسقط ومطرح وصحار . وفي خلال
 سنوات حوصرت هذه المواقع واستطاع سعيد بن خليفة
 الاستيلاء على قلعة الميراني ، بينما سقطت حصون
 سقط في ايدي الامام سلطان بن سيف . وبذلك انتهت
 أكثر فصول الاستعمار البرتغالي وحشية وتعاسة ،
 وانتهى احتلالهم لعمان .. وبدأت فصول أخرى . ويقول
 الاستاذ أحمد حمود المعمرى « عقب نجاحه - يعني الامام
 سلطان بن سيف - في طرد البرتغاليين عام ١٦٥٠ ،
 استقبل الكولونيل رينز فورد الذي أرسلته شركة الهند
 الشرقية للتفاوض على عقد معاهدة لاقامة وجود للشركة
 هناك ، لكن المعاهدة لم توقع بسبب وفاة رينز فورد ..
 ولكن هذه النسبة للبريطانيين كانت مجرد البداية ..
 وان كانوا قد تراجعوا عند المواجهة الاولى فانهم كانوا

يعدون لشيء آخر .. اذ ان الخطوة الطبيعية للامام سلطان بعد طرد البرتغاليين من مسقط كانت طردهم من شرقي افريقيا . وقد بدا الامام سلطان هذه الخطوة بعدة خطوات عسكرية استمرت طوال حياته ، ثم في عهد ابنه سيف بن سلطان الذي اعد اسطولا ضخما قويا مكنه من الاستيلاء على ممباسا عام ١٦٦٨ ، وبعد ممباسا طردهم من « بيمبا » و « كلوا » - ويقول الاستاذ احمد حمود المعمرى « وفي عام ١٧٠٠ بالتحديد وبعد حملات عسكرية متكررة ، أصبح خط الساحل بأكمله من مقديشيو ثم جنوبا الى كيلوا تحت سيطرة عمان » . وهكذا تقاسمت الاسر العمانية القوية حكم مدن الساحل الشرقي لافريقية . وازدهرت عمان وكثرت فيها الاطماع والفتن .. وعاد البرتغاليون يبذلون المحاولات من جديد ، الى ان انتخب الامام احمد بن سعيد بن محمد البوسعيد اماما لعمان وهو مؤسس أسرة البوسعيد التي ظلت تحكم عمان حتى اليوم . وظل الامام احمد في معارك مستمرة في مواجهة التحديات الطامحة الى الحكم سواء في عمان او في شرقي افريقية - ولم تستقر الامور بشكل محدد الا في حكم الامام السيد سعيد بن سلطان حفيد الامام احمد عام ١٨٠٦ - اذ سرعان ما اقر النظام في عمان ، ثم غادر مسقط على رأس اسطول كبير الى ممباسا ليخضعها لحكمه من جديد - الا ان الاستقرار لم يتكامل الا عام ١٩٣٢ حيث قرر السيد سعد اتخاذ زنجبار عاصمة له فادى ذلك الى نقل مقر السلطة لها « وبدلا من ان يحكم شرقي افريقيا من عمان ، فانه بدأ يحكم عمان من شرقي افريقية » .. واستتمعت شرقي افريقية بفترة مس الاستقرار توجهها السيد سعيد بزراعة القرنفل الذي

محدث مزارعه مصدر دخل وفير له ولاصحاب المزارع
من ابناء شعبه . واحداث اسطوله القوى اثره في تثبيت
مهابته واحترامه عند كل الطامعين ، فهذه الفتن الى
حين ..

ان شجاعة الرجال تسمح صفحات الهزيمة والعار ،
وهذه القلوب التي لم تخش الموت وارادت الحياة الحرة ،
حققت برجولتها كرامة امة ومجد شعب .. ليس من
العار ان يكسر السلاح المتفوق قوة المقاومة ، وليس من
العار ان يهزم الخبث والضعف ارادة الحرية . فكل هزيمة
تمر ، وكل كسرة تنقضي ، حين تصبح عزائم الرجال
وشجاعتهم هي سلاحهم في مواجهة سنين الهزيمة
والاحتلال .. فالثقة في النفس تاكل الزمن ، والانسان
الانسان يبقى عبر الزمن ، يواجه معنى الموت بارادة
استمرار الحياة ، ويفرس في قلوب ابناء الغد معنى ان
يكون الغد اشراقا وسط سواد اليوم ويأسه ، فينزاح
اليأس وتنزاح الهزيمة ، وتحقق عزائم الرجال ما حمله
امل الصمود والبقاء من معنى .. زاهية حقول القرنفل ،
عطر اريجها ، مبتسمه وجوه النساء يحملن الحياة
ويزرعن الحياة ، رقيقة ضحكات اطفال جدد يولدون في
يوم جديد لا يحمل الا الحرية والعطاء والامل .. زرعوها
دماء وعدابا ، وجنينها قرنفلا وغناء .. واليوم في هذه
الافلام التسجيلية التي اراها في صلالة حكايات هذا
التوحد ، هذا الصراع ، ثم هذا البقاء .. الف حكاية
وحكاية ، الف قصة بطولة وصمود ، وحكاية حب وفداء
واسطورة الاستمرار لمعنى الحياة ..
ومن معنى الامل فينا ، ومن معنى الحرية فينا نؤخذ
من جديد ..

لم تكن بريطانيا بعيدة أبدا عن مسرح الأحداث ، وإنما كانت تناور وتداول ، وتحاول .. وسلاحها هذه المرة المال والمؤامرات ، وشعارها الحب والانسانية .. فكما رفع البرتغاليون شعار الصليب اذ قالوا انهم جاءوا لهداية الكفرة ، رفع الانجليز شعار تحرير العبيد ، اذ قالوا انهم جاءوا للقضاء على تجارة الرق .. ولم يكن الدين ماجاء به الاولون ، ولم يكن النبل ماجاء به التالون .. وإنما هو الاستعمار والجشع والخبث الاكيد ... وتحت المعنى الذى آمننا به نحن ، واتخذوه هم شعارا ، وقع السيد سعيد بن سلطان اتفاقه مع بريطانيا بتحريم بيع الرقيق الذين يملكهم الرعايا البريطانيون ، وتحت شعار تنفيذ المعاهدة تدخلت بريطانيا لتفرض اوامرها على رعاياها - وفى عهد السيد برغش اقام الانجليز مستعمرة باسم « فريرتاون » للعبيد المحررين ، وغدا ممثل فريير هذا سرجودكيرك القنصل البريطانى فى زنجبار ويقول الاستاذ المعمرى « وقد وصل الامر الى انه هدد السيد برغش باستخدام القوة اذا لم يوافق على توقيع معاهدة أشد صرامة ، ووقع عليها السيد برغش مرغما » وحرر الانجليز العبيد الافراد واستعبدوا الاوطان كلها ، والشعوب . وخطوة خطوة تم القضاء على ثروة البلاد بعد ان اقفرت مزارعها ، وتم فى نفس الوقت فرض الاستعمار الكامل لا على ساحل شرقى افريقيا وحدها وإنما على كل المنطقة الممتدة حتى الخليج ثم حتى البحر الابيض شرقا ، وحتى النيل وحتى البحر الابيض شمالا .. وبدأت صفحة مرة جديدة من كفاح مهلك جديد .. انها سقطة الطال التى اخذ منها ودمر .. فلا احد يستطيع ان يدافع عن نظام الرق او يبرره ، ولا احد يستطيع ان يفهم كيف

ظل نظام الرق قائما طوال فترة الحضارة الاسلامية ،
الا اذا كان الامر ان اصحاب المال كانوا دائما مركز
القرار . وما كان هؤلاء يتخلون عن مصدر من مصادر
الثروة تحت اى شعار . لقد وضع الاسلام بدور التحرر
الاولى للعبيد قبل ان يتحرك اى نظام عالمي آخر . واخذ
المسلمون ينمون هذه البذور حتى غدت شجرة سامقة
واضحة الثمار والفروع . وتحرر العبيد فى كل مناسبة
وعند كل استنفار للذنوب ، وعند كل اضافة الى بنية
المجتمع ، وارتفع من كانوا عبيدا الى المرتبة العليا فى
العلم والقيادة والنسك . ومع هذا ظلت المسألة اجتهادات
فردية لا يحسمها امر واضح من اصحاب الحل والعقد
.. وتركنا لغيرنا قطف الثمرة ، فقد كنا اكسل او اغنى
من ان نفهم اهمية ان نكون نحن قاطفيها .. وحين عاش
الاثرياء فى دعة من عرق العبيد ، سقط الجميع ، وسقطت
جميع الاوطان تحت سنايك شعار زائف مارفع الا ليبرر
هذا السقوط ..

من لحظتها والقبضة منه تحكم سيطرتها ، والتخلف
يفرض وجوده ، والاستعمار يحرس مصادر الثروة لتكون
له ، ويلقى الينا بسقط المتاع من فضلة مالنا نحن ..
وباسم الحضارة اكنا ، ونحن من علم الكون كله معنى
الاخوة والتحرر والحب ..

ولكن الصفحة الجديدة بدأت تشرق من بعد اظلام
طويل ، والحياة دورات .. ومع صمود الرجال وشجاعتهم
يعود البناء الشامخ من جديد .

مذكرات أميرة عربية

لم يحملني رخ السندباد عبر جبل الماس ، لا ولم
تحملني الجنية المؤمنة التي طارت بحسن ابن الوزير الى
قصر حبيبته في مصر .. وانما حملتني الكلمات وحملني
القلم عبر الزمان وعبر المكان ، وطافا بي كما طاف الريح
والبحر العجاج بسندباد .. وعاد سندباد محملا بزيادة
الحب والمعرفة ، وعدت وكلى الشوق من جديد ان ارى
مسقط التي شرقت حولها وغربت ولم ازورها بعد ...
ولهذا فما كاد صباح يوم عودتي الى الفندق في مسقط
يهل حتى كان حمود يحملني في السيارة انا والاخ نجيب
الى قلب مسقط المدينة ..
وقال حمود :

— اتبهوا نحن نتحرك من مسقط الى مطرح عبر هذا
الطريق الجديد .

انسابت السيارة بسرعة فوق طريق سلس والمنازل
الحديثة التي تحتفظ بالطراز الموحد الذي يسود المدينة
تتلاشى امامنا ، منازل وفنادق ومحلات عامة
ومباني وزارات ، ثم يطبق الجبل علينا ونشقه شقا —
ومن على الجانبين يرتفع حائط جبلي في كل ناحية ،
حائط من الصخر الاصم تحاول اليد التي تبني وتجميل
ان تثبت في صخرة خضرة متسلقة ، طامحة ان هذه
الخضرة يوما ستغطي وجهه الكالح بابتسامة الجيشف

الخضراء . وتغطي هذه المحاولات الوليدة شيكات فولاذية
تحميها من صخور تقع فوقها أو عيث يمتد اليها حتى
يشتد عودها وتفرض وجودها على الحياة ، وقال الأخ
نجيب المرافق :

- هذا « المشوار » الذي تقطعه في دقائق كان
يستغرق نصف يوم في الماضي ، وكان كله مشقة وعناء
يتمثل في الصعود على التلال أو الالتفاف حولها لنصل
من منطقة الى أخرى ، فقد كانت مناطق العاصمة تحوطها
كلها مجموعة من هذه التلال التي تلتف حولها وتفصل
بين أجزائها ، ثم جاءت « البولندرات » والحفارات
والعربات العملاقة ، وتلتها الأوناش وحاملات الأسفلت
والمدكات الحديثة ، فإذا بالجبال تنشق عن هذا الطريق
الذي ربط أجزاء العاصمة بعضها ببعض ، وجعل الانتقال
بينها يتم في دقائق ، كما جعل مطرح في متناول العابر
والمتنقل بين أجزاء العاصمة ..

سأله ، وبصرى يتنقل بين جانبي الطريق تطل في
أعلاه بعض التلال تتخللها مظاهر العمران المستمر :
- يخيّل لي أن يد التعمير هذه قد أفقدت المدينة
القديمة ملامحها .

ضحك وهو يقول :

- لم تكن مسقط قبل عصر السلطان قابوس أكثر من
نصف جبل ساحلي يقع بين قلعتي الجلالى والميراني
يحيط بها سور تغلق بوابته عند الغروب فتقطع صلتها
بالعالم حتى صباح اليوم التالى .
قلت :

- كانت مدينة من مدن القرون الوسطى والقلاع
والبوابت والحراسة المشددة ، واحدة من مدن الشرق

القديم كله ، بل وتشابهها في هذا المدن الاوروبية في ذلك الحين .

عاد نجيب يقول :

— لقد تغير الامر تماما الآن ، فأصبحت العاصمة تمتد على الساحل ثلاثين ميلا ابتداء من مسقط مرورا بمطرح وحتى السيب ، اى أنها تمتد من قصر العلم السلطاني شرقا الى قصر السيب السلطاني غربا . وعلى بعد اثني عشر كيلو مترا من مسقط القديمة تقوم مدينة قابوس الجديدة ، وهى فى القرم بين مسقط القديمة والسيب ، وقد انشئت لتجنب زحف المباني الجديدة على مسقط القديمة لتظل محتفظة بطابعها القديم الذى يعنىك . . . قلت :

— احب ان اشاهد بعض معالم مسقط القديمة . ضحك مرافقى وهو يقول :

— مسقط القديمة ومطرح القديمة وكل ماتريد فتحن نعرف ان تطورنا المعاصر لا يجب ان يجور على عراقتنا الاصلية ابدا . . وحتى فى الانشاءات الجديدة راعينها الابتعاد عن المناطق التى تمثل روح المدينة القديمة ، فمدينة الاعلام التى تضم الوزارة والمكاتب التى تتبعها ومبنى الاذاعة والتليفزيون ، انشئت بعيدة حتى تمثل وحدها ضاحية مستقلة ، وكذلك الامر بالنسبة لمدينة الدبلوماسيين ، وانشأنا مدينة صناعية غرب السيب هى منطقة الرسيل ، وحتى المطار انشئ فى منطقة السيب على بعد عشرين ميلا من مسقط القديمة . وربط طريق الاتوستراد بين روى ومسقط ، كما جعل الوطنية وهى لا تبعد كثيرا عن روى فى قلب الحركة الدائمة . وقف حمود بالسيارة وقال :

— نزل هنا . لأن ماتريده يتحقق بالسير على الأقدام
لا بالسيارة ..

كدت اقترح هذا بالفعل ، ولكن ذكاء حمود سبقني .
وقادنا نجيب في رحلة طويلة استغرقت نصف اليوم
كامله ، تحركنا فيها بين المساكن القديمة والاسواق
الشرقية بمطورها المحيية وأزقتها المسقوفة ، وبين القصور
والقلاع ، مرة نحن في عمق التاريخ ، ومرة نحن في ظل
الحاضر ووسطه ..

ولم نستطع دخول حصن الجلالى أو الميراثى فقد
كان هذا يحتاج الى تصريح مسبق من ادارة القسلاص
والحصون بوزارة الثقافة . والقلعان من مخلفات الغزو
البرتغالى الذى جعل من مسقط بعد استيلاء البوكيرك
عليها مركزا رئيسيا من مراكز حماية امبراطورية البرتغال
فى المحيط الهندى . وفى كتاب « عمان فى صفحات
التاريخ الذى جمع مادته « روبين بيدويل » تعليقات
الفونسو البوكيرك عام ١٥٠٧ عن مسقط وفيها وصف
للمدينة يقول : « استولى على المدينة ، ووجد ان كثيرا
من المنازل تحتفظ بمخازن سرية وخزانات خشبية للماء
وقد قام بتدمير أحد المساجد الخشبية الجميلة وأحرق
٣٤ سفينة ، وكانت مدينة مسقط الميناء الرئيسى للبلاد،
وسوقا للحياد والبلع والقمح ، وكان عدد السكان كبيرا
والى الخلف منها سهل واسع كميدان لشبونه مغطى
بالمح ، كما كان هناك آبار للمياه العذبة لرى البساتين
من طريق الآلات الخشبية » .. وعن هذه الآبار وعن
تشيد المدينة وعمارتها الاولى يقول المؤرخ العمسانى
حميد بن محمد بن رزيق فى كتابه « الشعاع السائغ
بالعمان فى ذكر ائمة عمان » : « عمرتها بعض عرب عمان ،

وهم يمن الانساب ، ففرسوا فيها نخيلا واشجارا تسقيها
 الآبار » . . وهناك من ابتعد بعمراتها في التاريخ أكثر من
 هذا فيتساءل السير هيرت توماس عام ١١٦٧ في كتابه
 « رحلات الى افريقية وآسيا » كما يقول روبين بيدويل :
 « يتساءل عما اذا كانت مسقط هي الرأما التي أشار
 اليها حزقيال اذ من المؤكد انها كانت تضم عددا كبيرا
 من السكان في الماضي » . ونعود الى المؤرخ العمساتي
 ابن رزيق لنقرأ ما فعله البرتغاليون في المدينة اذ يقول :
 « سوروها من حد جبل الملكا الى جبل السعالي . وحدثوا
 فيها حصنين كبيرين : شرقيا وغربيا » . وهو يعني هنا
 حصني الجلالى والميراني . ويحكى الاستاذ أحمد حمود
 المعمرى في كتابه « عمان وشرقي افريقية » عن الحصنين
 فيقول « وفي عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء قلعتي
 الجلالى والميراني . وقد تم تجديد قلعة الجلالى عام ١٥٨٧
 والميراني عام ١٥٨٨ حيث اتخذنا شكلهما الحسالى .
 وقد بنى « مليشوار كالكا » قلعة الجلالى وكانت تسمى
 قلعة سان جوان ، وبنى « دون مانويل دى سوزا كوتينهو »
 قلعة الميراني التي كانت تسمى قلعة كابتن . . . ويقول
 ابن رزيق : « فلما اصطلمها العرب منهم ، سموها حصنها
 الشرقي الجلالى ، وسموا الحصن الغربى الميراني » . .
 ونعود الى ابن رزيق لنجده يواصل رصده ما فعله
 البرتغاليون في مسقط فيقول : « وأحدثت النصارى
 فيها بروجاً على السور ، وابنيه على رهوس جبالهسا
 وخمس عقيبات : الاولى من أول مطرح الى أول ريام ،
 والثانية من آخر ريام الى أول مسقط ، والثالثة من
 آخر كليوة الى أول مسقط ، والرابعة من آخر سداب
 الى أول مسقط الى جانب سهيل ، والخامسة من آخر

جبال مسقط الى اول الوادى الذى يفضى الى دار سيت»
.. وهذا الاهتمام الكبير بتحسين مسقط يشير الى
اهميتها كمركز بحرى رئيسى وكمدخل الى الداخل والى
الخليج ، فيقول عنها السنيور « يترد يلاقالى » عام
١٦٢٥ « انها بلدة مغلقة وتحيط بها سلاسل من الجبال »
ويقول ان البرتغاليين « بنوا سورا شرقيا واقاموا بعض
الحصون القريبة من بعضها البعض ، ويمتد السور من
الجبل الى الجبل ، وهو يحمى البيوت من تلك الجهة ،
لان البحر يقع على الجانب العكسى ، بينما سلسلة من
الحبال الصغيرة على الجانبين الآخرين ، ولا يمكن الوصول
اليها ، وعلى الجهة اليمنى عند المرفأ توجد القلعة » ..
والمسألة ليست مسألة حماية الموقع وحسب ، بل ان
الرحالة الغربيين وقباطنة السفن والجواسيس حملوا
عن مسقط أساطير يسيل لها لعاب المغامرين والمستعمرين
وأصحاب الجشع الدائم .. وروبين بيدويل يروى لنا
الكثير من هذه الأساطير والحكايات التى تسبب تناقلها
فى أطماع البرتغاليين ثم الفرنسيين والهولنديين والالمان
وأخيرا الانجليز ، ففي عام ١٦٩٦ يحكى الاب جى اونجتون
بعد زيارته لمسقط فيقول : « كانت هناك وفرة فى القمح
والنبيد والمر والبخور والبلح والذهب واللؤلؤ » ويقول
جان باتيست عام ١٦٧٥ : « هى مدينة صغيرة الا انها
تعد من أحسن مدن شبه الجزيرة العربية ، وتزخر بكافة
متطلبات الحياة ويحتفظ الامام بأجمل أوأوة شفاقة » ..
ويذكر « كارستان يثهور » عام ١٧٥٦ ان الدخل يصل
الى مائة ألف روبية . بينما يقول أبراهام بارسوتز عام
١٧٧٥ ان القوافل « تأتى من داخلية عمان محملة بريش
النعام والجلود المديونة والعسل والشمع ، وعند عودتها

تأخذ السلع الهندية والبريطانية كاللعب وأدوات المائدة
 والزنجيل والفلل والأرز والطباق والبن والسكر ، وكانت
 لمسقط علاقة تجارية هامة مع مخا ، وكان ملاحو مسقط
 ينقلون معهم ٢٠٠٠٠٠٠٠ بالة من البن من مخا للبصرة ،
 حيث يعاد نقله الى القسطنطينية ، وفي رحلة العودة
 كانوا يجلبون المنسوجات الحريرية الفارسية والسجاد
 والآلئ ، وكمية كبيرة من الريالات والعملات الإيطالية ،
 وكانوا يزرعون المانجو الذي يفوق المانجو الهندية ، وتكلف
 ٢٠٠٠ حبة نحو روبيتين هندية ، ويتم نقل المساء الى
 السفوح بالقوارب في قرب من الجلد . كما كان يتم صيد
 السمك بطرق سهلة جدا ، وتملأ بها السلال . . فليس
 المرقع وحده اذن هو مصدر الاطعام ، وانما ما يحدثه
 الموقع من حركة تجارية دائمة اذ هو مركز لكل هذه
 الثروات المتدفقة من كل مكان في العالم - واذ هو بحكم
 انتاج البلاد الوافر صاحب ثروة ذاتية ضخمة ومغرية
 لكل الطامعين ، وقد انعكست هذه الثروة على كل شيء
 في مسقط القديمة ، فانت تحس انك تسير فوق ارض
 عرفت الازدهار والثراء . الشوارع نظيفة ، والمنازل
 القديمة الباقية يبدو عليها الترف والفخامة وان كانت
 كلها تشبه القلاع . وقادنا الاخ نجيب عبر المدخل في احد
 هذه البيوت ذات المظهر الخارجي المتناسق الى فناء
 واسع تحيط به الابنية من جهاته الاربع ، وتطل هذه
 الابنية في دورها العلوى على الفناء بواسطة شرفات
 خشبية الاعمدة جميلة التناسق ، وتتخللها نوافذ تغطيها
 مشغولات خشبية ذات تناسق بديع ، اما الابواب فقد
 غطتها النقوش الرائعة . وفكرة الفناء الداخلى تيسر
 الهواء المتجدد ، كما تتيح أيضا الاضاءة المبهرة التي

تعجب لوجودها في داخل الحجرات نفسها ، وهو امر لا يوحى به مظهر البيت من الخارج . . وفي دراسة للدكتورة سعاد ماهر أوردها الاستاذ يوسف الشاروني في مقال عن « مسقط مدينة القلاع والحصون التي تطل على دنيا القرن العشرين » ونشرها في مجلة الدوحة ، تقسول الدكتورة سعاد ماهر : « ان بيوت مسقط الاثرية تعتبر ضمن العمارة الحربية باعتبار ان تصميمها المعماري يراعى ان يكون القصر أو الدار قلعة حربية يمكن ان تحمي نفسها وقت الحاجة » . وحددت الدكتورة سعاد ماهر هذه البيوت التي بنيت ما بين اوائل وواخر القرن الثامن عشر فاذا هي اثنا عشر دارا . .

وما ان ابتعدنا عن الدار قليلا ، ودار بنا الشارع دورات حتى غدونا في وسط حي يضارع أحدث احياء العواصم في المنطقة كلها ، فالمعمار الحديث يراعى الطراز القديم من ناحية المبدأ ولكنه يأخذ في اعتباره كل الخطوط التي تمثل آخر صيحات الحداثة في ميدان المعمار ، وهكذا يتجاوز الامس واليوم جنباً الى جنب في مزيج لا يحدث التنافر ولا يثير الفرية بحيث تحس ان الزمن في تطوره لم يفقد المكان أصالته ، كما ان التمسك بالقديم والموروث لم يفقد العطاء المعماري روح العصر . . والطريق يزخر بالشيوخ والشباب معا ، وهم يلتزمون جميعاً بالزي الموحد ، الجلباب العماني والعمامة أو الطباقيّة والعصا الخيزرانة في اليد ، وبين حين وآخر تصادف احدهم يرتدى خنجره المميز . . وفي كل مكان تعترضنا عمليات رصف جديدة أو عمليات بناء لمبنى جديد ، والعمل يتم في همة وسرعة ولكنك تحس ان العمال في معظمهم واقفون من كل مكان وان كانت الغالبية الهندية واضحة وجلية . وتسمع في كل مكان الاوردية الى جوار

الإنجليزية الى جوار العربية ، وكأنها لغات تشكّل وحدة
تعبيرية واحدة .. وقادتنا اقدامنا الى سوق مطرح ،
قال مرافقي :

— هذا السوق هو أول سوق بنى فى عمان وهو قريب
من الميناء وحتى عام ١٩٧٠ كانت بواباته تغلق عند
غروب الشمس ، أما الآن فهو كما ترى يشغل معظم
مساحة مطرح ويضج بالحياة ..

وكاننى فى سوق الحميدية فى دمشق أو فى خان
الخليلى فى القاهرة ، أو فى سوق الملح فى عمان . وكاننى
عدت من جديد الى أيام تقاليد التجار وأزقتهم ومراسم
حياتهم وخلقهم السمع وشبهندر التجار ، وقسوافل
السندباد تاتى محملة من الساحل لتصب عطاء رحلاته فى
دكاكين السوق . والحياة تصخب فى أسواق الف ليلة
وليلة فى كل عواصم عالمنا العريق ، والضاحكات
والمغامرات والمساومات ، والربح والخسارة ، وحيل
السطار والعيارين ، وقصص الحب وحيل العجائز ..
الطرق مسقوفة وهى على ضيقها رحبة بعض الشيء عن
مشيولاتها فى أسواق المدن القديمة الأخرى ، وهى تسير
فى تمرجات دائمة ، تدور بك لتعود الى حيث بدأت ،
أو ليتقاطع طريقك مع طريق سبق أن مررت به من قبل
والدكاكين مرتفعة عن الأرض تصل الى أبوابها بصعود
درجات قليلة ، بعضها له واجهة زجاجية تخفى ما فى
داخله وتعرض فقط ما يريد اصحابها ان يعلنوا عن وجوده،
وبعضها مازال يحتفظ بطابعه القديم ، كل شيء معروض
الى جانب كل شيء فوق المصاطب التى تلتصق بالجدران
أو المناضد الواطئة التى تحتل فى نظام هندسى فراغات
الدكاكين .. والابتسامة الحلوة تعلو الوجوه ، وكان

معظم السوق يشغله الهنود كباعة وان كانت الصناعات العمانية مازالت في أيدي العمانيين . وضحك نجيب ونحن نغادر موقعنا أمام محل ملابس لنتقل منه الى محل للعطور وادوات الزينة . وقال :

— مطرح تعنى محطة الرجال أو مكان الرسو . . سواء من القرافل القادمة من الداخل ، أم للسفن الآتية عبر البحار الى الميناء القريب . انظر هذه هي الكمة .

وحيث أشار رايت غطاء الرأس المطرز الذي رأيته على رعوس الكثير من الشباب الذين يأتون الى صالة الفندق في المساء . واستأنف نجيب حديثه قائلاً :

— جمعها كميم وبدونها لا يكتمل زى الرجال فهي البديلة للعمامة الرسمية في الصباح . والبائع يسلم القرويات قطعاً من القماش مرسومة ، وتقوم النساء بتطريزها في منازلهن ، وكلما تعقد التطريز كلما ارتفع سعر الكمة . أما العمة فهي الزى الرسمي في الصباح ، وقد اتخذ قرار يحظر على الموظفين خلعها في ساعات العمل ، وقد أنعش هذا القرار تجارتها ، ويصنع بعضها من الاقطان الرخيصة وبعضها من الاصواف الغالية أو الحرير الثمين .

ومضينا نتجول في السوق وروائح العطور والعطارة الشرقية تعبق المكان ، والمحلات مليئة بالعصى الخيزران والمشغولات الشعبية كالخناجر والدلات وهي اناء القهوة العربية ، ومشغولات الذهب والفضة من الحلى التي تستهوى النساء ومجامر البخور والانيّة الخزفية والنحاسية والملابس المستوردة والاعاب الاطفال والاجهزة الكهربائية والحلوى العمانية . . وتتخلل السوق محلات

كثيرة للخياطين ، وقد فهمت أنهم جميعا من الهنود الذين
مهروا في هذه الصناعة ، وهذه المحلات تعرض بعض
النماذج في الواجهات الزجاجية ولكنها ليست للبيع ،
النموذج الذي يعجب المشاهد يشترى له القماش ثم
تفصل في خلال أيام قليلة وبمهارة فائقة ، وتذكرت
حديثا دار بيني وبين الصديق مرعى عن البدلة التي
برتديها ومن أين جاء بها ، ضحك يوما الصديق
وأخبرني أنه رآها على ضيف انجليزي يزور عمان وصحبه
الى « ترزى » هندي الذي تفحصها بعناية ، ولم يمر
يومان الا وكان قد صنع مثيلتها تماما وهي تلك التي
أثارت انتباهي . وعند كل ناحية من السوق يجلس صراف
أمام مائدة صغيرة تحوى أدراجها كميات ضخمة من
مختلف العملات ، فعمله تحويل كل العملات الى الريالات
العمانية أو العكس ، ونفس أسعار البنك ، والخدمة
التي يقدمها أنه حاضر في السوق الى جوار من يشتري
ومن يبيع . وحين خرجنا من منطقة السوق ، قال الاخ
نجيب :

— اذا لم تكن متعبا قمنا بزيارة لبيت السيد نادر ،
وهو متحف هام وقريب منا .

كنت متعبا ، ولكن كلمة متحف أطارت كل التعب
وحل محله الفضول ، فقلت :

— وماذا تنتظر .. هيا بنا

وركبنا السيارة هذه المرة ، ولكن الرحلة لم تطل كما
وعد مرافقي ، فما هي الا دورات وكانت السيارة تقف بنا
أمام منزل قديم يماثل تلك المنازل التي زرناها في أول
نهارنا .. وقال نجيب ونحن نصعد الدرجات الحجرية
التي قادتنا الى مدخل الدار :

— أنه بيت قديم ، أهده صاحبه للدولة لكي تقيم فيه
هذا المتحف وسط المدينة .

طالعنا نماذج السفن القديمة في كل مكان ونماذج
الآنية الفخارية الضخمة ، ثم السيوف والخناجر
والبنادق الاثرية ، ومجموعات من المنسغولات والمصوغات
النحاسية والفضية والذهبية . . واخذنا ننقل من طابق
الى طابق ، ومن حجرة الى حجرة ، وصفحات التاريخ
بعاد نشرها امامنا بهذه المجموعة من المقتنيات الاثرية ذات
القيمة الحضارية البالغة الاهمية ، وفي صدر احدى
القاعات خصصت مساحة ضخمة لمخلفات اقتنيت من
املاك سيدة واحدة . ملابس وصديريات وحلى
ومجوهرات وأدوات زينة وصورة للسيدة التي تصدرت
هذا المتحف ، تقول اللوحة المكتوبة : السيدة سالمة بنت
السيد سعيد بن سلطان ، سلطان مسقط وزنجبار .
واسرع مرافقى يقول في توقيه واضح :

— هذه من حاجيات الاميرة سالمة بنت السيد سعيد،
أو الاميرة أميلي روث بنت حفيد الامام أحمد بن سعيد
مؤسس أسرة البوسعيد .

وقفت أتأمل المعروضات التي تدل على النعمة وعلى
الدوق المرحف ، وسألت مرافقى :

— ولم هذه الاهمية الخاصة لهذه الاميرة بالذات .
ضحك نجيب في دهشة وهو يقول :

— لهذه الاميرة قصة عجيبة تبدو كالاساطير القديمة،
فقد خرجت على كل الاعراف والتقاليد واحبت رجلا
ألمانيا وهجرت البلاد من أجله وتزوجته . وتركت حياة
القصور والثراء كابنة لاغنى سلطان عرفته البسلاد ،

تتبع حياة الفقر في برلين ولندن . وتترك دينها واسمها
وكل شيء . . وبعد عشرين عاما تضيق بحياتها في الغربية
وتحاول العودة الى الوطن ، ولكن أبواب العودة كانت
مغلقة ، فتدون كل هذا في كتاب باللغة الالمانية ، لعطه
الكتاب الوحيد الذي يكشف حياة المرأة الشرقية منذ
اكثر من مائة عام .

قلت بسرعة :

— واين هذا الكتاب ؟

قال :

— كنت اعرف انك ستسأل هذا السؤال ؟ . سأحضر
لك نسخة مترجمة الى العربية منه اثناء عودتنا ، والان
اذا كنت قد فرغت من المتحف هيا بنا فقد فاتنا موعد
الغداء من زمن .

ونى عودتى الى الفندق حصلت على الكتاب . ومنذ
دخلت الغرفة لم اتركه حتى انتهيت من قراءته . .
لسنا نعرف العنوان الاصلى لهذا الكتاب ، فالترجم
اسماء مذكرات أميرة عربية ، بينما تقول المؤلفة في مقدمتها
انه « قصة حياتى » . . وايا كان الامر فالعنوان الذى
ذكرته الترجمة العربية اكثر لفتا وخاصة لقراء الغرب
الذين عرفوا هذا الكتاب قبلنا بكثير . فقد ظهر الكتاب
منذ مائة عام كاملة اذ ان طبعته الالمانية ظهرت فى برلين
عام ١٨٨٦ . وقد كتبته البرنسيس أميلى روث بالالمانية
بالفعل ، بينما لم تظهر الطبعة العربية الا عام ١٩٨٣ حيث
ترجمها الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسى قبل ذلك
سنوات . عن ترجمتين انجليزيتين للكتاب ، واحدة ظهرت
عام ١٨٨٨ ، والثانية ظهرت فى نيويورك عام ١٩٠٥ ، كما
ان الكتاب ترجم الى الفرنسية عام ١٨٨٩ . وتكاد مقدمة

المترجم تكون هي الوثيقة الوحيدة المتاحة حول الكتاب ،
فنحن نعرف منه هذه المعلومات ، ونعرف أيضا أن
الترجمتين الانجليزييتين قد اختلفتا اختلافا محيرا وكذلك
الامر بالنسبة للنسخة العربية التي بين ايدينا فتقول
المقدمة : « والترجمة الانجليزية الاولى اكمل ففسد
وجدناها تسهب في الكلام عن بعض المواضع التي تتجنب
الترجمة الثانية الكلام عنها ، او تختصره اختصارا . وقد
جاءت الترجمة الاولى ب ٣١ فصلا في حين جاءت الثانية
ب ١٦ فصلا ، نتيجة ضم بعض الفصول الى بعضها او
تفريقها عن بعضها ، وقد ابجنا لانفسنا حدا وسطا فجعلنا
ترجمتنا ٢٦ فصلا . وعدا عن هذا الفروق الشكلية
وفروق طفيفة غيرها فان هناك فرقا اساسيا بين الترجمتين
هو ان الترجمة الثانية قد اغفلت تماما ذكر الفصلين
العاشر والرابع عشر ، على ما للفصل الاخير من اهمية
بالغة في رسم ملامح جانبية لبعض ابناء السلطان وبناته »
ولسنا مع المترجم في ان هذه الفروق التي يذكرها
شكلية طفيفة ، كما انا ايضا لسنا معه في ان يسمح
لنفسه ان يعدل من فصول الكتاب ليقيم حدا وسطا بين
الطبعتين التي لم تلتزم واحدة منهما - بالقطع - معنى
الامانة في الترجمة . كما انا ايضا لسنا معه في التعلل
بان المترجمين « لم يتعرفا على الحياة العربية والاسلامية »
ليغير من بعض الكلمات والتعابير ، وليدخل « بعض
الامثال والحكم العربية التي يكثر الاستشهاد بها في
لغتنا العربية » فان هذه الحرية التي خولها لنفسه لاتقل
عن الحرية التي اباحها المترجمان الانجليزيان نفسيهما ،
او احدهما على الاقل - لنصل الى نسخة تكاد تكون
نصف النسخة الاخرى من نفس الكتاب .. ولنجسد

النسخة العربية « حدا وسطا » بين النسختين . فالذى بين يدينا هو تحرير للكتاب لا ترجمة امينة له . ويبقى لنا أن نسأل من هما المترجمان الانجليزيان ؟ ومن المترجم الفرنسى ؟ واين النسخة الاصلية المكتوبة بالالمانية ، وكيف لم يتم البحث عن كل هذه النسخ وعرضها مصورة في المعرض الخاص الذى اقيم لمخلفات البرنسيصة اميلى روث أو السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان في متحف بيت السيد نادر فى مسقط . . . ؟ . . . ويبرز المترجم ضياع نسخ الكتاب واهمال امره عبر المائة عام التى مرت على صدوره بقوله : « . . . فالكتاب بحد ذاته وبجميع طبعاته فى اللغات الثلاثة التى صدر بها نادر الوجود مفقود الاثر ، بعد أن مضى على نشره أول مرة زهاء قرن من الزمان . وقد كنا نقع على مقتطفات منه واستشهادات واشارات اليه والى مؤلفته فى كثير مما يقع تحت يدينا من الكتب الغربية الباحثة فى تاريخ عمان وزنجبار عامة ، وعن تاريخ عائلة اليوسعيد حكام تلك البلاد منذ نيف ومائتين عام خاصة ، ولكننا لم نستطع العثور له على أثر فى غير دور الكتب الكبرى ، وعينا ذهبنا جهودنا فى التفتيش عنه فى اسواق الشرق والغرب ، حتى اذا ما فقدنا أمل الحصول عليه ، عثرنا فى صدفة طيبة على نسخة منه عند أحد باعة الكتب المتجولين فى شوارع بيروت ممن لا يدركون قيمته وتندرته فابتعناه منه بثمن بخس دراهم معدودات » . . . ولسنا نرى هل وجد المترجم نسخا للكتاب فى المكتبات العامة حقا ، واى المكتبات هى ؟ ولماذا لم يطلب تصوير هذه النسخ ؟ أن تتبع نسخ الكتاب فى المكتبات العامة ليس أميرا عسيرا ، واعتقد ان الواجب يقتضى البحث عن النسخة

الامانية الاصلية وترجمتها كأصل حقيقى للكتاب . .
فكتاب هذه السيدة الاميرة قد عبثت بها ايد المانيصة
وانجليزية وفرنسية وعربية ، كعبث هذه الايدى بحياتها
نفسها ، حتى تمزقت وجلست فى مرحلة متأخرة فى
العمر تلم شتاتها فى هذا الكتاب الذى ارادت ان تعيد
به لحياتها اصالتها وحقيقتها وتغمها الصحيح ، ليتضح
لأولادها ماغمض من وجودها وحياتها . وتقول عن قصة
حياتها هذه : « . . كنت قد قررت كتابتها ليقراها من
بعدى أولادى حين يكبرون ، فلم يكونوا فى ذلك الوقت
فى سن تسمح لهم أن يعرفوا شيئا عن ماضى حياتى
وأصل منبتى ، وعن وطنى زنجبار وقومى العرب ، وكنت
فى حال من الوهن والسقم والارهاق لم أكن أتصور
معها بقائى على قيد الحياة امرا يكفى لان اروى لهم بنفسى
سيرة حياتى » . . انه ذلك التشبث الكامل بالاصل
والعراقة ، وبضرورة أن يستمر النهر فى مجراه ، فلا
يخرج الابناء الذين فرضت الحياة بعدهم عن منبتهم ،
وهم لا يعرفون حقيقة منبتهم وأصلهم . . وهو فى نفس
الوقت دفاع حار من امرأة تحس انها اساءت الى أولادها
والى نفسها ، يريد ان يجلو الحقيقة من منظورها هى ،
وان يجعل لكل فعل مايبرره ، عسى ان تفهم بعض العقول
وعسى ان تحس بعض القلوب فتغفر وتنسى . . وتعرف
ان الرياح التى تقاذفت السفين كانت هوجا عاتية قذفت
بها الى عالم آخر غريب ، وحين حاول النازح ان يعود
عادت فقدت به من جديد الى التيه ، وخروجها من التيه
كانت كلمات هذا الكتاب . . نحن اذن امام سيرة ذاتية
لها موقف مسبق واضح . فالسيرة هنا لا تروى لمجرد
الرصد التاريخى ، وانما هى سيرة كتبت للدفاع عن

صاحبته ولجلاء أمور في حياتها تريد الكاتبة أن يبرزها في وضوح وجلاء .. ومع هذا الموقف المسبق من الأحداث حس امرأة مرهقة المشاعر تحب فتضحى بلقبها وأرضها ودينها وناسها من أجل من تحب ، وتكره فتشترك في مؤامرة لتغيير الحاكم ، وتقدس أنفها في أمور الحكم ، وتنحاز الى جانب دون جانب في صراع أخويها من أجل الوصول الى كرسي الحكم ، ثم تندفع محاولة العودة رغم معرفتها المسبقة بعدم جدوى هذه العودة ، ثم تعود لتعيش صراعا عنيفا في المطالبة بميراثها من السلطان مرة ومن الألمان مرة ومن الانجليز مرة ، لا تهدأ ولا تستقر .. هذه السيدة اذن ليست مجرد امرأة عادية ، وانما هي صنف مميز من النساء يلقي نفسه في الدوامة ثم يستعذب الكفاح اليائس الذي لا أمل له ولا جدوى منه منذ البداية .. هي نموذج واضح للمرأة الشرقية التي تتمرد على دورها المحدود في الحياة فتلعب بكل مaldiها من ذكاء وحيلة وقوة لتؤكد أنها صاحبة مكان وصاحبة دور فعال، وأن مسألة عزلها عن المشاركة في الحياة العامة مسألة هزلية مغلوطة لا قيمة لها في الممارسة الحقيقية للحياة .. ومن قبل لعبت جدة لها هي السيدة موزه بنت الامام أحمد دورا بارزا في صيانة وحدة الاسرة ، فعندما توفي السيد سلطان تولت الوصاية على ابني أخيها الصغيرين سالم وسعيد ، وتغلبت على اطماع أخوتها في الحكم فهزمت جيوش قيس الزاحف على مسقط ، ثم ازاحت بدرا الذي استعان بالوهابيين على حكم البلاد واخذ يستعد للاطاحة بحق ابن أخيه سعيد في الحكم . وبذلك ضمنت لعمان هذا « الريان الماهر والقائد الناجح والسياسي المحنك » الذي ظل يحكم البلاد خمسين عاما بسط فيها

سلطانه على عمان وشرقي أفريقية التي وظف نفوذه فيها وتقل اليها مقر حكمه .. وفي نفس المرحلة التاريخية ظهرت سيدة أخرى لعبت دورا خطيرا في حياة عمان هي السيدة جوخة بنت محمد بن الإمام أحمد التي قادت ثورة ضد السيد سعيد انتصارا لآخيه هلال الذي القي به السلطان في الحبس ، واحتلت السيدة جوخة السوق وأعلنت التمرد في الباطنة وانضمت اليها قوات أخرى .. ولكن السيدة موزه تتصدى في غياب أخيها السلطان حيث كان في زنجبار ، للثورة والثوار ، وتستطيع أن تحفظ لابن أخيها بلاده حتى يصل السلطان فيطلق سراح أخيه ويسترضي أخته جوخة . والسيدة موزه تظهر على سطح الأحداث مرة ثالثة عام ١٨٣٢ حين تواجه بجيشها البالغ ألف وخمسمائة جندي تمردا آخر اشترك فيه شيخ القواسم فردت به الهجمات على مسقط وسابست الأمور حتى عاد السيد سعيد الى العاصمة مرة أخرى ليتولى الأمور بنفسه .. عمة أبيها وعمتها هما امرأتان تركتا بصمات واضحة على حياة الرجال في تاريخ عمان ، فليس غريبا أن تشترك السيدة سالمة هي الأخرى في مجربات الأحداث ، وفي دوامات الصراع الدائر في الأسرة حول السلطة ، خاصة وقد عاشت في بيت أبيها السيد سعيد تحت حكم امرأة أخرى قوية الشخصية بالفسة النفوذ هي السيدة عزة بنت سيف الزوجة الشرعية الوحيدة للسلطان تقول : « وعلى قدر ما أتذكر فلم يكن لأبي السلطان طيلة حياته أو منذ مولدى على الأقل إلا زوجة شرعية واحدة . أما الأخريات وقد ترك منهن عند وفاته خمسا وسبعين ، فقد كن من الجوارى والاماء كان يشتريهن أو يملكهن بين الحين والآخر ، وكان لفظ

الزوجات يطلق عليهن تجاوزاً من باب التعميم ولا يقصد
 به على كل حال معناه الشرعى الدقيق . . وكانت زوجته
 الوحيدة هذه ، هي عزة بنت سيف من فرع بيتنا المالك
 فى عمان ، وكان لها الحكم المطلق والكلمة العليا فى بيته .
 ورغم ضالة حجمها وقلة حظها من الجمال فقد كانت لها
 السيطرة المطلقة على زوجها بحيث أنه يتبنى عن طيب
 خاطر آرائها وطلباتها . وكانت معاملتها لزوجاته الاخريات
 ولاولاده جميعا تتسم بالعجرفة والتشامخ وتسقط الاخطاء
 وقد كنا نحمد الله على أنها كانت عقيما ، فلو أنها رزقت
 بطفل ل زاد علينا ولا شك عتوها وجبروتها . ولقد
 كنا ، نحن أبناء السلطان ، وكان عددنا عند وفاته خمسا
 وثلاثين - جميعا من أبناء الجوارى . وعلى هذا فقد كنا
 متساوين فى كل الحقوق ، لا تمييز بيننا البتة بسبب
 الدم أو اللون . . هذه الصورة ترسم مكانة للمرأة فى
 حياة السلطان تفوق كل ما يمكن أن يرسمه الخيال للمرأة
 المستقلة صاحبة الحقوق فى المجتمعات الغربية ، وهذه
 الصورة تكشف أيضا السر فى كل ما أصاب القصر فى
 زنجبار من تفكك ومعارك اثر موت صاحب السطوة
 واليد الحديدية ، فالأخوة جميعا لا يربط بينهم إلا الأب
 الواحد ، أما الامهات فهن خليط من أجناس متعددة :
 تدفع كل واحدة ابنها ليكون صاحب الحق فى ميراث
 السلطان . وتحكى المؤلفة عن أخيها خالد وأمه الشركسية
 خورشيد التى « كانت شخصية فذة خارقة لم أر فى حياتى
 كلها ندا لها بين أفراد جنسنا » ، ثم تقول : « وقد حدث
 أن تولى خالد مرة أمور السلطنة فى الجزيرة نisابة
 عن السلطان عند ذهابه الى مسقط فكانت أمه باعتراف
 الجميع هى الحاكم الفعلى وكان خالد مجرد دمية بين

يديها . ولهذه الخصال الفريدة فقد تمتعت خورشيد
بمقام ممتاز بين افراد العائلة ، وكانت مرجع الشورى
لهم جميعا ، وكانت مع صواب الراى وسرعة الحسم
تتمتع بالملكات بحكمة سليمان وصبر ايوب . لم تكن
المرأة اذن بعيدة عن السلطة بشكل او باخر سواء فى
امور السلطنة نفسها ام فى بيت السلطان . وقد حكمت
المؤلفة عن السيدة عزة وسطوتها ، وتحكى ايضا عن واحدة
اخرى كان لها سطوة كبيرة وحظوة بالغة عند السلطان
تلك هى ابنته خولة التى تقول عنها « كانت خولة دون منازع
فريدة عائلتنا الكبيرة بالحسن والجمال وكانت الابنة
المفضلة عند ابي السلطان سعيد » . وفى موضع آخر
تحكى عن نفوذها فتقول « وقد عين السلطان قبل رحيله
أختى خولة كبيرة للأمينات - ان صبح هذا التعبير -
وجعلها مسئولة عن بيتى الساحل والموتنى ومن فيهما
من النساء ، وقد اثار تعيين هذه النجمة الساطعة فى
سماء عائلتنا ، الكثير من الامتعاض والحسد والغيرة فى
قلوب بعض نساينا برغم انها لم تكسب من هذا التعيين
شئنا غير المشقة والاذى وتقمة الناس » . وخولة هذه
- وهى عراقية الام - كانت وراء دخول الكاتبة فى مغامراتها
السياسية التعسة التى اودت بها ودمست كل أمن
واستقرار فى حياتها . . فقد كان افتتان الكاتبة بهسا
وطاعتها المطلقة لها سببا فى انضمامها لها ولاخيها برغش
فى تمردهم ضد اخيهم السلطان الجديد ماجد رغم تلك
العلاقة الوطيدة التى كانت تربطها بماجد منذ الصغر ،
فام ماجد كانت الصديقة الوفية لامها ، وحين رحلت
سارة ام ماجد عن هذه الدنيا ، تولت ام سالة تربية
ماجد وأخته خديجة . وحين بلغ ماجد سن الرشيد ووهبه

ابوه دارا خاصة به فقد توسل الى صديقة أمه المخلصة
ومن قامت بتربيته بعدها ، أن تنتقل مع ابنتها لتسكن
معه وأخته في داره الجديدة ، وكان أن انتقلنا بالفعل الى
الحياة معه في بيت « الداتور » .. ولكن هذا كله لم
يمنع سالة من أن تنساق لتحريض خولة لها فانضمت
بمالها وجهدها الى برغش ومؤامراته ضد أخيه ماجد ..
واستمال برغش الطامعين من رؤساء القبائل اما بالمال
واما بالوعد او الوعيد . وكانت الثغرة التي دخل منها
برغش وكان وليا للعهد ، هو طيبة ماجد ودمائته التي
مكنت لوزرائه ولواحد منهم بالذات هو سليمان بن علي
أن يستحوذ على السلطة والنفوذ ، فاشتعلت الفتن التي
زاد مكر سليمان هذا من بثها بين الاخوة . ومن هذه
الثغرة نفذ برغش الى قلوب المتمردين واستعد ليقفز الى
مقعد الحكم مستعجلا أيام أخيه في السلطة إذ هو ولي
العهد الطبيعي الذي يرث الملك بعده . ولم تكن الكاتبة
ولا خولة هما المرأتان الوحيدتان في المؤامرة ، فالكاتبة
تذكر « شيمو » و « فارشو » ابنتي أخيها خالد ، كما
أن امرأة أخرى رفضت الانضمام الى المتآمرين هي موجهة
أخت برغش نفسه .. وتكشف الكاتبة عن دورها في هذه
المؤامرة فتقول : « ومع أنني كنت أصغر النسوة المتآمرات
سنا الا أن معرفتي للكتابة أهلني لمنصب - السكرتيرة
العامة للثورة - أن صبح هذا التعبير ، وكنت بهذه الصفة
اقوم بكافة المراسلات مع رؤساء القبائل ، واطلع على
أسرار الاستعدادات والخطط . وكنت في سن يسمح
لي بأن أحس بوخز الضمير وقلق الوجدان وأنا أصدر
الوامر لاعداد البنادق والبارود والرصاص لقتل الأبرياء
من اقرب الناس الى وإحبيهم الى قلبي .. ولكن ما العمل

الآن ؟ هل يمكن التراجع الآن وهل يمكن أن أنقص عن وعدى لاختى خوله وأتركها وحيدة في ساعة الخطر .. .
كان الاوان قد فات بالفعل ، فماجد قد عرف بالأمرة وحوصر البيت ، وتم اخماد الثورة في حكاية طويلة ومثيرة وانتهت المغامرة بالفشل « وكان الثمن غاليا من ناحيته المادية والمعنوية » .. . وسافرت الاميرة سالمة الى مزارعها البعيدة تبحث عن دواء لجروحها ، وعن مكان تغسل فيه ندمها وخطاها الذي يورق ضميرها .. .

ومشاركة المرأة في النفوذ والعمل السياسي والتأمر لم يكن هو الوجه الوحيد الذي كشفتته السيدة سالمة من حياة « الحريم » في بيت السلطان . بل كان هذا هو الجانب النادر والقليل الذي لم يكتب عنه أحد قبلها قط . فهي في كتابها تكشف الجوانب الاخرى الشائعة والغريبة في حياة النساء في هذا القصر او ذاك من قصر السلطان . وحياة النساء يضيع معظمها داخل جدران القصور ، ومن هنا كانت هذه العناية الفائقة التي بذلتها الكاتبة في وصف القصور وصفا دقيقا ، وكذلك في وصف طبيعة الحياة في هذه القصور - اعني الحياة اليومية العادية .. . وفي قصر « الموتى » في زنجبار تبدأ الاميرة كتابها ، ففيه ولدت « وفيه اعشت أسعد أيام طفولتي واجملها حتى بلغت السابعة من عمري » .. . والقصر يشرق نهر الموتى وبساتينه ويتفرع داخلها الى جداول صغيرة « تنساب صافية رقراقة الى مختلف الاتجاهات تحت ظلال الاشجار الكثيفة الشاهقة او في مسروج الحديقة التي طرزتها الورود والازهار بمختلف الالوان » .. . وهو مكون من الاجنحة والملحقات وملء بالمسالك والممرات المتشابكة .. . وتقف المؤلفة عند جناح الاستحمام

وغرفه المتعددة التى تختص بكل غرفة منها قشة من قشات القصر . وبراءة الاطفال تتحدث عن الحيوانات والطيور والفة الصغار لها ولعبيهم معها فى ساحة القصر الواسعة التى تشهد دروس ركوب الخيل والبغال ، ودروس الفروسية . . . ومما تبقى فى ذهن الكاتبة من ايام الطفولة ترسم لنا صورة غريبة لهذا القصر الضخم الكبير و « البنجلة » التى تقع امامه على شاطئ البحر حيث يتناول السلطان القهوة مع زوجته والبالغين من ذريته ، وكذلك للمطابخ التى تضع بالعاملين فيها من مختلف الجنسيات و « كانت اطباق طعامنا الشائعة تنوع بين العربية والتركية والفارسية والروسية تنوع الافواج العديدة من سكان هذين القصرين » تقصد ايضا قصر الساحل . ثم تتحول نحو الازياء التى لم يترك لها الحرية لتنوع « فاذا ما وصلت القصر شركسية بشياها الوطنية المزركشة او حبشية بزيها الفضفاض ذى الالوان الصارخة ، كان عليهما ان يستبدلا بهما خلال ثلاثة ايام لباسا عربيا تقدمه لهن احدى امينات القصر » . . . وتتحدث عن الحلى التى هى اساس فى زى المرأة ايا كان مركزها الاجتماعى ، ثم تقف لتصف زينتها ايام الطفولة فتقول : « وقد كانت العادة لنا نحن البنات الصغيرات ان تجدل شعورنا على شكل ضفائر صغيرة قد تبلغ العشرين عددا فى بعض الاحيان ثم تربط هذه الضفائر باشرطة رفيعة ملونة ، ثم تجدل فى نهايتها فى ضفيرة واحدة تتدلى من وسطها على قفانا القطع الذهبية الدقيقة الصنع والمفصصة بالاحجار الكريمة والجواهر الفضية . . . وكانت التسريحة الاخرى ، وهى الاجمل والاليق ، ان تترك الضفائر ونهايات الاشرطة مدلاة على ظهورنا دون

ضفر ، ويعلق فى نهاية كل منها قطعة ذهبية قد حفرت
عليها آية قرآنية ، وكانت هذه الحلى ترفع عن رؤوسنا
أثناء النوم ، ثم تعاد الى مكانها فى صبيحة اليوم التالى»
.. وتقول « وكان من تمام الزى الرسمى لنا ، نحس
البنات الصغيرات ، وحتى نبلغ سن الحجاب ، أن نرتدى
فوق فساتيننا المعتادة قميصا فضفاضا يغطى أجسامنا
يصنع من قماش شفاف يطرز أحيانا بخيوط من الذهب
والفضة فيكشف عن جمال الفستان ، ولكنه يحجب
مفاتيح الجسم التى يظهرها الفستان عادة » .. ثم تملأ
المكان حياة حين تحكى علاقات الاخوة والحب التى تجمع
بين بعض الضرائر وكلهن غريبات فى هذه الدار التى
دخلنها فى سن مبكرة . وقد انتزعهن الاسر أو النخاس
من أسرهن القديمة ، فتحكى عن أمها أنها « دخلت بيت
أبى وهى فى سن صغيرة جدا لا تتجاوز السابعة فقد
خلعت أولى أسنانها اللبنية فى بيته » .. الحب والكراهية
التي تنجم عن الحسد والغيرة حين تفوز واحدة برضاء
السلطان فيقربها اليه فتشتعل قلوب الاخريات حسدا
وغلا ، وتبدأ المؤامرات الصغيرة . وخاصة على الزوجة
الشرعية الوحيدة السيدة عزة المتكبرة والتى تحس أنها
مطلقة التصرف فى هذه السلطنة الصغيرة . فالجميع
يقف لها اجلالا ، والجميع ينحني حين تسير ، وهى
لا تسمح لاحد أن يمثل فى حضرتها الا أن تستدعيه
هى .. ومع هذا فقد كان للحب دائما اليد العليا ،
وهذا الحب هو الذى جعل ماجد يصحب سالة وأمها الى
بيته الجديد الخاص . وتصف الكاتبة مظاهر الوداع
والحزن على فراقهما فى البيت الكبير ، ومظاهر الترحاب
والود التى طالعتهما فى البيت الجديد ، وكلهن آخر

الامر نساء ، المرأة تصادق ضررتها ، وتصادق وتآخي ائمة
 زوجها ، وتقول الكاتبة عن ايام الجمع في بيت الساحل :
 « وكان الاطفال منا يسرحون ويمرحون بنشاط جم وأدب
 ظاهر ، في حين كانت أمهاتنا يرحن ويجنن ويتجمعن فيما
 بينهن يتبادلن الاحاديث والنكات ويطلقن ضحكات قلبية
 صدقة وفي ود وصفاء ومرح وطيبة ، حتى ليكاد الغريب
 عن حياة هذا الدار ان يظنهن تلميذات في مدرسة ، ولا
 يصدق - بمظاهر الود والمحبة بينهن - ان كل هذا الجمع
 من النساء هن زوجات رجل واحد » .. ومع هذا فان
 فرق اللون والجنس كان يثير العداوة والبغضاء . وتقول
 عن المحظيات الشركسيات انهن كن يجدن من الحبشييات
 « نفرة وصدودا وبغضا لا لشيء الا لمجرد ان ضرتهن بنبات
 اللون يجدنهن انصع منهن لونا وأعرق أصلا » .. ونفس
 النفرة تحدث بين الاخت وزوجة الاخ كما حدث بين
 خديجة اخت ماجد وعائشة زوجته مما أدى الى خروج
 المؤلفة وأما الى البيت الثاني - او الثالث عددا كما
 نرى - من بيوت السلطان ، حيث تحكى عن ساكنتها
 الاصلبة الزوجة الشرعية الثانية للسيد سعيد وهي اميرة
 فارسية اسمها شيزاده كانت تعيش حياة البذخ الزائد
 والاسراف الشديد « وكان الطابق الاول من البيت يسكنه
 مائة وخمسون فارسا فارسيا هم حاشيتها المتواضعة
 العدد ! » وعلى جمالها وفتنتها كانت تركب الخيول
 وتخرج مع فرسانها للصيد . وتحكى الكاتبة حولها
 حكاية كانها خارجة من بين دفتى الف ليلة وليلة ، فقد
 كانت تهب الخدم ما يتساقط من ثيابها من لؤلؤ ، وكان
 هواها مع غير السلطان الذي مات زوجته الا لثرائه ، فلما
 اكتشف السلطان خيانتها للعهد كاد يقتلها ، واستعمل

سيفه ليقضى عليها ، لو لم يسارع تخادمه الوقى سـ . .
النوبى ليحول بينها وبين الموت ، وطلقها السلطان وعادت
الى بلادها ، ولكن الحكاية لاتقف عند هذا الحد . فبعد
سنوات اشتبك السلطان فى حرب مع الفرس « وقيل
أن شيزاده شوهدت مع جيش الاعداء لتتصرف على
أفراد عائلتنا وتدل جنود العدو عليهم ، ويقال أنها كانت
تفسيها ترميهم بالسهم » . . وحكايات الحب هذه كثيرة
وتملأ الكتاب كله ، ولكنه حب من لون خاص وعطر
معين لا ينسينا أبدا أننا فى قلب الشرق ، وأنا انمسا
تقرأ الاصل الحى الذى ألهب قلوب وعقول الفنانين
فكتبوا لنا قصص الشرق العظيمة . فالكاتبة تحكى عن
اختها خولة وجمالها الفائق الذى سارت شهرته فى كل
مكان ، وكان الفرسان يقصدون قصدا الى زنجبار عليهم
يحظون بنظرة من هذه الفتنة الحية التى تسلب لب كل
من يراها « كما حدث بالفعل لاحد الرؤساء القادمين
الىنا من عمان فقد صعد بنظرة منها فأذهلته عن أمره
حتى أوشك أن يودى بحياته وهو مأخوذ بسر فتنتها
سأه عما يفعل » اذ ركز رمحه دون أن يحس فى احدى
قدميه ، ولم يشعر بالوخز ولا بالآلم ولا بالدم « ولم لم
يوقظه أحد اخوتى من نشوة حلمه اللذيد لاودى النزيه
بحياته » . . وكما تتعلق انظار الشباب بالفاتنات من
النساء فان الفتيات أنفسهن يلعبن نفس اللعبة التى تراها
موصوفة بكثرة فى ألف ليلة وليلة ، تقول السكاتبة
« وتلتصق الشباب أليافعات من بنات القصر ممن لا عمل
لهن بنوافذ غرفهن يتفرجن على المارة والسابلة يرضين
غرورهن بما يرتفع اليهن من حين الى آخر من نظرات
اللهفة والاعجاب ، وكانت هذه الجلسات مصدر متعة

وسرور للشابات الحسنات ، كما كانت مصدر قلق
للأمهات والعصاة . . وتحكى الكاتبة قصة حب « شريفة »
لأن عم لها وتزوجته رغم اعتراض السلطان الذى مالت
أن رضى عن الزوج وقربه اليه . والكاتبة نفسها تقم
فى الحب فتترك كل شيء من أجله . وقد تعرفت على
هذا الشاب الالماني فى أيام التعاسة والبؤس بعد فشل
مؤامرتها على ماجد ، وتحكى القصة فى سرعة وتحفظ
قائلة : « وقد تعرفت على زوج المستقبل » هنريخ
روث « بعد عودتى من بوبوبو ، فقد كانت الدار التى
سكنتها مجاورة لداره ، وكان سطح داره أوطأ من سطح
دارى ، وكنت غالباً ما أرقب من نافذتى حفلاته الرجالية
الباذخة التى كان يعتمد اقامتها فى الأماكن التى يقع عليها
نظري لعلمه برغبتي فى الاطلاع على هذه الاحتفالات
القريبة . وسرعان ما شباع فى البلد خبر صداقتنا التى
تطورت فى النهاية الى حب » . . وتهرب من زنجبار
بمساعدة زوجة القنصل الانجليزى وعلى ظهر باخرة
حربية بريطانية هى « هاى فاير » ، وفى عدن تستضيفها
عائلة اسبانية حيث تلقت تعاليم الدين المسيحى وتعمدت
وتزوجت فى الكنيسة الانجليزية ، وسافرت منها الى
هامبورج حيث تستقر وتنجب ، وحيث يموت زوجها
وتصبح وحيدة وفقيرة ، وحيث تبدأ محاولاتها للاتصال
بأخيها برغش الذى ساعدته فى انقلابه الفاشل والذى
غدا سلطانا ولكنه يتنكر لها ويرفض مساعدتها . وتبدأ
فصول الالم والتعاسة والفرقة والمرارة والحقد على أخيها
الذى اندفعت بكل عواطف المرأة تنهيه بكل تقيصسة
وتهاجمه بكل أنواع التهم . .
ان القصة نفسها على طرائقها ليست أهم مافى الكتاب

الفد ، ولو ان قصة عشق بنت السلطان للشاطر « هانز » وهربها معه بتأمر الانجليز والالمان والاسبان شيء لا يحدث في حياة الناس ، ويمكن ان يحدث في خيال القصاص - ولو ان الاخت التي تخون اخاها الطيب من اجل اخيها الشرير وتضحى في سبيل الاخ الشرير فاذا ما احتاجته تنكر لها وانكرها ، شيء يمكن ان يحدث في الحياة وفي خيال القصاص معا .. الا ان هذا شيء وما للكتاب من قيمة فذة شيء آخر .. فهذا الكتاب هو الثقب الوحيد الذي تسلل منه عيوننا الى ما ظل محرما على كل العيون حتى الان ، اعني ان صدور الكتاب ، وان التعرف عليه معا .. « فالحرملك » سر لم يتناوله الا قصاصو الف ليلة ، وهم حين تناولوه اتهمناهم بالخيال المفرط ، والابتداع لما هو غير قائم . اما هنا فنحن نرى الاصل الذي لا تحاكيه صورة ، هذا الجيش الجرار من السراي وامهات الاولاد يعيشن جميعا معا في كنف قصر واحد تحكمه الزوجة الوحيدة والعربية العمانية الوحيدة بينهن . كيف يتعاملن معا ومع الزوج والسلطان؟ ومع الاولاد والبنات ومع الخدم والعبيد والخصيان ؟ تقاليد « البرزه » واماكن الجلوس ، تقاليد الاستيقاظ والنوم والطعام ومواعيده ، علاقة السلطان بأبنائه وبناته ، حياة النساء وحياة أبنائهن في هذا المجتمع المغلق ، ماذا يلبسن وكيف يلبسن ؟ ماذا يتعلمن وكيف يتعلمن ؟ وما معنى المدرسة في حياة الاولاد والبنات ؟ ماهي تقاليد الاستحمام والنزهة والصيام والاعياد والخطوبة والزواج والولادة .. ماهي شعائر الحداد ، وطرق التطبيب والعلاج ، ماهو وضع الخرافة والعادات والسحر والتنجيم في حياة سكان القصور هؤلاء ؟ ماهي اخلاق

الفروسية والكرم ؟ ومن أين ملامح التأمر والحق .
الانساع القبلية ومدى تحكمها في كل شيء ، وماعلاقة
المكان بالناس ، كيف يفرشونه ، وكيف يرتبونهم ، وكيف
يعدونه لحياة لا تبدل فيها ولا تقتير ، وكيف تشغل
المرأة فراغها وكيف تملأ حياتها . انه الثقب العريض
في جدار الصمت الذي فرضته التقاليد المتوارثة على كل
مايتعلق بنساء الشرق وحریم السلطان .. كل دارس
لل قصة والتاريخ وللمظاهر الاجتماعية وللموروثات الثقافية
والفولكلورية سيجد زاد خصبا متاحا وكنزا دفيننا يزهر
بما فيه ، وبمما يقنى عن الكثير من الاستنتاجات
والاستنباطات من أخبار عارضة ترد هنا او هناك في
كتب التاريخ والأخبار .

ونحن هنا في مطبخ التاريخ ، وما ادق هذا التعبير
واكثره دلالة ، فهنا يصنع الحب الذي يبني دولة ،
والاستقرار الذي يؤكد عرشا .. وهنا يصنع الحق
الذي يشر تمردا وثورة ، ويصنع الغباء والتنافس الذي
يفتح الباب أمام أطماع الواقدين الى حيث الثروة والمال .
هنا في عمق قصور السلطان يولد التاريخ ، يتكون جنينا
ويترعرع طفلا ، ويتحول الى صفاء وحب او الى غدر
وخسة أو الى موت وخيانة ..

والكتابة في كل هذا تحس انها مطالبة بالدفاع عن كل
ما تكشف عنه من أسرار هذا الحزم ملك .. هي لا تفتأ
قد تركته بالزواج والتعميد - ولها أصلها وناسها الذين
تقاليدها التي تعز بها ولها دينها الذي تؤمن به رغم انها
قد تركته بالزواج والتعميد ، ولها أصلها وناسها الذين
لا يقلون عن الناس والاصل في كل مكان انسانية ونضجها
ومدنية ، كما لا يقلون ثقافة وحضارة ومعرفة ، كمسب

لا يقلون حرية وكرامة واعتزازا ..
 الاصاله فيها ، والفنانه فيها ، والمرآة فيها ، خلقت
 هذا المزيج الفريد من القدره على القص والحكى والسلاسه
 فى الصياغة والربط ، والحماس الفائق فى حب بلادها
 واهلها وتاريخها معا .. ندر ان تقدم لنا سيرة ذاتية
 بكل هذه الابعاد .. ولكن يجب الا ننسى اننا امام ادب
 نسائي حقيقى كتبته امرأة قادرة وذكية وجريئة ، وامرأة
 فنانه مرهفة وكريمة .. انها بنت السلطان ركبسة
 التختروان تغزل وتحكى لى .. ومن هذا الغزل وهذا
 الحكى الصادق والجريء كان هذا الكتاب .. كم اتمنى
 ان اراه فى ترجمة دقيقة عن الاصل الالماني ، ترجمة
 لا يتدخل فيها احد بالحذف والتصرف ، وانما ترجمة
 ينصرف الجهد المبذول فيها الى تحقيق الاسماء وتهميش
 الاحداث بما يجلو حكاياتها . كما ينصرف الى التحليل
 التاريخى والعسمى والاجتماعى الذى يعمق كلماتها ويبسطها
 ابعادها الحقيقية التى تضيف الى مكتبتنا العربية ثبنا
 فنيا وعلميا جديرا بالتقدير والاشادة .



رحلة السندباد

فى فناء وزارة الثقافة بمسقط تقبع السسفينة « صغار » بعد اوبتها من رحلتها التاريخية ، والتي سميت برحلة السندباد ، والتي قادها فيهما « تيم سيفرين » من ساحل عمان حتى ساحل الصين ، ومن مسقط حتى كانتون . تقبع فى هذا المكان حيث خرجت من دنيا البحار لتدخل دنيا الثقافة والفن ، فالرحلة لم تكن تجارة أو استعمارا ، وهما الهدفان اللذان دارت حولهما كل رحلات المحيط الهندي . وانما كانت الرحلة استكشافا لاعمق التاريخ ، ومحاولة لاعادة تمثيل فصل من فصوله التي مرت وعبرت ، ولكنها ظلت لاصفة بذهن الانسانية لا تنساها أبدا .

كانها قادمة تمخر عباب المحيط وعباب الزمن من همق البحر المخوف ومن دنياه المجهولة ، ومن بين دفتي ألف ليلة وليلة كتاب شهر زاد الخالد .. فوق جسدها اللامع انشقت أمواج المحيط ، وارتسمت أشباح حكايات واساطير عن ثروات مجهولة لاتنفد ، وشجاعة جسورة لا تخاف ، وأسماك تنبت فوق جلودها الاشجار ، ورخ يحمل سندباد عبر جبال الماس ، وغول ياكل الناس ، ومهرة من كرام الخيل تنتظر فرس النهر يصعد اليها من جوفه ، وحولها حراسها يحملون الحراب والمشاعل ، وكهوف يدفن فيها الاحبة احياء مع احبائهم الموتى ، وعجوز يركب الناس بالقهر والاذلال ، وموج يتقاذف

السفينة فاذا هي مزق مزق ، واذا بحارتها تتخطفهم
الامواج وياكلهم الموت ، وسندباد يتشبث بقطعة قذفا
الموج من أعماق السفينة يبحر بها الى شاطئ النجاة .
ثم يعود ليحكى كل يوم حكاية من حكايات رحلاته السبع ،
فى بحاره السبع ، فى سفنه السبع .

و « تيم سيفرين » واحد من هؤلاء الحالمين الذين
يريدون لاحلامهم ان تتحقق وأن تصبح اشياء ملموسة
ومفهومة ، فى عصر الطائرات والمحركات النفاثة والسفن
الضخمة يثب الى ذهنه سؤال يؤرقه ، هل حقا استطاع
الانسان قبل كل هذه الاكتشافات والصناعات ان يحقق
بوسائله الاولى ما يحققه انسان العصر من انتصار على
المكان ؟ هل حقا استطاع ان ينتقل من قارة الى قارة
بوسائله البدائية الاولى ، فيربط ما بين القارات ويحمل
عبر رحلاته الثروات ، ويدفع البشرية نحو المزيد من
المعرفة والالتقاء وصناعة الحضارة ؟ . الآثار الباقية
تقول هذا ، وكتب التاريخ تقول هذا ، ومنطق التطور
ايضا يقول هذا ، ولكن انسان اليوم يريد ان يعرف :
كيف استطاعت هذه القلوب صاحبة البكارة ، وهذه
العقول البعيدة عن معطيات علم العصر ان تحقق هذا ؟ .
ولكن انسان اليوم ايضا يريد ان يتحدى هذه البكارة . .
هل كان انسان الامس افضل من انسان اليوم ؟ وهل
يمكن لانسان اليوم ان يتحمل ما تحمله انسان الامس
راضيا ومضحيا وصائرا . .

واكثر الميادين تشويقا وجذبا لهؤلاء الحالمين من اصحاب
الجسارة ، هو ميدان البحر . . ومن قبل قام الترويجى
ثور هايردال بعدة رحلات لاثبات امكان القيام بالرحلات

البحرية الطويلة على قوارب بدائية ومصنوعة من الخامات المتاحة في العصور القديمة ، ومن هذه الرحلات رحلته من الساحل الافريقى الى الساحل الأمريكى على متن قارب مصنوع من بوص البردى وحبال الكتان . وصحبه مجموعة من الافريقيين المغامرين مثله ، أحدهم تشادى والثانى مغربى والثالث مصرى ، وبعد محاولتين فاشلتين نجحت محاولته الثالثة واستطاع ان يعبر المحيط الاطلسي على متن هذا القارب البدائي الآتى من عصور سحيقة في تاريخ الصناعة البحرية الافريقية .

و « تيم سيفرين » نفسه له محاولة سابقة على رحلة السندباد يحكى عنها في مقدمة كتابه الذى سجل فيه رحلة صحار عبر المحيط الهندى . فقد قام مع ثلاثة من مرافقيه برحلة من ساحل ايرلندا الى الساحل الأمريكى على متن مركب صغير قمصنوعة من جلود الثيران ، وكان الغرض من الرحلة كما يقول « التأكد من أنه كان من الممكن للرهبان الايرلنديين ان يصلوا شمال أمريكا قبل رحلة كولومبس بألف عام » . . وكان القارب الذى أتم فيه الرحلة تقليداً للقوارب التى استعملها هؤلاء الرهبان وتسمى « برندان » تكريماً لاشهر القديسين عند البحارة الايرلنديين وهو « سانت برندان البحار » ، وهو بطل لقصة من قصص البطولة المتداولة في ايرلندا وتحكى عن مغامرة رحلته مع الرهبان الايرلنديين الى الساحل الشمالى لأمريكا . . وقد أكدت له هذه الرحلة ان وسائل القدماء فى عبور البحر كانت سليمة ، وأن معرفتهم كانت كافية لصناعة السفن الملائمة للبحار فى البحار العميقة . ومن منطلق النجاح فى هذه الرحلة بدأ تفكيره الى رحلة مماثلة . وبدأ يبحث عن شخص

أسطورية أخرى ارتبطت بالبحر والارتحال فيه ليضع أسطوره محل الاختبار العملي ، وليثبت أن ما قالته الاسطورة المتداولة هي حقيقة يمكن تحقيقها بالفعل . ويقول : « وجاءني الجواب في هذه اللحظة ، لماذا لا اتحقق من أشهر البحارة على مر الزمن ، ذلك البحار الذي يعرفه كل طفل قرا ألف ليلة وليلة ، الرجس الذي يستدعي اسمه كل ماثورات البحر ، لماذا لا اختبر أسطورة السندباد البحار ؟ » ..

والسندباد لم يكن بحارا وربما كان ما استقر في ذهنه من الطفولة عن سندباد أنه بحار شهير يقلع بسفينته يمخر عباب البحار بحثا عن المغامرة ، كأنه أحد القراصنة مثلا .. لا يدري أحد كيف وجدت هذه الصورة عند المتلقى الغربي لآلف ليلة - ربما حورها لتلائم أحلامه وطموحاته ، وواقعه الرومانسي في قرون المغامرة البحرية والاستكشاف البحري .. وعندما يبدأ « سيفرين » في القراءة والبحث يتضح له أن رحلات السندباد تنطوي على ما هو أكثر أهمية من عطرها الأسطوري . لقد قرا وعرف أن العرب في القرن السابع الميلادي قد امتد وجودهم حتى المحيط الاطلسي وحتى أواسط آسيا وحتى عمق أفريقيا . وأن التجار العرب هم صلب حركة النقل البحري للثروات بين القارات ، وأنهم كونوا أعظم شبكة تجارية عرفها العالم ، وقبل أن تصل أول سفينة أوروبية إلى بحارهم بسبعمئة عام على الأقل . وأن العرب قدموا للعالم أكبر مجموعة من مهرة البحارة الذين عرفهم التاريخ ، وأن كتب الجغرافيين والرحالة العرب سبقت إلى تدوين أهم ملامح العالم القديم وبحاره وأرضه وسكانه ، وعادات الناس

بتقاليدهم ومعها حكاياتهم وأساطيرهم ، وخاصة تلك المرتبطة بالبحر والرحلة فيه . بل لقد وقف وقفة الاجلال حين اكتشف أن كل النجوم التي تعين البحارة على السفر تحمل أسماء عربية وضعها هؤلاء العلماء العرب الذين تفوقوا من زمن طويل في علوم الفلك . . وهكذا عاد يقرأ من جديد رحلات السندباد السبع في ألف ليلة وليلة ، وهنا فقط يكتشف أن اسم سندباد وهو السندباد البحري لا السندباد البحار . وهنا أيضا يكتشف أن رحلات السندباد في ألف ليلة وليلة مجرد رحلات عادية عرفها التجار العرب الذين عبروا من شاطئ الجزيرة العربية كل المحيط الهندي حتى وصلوا الى الصين في سفنهم التي صنعوها لتلائم الرحلة وتحملها ، قبل أن تطور صناعة عابرات المحيطات لتصل الى حد الامان الذي يعرفه بحارة اليوم . .

لقد أدرك أن حكايات السندباد ترتبط برحلات العصر العربي الذهبي للجغرافيين العرب الذي ساد من القرن الثامن الى القرن الحادى عشر الميلادى . حيث كانوا اول من رصد كل المواقع التي دارت حولها الرحلات القديمة ، تلك التي رصدها حكايات السندباد وتفسر السندباد ، ويقف طويلا عند كتاب عجائب الهند وما جاء به من ذكر للأماكن والمعاداة ليقارنها بما جاء فى رحلات السندباد التي ظننها أسطورية فاذا بها استعارة روائية من معرفة شائعة عند العرب ، أصحاب العلم منهم ، وأصحاب المعاصرة على السواء . منذ قديم . . وأخذ يعنى نفسه بالقراءة والبحث فلم تعد المسألة عنده مجرد حكاية بطل فرد ، وإنما غدت المسألة عنده جزءا من تاريخ الانسان في قهره للمحيطات ، وجزءا من تاريخ

الملاحه فى العالم . وسرعان ما أدرك أن قصاصى الليالى قد أخرجوا السندباد فى سبع رحلات تنتهى كل منها بكارثة ، ينجو منها بعد مغامرات مشيرة تتيح للقصاص أن يستعرضوا ماتجمع لديهم من معارف وحكايات .. وسأل نفسه ألا يمكن القيام برحلة واحدة تتعرف على هذه الأماكن التى جاءت فى كل هذه الرحلات لربطها بالطريق البحرى الطويل الذى قطعه البحارة العرب من الخليج وعبر ستة آلاف ميل حتى ساحل الصين ؟ ولكن هذه الرحلة لن تتم كرحلته الأولى فى قارب بسيط مصنوع من جلود الثيران . هذه رحلة لأبد لها من سفينة كبيرة تعبر المحيط وتحمل من الأدوات والطعام ماتحتاجه رحلة تستغرق ثمانية أشهر على الأقل ، وتحمل من الزاد والماء مايكفى كل مرحلة من مراحل الرحلة ..

ولكى يصبح الحلم حقيقة لأبد من التسجيل بالصوت والصورة - بل لأبد أيضا من بحارة يعرفون مهارات الرحلة فى مثل هذه السفينة التى تماثل سفن الرحالة العرب القدماء . وهنا واجهته حقيقة أخرى مزعجة وهى أن سفنا كثيرة قد خرجت من الخليج ولم تعد ، ولم تصل ، ولم يعرف أحد عنها شيئا - وأنا هذه الرحلات فى حكايات السندباد تنتهى غالبا بتعطيم السفينة وقرق البحارة .

فالرحلة أذن مغامرة مشيرة ولكنها أيضا مغامرة محاطة بالمخاوف والاحطار . وكانت الخطوة الأولى هى أن يتعلم العربية ، وكانت الخطوة الثانية أن يبحث عن السفينة اللائمه والمشابهة لما كان مستعملا من قديم - وفى الخليج وجد نماذج « اليوم » .. وهى سفن لاتدخلها المسامير ، فالعرب كانوا يعتقدون فى وجود جبال المغنطيس فى

بعض المناطق . ولهذا كانوا يربطون أجزاء سفنهم بخيوط
يقتلونها من حبال قشرة جوز الهند حتى لا يجذب
المغناطيس كل المسامير التي تربط سفنهم فتنفك
وتفرق .

ومن الخليج رحل الى عمان ، فعمان بحكم موقعها
الجغرافى هى المحطة الرئيسية للابحار بين الخليج
وطريق الهند أو افريقيا ، كما أن بحارة عمان اشتهروا
عبر التاريخ ، فهم الذين تصدوا للاساطيل البرتغالية
وهم آخر الامر الذين طردوهم من المنطقة كلها . كما أن
التاريخ قد شهد امبراطورية عمانية امتدت من سواحل
فارس وحتى زنجبار . ومما شجعه على هذه الزيارة أن
عمان ظلت حتى عام ١٩٧٠ تعزل نفسها عن العالم ولا بد
اذن أنها تحتفظ بموروثها القديم دون تغير كبير ، ومن
هذا الموروث صناعة السفن ، ومهارة بحارتها فى عبور
البحر بوسائلهم التقليدية القديمة .

وفى عمان بدا تحول الحلم الى حقيقة ، فعندما زار
صحار دهش حين وجد الاعتقاد فى المدينة البحرية
العريقة يسود بأن السندباد كان مواطناً من صحار .
وقد كانت صحار مدينة متألقة كمركز تجارى هام
ورئيسى فى عصر هارون الرشيد حيث تجرى حكايات
السندباد ، فاما أن يكون السندباد تاجراً بغدادياً كان
مركز حركته الرئيسية فى صحار ، أو أنه كان تاجراً
من صحار سمحت له ثروته أن يعيش فى عاصمة هارون
الرشيد . ويعيد هو المسألة كلها الى حركة الاسطورة
وتنقلها وكيفية صياغتها وروايتها ويصل الى حل
افتراضى وهو أنه ليس هناك سندباد حقيقى واحد ،
ولكن المنطقة شهدت مجموعة من التجار المغامرين

حملوا حكاياتهم الشيقة معهم ، وتكونت هذه الحلقة التي بدأت تكبر وتتزايد بطريقة التراكم الفولكلورى لتحلق كلها حول بطل واحد سمي بالسندباد . ومن هنا خلق البطل الروائى ، ومن هنا صيغت حكاياته ..

وما وصل اليه « تيم سيفرين » يتفق الى اقصى حد مع ماوصل اليه علماء الفولكلور من كيفية خلق البطل الشعبى ، وكيفية خلق القصة التي تدور حوله . فهو اكثر من بطل واكثر من مغامرة ، ولكن اسما ما يلمع وسط الاسماء لتحمل عليه كل هذه القصص وكل هذه المغامرات ، ويصبح هو بطلها حين تصاغ القصة الشعبية فى شكلها النهائى .

وسندباد البحرى واحد من الابطال الشعبين الذين تكونوا بنفس الطريقة وعلى نفس المنهج الشعبى الفنى ...

وفى عمان وجد « سيفرين » السلطنة كلها تحاول ان تحقق حلمها بالقفز من عهود العزلة الى عهود التعضر والارتباط بالعالم من حولها . السلطان والشعب يندفعون بكل قوة نحو البناء والتشييد والتغيير ، ومع هذا فالتمايش بين الماضى والحاضر قائم ومدل بوجوده . ومضى يزور صور والسيب ومسقط وصحار . وفيها كلها كان « سيفرين » يرصد بقايا العمارة البحرية العمانية القديمة ، ويشاهد انواع القوارب التي لا تزال تصنع من الواح الخشب الاتى من الهند والتي تثبت فى اماكنها بحبال الياف جوز الهند .

قبل ان تنتهى اقامة « تيم سيفرين » بيوم واحد ، دعاه وزير الثقافة والتراث القومى العمانى لالقاء محاضرة عن تجربته السابقة مع السفينة « برندان » . وهكذا

وجد نفسه كما يقول : « اصف رحلة استكشافية تبحر باسم قديس ايرلندي في قارب جلدي عبر بحار الثلج ، لجموعة من المستمعين المسلمين الذين يرتدون الدشدشات والعمامات والخناجر ، وعلى شاشة العرض أعرض فيلما عن رحلة فوق جليد جرينلاند بينما تزيد الحرارة هنا في عمان عن مائة درجة » . .

وانتهت المحاضرة واتصرف المستمعون . ولكن المحاضر وجد نفسه في الصباح ضيفا على الحكومة العمانية وقد دفعت كل مصاريف اقامته في الفندق ، كما وجد رسالة تنتظره تدعوه الى لقاء وزير الثقافة العماني . وفي هذا اللقاء سأل الوزير عن ابحاثه حول رحلات السندباد في عمان وأهداه سيفاً عمانياً ثرياً ، وحمله كلمات الترحيب في الحل والترحال . وما كان « تيم سيفرين » يعود الى ايرلندا حتى تسلم برقيتين مسن مسقط ، وكانت البرقيتان تحويان نفس المحتوى : لقد عرض الوزير الامر على جلالة السلطان قابوس الذي وافق على قيام رحلة السندباد . . وعاد « سيفرين » الى مسقط حيث تلقى مفاجأة عمره ، إذ عرض وزير الثقافة عليه أن تتولى الوزارة بأمر السلطان تمويل رحلته كلها من بداية بناء السفينة حتى وصولها الى الصين على أن تحمل السفينة الجنسية العمانية وأن ترفع العلم العماني ، وأن تبدأ الرحلة في العيد القومي العاشر لعمان .

وصفق « سيفرين » ولم يصدق نفسه ، فلم يكن يحسب أن مثل هذا الكرم لا يزال موجوداً في عالم اليوم . ويقول « أن الوزير كان يأتمنى على بناء سفينة باسم أمته ، وأن أبحر بها الى اقصى آسيا . مثل هذه الثقة

والشهامة كانتا أكثر مما كنت أجروا أن آمل . وبدأ لي أن
عالم ألف ليلة وليلة مازال موجودا ومعاشا « .. ومنذ
هذه اللحظة بدأت العجلة تدور ..

وسافر « سيفرين » إلى ساحل « مالابار » في الهند
في صحبة مرافق خبير بالمنطقة ، وصانع سفن خبير
بأنواع الأخشاب المطلوبة ، ومعهم متمهد قصر السلطنة في
مسقط ليتولى الصرف على البعثة ، وهو تاجر هندي
هريق أدهش المغامر الإيرلندي بقوة احتماله الفائقة
وذكائه المفرط رغم تجاوزه السبعين ، وهذه الحقيقة
البيضاء الصغيرة التي يحملها دائما والتي تستطيع أن
تزوده بكل شيء « من تذاكر الطيران إلى مواد للقراءة ،
إلى مفكرة ، وإلى كمية من النقود من أي نوع مطلوب
وتقدا » ..

وفي كلكتا قصدوا إلى حيث بقايا التجار العرب ، فهم -
وقد كانوا سادة التجارة في عصر فاسكو دي جاما -
قد تقلصوا إلى عائلتين كبيرتين تحتلان جزءا من الشاطئ
وتحتكران كل أنواع التجارة مع المنطقة العربية .
وبمساعدهما يبحث سيفرين عن الشجر الملائم في الغابات
المحيطة بالمنطقة كلها ، حتى يجد بغيته في منطقة شبه
منعزلة - وهناك يتصل بأحد تجار الأخشاب الهنود
ويحدد له نوع الخشب الذي يريد والأحجام التي يريد
أن يحصل عليها منها . ووسط الغابات تقضي البعثة
وقتا طيبا ، والأشجار المختارة تقطع وتنشر وتعد في
الأحجام والأطوال المطلوبة . وكان « سيفرين » قد أعد
قائمة بكل ما يحتاجه من أخشاب لصنع السفينة التي
وضع تصميمها طبقا للتصميمات التي استخرجها
المهندس « كولين مودي » مصمم القارب برندان من نماذج

السفن القديمة . كانت القائمة تحتوي عدد القطع واحجامها وأطوالها طبقا لاستخداماتها وموقعها في بناء السفينة ، وكان سيفرين قد عرض التصميم على بناء السفن العمانيين الذين اكملوا التصميم وحصلوا الاحتياجات التفصيلية للسفينة . . وكما حصل سيفرين على الاخشاب ، حصل ايضا على حبال الياف جوز الهند التي ستستعمل في ضم اجزاء السفينة بعضها الى بعض ، والتي بلغ عددها الاجمالي حوالي الف وخمسمائة حزمة ، تغطي عند فردها حوالي اربعمائة ميل طويلا . وكان لابد أن تغمس هذه الحبال في الماء بطريقة معينة حتى تصبح صالحة للاستعمال ولا تتعفن في ماء البحر . . ومع الاخشاب والحبال يأتي زيت السمك الذي سيهزج بالسكر المذاب ليدهن به هيكل السفينة . والى جوار كل هذا أدوات البناء نفسها من مناشير ومطارق واقمشة القلوع وحبالها وأخشاب القلوع نفسها .

ولكن التحدي الحقيقي الذي واجهه هو أن يجسد العمال المهرة الذين لا يزالون يستطيعون القيام بعملية جمع اخشاب السفينة بواسطة الحبال ، فهذه الصناعة انقرضت منذ زمن . وبعد بحث شاق طويل عشر سيفرين على مجموعة من رجال الجزر المنعزلة ما زالوا يصنعون قواربهم بنفس الطريقة التقليدية ، واستطاع أن يقنعهم بالسفر الى عمان ، وأعد لهم كل أمور الرحلة ، وتركهم يسبقونه الى مسقط ، بينما بدأ هو البحث عن سفينة تنقل شحنة البضائع الضخمة الى عمان . وقد كانت هذه مهمة صعبة استغرقت منه أسابيع عديدة حتى عثر على قبطان لم يطمئن الى ملامحه المليئة بالخشب والشعر ، يرضى بأن يحمل البضائع حتى صور . ولزيادة

الامان ترك معه احد رجاله الهنود ليحرس الحمولة الثمينة . وبالفعل حاول صاحب السفينة ان يرغمه على تاجر السفينة لرحلة ثانية بأن يحمل نصف الحمولة فقط ، وكاد حارسه الهندي ان يقتل فوق سطح السفينة حتى لا يخبره بالامر وتتدخل السلطات العمانية فى الامر . . . ويحصل « سيفرين » على ماوصل من بضائعه . وكذلك وصل العمال الهنود فى قمصان خضراء اتخذها زى مميز لهم . وبدأ العمل باعداد المنزل الذى قدمته وزارة الثقافة لهم فى صور وقد استغرق منهم هذا الامر عشرة ايام كاملة ، فقد كان المنزل واحدا من المنازل العمانية القديمة ذات الحجرات المتعددة والحمامات المستقلة وحجرات المطابخ والفناء الواسع الذى تطل عليه الحجرات . وكان المنزل قريبا من البقعة التى اختارها « سيفرين » لىتم فيها بناء السفينة بحيث كان يمكن للعمال العودة لتناول الطعام ثم الرجوع الى موقع العمل فى سرعة . وفى اليوم الاول من عام ١٩٨٠ كان المكان قد اخلى تماما من شاغليه ، كانت منصة العمل فى بناء السفينة قد اقيمت بالفعل . واقام العمال حارسا يحرس المنصة ليل نهار ، وحسبما سأل « سيفرين » عن السبب بدأت بعض الحكايات الشعبية المرتبطة بالاعداد المتوارثة لاهل البحر القدماء تطل برأسها . . فالحارس قد وضع فى مكانه لمنسج النساء الحوامل من القفز فوق العمود الرئيسى للسفينة الحديدية لانهن يعتقدن ان هذا يمنحهن ذرية من الصبيان الاقوياء . . ولكنه فى نفس الوقت - كما يعتقد البحارة - بصيب السفينة باللعنة وسوء الحظ . وطبقا للتقاليد القديمة ايضا فانه لابد من التضحية قبل بدء بناء

السفينة ، ولذلك اشترى « سيفرين » « جديا » من
البدو المحيطين بمكاته ، وذبح « الجدى » بالفعل ولطخ
بدمائه هذا العמוד الرئيسى ، بينما أقام العمال من لحمه
وليمة فاخرة .. وهنا فقط بدأ العمل الفعلى فى وضع
رسم وتصميم « كولين مودى » موضع التنفيذ .. وهنا
يكشف « سيفرين » قيمة الخبرة الحرفية المتوارثة ،
اذ ما ان بدأ العمل الفعلى حتى ظهرت قدرات « محمد
اسماعيل » أحد عماله الحرفيين فى فهم الرسوم
والتصميمات ، وفى قدرته القيادية فى توجيه الرجال الى
تنفيذها تنفيذا حرفيا لا يعتمد على الرسوم وحدها وانما
يعتمد أيضا على موهبة موروثة فى تعديل مايجب ان
يعدل منها لى يصبح التنفيذ اكثر وفاء بالمطلوب من
السفينة ..

وخلال أيام العمل الشاق والمستمر ظهرت مواهب
هذا البناء التقاليدى وموهبته ، وقدرته على حل كل
المشكلات التى تواجه أتمام بناء السفينة . ومنها بالطبع
قياب بعض القطع الهامة والرئيسية فى أخشاب
السفينة تلك التى تركها صاحب سفينة النقل عن عمد
فى الهند .. وعند تثبيت اللوح الاول فى السفينة
يكتب محمد اسماعيل التاريخ والساعة فى احتفالية
واضحة . ثم يستمر العمل بسرعة وكفاءة ، وتأخذ
السفينة شكلها تدريجيا والجو بصخب بطرقات المطارق
وأصوات المناشير ، وحركة الحبال الطويلة وهى تتحرك
فى ايدى الرجال المهرة .. انها صورة معاصرة لمهارة
أصحاب الحرف العرب وحماسهم لعملهم ودقتهم الفائقة
فيه ، تبعث فى السفينة الجديدة الحياة . خبرة مئات
الاعوام المتراكمة عبر السنين تطل برأسها وتدل بمهارتها

وتثبت كفاءة الرجال وقدراتهم على صنع الحياة وادوات الحياة ، على تحدى العقبات وقهر كل العقبات ..
ومن السادسة صباحا وحتى السادسة مساء يفرق الرجال أنفسهم فى دوامة العمل ، وفى بعض الاحيان يستمر العمل حتى التاسعة مساء بلا طلب من أحد وبلا أوامر من أحد .. انه احساس بالانتماء للعمل والفخر به والرغبة فى اكماله على خير وجه .. وفى هذه الاثناء وصل المصور « بروس فوستر » الذى تركزت مهمته فى تصوير مراحل بناء السفينة مرحلة مرحلة ، فلا شك انها آخر سفينة ضخمة تصنع من غير مسامير على الاطلاق كما بدأ الزوار لمشاهدة سير العمل ، ومنهم وزير ثقافة العماني وكبار رجاله ، ثم كبار رجال عمان وأثريائها .. ومن بينهم هذا الرجل الذى ناهز الستين من عمره والذي أخذ يطوف بالسفينة ويضرب بعصاه على الواحها ، بل ويقفز كشاب صغير الى اعلاها . انه « صالح خميس » أحد ربانة السفن العظام فى عمان ، وواحد من رجال البحر العرب الافذاذ . وأدرك « سيفرين » انه أمام فرصة لا تعوض ، فأسرع يزور السيد صالح خميس فى بيته ليسمع ذكرياته عن رحلاته الى الهند التى استمرت أربعين عاما كاملة .. كما حكى له عن الكارثة التى أنهت حياة صور البحرية منذ قرون خلت . اذ كان أسطول صور الاقريقى كله أو غالبية العظمى فى طريق عودته محملا من زنجبار ، وحين الاقتراب من ساحل عمان هبت ريح صرصر عاتية على السفن الكاملة الحمولة لتتلاعب بها تلاعبا خطيرا ، والتجأ ربانة السفن الى جزر كوريا موريا حيث القوا مراسيهم وربطوها سفنهم الى الشاطئ . ولكن الرياح تمزق الحبال وتسوق

السفن الى الشاطئ لتتخضم برمتها ، ولتغرق بحمولاتها من الناس والبضائع في أكبر كارثة حلت بصور ، حيث ضاعت عائلات بأسرها ، رجالها ونساؤها وأطفالها . ومن يومها لم تعد صور الى الازدهار من جديد ، وخلت بيوت شهدت ضحكات السعادة وآمال الحياة من سكانها ، ومنها هذا البيت الذي يحتله « سيفرين » ورجاله . . وحكى له أيضا كيف اضطر في آخر رحلاته حين هاجمته العاصفة وكادت تفرق سفينته ان يلقي بحمولة السفينة الى البحر ليستطيع تعويمها . . ولكن ، ألم يكن يخشى أن تنقلب به السفينة ؟ لا ، لانه كان يحتفظ بستة آلاف كيلو من البلع في باطنها للاحتفاظ بتوازنها . وبحسبة بسيطة استطاع سيفرين أن يعرف مقدار الثقل الذي يحتاجه ليحتفظ بتوازن سفينته . .

واستمر العمل في برد الشتاء ثم قيظ الحر القاتل فخلال الموجات اللافحة لحر المنطقة استمر العمل بلا انقطاع ، واستمرت اصوات المطارق والمناشير وصيحات الرجال تتحدى الطبيعة المعوقة . . وعندما انتهى العمل في بناء السفينة وأخذت شكلها النهائي كان لابد من طلائها بطلاء يمنع عنها حشرات السفن التي تأكل قيعان السفن الخشبية ، وكان الطلاء المستعمل تقاليديا أيضا فقد استخدم عصير الليمون معزوجا بدهن القنم ، وتم الطلاء بالأيدي المجردة . .

وأخيرا وقفت السفينة شامخة فوق الرمال رمزا لعرق الرجال ومهاراتهم التي حولت ١٤٠ طننا من الاخشاب الى قطعة فنية رائعة تنتظر زفافها الى البحر . . ورغم صعوبات دفعها الى رمال الشاطئ فقد تغلب العمال على كل العقبات وحفروا لها طريقها يدفعونها

فيه خطوة خطوة حتى الساحل .. وما أن وصلت
السفينة حتى حدود الماء حتى ارتفعت في الجو أصوات
غناء وموسيقى وطبول ممتزجة بضربات الصنج ونداءات
الابواق تأتي من بعيد ، وتقرب ويذا ويذا .. ولم تكن
هذه الاصوات تأتي من الصحراء من خلفهم ، ولا من منازل
صور ، وسرعان ما عرف الجميع مصدرها حين ظهرت
سفينة « سامبوك » تسرع نحوهم من البحر . انهم رجال
مدن الساحل جاءوا يحيون مولد السفينة الجديدة
بموسيقاهم وغنائهم وتصفيقهم .. وما أن وصلت السفينة
الى الشاطئ حتى قفز الجميع يرقصون ويعزفون في
ايقاع منتظم وملابسهم تدور مع حركتهم ، وأجسادهم
تهتز مع الايقاع والنغم . وسرعان ما انضمت موسيقات
جديدة الى الانغام التي تملأ الشاطئ ، فمن منازل صور
خرجت ثلاثة طوابير من الرجال على رأس كل طابور
الراقصون والمنشدون والعازفون ، وهم جميعا يتقدمون
نحو السفينة في ببطء ، يخرج بعضهم من الطابور ليرقص
رقصات طليقة على الايقاع والتصفيق وضربات الطبول
وصياح الابوق والصنج . وكان الايقاع افريقيا ، كما
كانت معظم الرقصات توافقها في عمقها الشعبي ، وكان
بعض الرجال يلوحون بالاعلام العمانية وصور السلطان
قابوس ، بينما اشتركت نساء كثيرات في الرقصات
بملابسهن الحريرية السوداء المليئة بالحلي الفضية ، بينما
تتدلى من آذانهن اقراط ذهبية تضرب خدودهن وهن
يرقصن ، بينما تتصاعد من خلايلهن الذهبية انغام
ارتطامها بعضها ببعض . وارتفع المد اخيرا ليوقف كل
الرقصات على الشاطئ الذي غمرته المياه .. وتكون فريق
عمل بسرعة ، مجموعة من البحارة يجذبون السفينة

نحو الماء ، وبناتها الهنود يحفرون لها مجرى في الرمال لتزلق عبره الى الماء .. وارتفعت مكان أغاني الابتهاج اغاني العمل .. وما ان مست السفينة الماء حتى بدا الفواصون يفوصون تحتها ليحلدوا اماكن العقبات التي تعترض حركة جسمها لازالتها ، وتأکید الامان للسفينة في حركتها البطيئة من رمال الشاطئ الى عجاج البحر ، وأخيرا وسط صيحات الفرح وغناء البهجة وخفق القلوب المشاهدة تهادت السفينة الى البحر ، واهتزت ، ثم استقرت في اعتزاز ودلال ..

وسميت السفينة « صحار » بأمر السلطان قابوس ، تكريما لميناء صحار العريق الذي شهد حركة التجارة القديمة التي اثرت عمان وثبتت مكانها في تاريخ البحر والتجارة العالمية القديمة . ولم يكن من المصادفة البحتة أن تحقق البعثة الفرنسية العاملة في آثار صحار كشوفا أثرية تتضمن قطعاً من الخزف الصيني الشهير ، مما يؤكد ورودها لـصحار عبر البحار من الصين ، فقد كانت صحار تستعد لرحلة العودة الى منابع هذه القطع الخزفية الصينية الشهيرة بنفس امكانيات عمان التاريخية من حيث السفينة والرجال الذين صنعوها ، والرجال الذين سيبحرون بها .. فقد قدر « سفيرين » أن السفينة تستطيع أن تقل عشرين رجلاً ، ثمانية منهم من البحارة العمانيين المهرة الذين يعرفون كيفية الإبحار عبر المحيط في سفينة تعتمد على الشراع ، والباقيين مهمتهم تسجيل الرحلة بالصورة الفوتوغرافية ، وكذلك تشغيل راديو السفينة ، كما أن السفينة بعد كل هؤلاء تحتاج الى طاه . وحين طلب سيفرين متطوعين للرحلة كان أمامه العدد الكافي من أهل عمان يختار منهم أصحاب الخبرات

التي يحتاجها ، وكان دافع الجميع حب المفامرة والرحلة
المثيرة عبر البحار ، ولكن هذا لم يمنع أن يكون منهم من
يفهم قيمة الرحلة لبلاده ، والذي تطوع ليشترك في
تحقيق هذا العمل المجيد للسفينة التي تحمل علم عمان
وتمر به متحدية العصر والبحر والآلة ، لتعلن تفوق
الانسان والاصالة والخبرة ، ولتكتب فصلا جديدا في
شجاعة الانسان ، وسخريته من كل العقبات التي تتحدى
رحفه الحضارى . وحين اكتمل عدد البحارة وقفت
« صحار » في مدخل ميناء مسقط تتزود بما تحتاجه
الرحلة من أطعمة وفاكهة وماء وأدوات وأدوية . . على
ناحية منها تنهض حوائط قلعة الميراني العالية يرفرف
على ساريها العلم العماني ، وفي الناحية الاخرى القصر
السلطاني ، بينايتة الهندية المعمار ، ومن بعيد تلوح
اعلام امريكا وبريطانيا المرفوعة على السفاريتين الامريكية
والبريطانية ، ثم قلعة الجلالى الحارسة التوام للشفر
العماني العريق . ثم بدأت أدوات البحث العلمى تفد الى
ظهر السفينة ، فصحار فى سيرها بسرعة الشراع ،
يمكن أن تكون وسيلة للأبحاث العلمية البحرية على مدى
سته آلاف ميل ، وبهذا لا تحقق الرحلة الغرض التاريخى
وحده ، وانما تحقق هدفا ساميا آخر ، بأن تتيح المعرفة
الجديدة للبحر فى سطحه وأعماقه وحيوانه وطيوره
على مدى هذه المساحة المائية الضخمة .

وكان العلماء غير مقيدين بالسفينة فى رحلتها الطويلة،
بل هم يستطيعون الالتحاق بها فى أى ميناء ، او فى عرض
البحر بواسطة السفن الاحداث او الطائرات ، كما
يستطيعون مفادرتها فى أى وقت وبنفس الوسائل .
وارسلت الجامعات ومعاهد البحث البحرية ثلاثة من

العلماء مع أدواتهم العلمية لتحقيق هذا الهدف العلمى
لتكون الرحلة « رحلة السندباد » اضافة جديدة للعالم
المعاصر وحضرته . . .

واخيرا فى الثالث والعشرين من نوفمبر وفى العيد
القرمى العاشر لعمان اخذت « صحار » مكانها فى الميناء
وقد تزينت بالاعلام والانوار ، ودهن جسدها بالوان العلم
العمانى الذى اخذ يرفرف من فوق ساريتها فى كبرياء .
وحولها وقف قاربان للبوليس البحرى ، وسفینتان
حربيتان ، واليخت السلطانى بلونه الابيض . والقيت
الخطب من وزير الثقافة العمانى وممثل للصين الذى جاء
خصيصا من بكين لحضور لحظة الانطلاق ، وباركها
وبارك رحلتها أحد علماء الدين مع مصحف مغلف
بالقطيفة يحمل الى مسلمى الصين كهدية من مسلمى
عمان . بل لقد القيت ايضا قصائد الشعر ، ثم عزف
الحرس السلطانى السلام الوطنى وانطلق ندفع يعلن
بقديفته بدء الرحلة باسم الله وعلى بركته . واعطى
سيفرين أمر البدء فى الرحلة فدبت الحياة والحركة على
ظهر السفينة صحار لاول مرة . وارتفع غناء البحارة
باسم الله يرفعون المرساة وينشرون القلوع . . وعلى
الشاطئ وقف بناتها الذين شيدوها يرقبون ارتحالها
والدموع فى عيونهم ، بينما اخلت السفينة تنهادى الى
عرض البحر فى طريقها الذى سارت فيه آلاف السفن
من شبيهاها عبر تاريخ البحار واصلة شطرى العالم ،
جامعة الخير فى ذهابها ومجيئها على السواء .

وشهدت الايام الاولى للرحلة بعض الاضطراب
والمضايقة ، فهذا حبل جديد يتمزق ، وهذه عقدة لم
يحكم عقدها تنحل ، والقلوع فى حركتها تصيب بحارا

ليس في مكانه ، بينما يتفجر المولد في أول محاولة
لتشغيله ليصيب الغطاس الأوروبي بجرح في ساقه ،
ويحتاج الأمر الى طبيب وليس على « صحار » طبيب ،
وتستنجد السفينة بأحد هواة الراديو الذي يتتبع
رسائلها ، وترسل البحرية العمانية سفينة تحمل طبيبا
لمواجهة الحادث . ولكن كل هذا كان متوقعا حتى يستتب
الأمر ويأخذ الرجال كل مكانه ، ويعتادون على العمل
المنظم الجمعي .

وكانت مشكلة سيفرين الرئيسية هي معرفة كيف
استطاع البحارة العرب أن يحددوا طريقهم الى الصين ،
فقد كان هذا انجازا مذهلا . . اذ انه في الوقت الذي
نجحوا فيه في الدوران حول ربع العالم تقريبا ، كانت
السفن الأوروبية تتعثر في عبورها للقناة الانجليزية .
ولم يحقق العرب هذا بمجرد الحظ ، وانما حققوه
بالحسابات الدقيقة والمعارف المتراكمة . وكانوا
سيعملون النجوم لا الشمس لرصد مواقعهم - وكان مع
سيفرين كتاب أحمد بن ماجد الذي ترجمه الى
الانجليزية « جيرالديتس » - وقد عكف عليه يدرسه
ويحاول أن يطبق ما جاء به من رصد النجوم ومعرفة
أسمائها والتحرك بهديها - وهكذا بدأ سيفرين دروسه
التي تلقاها « المعلمين » من القباطنة العرب واتقنوها قبله
بقرون وقرون . .

وفي نفس الوقت عرف كل بحار واجباته ، كما بدأ
كل منهم يعرف امكانيات الآخرين وقدراتهم ، ولم يكن
في هذه المرحلة مايزعج سوى الطباخ الذي كان طعامه
عذابا مقيما لبحارة السفينة ، بالاضافة الى كسبه
وقدراته وصفاقته الكاملة . اما العلماء فقد انصرفوا الى

جمع النماذج ، وانزال آلاتهم ومجساتهم الى ماء البحر ،
 كما أخذوا يدونون ملاحظاتهم ويسجلون مشاهداتهم عن
 الاسماك والطيور التي تحلق فوق السفينة ، وكلها من
 الطيور الاستوائية المعروفة والنادرة على السواء . أما
 الاسماك فقد كانت كثرتها تعنى الاقتراب من الارض ،
 وكان من البحارة صيادون اكفاء زودوا السفينة بحاجتها
 من لحم التونة الطازج بكميات وافرة عند اقترابهم من
 جزر « اللكاديف » ، وهي جزر صغيرة لا يزيد طول
 أحداها عن الميل ، وهي ترتفع فوق سطح الماء ارتفاعا
 طفيفا . . وقد عرف الرحالة العرب هذه الجزر المليئة
 بأشجار جوز الهند ، وكتب عنها الإدريسي في القرن
 الثاني عشر يقول : « الى هذه الجزر تأتي سفن عمان
 لتجمع ثمار جوز الهند وتقطع من أخشاب أشجارها
 لصناعة السفن ، وهم يصنعون سفنهم فيها ثم يبحرون
 منها الى وطنهم فيها » . . ولاشك أن هذه الجزر التي
 تقع في ممر السفن العربية الى الهند زودت الكتاب
 بالمادة الخام للكثير من رحلات السندباد . وهذه الجزر
 تتبع الهند حاليا . وكان الجغرافيون القدماء يعتقدون
 أن إحدى هذه الجزر تحكمها امرأة ، كما أن هناك حكاية
 عن جزيرة منها لا يسكنها الا النساء ، وقد ذكرها
 صاحب كتاب « عجائب الهند » الذي يحكى عن سفينة
 تحطمت على صخور الجزيرة وعن أسر النساء لبحارتها ،
 وكيف أن هؤلاء البحارة ماتوا من الإعياء والأجهساد
 الجنسي ماعدا عجوز منهم خبأته امرأة أحبته ، وعاد
 ليحكى الحكاية الغريبة . وربما كان مصدر الحكاية أن
 الرجال يتركون أمور الحكم في إحدى هذه الجزر للنساء
 تتوارثه واحدة اثر الأخرى . وهنا نعود الى السندباد

مرة أخرى ، اذ يربط سيفرين بين هذه الجزيرة وبين رحلة سندباد التي يتزوج فيها بامرأة ثم تموت فيدفن معها ..

وما أن تغادر السفينة صحار هذه الجزر حتى تلتقي بأول الحيتان . اذ يكشف البحارة ان قافلة مكونة من سبعة حيتان تتبع سفينتهم في حركتها وب نفس سرعتها ، وتقفز من الماء من حين الى حين ترقب السفينة كأنما لتتأكد مازالت موجودة ، وبعد حين انضم تسعة حيتان آخر الى الموكب . كما اصطاد البحارة اول سمكة قرش في مجهود مشترك ، وسعدوا بعشاء من لحم القرش . ومع اقترابهم من شاطئ الهند بدأت تظهر الاسماك من جديد ومعها ثعابين الماء والحيتان الضخمة التي تذكر بحكاية السندباد الذي رست مركبه الى جوار ظهر حوت نائم ونزل البحارة اليه يعدون طعامهم ويوقدون النيران حتى أحس الحوت بهم فتحرك وأفرقهم ..

وأخيرا ألفت صحار مراسيها في ميناء كلكتا مكمله الجزء الاول من رحلتها من عمان الى الهند ، حيث حيتها مجموعات من الغربان بأصواتها النكراء وتطفلها السميج ، وظلت هذه القطعان النهمه تسطو على كل ماعلى السفينة مما يؤكل ، حتى تمكن سيفرين من الحصول على اذن رسمي بدخول الميناء ، حيث بدأت عملية ترميم شاملة المستبنة من قاعها حتى قلوها .. وعندما تمت كسل الاصلاحات المرجوة غادرت صحار الميناء الى عرض البحر من جديد ، لتواجهها امطار استوائية غزيرة احتاجت كل عزيمة الرجال ومعاونتهم للتخلص من مائها الذي اخذ يملأ السفينة ، وحين هبت الرياح بدأت معاركهم مع انقلوع والاشرعة ، وبدأوا يتلقون دروسهم الحقيقية عن

معاناة البحارة القدماء فى رحلة المحيط .

يتطلع البحارة العرب بعد الإبحار من الهند الى رؤية قمة جبل آدم فى سيرلاتكا ، اذ تعتبر رؤية هذه القمة ابداً بالوصول الى سرنديب اعظم واكبر الجزر التى تلى الهند . وقد أخذت هذه القمة اسمها من الحكاية الشعبية التى تقول ان آدم حين طرد من الجنة حط بقدمه فوق قمة الجبل الذى مازال يحتفظ بأثر هذا التسلد ، أما القدم الأخرى فلا اثر لها ، والمظنون ان خطوته الأولى حملت قدمه الأخرى الى البحر ..

وسرنديب هو الاسم العربى لسيلان او سرى لاتكا ، وقد اشتقت الانجليزية منها كلمة « سرنديبى » ومعناها فن الاكتشافات السعيدة . وفى الميناء اهتم عالم البيولوجيا المصاحب للرحلة بإحصاء مايلقونه من بقر البحر الذى بدأ ينقرض ، وكذلك السحالف ، كما بدأ يسأل الفواصين عن أنواع الاسماك النادرة والمرجان الذى اشتهرت به سواحل سيرلاتكا .. وبينما انهمك هذا العالم فى أبحاثه وأسئلته واحصاءاته ، كان سيفرين يسأل عن مصير فيل سيرلاتكا الأبيض بعد موته . وسر سؤاله يعود الى رحلة السندباد السابعة ، فاحدى طبقات هذه الرحلة تتحدث عن أسر القراصنة لسندباد حيث يسم الى ملك الجزيرة التى يبدو انها سرى لاتكا ، وكلفه سيده باصطياد الافيال حيث يكمن فى قمة شجرة حتى يمر قطيع من الافيال يقتل منها واحدا كل يوم ويحصل على أنيابه ، وظلت هذه المذبحة فترة . الى ان فوجيء سندباد ذات يوم بالقطيع يحاصر الشجرة التى كان يكمن فوقها ، وينتزعون الشجرة بخراطيمهم ، وأحس سندباد بنهايته تحت أقدام الافيال المخيفة . ولكن قائد القطيع

حملة بخرطومه وسار به الى حيث عظام المئات من
الافيال في مقبرة ضخمة ، وكان قائد القطيع كان يريد
ان يريه المكان ليأخذ منه ما يريد ويكف عن قتل القطيع . .
ويحمل سندباد اكتشافه الى سيده الذي يمنحه حريته
بعد ان دله على مكان هذا الكنز الثمين . . وربما كانت
هذه الرحلة اضافة حديثة للرحلات ، ولكن الرحلة الرابعة
للسندباد في الف ليلة وليلة تحوى ذكرا للفيل الذى كان
ركبه ملك الجزيرة . . ولم يدل أحد سيفرين على اجابة
شافية لسؤاله . كان من الطبيعى ان يتجه به الى سكان
الغابات الذين مازالوا يعيشون على الصيد فى عمق
الغابة . ولكن احدا منهم لم يكن يعرف الاجابة
الصحيحة على السؤال . ان احدا لا يرى الافيال وهى
تموت ، كما ان احدا لم يعثر على هياكل عظمية لافيال
ميتة فى الغابات ، ولكن احدهم قاده ذات يوم الى بحيرة
فى عمق الغابة ، وحكى له ان هذه البحيرة لا تجف أبدا ،
الا ان البلاد تعرضت لجفاف شديد فانتكشف قاع البحيرة ،
وارادت الحكومة تنظيف القاع منتهزة فرصة الجفاف
فاذا العمال بكتشفون ان القاع مغطى بعظام الافيال .
قبل كانت هذه البحيرة هى المقبرة ذات الاربع الشعى
الذى ملا اكثر من حكاية فى اكثر من لغة ، ربما . .
وهناك حكاية اخرى من حكايات السندباد تجد جذورها
فى سيرة لانكا ، وتلك هى أشهر مغامراته ورحلاته وهى
التي تتعلق بوادى الماس والرخ ، حيث نجد سندباد
نفسه فى جزيرة قاحلة بعد ان تحطم مركبه وبها بيضة
الرخ الضخمة ، وحين يأتى الرخ يربط سندباد نفسه
الى ساقه فيحملة الرخ الى واد ملء بالحيات ، ولكن
ارض هذا الوادى كانت من احجار الماس ، ويبت ليلته

فى كهف تحتله حية ضخمة ، وفى الصباح يفاجأ
بحيوانات مذبوحة ترمى الى الوادى فيتذكر ماسمعه من
أن التجار يلقون بهذه الجثث الطرية فى الوادى حتى
يتصقق بها الماس ، ثم تحملها النسور والصقور الى
أعشاشها حيث يستردها التجار ويأخذون معلق بها
من ماس .. ويملا سندات جيوبه وملابسه بقطع الماس
ويقيد نفسه تحت واحدة من هذه اللبائح ، ويقبل سر
عظيم فيحمل الدبيحة وسندات معها الى قمة الجبل حيث
يتقاسم سندات حمله من الماس مع التجار المدهولين
بقصته .. ووادى الماس هذا يذكره ويحدد
مكانه فى سرنديب ، فهى مشهورة بمناجم الماس فيها ،
وما زالت بعض هذه المناجم تعمل الى الآن . وفى سرنديب
زار بحارة « صحار » المسلمون مقابر البحارة العرب
الاول الذين حملوا الاسلام الى الجزيرة ، وصلوا فى
حامعها .. وفى الف ليلة وليلة يذكر القصاص ان ملك
سرنديب كان ملكا عظيما وثريا ، وانه حمل سندات رسالة
وهدية الى ملك بغداد هارون الرشيد ، وتفرق الليالى
فى وصف الهدية ومدى دلالتها على ثراء الملك وكرمه ،
كما تسرف فى وصف موكب الملك وزينة الفيل الذى
يركبه فى هذا الموكب .

وحين اقلعت صحار من سرى لاتكا كان على ظهرها
مصور جديد حيث رحل مصورها الاصلى الى بلاده .
وسرعان ما أصابه دوار البحر بعد قليل من الاقلاع نحو
سومطرة او ارض الذهب كما أسماها العرب . وفى
هذا فقد استطاع هذا المصور الجديد ان يقوم بواجبه
فيما يشبه المخاطرة المثيرة .. وفجأة دهمتهم العاصفة ،
وبدأت المعركة بين عزيمة الرجال من جديد ، وبين ثورة

الطبيعة وقضبها .. كان الرجال يتسمون وهم يصعدون
الصواري العالية لقمم القلوع ، وحين تحطم الصواري
الرئيسي اسرعوا يللمون مزق الشراع ويطوونه بسرعة
وغنائهم لا ينقطع ، يستمدون منه الايقاع الموحد ،
والحس الجمعي بالخطر المشترك الذي لا بد لقهره من عمل
مشترك .. والسماء تبرق والرعد يصم الاذان ، والريح
هوجاء مفزعة والماء ينهمر من السماء مدرارا .. وعندما
يهدد الخطر قاع السفينة بعمل الفواصون تحت الماء
واسماك القرش تحاول الاقتراب ، ورجال السفينة
يداورونها ويحاورونها ، حتى يتم الفواصون العمل في
سرعة ، وحين تتكاثر اسماك القرش يتحول الطارد الى
مطارد ، ويبدأ الرجال في التنافس على صيده حتى
يمتلئ سطح السفينة باسماك القرش التي رفعها الصيادون
من الماء ليجهزوا عليها بخناجرهم . وأخذت السفينة
تتخط ذهابا وجيئة في مساحة محدودة من المحيط
والرياح ، تتلاعب بها وتبعداها عن مقصدها مرة ،
ثم تعود وتدفعها الى الطريق السوي مرات ، واستمر
الامر اسابيع متتالية ، ولكن عزيمة الرجال لم تهزها
اخطار الضياع او الفرق او تمزق السفينة بين انياب
الريح .. استمروا يصلحون مايفسد ، ويجابهون الجوع
والعطش ، والجراح العديدة التي اصابت اجسادهم في
كفاحهم الدائب لتستمر السفينة في سيرها . وأخيرا
اطلقت الرياح سراح السفينة التي طالت اطباقا قبضتها
عليها ، ومع هدوء الريح هدأت مياه البحر واختفت
امواجه ، وبدأت الاسماك تظهر .. اسماك عديدة تحيط
بالسفينة وتسير امامها ، اسماك صغيرة تعيش على

فضلات السفينة ، وأسماك أكبر تعيش على الأسماك الصغيرة ، وأسماك ضخمة تعيش على الأسماك الكبيرة ، عالم من السمك ربط نفسه بالسفينة بحيث غدا جسدها مركزا لمجاميع ضخمة تتحرك معه وبنفس سرعته ، وفي السماء انتشرت الطيور الصيادة تلتقط رزقها من السمك المتاح . . ومع اقتراب السفينة من جزيرة سومطرة بدأت تلتقى بالكثير من السفن الضخمة حيث بدأت تهتدى الى طريق الملاحة التقليدي . . والعرب القدماء كانوا في رحلتهم الى سومطرة يحسون الانبهار والخسوف في مريع من المشاعر والسلوك الحذر . .

أما الانبهار فبثراء الجزيرة وثراء مهرجاناتها . وكان المهرابا الكبير يعيش في قصر فخيم فيه حمام سباحة يلقي فيه المهرابا قالبا من الذهب كل يوم ، وعند وفاته يستخرج هذا الذهب ويقسم بين أفراد أسرته تكريما له ولذكراه . وقد استعمل قصاصو ألف ليلة لقب المهرابا لحكام آسيا الاثرياء ، ولكن الطريق البحري الى عالم المهرابا الثري مخوف بالمخاطر العديدة . فاذا كان من يقصد بلاده آتيا من ساحل البنجال فانه معرض لهجوم سكان جزر « الاندامان » وهم قبائل متوحشة من آكلي لحوم البشر . فهم يأسرون بحارة السفن ويأكلونهم . وعلى شواطئ سومطرة نفسها عاش آكلوا لحوم البشر الذين جاء ذكرهم في الرحلة الرابعة من رحلات السندباد . ففيها يقع البحارة أسرى لهؤلاء المتوحشين الذين يسوقونهم الى قريرتهم حيث يطعمونهم طعاما ممزوجا بمواد مخدرة ، كلما أكل الرجال ازدادوا ذهولا حتى غدوا كالانعام المساقة الى الذبح ، يسمنون على الطعام المقدم اليهم والذي يقبلون عليه بشراهة ، ويرفض السندباد الطعام

فيظلّ على هزاله ، بينما يساق أصصحابه إلى الذبح ليصبحوا وليمة لأسريهم . وربما ساعد على دخول القصة إلى الفولكلور العربي أن أهالي سومطره يستعملون الحشيش كأحد التوابل المستخدمة في الطهو ، كما أن البحارة العرب تحدثوا كثيرا عن هذه القبائل المتوحشة من أكلة لحوم البشر التي تقطن جزائر المنطقة وبعض أجزاء ساحل سومطره .

وتقدم سومطره تفسيراً لحكاية أخرى من حكايات السندباد هي حكاية شيخ البحر الذي يجده السندباد في إحدى الجزر التي رماه القدر إليها ، ويطلب إليه الرجل الهرم - بالإشارة - أن يحمله إلى شجرة يقطع منها ثمارها ، فإذا ما حمله سندباد ظل يأمره أن ينتقل من شجرة إلى شجرة ، فلما تعب سندباد وأراد أن ينزله ، يرفض العجوز ويطبق على رقبة سندباد بفخذين لوحش قوى كثيف الشعر ، ويضربه فوق رأسه ويلكزه بقدميه حتى يخضع سندباد لطلباته التي لا تنتهي . وفي جولاته في الجزيرة يرى سندباد هياكل بشرية في جانب منها ، ويعرف أن هذا الرجل يركب ضحاياه حتى الموت . ويلجأ سندباد إلى تخمير الفاكهة وشربها حتى ينسى ما هو فيه ، ويستهوئ العجوز ملاحظه من خفة ونشاط يحظى بهما سندباد بعد الشراب ، فيطلب منه أن يسقيه مما يشرب ، فيسرف سندباد في تقديم عصير الفاكهة المخمر والمليء بالكحول للعجوز حتى يسكر ويفقد تماسكه ، فيرميه إلى الأرض ويقتله بحجر . ويقول سيفرين أن عجوز البحر هذا قد يكون « أورانج - أوتان » المعروف في سومطره وهو غوريلا ذات شكل قريب من الشكل الأدمي ، حتى أن سكان سومطره يعتبرونه كائناً

بشريا منعزلا يعيش على الفاكهة ، وهو شديد الكسل ،
وهو يختلف عن الغوريلا النمطية التي يعرفها العلم
الحديث .

وفى سومطرة يعيد البحارة تجديد سفينتهم واصلاح
ما أحدثته العاصفة بها من تلفيات ، ثم يبحرون فيما
يعرفه العرب باسم البحر الخامس فى الرحلة ذات
البحور السبعة الى الصين . أبحروا فى محاذاة الشاطئ
حتى عبرو القناة بين سومطره والملايو ، حيث توقفوا
فى ميناء ملقا ليستعدوا لدخول المحيط من جديد ، حيث
لم يعد أمامهم لاكمال الرحلة الا الابحار فى بحر ين فقط من
البحار السبعة . وهنا كان عليهم أن يواجهوا الاعاصير
أو الطوفان كما يسميها البحارة العرب تحريفا للكلمة
« التيفون » التى يستعملها الصينيون . ولكن أيامهم
الاولى فى المحيط كانت هادئة - كانت السفينة تسير
فى ثقة والجو رخو والبحر لا صخب فيه . وكان
سيفرين فى سباق مع الزمن فان فترة الاعاصير
تقرب ، وكان واثقا ان صدار لا تستطيع ان تواجه
اعصارا من الاعاصير التى يتناقل البحارة حكايات قوتها
وعنفها .. ولكن العاصفة التى هاجمتهم بعد أربعة أيام
من مفادرة سومطره كانت فى تدميرها لا تقل خطورة عن
اعصار حقيقى ، فقد مزقت الشراع الرئيسى ، وحطمت
صارى المركب ، وتلاعبت بالمركب بحيث تهددته أكثر من
مرة بالتمزق بين الرياح الهوج أو بالفرق وسط الامواج
المتلاطمة ..

ومن جديد تضافرت القوى وارتفع النداء باسم الله .
الحامى المنقذ ، وظهرت خبرات الرجال التى اكتسبوها
عبر الرحلة الطويلة حتى الآن ، واستطاعت السفينة ان

تحتمل وان تؤكد مهارة وخبرة بناتها المخلصين . وكما
ان الاعصار او التيفون كان خطرا ماثلا فكذلك كسان
القراصنة يمثلون خطرا حقيقيا في هذه المرحلة من رحلة
« صحار » . . فقد حذرت السلطات في سنغافورة
« سيفرين » من القراصنة الذين يهاجمون النباقلات
العملاقة والبواخر وسفن البضائع وهم يستقلون لنشات
سريعة ويقفزون على سطح السفينة الضحية ويسرقون
كل ما يستطيعون حمله معهم . . وكانت التقديرات ان هناك
على الاقل خمسة عشر الفا منهم في بحر الصين الجنوبي
يسرقون ويقتلون المهاجرين الفيتناميين واليخوت العابرة .
ولهذا فقد حمل بحارة صحار السلاح الذي حملوه معهم
من عمان ، وبدأوا يتدربون يوميا على استعماله بكفاءة .
وكان هؤلاء البحارة بعد كل هذه المدة في البحر
بشعورهم الكثة وذقونهم الملتحية والاسلحة في ايديهم
يشبهون القراصنة الى حد كبير ، ولعل هذا هو ما خطر
ببال ركاب السفينة ذات الموتور التي صادفتهم . . ولهذا
فقد اخفى الركاب نساءهم في اسفل السفينة وبدأت عليهم
معالم الخوف والقلق واضحة . وسرعان ما اعترض
طريقهم قارب مطاطي من صحار يحمل بعض بحارتها .
ولكنهم لم يكونوا قراصنة وانما كانوا من المهاجرين
الفيتناميين الذين مضى عليهم في البحر اسبوع كامل وقد
ضلوا الطريق ونفذ زادهم وماؤهم . . وقدمت صحار
لهم المعونة الكاملة من ملابس وغذاء وماء ونصائح في
العودة الى الطريق البحري . وودعتهم صحار وسط
شكرهم وعبارات الحمد والثناء ، قائلة لهم : تذكروا
عمان . ثم تركتهم في طريقها الى تايوان .
وفي الثامن والعشرين من يوليو ابصر بحارة صحار

شواطئ الصين بعد ابحار استمر سبعة أشهر كاملة .
واخذ العمانيون على ظهر صحار يغنون اغاني النصر فقد
تمكنوا بالفعل من تسير صحار من مسقط وحتى الصين
قاطعين ستة آلاف ميل فوق سفينة خرجت من أعماق
التاريخ . . اخيرا لاحت ملامح الشاطئ الصخري بأشجاره
ومنازله وولجت السفينة الى نهر اللؤلؤ الذي يؤدي الى
مبناى كانتون . وتستدعى مناظر الشاطئ وفتحة النهر
وانزلاق صحار فوق مياهه الهادئة لتأخذ مكانها راسية
عليها أحد جوانب الرصيف المزدهم ، فى ذهن سيفرين .
الحكاية السابعة من رحلات السندباد فى الطبعة التى
قراها فيها ، ويحس ان هذا المكان قدم الخسامة
الاساسية لها حيث يعيش اناس يتحولون الى طيور تحلق
فى السماء ، ويحملونه معهم فى طيرانهم حتى اذ ذكر
سندباد اسم الله توقفوا عن الطيران وعادوا به الى الارض
.. وطبقا للوثائق المدونة فان اول من وصل الى الصين
من التجار العرب كان عمانيا وهو ابو عبيدة الذى وصلها
فى منتصف القرن الثامن محملا بالبضائع والتحف ،
وعائدا منها بأول ماعرفه العرب من بضائع الصين .
وارسلت صحار رسائلها اللاسلكية ، وتلقى احداها هاوفا
هونك كونج الذى ابلغ السلطات فى كانتون تليفونيا . .
وكانوا فى كانتون ينتظرون وصول صحار سالمة ، ولكنهم
أرسلوا لنشا يجر السفينة الى الداخل فان اعصارا
عائيا فى الطريق ، ولو ظلت السفينة فى مكانها المكشوف
هذا لتعرضت للتلف .

وهكذا استطاعت صحار ان تسبق الاعصار الى بر
النجاة ، واستطاع جهد الرجال والاصرار على السير
بكل قدرة السفينة وطاقاتها ان ينجيها وينجيهم من

المصر الذى تعرضت له سفن السندباد فى رحلته
السبع ..

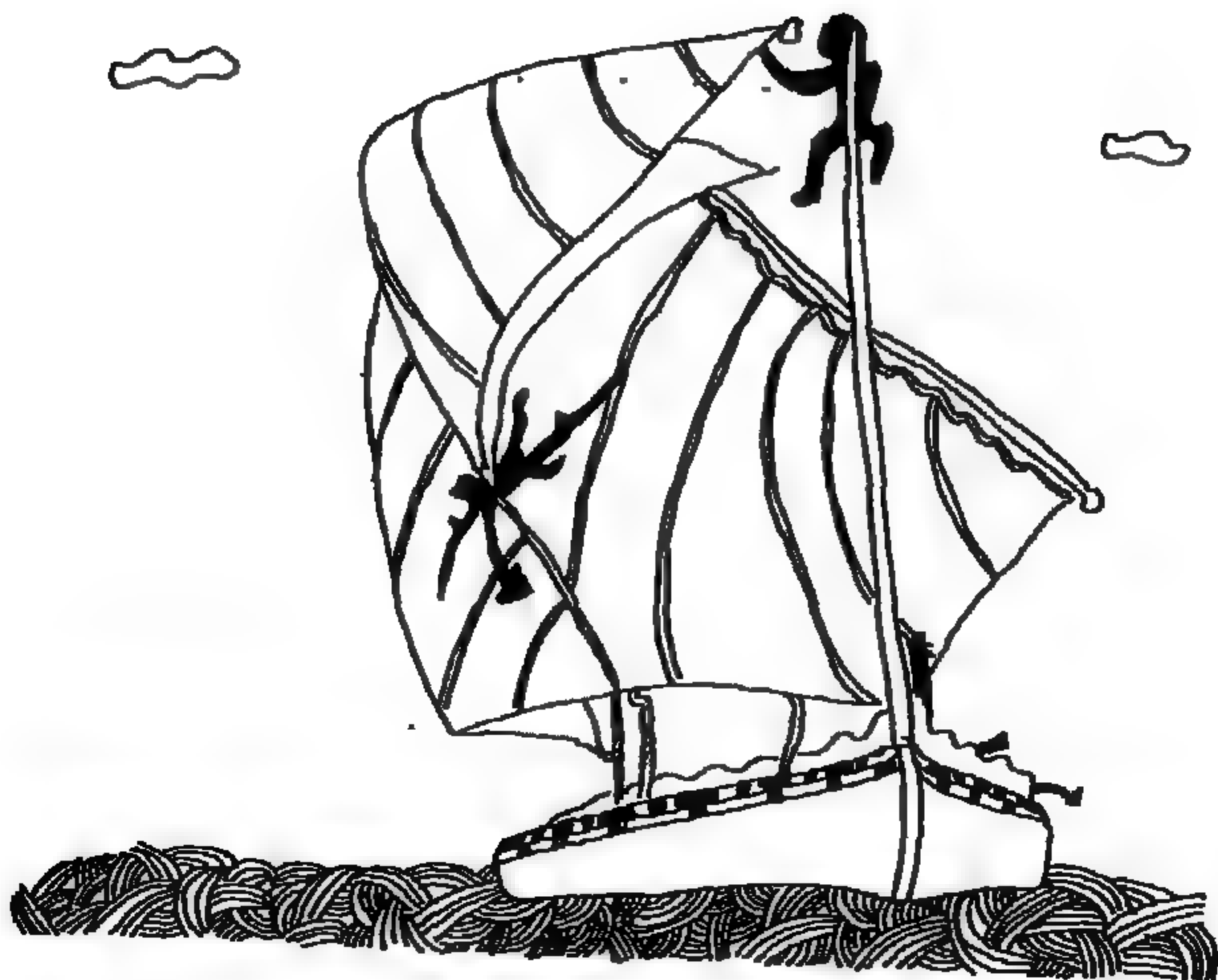
وفتحت كاتون ذراعيها لتستقبل السفينة بكل الدفء
الحقيقى والحرارة الممكنة ، عمدة المدينة يصحبه السفير
العمانى وممثل وزارة الثقافة الصينية وبعض المسئولين
الآخرين اقبلوا يحيون طاقم السفينة ويضعون تحت
امرهم كل الامكانيات التى تجعل زيارتهم للصين معلما
بارزا فى حياتهم ، كما كانت رحلتهم اليها معلما بارزا فى
تاريخ المغامرة الايجابية .

وفى جامعة كاتون عرف سيفرين بأمر السفينة التى
حملت أبو عبيدة العمانى فى عصر هارون الرشيد الى
الصين ، وكانت هى أيضا مصنوعة بالاختشاب التى
تجمعها خيوط الياق ثمار جوز الهند ، كانت هى أيضا
الاصل الذى جاءت صحار على صورته . واسرع البحارة
الى الجامع المقام منذ زيارات المسلمين الاول للصين
ليقدموا لله صلاة الشكر والعرفان .

وفى الحادى عشر من يوليو اقيم الاحتفال الرسمى
لترحيب بصحار وتحية رحلتها الناجحة .

وحل من عمان وقد رسمى يتقدمه السيد وزير الثقافة
والتراث القومى ومعه ممثلون عن الجيش والبحرية
ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية ، وجاء من يمين وزير
الثقافة ونائبه وممثلون لادارات وزارة الخارجية .. بينما
قطرات احدى القاطرات صحار وحولها سفن صغيرة
مزينة باعلام الصين وعمان ، ورقعت طحار نفسها
ثلاثة اعلام لعمان وعلم الصين ترفرف كلها فى بهجة ،
بينما انطلقت الصيحات من اطفال المدارس الذين اصطفوا
يحيون صحار ، ووقفت فرقة موسيقية تعزف الحانانا

بهيجة بينما انطلقت في السماء مجموعات ملونة مسن
الالعاب النارية والصواريخ ، الى ان وصلت السفينة
الى الرصيف الرئيسى الذى اصطف عليه الضيوف .
ونزل البحارة بملابسهم الوطنية واصطفوا يتقبلون تحية
الجماهير الحاشدة وتبدلت الكلمات ، وزفت صحار الى
التاريخ ، وبلغت رحلة السندباد نهايتها السعيدة .



وأدرك شهر زاد الصباح

قلت له :

— يا سيادة السفير اسمح لى ان اشكر لك سؤالك فهذه رقة لم نتصورها .

قال لى السفير فتح الله الضلعى سفير مصر فى عمان والذى فوجئت بتليفونه فى هذا الصباح :

— لقد حاولت ان اتصل بك اكثر من مرة ولكنك لا تستقر فى الفندق ابدا .

ضحكت وانا اقول :

— البرنامج مشحون على آخره ، وعلى كل حال آن للغريب ان يعود ..

قال :

— لا اظن أنك غريب هنا ولكنى أعرف أنك تستعمل الكلمة كجزء من التعبير ، وكلام الادباء دائما يحير .. على

كل ارجو ان اعرف مواعيدك حتى تقوم بالواجب ..

قلت :

— سؤالك قام بكل شيء ، فما كنت اظن ان كاتبامصريا يزوركم يحظى باهتمام السفارة المصرية وسؤالها ، بصراحة

لم نتعود على هذا السلوك من احد قبلك ، ان سؤالك عنى تكريم لى وجعلنى احس ان مصر معى وجدانا

وفعلا ايضا .

ضحك وهو يقول :

- لقد سمعت بوجودك وكان بودى أن اتعرف عليك ،
وعلى كل حال أنا تحت امرك ، أى شيء تريده اطلب ،
واحاول ..

قلت له وقلبي يخفق سرورا :

- اطلب لك الصحة ، كما اطلب ان تكون قدوة تحتذى
فأنا اغادر عمان هذا اليوم .

من النادر بالفعل أن يلتقى المرتحلون منا بمثل سلوك
السيد الضلعى ، فهذه المبادرة تزيد من احساس المواطن
بالانتماء ، وبحقيقة ارتباطه بالارض الام ، وهى فى نفس
الوقت تعمق من وجود التمثيل الدبلوماسى وتعطيه أهميته
الحقيقية . وكان بودى ان اذهب اليه لاشكره ولكن موعد
السفر كان قد تحدد من قبل ، وكان برنامج اليوم حتى
موعد السفر مشحونا تماما . فما أن انتهت المكالمة حتى
كان الاخ نجيب رجب يصحبني فى السيارة الى منزل
شاعر عمان وأديبها الكبير الشيخ عبد الله بن على
الخليلى . فقد طلبت أن التقى بوجه من وجوه الثقافة
والابداع الادبى فى عمان ، فكما ان المكان نفسه شيء
هام ، وكما أن الناس أنفسهم حقيقة هامة ، فان الفكر
والادب والثقافة عندي أشياء هامة لا تكتمل صورة وطن
مامن غيرها .

وقال نجيب والسيارة تنتقل بنا فى شوارع عمان :
- انه ينتظرنا فقد اخطرناه بالموعد . ولكن البيت
ليس بعيدا على أية حال .

وبالفعل لم يطل سير السيارة التى أخذت ترقى بنا
طريقا صاعدا ، ثم تدور لتقف امام منزل حديث البنیان
وان كان طرازه العماني واضحا . وما أن نزلنا من

السيارة حتى استقبلنا رجل كهل نظيف الشباب باسم
الوجه . وقادنا الى غرفة واسعة مؤثثة على الطراز
العربي حيث تمتد الوسائد الى جوار الجدران ، مغطاة
بمفارش مزخرفة وتنتشر خلفها وفوقها المساند ، وتمتد
المناضد الصغيرة القليلة الارتفاع امامها ، ويتوسط
القاعة الواسعة منضدة عالية عليها مجموعة من الفاكهة
والورود والى جوارها مباخر عدة ، بينما توجد «ترامس»
عديدة على بعض المناضد التى ينتشر فوقها مجموعة من
القطع النحاسية والفخارية الانيقة ..

وقال الرجل وهو يقودنا الى حيث نجلس :
- الشيخ سيحضر حالا ..

وكنا قد خلعنا أحديتنا عند دخول القاعة المفروشة
بالسجاد الثمين والذى يزيد من بهجة الغرفة وروائها ،
فجلسنا جلسة مريحة فوق الحشايا الوثيرة .. وبينما
كان الكهل الذى استقبلنا يوقد مجامر البخور ويحيينا
برائحها العبقة ، دخل الشيخ الوقور الى القاعة بابتسامة
هادئة يحوطه الوقار ، وتشع عيناه ابتساما وترحيبا ..
وكانت كلماته رقيقة وهو يرحب بى فى بيته وفى بلده ،
وأخذ مجلسه وهو يشير بيده فقدم لنا التمر والعصير ،
ثم جاءت القهوة العربية ، وقال :

- كنت فى القاهرة أحضر ندوة العقاد ولجنة التأليف
والترجمة والنشر ولى من جيلى أصدقاء كثيرون من
الشعراء والكتاب المصريين . وفى الحقيقة كم أحن الى
هذه الجلسات التى تمتلئ بحديث الفكر والادب .
قلت :

- ونحن أيضا ياسيدى نحن اليها فقد اختفت هذه
الجلسات أو كادت ، ولم تعد هناك بؤر مضيئة يلتف

حولها الكتاب يتطارحون أبداعهم ، أو يختلفون حول رؤاهم النقدية ..

كانت دهشته واضحة وهو يقول :

- هل هذا معقول ، لقد كانت القاهرة منتدى ادبيا كبيرا ، في المقاهي والنوادي والجمعيات والقاعات ، ندوات ومحاضرات تعقد على مدار الاسبوع ، بحيث لم يكن يخلو يوم واحد من مكان نرى فيه رجال الادب ونسمع منهم وعنهم . ان المكانة الكبيرة التي تكنها للقاهرة انها مدينة الادب والفكر ..

ابتسمت في مرارة وانا اقول :

- والناس الآن يتحلقون في بيوتهم حول أجهزة التليفزيون والفيديو ، فان تلاقوا من غيرهما فحديثهم تشغله مافي جرائد الصباح من أخبار تهم مجسريات الحياة العامة في يومهم ..

- لا بأس ، كل هذا جيد ، ولكن كل هذا لا يصرف شعبا قارئاً شغوفا بالفكر والثقافة عن اهتماماته العميقة بالفكر والادب . لقد كنت الحظ هذا يحدث هنا وكان هذا يؤسفني جدا ، وافكر كثيرا في الوسائل التي تجعل الاهتمام بالثقافة والفكر عنصرا رئيسيا في حياة الانسان في عمان . وكانت صورة القاهرة دائما امامي .. اما الان فقد أحزنتني ، أو لعلك تهول من الامر ..

قلت :

- لست أهول ، بل انا أبسط الامر ، ولو احصيت متوسط مبيعات أي كتاب في الادب أو الشعر أو الفكر لعرفت اننا نواجه خطرا حقيقيا .

قال :

- في هذا انا اتفق معك فالكتاب الذي يوزع الآن هو

الكتاب السياسى او مذكرات الساسة او الكتب التى ترتبط بالمشاهير والنجوم . ونحن هنا لانكاد نعترف ماتخرجه المطابع من كتب جديدة فى عالم الفكر سواء فى القاهرة او دمشق او بغداد ، فما بالك بكتب المغرب العربى ، لقد كان الكتاب الجيد يفرض نفسه على كل صحيفة ومجلة ، وتقرأ عنه فنسرع الى اقتنائه ، اما الآن فالكتب تصدر فى صمت حقيقى ، فاذا سمعت عن كتاب يستهوينى لوضوعه او كاتبه فالسـمـاع ياتى بالصدفة المحضة ، واجد صعوبة حقيقية فى معرفة ناشره او مكان بيعه ، وان لم اوص صديقا مسافرا ان يحمل الى نسخة منه فلن استطيع الحصول عليه . قلت :

— لقد أصبحت تكلفة اصدار كتاب مسألة غالية جدا ، فاذا أضفت اليها اجر اعلان فى واحدة من وسائل الاعلام فان سعره سيصل الى حد مدهل . قال :

— ومع هذا فنحن نحرض على تتبع الحياة الثقافية العربية بعامة قدر الامكان ، فنعرف بأمر الكتاب وابداعاتهم كلما تيسر لنا هذا ، وبعض أسماء الكتاب الجدد فرضت وجودها . ولكن القضية بالنسبة لنا ان كتاباتنا لا تصل اليكم ، اعنى نظل كتابا محليين ، تتحدد شهرتنا بموقعنا المحدود فى العالم العربى ، ولا يصل عطاؤنا الى باقى اجزاء الوطن العربى . وهذه مشكلة رئيسية تصابى منها تماما .

قلت :

— كان المظنون ان المجلات الثقافية التى تصدر من عواصم متعددة ستحل هذه المشكلة ، اى ستجعل الكاتب

العربي في أي مكان يعيش معروفا ومقروءا في باقي
أجزاء الوطن العربي ، ولكن هذه المجلات حددت دورها في
تقل المعلومة الثقافية لا في نقل ابداع الكتاب وفكرهم
بالدرجة الاولى ، وأصبح الاهتمام بالمادة الثقافية يخضع
للمنظور الاعلامي لا المنظور الفكري ..
ضحك وهو يقول :

— هذا يفسر اختفاء المعارك الادبية ، فمادام الراي
لا ينشر أساسا ، فالراي المخالف لا يقوم ، ومازلت اذكر
معارك العقاد والمازني وطه حسين والملاكم الادبي الاشهر
زكي مبارك .. لقد كانت هذه المعارك ثرى وجدائنا
وفكرنا ونحن في مرحلة الشباب ، وتثير رغبتنا في
القراءة والاستزادة من المعرفة ، لنقوى على متابعة الجدل
العملاق القائم .

قلت :

— ماكان يمكن لواحد ان يكتب أو يتصدى للقراء الا
اذا كان في الاصل مزودا بزااد ضخمة من القراءة والمعرفة،
والا اذا كان لديه مايقوله ، وعنده القدرة على قول
مايريد ..

عاد يضحك كأنما ليخفف من مرارة حديثنا وقال :
— لقد تضخم الجهاز الاعلامي العربي تماما ، فلم تعد
هناك دولة لا تصدر الصحف ولا تنشئ محطات الاذاعة
والتليفزيون ، وكثرت العواصم التي تصدر المجلات
الثقافية الفاخرة الطباعة والورق والالوان ، ومع هذا
كله قلت حصيلة الفكر وتناقص زاد الادب .. ربما كان
الامر ان هذه الكثرة سمحت بدخول غير المؤهلين الى
دنيا الكتابة والتصدى للراي . وربما كان الامر ان الاعلام
غدا حرفة لايشترط في مهنتها غير شهادته المتخصصة

التي أصبحت لا تعنى بالنسبة للأدب والفكر أكثر مما
يعنيه المؤهل الجامعي الذي جاء بالتنسيق لا بالهواية
والرغبة وتكريس الحياة والوجود للتخصص الدائم
المستمر .. والاستزادة التي لا تتوقف .
قلت :

— حين تحققت الكثرة ذهب الكيف في سبيل الكم ..
وتبعثرت الكلمة العربية بحيث لم تعد نعرف من الذي
يستعملها ولم وكيف ؟ وأصبحت السلامة هي الأساس
في عمل الجميع ، فمادام الكلام قد يؤذي ويدمر ، فلماذا
الخوض في الأشياء التي قد تؤذي وتدمر ؟ ومبدأ السلامة
هذا جعلنا نكرر ولا نبتدع ، ونردد ولا نخلق ، ونحاذر
ولا نقامر ، فالزاد أذن محدود ومتداول ومستهلك ،
والساحة خالية لا للفكر ، وإنما للمعطيات الشاذة والحادة
التي تستهوي الشباب فيندفعون فيها ، ويجرون الأمة
كلها معهم إلى حافة الخطر ..

ظل الشيخ عبد الله بن علي الخليلي صامتا للحظات ،
ثم قال وهو يشير بيده ليدور علينا دور قهوة جديد :
— أنت تتحدث عن مخاطر نحسها ونعرفها ؟ ولكننا
لم نتعرض لها بعد لها .. فعملنا اطلالتنا الحقيقية على
دنيا الحضارة المعاصرة يرتبط بتولي السلطان قابوس
الأمور ، أي منذ عام ١٩٧٠ ، وهي فترة زمنية صغيرة
نسبيا ، رغم أن ماتحقق خلالها شبه معجز .. تجاوز
أحلام أمثالنا من شيوخ الفكر ، بل لعله سبق هذه
الأحلام .. ونحن نستطيع أن نتجنب ما وقعت فيه لو
هضمنا التجربة ووعينا كل عواملها واطرافها ، فنحسن
ولعلك تحس ودة جديدة لوجود عربي جديد في هذه
المنطقة التي ظلت معزولة عن المشاركة البجادة فترة طويلة.

وقطع حديثه دخول شيخ وقور هاديء الحركة والخطوة
الى القاعة ، فهب مضيفنا واقفا وهو يمد يده مصافحا ،
وبصبح مرحبا ومعرفا في آن واحد :
- أهلا ومرحبا ، هذا شاعرنا الشيخ أبو سرور ،
تفضل .

ووقفنا تحية للقادم الجديد ، ثم أخذنا مجالسنا
بعد ان اخذ هو مجلسه ، كان الجسد ضئيلا ، ولكن
العينين اللامعتين ذكاء وتوقدا كانتا تكشفان عن نفس
كبيرة ، وقال مضيفنا يربط القادم الجديد بما نحن فيه
من حديث :

- كنا نتحدث عن طموحاتنا للحياة الثقافية والادبية
في عمان .

قال الشاعر الشيخ أبو سرور حميد بن عبدالله :
- انت ياضيفنا جئت ارض الشعر ، فالشعر
عندنا كثيرون جدا ، اذ الشعر فطرة عربية وسليقة ، ولكن
معظم الشعر عندنا شعر نبطي ، ويقال باللهجة الدارجة
او العامية ، فالطبيعة عندنا سخية وهي تفعم القلوب
بروح الشعر . وما ان يجد القائل طريقه الى الوزن حتى
يملك ناصية التعبير ، ونحن نعتبر المباشرة الشعرية
أساسا هاما في سهراتنا واحتفالاتنا ، وستدهش لعدد
الشعراء الذين يشتركون في هذه المساجلات الشعرية .
وما ان يشتهر واحد في هذا الميدان حتى يسعى كل
شاعر جديد الى الالتقاء به ومبارزته والتفوق عليه .
ليشتهر اسمه ويذيع ذكره . والاذاعة والتليفزيون في
عمان ينقلان الينا كثيرا في هذه الجلسات التي يلعب فيها
الشعر العامي دوره الرئيسي .

قال مضيفنا الامتاز عبد الله بن علي الخليلى :

— من أشهر هؤلاء الشعراء الشيخ سعيد بن عبد الله ولد وزير وهو من « صور » ، وقد غلب في مآثراته الشعرية سالم بن مالك في وادي بني جابر ، والشاعر خلفان بلوه في « الباطنة » .
قال الشيخ أبو سرور :

— هذه المساجلة الأخيرة هي التي حققت للشيخ سعيد عبد الله ولد وزير شهرته الذائعة ، وبعدها حاول كل الشعراء مساجلته وانهزموا أمامه ومنهم خلفان عبد الله الحراسي الذي اشتهر باسم طلحة . ولكنه يقر بشاعريته شاعر زنجبار سعيد بن خميس .

استأنف الشيخ الخليلى الحديث قائلا :

— لقد قال في كل الفنون التي يعرفها الشعر النبطي منها الرزح والرمسة والميدان والعيالة ، كما قال في النخل والبحر والبادية .. بل لقد قال قصيدة في محاورة بين التمر والنوى ، كما اقام حوارا شعريا بينه وبين المسجد الكبير في صور .

وعاد الشيخ أبو سرور يمسك ناصية الحديث فقال :

— وهناك شاعر البحر والبادية الشيخ محمد جمعه الفيلاي وهو من صور أيضا . ولابنه الشيخ سالم بن محمد الفيلاي فضل كبير في لقاء الضوء على شعر والده وعلى الشعر العماني بعامه ، وأرجو أن تحصل على نسخة من كتابه « أغاريد البحر والبادية » الذي قدم فيه شعر الوالد مع مقدمه عن فنون الشعر العماني . وكذلك كتابه « على هامش الشعر الشعبي العماني » ، وتستطيع أن تستكمل رؤيتك للشعر العماني الشعبي والفصيح لو قرأت كتابه الأخير « الادب الشعبي في بلد الشراع » .
وقاطعه الشيخ الخليلى قائلا :

— لا يذكر الشعر في عمان الا ويذكر كتاب صديقتنا
الكبير الشيخ الفقيه محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي،
واسماه « شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء
شعراء عمان » ، وهو أول من كتب تاريخ الشعر شعرا ،
وله فضل الجمع والتبويب وترتيب الشعراء الى طبقات،
وترتيب الاغراض التي قال فيها الشعراء العمانيون
شعرهم ، فهو يغطي صورة كاملة للشعر العماني في
انعصور المختلفة ، وفي الاغراض المختلفة ، وفي طاقات
الشعراء على تباينهم .
قال الشيخ سرور :

— تستطيع أن تقول ان هذا الشعر يمثل المرحلة
التاريخية في حياة الشعر العماني ، ولكن الشعراء
المحدثون من المخضرمين من أمثالنا انا والامام الخليلي
كانوا على اتصال بالحركة الشعرية في عواصم العالم
العربي ، وللشيخ عبد الله بن علي الخليلي مضيئنا
محاولات رائدة في القصة الشعرية مثل « لقيط والخيلاء »
وقد نشرت مؤخرا في مجلة الاسرة ، كما ان له محاولات
في الشعر المسرحي أو المسرح الشعري ، تأثرا بمحاولات
شوقي وغيره ، فله مسرحية بعنوان « الملك ووزيره »
ضحك الشيخ الخليلي وهو يقول :

— هي محاولات على الورق لم تدخل خشبة المسرح
بعد ، ولي مسرحية أخرى لم تطبع هي « كيف أعمل » ،
ولكنها كالأعمال الأخرى تشكو من الحبس داخل الورق
والقلم . . . وكنت أود ان يشجع وجودها كنص شعري
مسرحي على اخراجها على المسرح ، فان تجسيدها على
الخشبة هو الذي يطور الكتابة المسرحية ، ويتيح الفرصة
لمعرفة الطريق الى خلق نهضة مسرحية شعرية بخاعة .

ونخضة مسرحية بعامة ، ولكننا كما سبق أن قلت لضيفنا
مازلنا فى أول طريق النهضة ، ولا بد أن يمر الزمن
لتظهر كوادر مسرحية فى التمثيل والاخراج توفى حاجة
التليفزيون والاذاعة ، وتوفى حاجة المسرح فى نفس
الوقت .

قال الشيخ أبو سرور :

— المسألة أيضا تحتاج الى وقت ليتربى جمهور المثقفين
على تذوق المتعة المسرحية ، فالمسرح ليس نصا وخشبة
وممثلين وحسب ، وإنما المسرح جمهور أيضا . وتعريف
الجمهور على الذهاب الى المسرح ، ليتلقى الثقافة
والفن والفكر ، تأخر عندنا كثيرا ، بحيث أصبحت عادة
المشاهدة مرتبطة عندنا بالتليفزيون ، وما يقدمه من
قضايا معاشه لا تحوى فى الغالب إلا العلاج المباشر
لقضايا انسان العصر الضيقة ، فكيف نستطيع أن نحول
هذه العادة الى قدرة على استيعاب الفكر والثقافة ،
وعلى مشاهدة عميقة تثير فى داخل الانسان أسئلة
مصرية تجعله يفكر فى حياته وغده ومعناها وهدفها .
عاد الشيخ الخليلي يضحك فى رفق وهو يقول :

— صديقنا المتحمس لجمهور المسرح الشاعر أبو سرور
حميد بن عبد الله يفرق فى الشعر الاجتماعى ، أى الذى
يصور قضايا المجتمع ويعمقها ، ويحاول أن يخرج منها
بالدروس والعبر التى تصلح أخطاء الأفراد وتحقق
التوازن فى حياتهم . فله قصة شعرية ضمن ديوانه
« الى أبكة الملقى » رقيقة رقة زائدة واسمها « سلوها »
احب أن يسمعك جزء منها .

وأطرق الشيخ أبو سرور لحظات ، ثم أخذ يلقى شعره
العلب ، بدأ مترددا خافت الصوت ، ثم مضى صوته

يزداد ارتفاعاً ، وأداؤه يزداد حرارة ، كلما أمعن في أبيات القصيدة التي تحكى قصة زوجين أمام القاضي ، الزوجة تشكو ادمان زوجها ، والزوج يشكو مرضه وضعفه ، والقاضي يثبت عزيمة الزوج ويعيده إلى الجادة لتعود الحياة الزوجية إلى هنائها .. وتحول الشعر الرقيق إلى أداء تمثيلي متقن ، وتحول الشاعر إلى قصاص يمزج الحركة بالكلمة ، ويلون أداء الكلمة لتعبر عن المعنى ونبرزه .. وحين انتهى الشاعر من انشاده سادنا صمت عميق .. قطعته سعدة الشاعر وقوله :

— لقد اطلت واضجرتكم ..

قلت ان متعنى كانت كاملة بما اسمع وبالانشاد نفسه ، فهذا الربط بين الشعر والاداء عند الشاعر نفسه ، وفي عمل قصصى له الطابع الدرامى كان اضافة جديدة وهامة لى ، وقال الاستاذ الخليلي :

— هناك أيضا الشاعر سالم بن على الكلبانى وغيره .. ولا بد ان تلحظ ان مجموعة المخضرمين من امثالنا تمثل جبل البقطة الشعرية ، وهو نفس الدور الذى لعبه عندكم شوقي وحافظ ومطران . ألا ان غياب النقد المواكب للحركة الشعرية عطل تطورها ، وهذا ما كنت احدثك عنه فى اول مجيئك ، فالقاهرة الفنية بالمحافل الادبية اتاحت لحركة الشعر فيها المناخ الطبيعى لتطوره . قال الشيخ أبو سرون :

— لقد بدأت المطابع فى عمان تعمل ، كما بدأت الكتب تطبع وتظهر ، وهذه الدراسات التى تؤرخ لحركة الشعر كدراسات الاستاذ سالم بن محمد الفيلاى وغيره تؤكد أننا على ابواب نهضة ادبية تواكب نهضة البلاد فى باقى الاجالات ..

قلت :

— وماذا ينقصكم ؟ الرجال موجودون ، والامكانيات موحودة ، والارض بكر ..

قاطعني الشيخ الخليلى قائلا :

— هذا ما اختلف معك فيه ، وما احب دائما ان اؤكد عليه . فالارض ليست بكرا اذ نحن لانبدأ وانما نواصل ، ونحن لا نخرج من فراغ ، وانما نحن ورثة الفكر العربى كله ، ماهو خاص بعمان وماهو خاص بالوطن العربى كله . واذا كان فكرنا لاسباب مذهبية اقتصر تحركه على دوائر محدودة ، فان انتاج الفكر العربى كله قد صب عندنا بلا تخرج ، من امرىء القيس وحتى شوقى ، ومن بعد شوقى من الشعراء المعاصرين والجدد والمجددين ايضا . وبهذا فنحن نبني على نماذج سابقة وثابتة ومستقرة ، حتى فى التطوير والتجديد يجب ان نرتبط بالخطوط الرئيسية فان خرجنا عنها عدنا اليها ، اذ هى تمثّل حدا من الاتفاق تواضعت عليه الاجيال .

قلت :

— ربما تقصد بعض مظاهر الغلو فى التجديد الشعرى ؟

قال :

— معظم شبابنا قفزوا عبرنا ، لم يتصوروا اننا مرحلة بناء ينبغى ان تؤخذ فى الاعتبار حين تنطلق محاولات الاجيال للكشف والاكمال .. ولانهم لم يبدأوا من منطلق صحيح ، فكل من قرأ نموذجا اعجبه قلده ، وكلما زاد انحراف هذا النموذج كلما زاد استهواؤه لهم .. والمسألة لم تقتصر على محاولات الكتاب العرب ، وانما التقليد استهدف نماذج لكتاب لا علاقة لهم بلغتنا ولا بقضايا

مجتمعنا ولا بترائنا وكيفية تواصل التعبير عندنا .

قال الشيخ أبو سرور :

— يمرضني ان أقرأ كلاما باللغة العربية المفروض انه شعر ، ولا اجد فيه اى اثر للوزن ، هو كلام منشور لا يحكمه شيء حتى ولا التفعيلة الواحدة المرتبطة ببصر ما كما فعل الجيل الذي تلانا من محاولى التجديد . . . ويمرضني اكثر ، ان اقرأ هذا الكلام المفروض انه مبين ، ولا افهم منه معنى ، ولا يصلنى منه عطاء او فهم . . . وأعجب كيف امكن لهم ان يكتبوا فلا يقولوا مايفهم . .

ضحك الشيخ الخليلى بمرارة وهو يقول :

— فى البداية أصبت بالدهشة من ان ينشر هذا الكلام باعتباره أدبا ، ثم ازدادت الدهشة حين رأيت أنه يحظى بالنقد والتقييم ، وشككت فى قدراتى انا على الفهم والمتابعة . الى ان أدركت ان الموجة عامة وان الكثيرين من الكتاب بدوا يلتفتون الى هذه الظاهرة فى انتساج الشباب ويحاربونها ، ويضعونها فى موضعها الصحيح ، وحملت لنا المجلات الادبية فى العالم العربى كله صيحات غاضبة من نقاد لهم وزنهم واحترامهم فى دنيا الكلمة العربية تؤيد وجهة نظرى وتسخط مثلى على هذا الضياع للجهد والعرق .

قلت :

— فى مصر بدأت هذه الموجة بمجموعة أعلنت أنها جيل بلا أساتذة ، وأنهم يلقون اللوم على الاجيال السابقة لهم فى كل ماحدث لحياتنا السياسية العربية من تدهور وتفكك ، وفقدان للمكاسب ، وانحراف او توقف عن الاهداف . ومن هنا رفضوا عطاءهم الفكرى ، وراحوا

هم يبحثون عن الجديد الذى يرضيهم . ورغبة فى اظهار التفرد اهتموا بأدب أمريكا اللاتينية والادب الافريقى وأدب الموجات الفاضبة فى أوروبا وأمريكا ، ثم قلدوا واحتذوا .. بعض النماذج ذات الاصاله بقيت ، وعندما حقق أصحابها ذواتهم عادوا يحصلون مافاتهم من ثقافة عربية عرفوا أنها ضرورة حتمية لاستمرارهم ، كما عادوا للاهتمام بقضايانا التراثية والادبية وهمومها المتوارثة .. ولكننا مازلنا نشكو من ظواهر الاستهتار باللغة وبالقوالب الموسيقية وبالمعنى أيضا .

ضحك الشيخ أبو سرور وهو يقول :

— أى مازلتم تشكون من اللا أدب المسمى بالادب .

وشاركه الشيخ الخليلى ضحكه ، ثم قال :

— ربما كانت هناك أخطاء من أجيال الاساتذة فى عدم

تكريس الوقت والجهد للعناية بأبداع وفكر الشباب

الجديد ، وربما كان الامر أن الاعلام الادبى غير كاف ،

أو غير واع لاهمية أن يخلق باستمرار دوامات من الحوار

والنقاش وتبادل الراى وتداخل الاجيال . وربما كان

غياب الندوات والصالونات الادبية الحية مسئولا أيضا

عن جزء من هذه القضية .

قلت متسائلا :

— ماهو الوضع بالنسبة لهذه القضية هنا فى عمان ؟

قال بعد سكتة قصيرة :

— هناك ناد يرعى شباب الادباء . وهناك اهتمام

بطبع الكتب لكل الاجيال ، ولكن نقاط الالتقاء ضعيفة

وباهتة ، وفى رايى أنه يجب ايجاد حل لهذه القضية

بشكل ملح وهام ، ولنبدأ بالندوات التى تعرض

قضايانا الفكرية ، أو لنبدأ بمنتديات الشعر والابداع

صى . وعندى أن الجامعة التى تمت الخطوات
أسية لانشائها بالفعل ستحقق تجمعات شبابية لعقول
حة تطلب العلم والمعرفة ، وتستطيع أن تشارك
ود بناء فى حياتنا الثقافية . كما أننا نحتاج - كما
، من قبل - أن نسمع وبصوت واضح فى مجالات
ر الثقافى فى العواصم الفكرية العربية الأخرى .

نتهت جلستنا الثرية ، فشكرت للمضيف الشاعر
ر الشيخ عبد الله على الخليلى ماأتاحه لنا من وقت
ر ، وودعت زميلى فى الجلسة الشاعر الرقيق الشيخ
سرور حميد بن عبد الله وأنا أشكره على مساهمته
أءة فى الحوار .

يعادت بنا السيارة الى وزارة الاعلام لأقدم شكرى
متاذ الشيخ عبد العزيز بن محمد الرواس وزير الاعلام
استضافته الكريمة لى ، وعلى ما أتاحته أجهزة
ارة أمامى من سبل التعرف على كل ما أريد أن أرى
اعرف ، ولاستأذنه فى العودة الى القاهرة .. وقد
رنى وأنا آخذ مجلس على مقعد مريح فى مكتبه
4 :

- نحن نعتز بالشيخ عبد الله الخليلى ، وأرجو أن
ن زيارتك له قد حققت ماكنت تبغيه منها ؟
قلت :

- سيادة الوزير أن همومنا الثقافية واحدة فى العالم
بى كله .. فالعالم العربى على اختلاف مواقع أجزائه
قطعة قطعة الى دنيا المعاصرة ، وصدمة الخروج من
كون الى الحركة ظاهرة تحدث فعلها فى كل المنطقة
بية التى تخلصت بالنهضة أو الثورة من حالة

السكون ، وأتت تحظى بالثروة ومقومات القدرة على
الحركة ..

قال :

— نحن نحاول أن نستفيد من كل التجارب التي خاضتها
شعوب الأمة العربية في مختلف أوطانها لنقل من الفترة
الزمنية التي يقتضيها الدخول إلى روح العصر
والحضارة المعاصرة . ونحن نعرف أن التعليم والثقافة
والإعلام محاور رئيسية نبني عليها إنسان الغد في
عمان .

قلت :

— وفقكم الله ، أن ماحققتموه حتى الآن كثير وبناء ،
وكل إنسان في العالم العربي يتمنى لكم أكمال المسيرة
بإنجاح ، فالشعب العماني بموروثه الحضاري العميق
والعريق ، إضافة حقيقية وهامة إلى القوى العاملة في
تحقيق كيان الإنسان العربي صاحب العراقة وصاحب
المشاركة الإيجابية معاً .

وتمنى لي الاستاذ الشيخ عبد العزيز الرواس رحلة
موفقة وعودة حميدة ، وقال :

— هذه زيارة قصيرة جداً ، وندمنى أن نحظى بك في
زيارة أكثر طولاً .

شكرته ، وشكرت فيه رقة عمان كلها وكرمها
وابتسامتها الهادئة المرحية ..

وفي الطريق إلى المطار قال الاخ الصديق محمد سالم
المرهون :

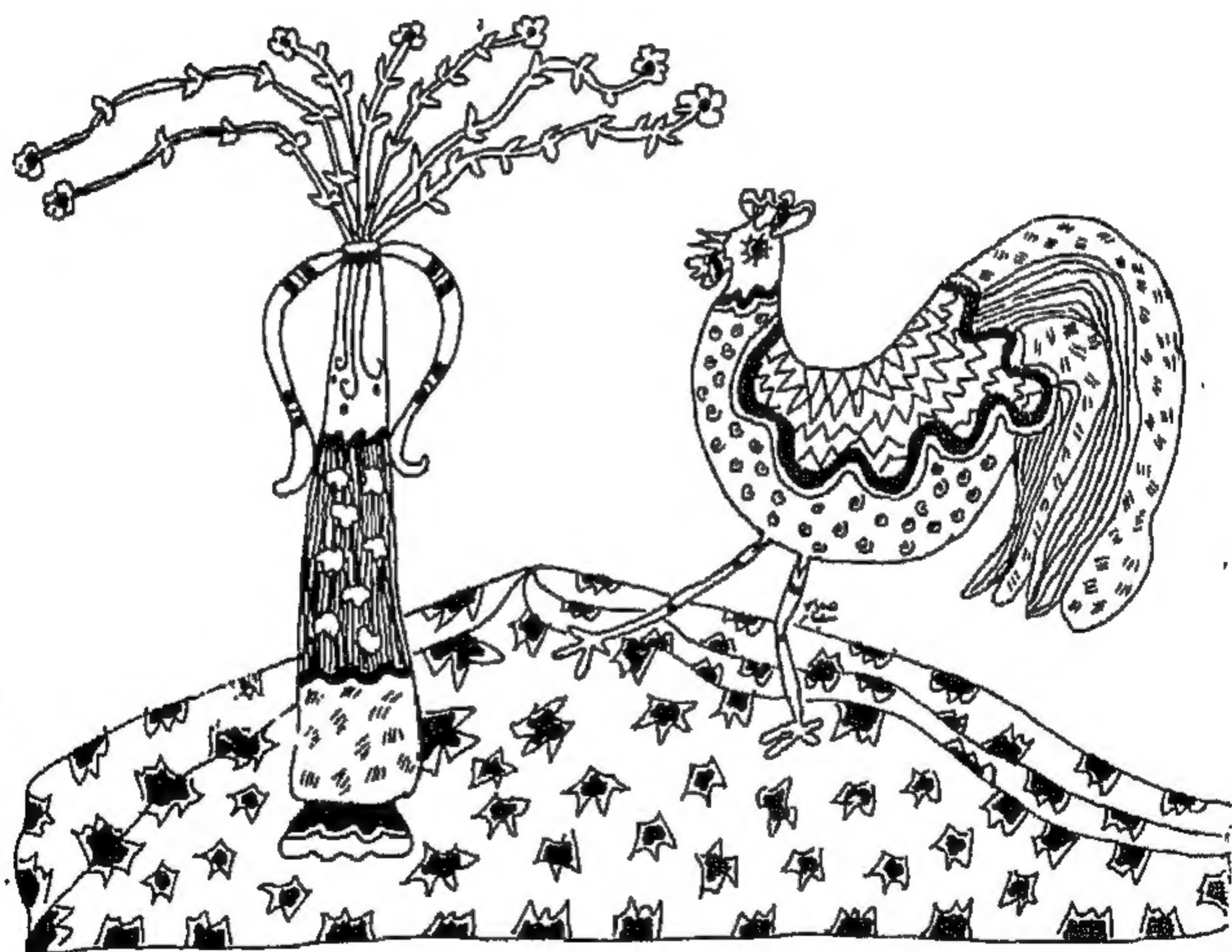
— كثرة تنقلاتك لم تتح لنا وقتاً كافياً لنجلس ونتكلم .
ضحكت وأنا أقول :

— بل لقد تكلمت كثيرا على الورق حتى حبل وقت الصمت ، قد أدرك شهرزاد الصباح وآن لها أن تسكت عن الكلام المباح ..

وبعد قليل كان رخ العصر يحملني في جوفه عائدا من بلاد السندباد حيث ذهبت أبحث عنه ، فعدت وقد ازدادت شخصية السندباد عندي ثراء وعمقا .. كما زاد يقيني أن ألف ليلة وليلة لا يمكن أن تبوح بسرها الحقيقي لنا الا بتحقيق ونشر كل المراجع والمخطوطات القديمة التي تكشف عن ثقافة وحضارة الكيان العربي في المنطقة التي شهدت الازدهار الحضاري الذي حققه الانسان العربي بفعله وفكره واخلاصه لمعنى الكشف ومعنى المغامرة ومعنى ازدهار الحياة .. فعلى طول الرحلة في عمان : رحلة السندباد البري ، او سندباد الفكر ، او سندباد الوجدان ، كان احساسى يتزايد ان سندباد النحرى بمغامرته في عمق البحر هو الجوهر المفقود لنعرض هذا الجزء الطموح في النفس العربية ، ولندرك ان اولى معالم الشخصية العربية طال تجاهلها في تقييمنا لانفسنا . ان هذه الرغبة الطموح في قهر العقبات ، وارتداد الخطر ، وتقل الحياة عبر البحار ، وربط القارات كانت سمة رئيسية في الوجود العربي قبل الاسلام ، ثم جاء الاسلام فأكد عليها وحققها كواجب ديني يدفع الانسان لطلب المعرفة والكشف ولو في الصين ، ويرفض القاعدين عن السعي في مناكب الارض . وكواجب حضاري يرسم حقيقة الفعل الحضاري الاسلامي الذي حمل موروث العالم من العلم والثقافة والفكر والابداع ليعيده الى العالم اكثر ثراء وعطاء ، وليضسيف اليه

المغامرة في كل ميدان ، والارادة القاهرة لكل العقبات ،
 ا حاملة بعالم واحد يسوده الرخاء والمساواة والاخوة
 و، دل ..

تحية لعمان ونهضتها وشعبها العظيم . .
تحية للأصالة المتشبثة بمعاني العراقة ، وتحية
للزحف الجديد نحو المشاركة الايجابية المخلصة في بناء
الانسان العربي صانع الغد ، وفي تحقيق الرخاء للانسان
الانسان .



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA رقم الايداع : ٤١
الترقيم الدولية للكتب ISBN ٩٧٨-٩٦٢-٠٣-٥٠٠٠-٠

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد المال بسيوني زغلول -
الصفحة - ص ٠ ب رقم ٢١٨٢٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٢٥ قرشا :

سوريا ٤٠٠٠ ق . س ، لبنان ٤٠٠٠ ق . ل ، الاردن ٧٠٠ فلس ، الكويت ٧٠٠
فلس ، العراق ٢٨٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ٢ دينار ، الخليج ١٥
درهما ، البرازيل ٧ دولارات ، السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ، المغرب ٢٠ درهما ،
غزه والضفة ١٥٠ سنتا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، جيبوتي
١٥٠ بنسا .



هذا الكتاب

هناك مقولة خاطئة سادت محاولتنا لفهم الشخصية العربية ،
وهي أن العربي - انسان صحراوي - تكونه الصحراء بتحدياتها
وعطاءاتها وترسم بهذا معالم شخصيته .

• خطأ المقولة ناجم من أن العربي قهر البحار كما قهر
الصحراء ، وكان حب المغامرة ورغبة الكشف ، والقدرة على
تحدى الاخطار واكتشاف المجهول ، سمات حفرتها رحلات البحر
في شخصية الانسان العربي .

وفي عمان تتفتح امام الكاتب دنيا كاملة من تاريخ العرب مع
البحر منذ أعماق التاريخ والى اليوم ، امتلأت هذه الدنيا بالمدن
البحرية ذات التاريخ العريق وبالصناعات البحرية وأولها صناعة
السفن قاهرة المحيط منذ فجر التاريخ . السفن التي ربطت العالم
القديم كله بثروات الشرق الاقصى ، بجزره المجهولة ، بالمند
الثرية وبالصين صاحبة الحضارة الغامضة ، كد
افريقيا وسواحلها .

في بلاد السندباد نعثر على تجسيد صحيح لمع
الاسلام في تلك الصورة الفريدة ، المشرقة والثرية
معا ، الصورة التي تجسد المعنى الاسلامي بأن لا
ولا اعجمي ، الا بالتقوى .

كما نعثر على سجل من الفخر والطموح و
والحماسة . التي هي صورة لتاريخ الانسان الا

Bibliotheca Alexandrina



0331483